أوروبا من الثورة الفرنسية

حتى الحرب العالمية الأولى

دكتور
صلاح أحمد هريدى



تليفاكس: ٠٣/٥٢٧٤٤٣٨ الإسكندرية


أوروبا من الثورة الفرنسية
حتى الحرب العالمية الأولى
دكتور
صلاح أحمد هريدى
NORWAY
SWEDEN
FINLAND
RUSSIA
ESTONIA
LATVIA
LITHUANIA
BELARUS
UKRAINE
MOLDOVA
ROMANIA
HUNGARY
SLOVAKIA
CROATIA
ITALY
FRANCE
SPAIN
GREECE
IRELAND
UNITED
KINGDOM
North
Atlantic
Ocean
Torshavn
Faroe Islands
SHETLAND ISLANDS
ORKNEY ISLANDS
HEBRIDES
Aberdeen
Glasgow
Edinburgh
Belfast
Dublin
Leeds
Manchester
Liverpool
Helsinki
Tallinn
Riga
Vilnius
Minsk
St. Petersburg
Warsaw
Kiev
Budapest
Bucharest
Zagreb
Belgrade
Sarajevo
Skopje
Tirana
Athens
Madrid
Valencia
Sevilla
Malaga
Marseille
Toulouse
Naples
Cagliari
Palermo
BALEARIC ISLANDS

أوروبا من الثورة الفرنسية

حتى الحرب العالمية الأولى

أوروبا من الثورة الفرنسية
حتى الحرب العالمية الأولى

دكتور

صلاح أحمد هريدي علي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب بدمنهور
جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس - ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

مقدمة

يتناول هذا الكتاب تاريخ أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى وعلى هذا فقد تناول الفصل الأول أسباب الثورة الفرنسية، حيث تعرض الأوضاع فرنسا قبل الثورة، والأسباب التى أدت إلى قيامها فكان منها أسباب فكرية، حيث ساهمت مؤلفات المفكرين مثل فولتير [١٦٩٤م — ١٧٧٨م]، وآراؤه، ومونتسكيو [١٦٨٩م — ١٧٥٥م]، وجان جاك روسو [١٧١٢م — ١٧٧٨م] فى إذكاء روح الثورة. كما أسهمت دائرة المعارف الكبرى أيضًا فى ذلك، أما الأسباب الأخرى فتتمثل فى الأسباب السياسية مثل انهيار النظام الحكومى وضعف السلطة السياسية الملكية الممثلة فى أسرة البربون، والكنيسة، والقضاء وإسراف الملكة مارى أنطوانيت، ولا يخفى علينا العوامل والأسباب الاجتماعية، حيث شملت نظام الطبقات والذى تمثل فى الأشراف ورجال الدين والطبقات الدنيا، وغير ذلك، ثم تعرضنا بعد ذلك للأزمة المالية والاقتصادية، ومحاولة خبراء الاقتصاد الفرنسيين إصلاح المالية الفرنسية مثل تورجو [١٧٧٤م — ١٧٧٦م] ونكر [١٧٧٦م — ١٧٨١م] وكالون [١٧٨٧م — ١٧٨٨م]. والمحاولات التى قاموا بها من أجل إصلاح الاقتصاد الفرنسى، ولكن دون جدوى، وما شهدته فرنسا من أحداث أدت فى النهاية إلى قيام الثورة.

أما الفصل الثانى، فقد تناول مراحل الثورة الفرنسية فى مراحلها المختلفة وشملت الفترة من [١٧٨٩م — ١٧٩٩م] حيث تناولت الأحداث السياسية وموقف الجمعية الوطنية الفرنسية وما اتخذته من قرارات، وموقف الملك لويس السادس عشر من ذلك، حتى أدت تلك الأحداث إلى سقوط الباستيل، ونتائج ذلك والحوادث التى شهدتها فرنسا وموقف الثورة من الملكية والكنيسة ومواجهة الأزمة الاقتصادية، وأثر ذلك على الدول الأوروبية الأخرى، الأمر الذى جعلهم — أى أوروبا — يتحدون ضد رجال الثورة مما أدى إلى قيام حروب ضد فرنسا وخاصة بعد إعدام الملك والملكة، وقيام حكومة الإدارة، وإصدار دستور ١٧٩٥م وما يتضمنه من مواد، الأمر الذى أدى إلى استعانة رجال حكومة الإدارة بنابليون بونابرت وما حققه من انتصارات فى الأراضى الإيطالية. والحملة الفرنسية على مصر وظهور نجمه فى السياسة الفرنسية وانتهى الأمر باستدعائه لفرنسا وتقلده الأمور هناك.

أما عن أوضاع فرنسا من (١٧٩٩ حتى ١٨١٤) فكان عنوان الفصل الثالث، حيث تم تشكيل حكومة القنصلية، وتوضيح موقف نابليون من الكنيسة الفرنسية، وعقد اتفاق الكونكوردات معها، وإصدار دستور القنصلية وأهم ما يتضمنه من مواد. وإصلاحات نابليون في المجالات المختلفة مثل المحاكم، والتعليم بمراحله المختلفة والتنظيم الإداري والإصلاحات العامة. وإدخال تعديل سياسي على الدستور الفرنسي، ثم اتجه نابليون بعد ذلك للسياسة الخارجية لفرنسا، ومحاربة التحالفات الأوربية التي تكونت ضد فرنسا، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى نظام الإمبراطورية والأسباب التي أدت إلى ذلك، وأثر ذلك على حالة فرنسا، نتيجة لاتباع مثل هذه السياسة الأمر الذي أدى إلى تكتل الدول الأوروبية ضد نابليون، وانتهى الأمر بسقوطه. وتعرضنا للعوامل التي أدت إلى سقوط نابليون، مما أدى إلى عقد معاهدة باريس الأولى، والدعوة إلى عقد مؤتمر لدارسة الأوضاع التي خلفتها حروب نابليون وأدى ذلك إلى عقد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م.

أما بالنسبة لمؤتمر فيينا [١٨١٤م — ١٨١٥م] ونظام المؤتمرات، فهو عنوان الفصل الرابع، حيث تم التعرضُ لعقد هذا المؤتمر. وأسباب عقده. ويرجع ذلك إلى إعادة الأوضاع إلى أوروبا مرة أخرى، نتيجة لحروب نابليون وإعادة رسم خريطة أوروبا من جديد، وأدى ذلك إلى ظهور مبدأ جديد في العلاقات الدولية وهو أن اللجوء إلى نظام المؤتمرات يؤدي إلى حل المشاكل السياسية بدلاً من اللجوء إلى الحرب. وعقد المؤتمر بالفعل من الدول الأربع الكبار إنجلترا — النمسا — الروسيا — بروسيا. ثم نجحت مساعي تاليران وزير خارجية فرنسا إلى ضم فرنسا. فأصبح المؤتمر لجنة خماسية. وانضمت العديد من الدول الذين وصل عددهم إلى نحو مائة دولة. ولكن القرارات واللجان والتوصيات كانت تصدر عن طريق اللجان المشكلة من الدول الخمس الكبرى وقامت بعد ذلك التحالفات مثل التحالف المقدس. والتحالف الرباعي. ولجوء أوروبا بعد ذلك إلى عقد المؤتمرات لحل بعض المشاكل التي ظهرت في أوروبا مثل مؤتمر إكس لاشابيل عام ١٨١٨م. بخصوص بحث مسألة جلاء الجيوش الأجنبية من فرنسا. ومؤتمر كارلسباد عام ١٨١٩م لبحث مسألة الأراضي الألمانية ومؤتمر تروباو وسنة ١٨٢٠م وهو خاص بمسألة الأراضي الإيطالية ومؤتمر

ليباخ سنة ١٨٢١م، لبحث الثورة التى قامت فى نابلى وموقف الدول الأوروبية من ذلك، ومؤتمر فيرونا ١٨٢٢م، الذى عقد أساسًا لبحث الثورة اليونانية ضد الحكومة العثمانية، ثم فوجى المؤتمر بقيام الثورة فى أسبانيا، وأدى ذلك إلى بحث الثورة الأسبانية بدلاً من الثورة اليونانية، وموقف الدول الأوروبية من ذلك، وينتهى هذا الفصل بظهور مبدأ مونرو الأمريكى ١٨٢٣م والخاص بالثورات التى قامت فى أمريكا اللاتينية ضد الحكم الأسبانى.

أما الثورة التى قامت فى فرنسا عام ١٨٣٠م والأسباب التى أدت إلى قيامها ونتائجها، فكان عنوان الفصل الخامس وتناولنا فيه، عودة أسرة البربون إلى حكم فرنسا [١٨١٥م — ١٨٣٠م] بعد سقوط نابليون، بادئًا بلويس الثامن عشر [١٨١٤م — ١٨٢٤م] والأوضاع السياسة التى شهدتها فرنسا وموقف الشعب الفرنسى بفئاته المختلفة، ومن تلا ذلك من اعتلاء ملوك آخرين مثل شارل العاشر وغيره. وبالنسبة لنتائج الثورة الفرنسية، فكانت ممثلة فى ثورة بلجيكا عام ١٨٣٠م ضد الهولنديين، وموقف الدول الأوروبية من هذه الثورة وخاصة إنجلترا وفرنسا، وانتهى الأمر بحصول بلجيكا على استقلالها بمقتضى معاهدة ١٨٣٩م. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الثورة فى بولندا تحت الحكم الروسى عام ١٨٣٠م ونتائج ذلك على الوضع فى بولندا، والثورات فى إيطاليا وموقف الدول الأوروبية، وأثر هذه الأوضاع على أوروبا.

أما الفصل السادس فهو بعنوان "المسألة الشرقية وحرب القرم" [١٨٥٣م — ١٨٥٦م] فقد تحدثنا فيه عن الأسباب التى أدت إلى قيام حرب القرم مثل: الأسباب الدينية وهى خاصة بالأراضى المقدسة والأسباب السياسية وكانت نتيجة لظهور الحركات القومية فى أوروبا وموقف الدول الكبرى من هذه المسألة مثل النمسا، وروسيا القيصرية، وإنجلترا، وفرنسا وقيام الحرب، وانتهائها بعقد مؤتمر باريس ونتائجه.

أما الفصل السابع فيدور حول الوحدة الإيطالية، وخطواتها، حيث تعرضنا لحالة الأراضى الإيطالية السياسية، ودور كل من كافور وماتزينى، وأيقن كافور أن الوحدة لن تتم إلا بمساعدة قوى خارجية، ووجد ضالته فى فرنسا فقد ساعدته فى شخص الإمبراطور نابليون الثالث، وأدى ذلك إلى عقد اجتماعات مثل اجتماع

بلومبير. وقيام الحرب بين مملكة بيدمنت ومعها فرنسا ضد النمسا، وانتهى ذلك بانتصار بيدمنت. واتخذت بعد ذلك خطوات انتهت فى المرحلة الأخيرة بتحقيق الوحدة وتم لها ما أرادت.

وبالنسبة للفصل الثامن فهو خاص بالوحدة الألمانية، وجهود بسمارك فى ذلك، واتباعه سياسة تجاه القوى الأوروبية وخاصة فى حل بعض المشاكل مثل شلزويج وهولشتين ضد الدانمارك فاتحد مع النمسا فى هذه المسألة، ثم استطاع أن يحيد فرنسا فى حربه ضد النمسا وهى الحرب المعروفة بالحرب البروسية النمساوية، وأيقن بعد ذلك أن الوحدة لن تتم إلا بمحاربة فرنسا، وتم له ما أراد، وحقق انتصاراته عليها فى معارك منها سيدان، وفرض على فرنسا شروطًا قاسية، وحقق الوحدة الألمانية محققًا انتصارًا هائلاً على فرنسا، مستقطعًا جزءً من أراضيها فارضًا غرامة حربية ضخمة، تاركًا جيوشًا ألمانية محتلة بعض أراضي فرنسا، لحين سداد الغرامة الحربية، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحين الفرنسيين الفرصة للانتقام بعد هزيمة عام ١٨٧٠م فى سيدان. وهذا فى حد ذاته من ضمن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى.

أما الفصل التاسع فهو بعنوان المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، ويتناول هذا الفصل طبيعة المشكلة الشرقية وظهورها، وكان ذلك نتيجة لضعف الدولة العثمانية، وأطماع الروسيا فيها وترتب على ذلك قيام الحرب الروسية العثمانية، حيث انتصرت الروسيا وفرضت معاهدة سان استيفانو على الدولة العثمانية وموقف القوى العظمى من ذلك مما دعا بسمارك إلى الدعوة لعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م ونوقشت فيه الأوضاع فى أوروبا، والأوضاع داخل الدولة العثمانية والنتائج التى ترتبت على ذلك.

وتناول الفصل العاشر التحالفات الأوروبية التى قامت بعد عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، حيث تم التعرض إلى العلاقات بين القوى العظمى، وخاصة سياسة الروسيا تجاه بريطانيا العظمى، وسياسة بسمارك تجاه كل من الروسيا والنمسا وبريطانيا. مما أدى إلى قيام تحالفات

ظهرت واضحة فى التحالف الإنجليزى اليابانى والوفاق الفرنسى البريطانى [١٨٩٥م – ١٩٠٥م] وأثر ذلك على الأوضاع فى أوروبا وما ترتب على ذلك من نتائج.

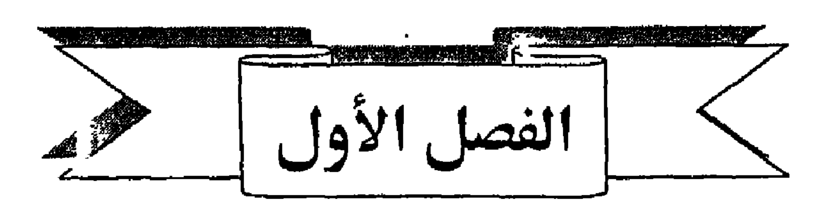
أما أسباب ونتائج الحرب العالمية الأولى ١٩٠٥م – ١٩١٣م. فهو عنوان الفصل الحادى عشر، حيث تناول هذا الفصل الأزمات التى سبقت الحرب العالمية الأولى مثل أزمة مراكش الأولى، مما أدى إلى عقد مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦م، وأزمة البوسنة سنة ١٩٠٨م، والسباق البحرى بين القوى العظمى. ثم حادثة أعادير سنة ١٩١١م، ومسألة ألبانيا، والحرب البلقانية [١٩١٢م – ١٩١٣م] وسياسة ألمانيا الحربية، مما أدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى، وانقسام الدول المتحاربة إلى كتلتين، والأسباب التى من أجلها دخلت الولايات الأمريكية الحرب وما ترتب على ذلك.

وهذا ما تم التعرض له فى هذا الكتاب الذى شمل تاريخ أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى (١٧٨٩ – ١٩١٤) وفى النهاية أتقدم بالشكر إلى السيد الدكتور / أحمد عبد العزيز عيسى مدرس التاريخ الحديث الذى قام بمراجعة الكتاب .

وعلى الله قصد السبيل،

الإسكندرية ٣٠/ ١/ ٢٠٠٧

صلاح أحمد هريدى



﴿أسباب الثورة الفرنسية﴾

أولاً : الأسباب الفكرية.

ثانياً : أثر نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية.

ثالثاً : الأسباب السياسية.

رابعاً : الأحوال الاجتماعية وأثرها فى إثارة الشعب الفرنسى.

خامساً: الأزمة الاقتصادية ومحاولات الإصلاح.

أسباب الثورة الفرنسية

لم تكن الثورة الفرنسية حدثًا مهمًا فى تاريخ فرنسا فقط وإنما هى أحد أبرز أحداث القارة الأوروبية والعالم المتمدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ذلك أنها بالفعل نقطة تحول أساسية فى تطور النظم السياسية والاجتماعية فى أوربا. فقد وضعت حدًا للنظام الملكى القديم القائم على الاستبداد والمستند للحق الإلهى فى الحكم وفتحت الباب أمام نظم جديدة ملكية كانت أو جمهورية تقوم على حرية الشعوب والمساواة بين أفرادها وتستمد سلطانها من إرادة المواطنين وتعمل تحت رقابتهم بشكل أو بآخر.

فأوروبا كانت كلها تشكو مما شكت منه فرنسا: الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم، والطبقات الممتازة تهيمن على خيرات البلاد فى كل مكان، والكنيسة باسم الدين، تتمتع بامتيازات لا حد لها وبإعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة، والحريات العامة لا وجود لها إلا فى ضمائر الأحرار ومخيلاتهم، والشعوب لا سيطرة ولا سلطان لها على مقدارتها ومصائرها. فالثورة الفرنسية جاءت لتعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولاً تصلح لفرنسا كما تصلح لغير فرنسا فى حالات كثيرة. وقد جاءت أحداث القرن التاسع عشر تثبت كيف أن الثورة أصبحت، بالنسبة لشعوب أوروبا المظلومة المسلوبة الحقوق رائدة فى مجال التحرير فتأثرت بها واستنارت بكثير من مبادئها وقيمها الجديدة لمعالجة المفاسد فى أوضاعها السياسة والاجتماعية[1].

وقد تعددت الأسباب التى لاندلاع هذه الثورة حتى أنه ليصعب تعدادها وحصرها، ثم إن أكثرها يعود فى جذوره الأصلية ما قبل الثورة بكثير وربما عاد بعضها إلى أيام لويس الرابع عشر حين بدت فرنسا فى أحسن حالاتها وفى أوج قوتها ولعل بالإمكان أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى:

أولاً: الأسباب الفكرية:

من المصادفات الغريبة أن القرن الثامن عشر فى أوربا تميز بتيار جارف من الأفكار والمعتقدات التى لم تسبق فى أوروبا، وليس غريبًا بعد ذلك أن يجرى وصفه على السنة المؤرخين والمفكرين وفيما خلفوا من تراث أن يوصف بعهد الاستنارة Age Enlightment، ففيه انقشع الظلام وبدأ الفكر الحر يفيق من ثباته لينطلق فى سائر أنحاء الحياة، لم يكن هذا اللون من ألوان الاستنارة قاصرا على فرنسا وحدها بل عم كثيرًا من بلاد أوروبا. على سبيل المثال ألمانيا، فقد ظهر فريق من أئمة الأدب والفلسفة، مثل جوته Goethe وشيلر Schiller وهردر Herder وفيلاند Wieland.

وظهر أمثال هؤلاء فى إنجلترا مثل الفيلسوف "ديفيد هيوم" David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦). وجو لوك John Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) وهو صاحب رسالة فى طبيعة التفاهم البشرى وهو أول من نادى بالفكرة المنطقية فى طبيعة الحكم ونظامه، كما كان مؤمنًا بالتسامح الدينى. وعن مذهبه الفكرى ومذهب معاصره (اسحق نيوتن) بوجه خاص تسربت إلى فرنسا طائفة من التيارات الفكرية[٢].

وتقول زينب راشد ((ومع ذلك كله فلا ينبغى أن يفوتنا أن المفكرين فى فرنسا فى هذا العهد كانوا أئمة وقوادًا لهذه التيارات الفكرية التى تهتف بالدفاع عن حقوق الأفراد وحرياتهم الدينية والمدنية. فكان فولتير رائد الدعاة وقائد المبشرين بالمذاهب الإنجليزية الجديدة فى فرنسا، وكان من أنشط كتاب زمانه. وأخلدهم ذكرًا، وأطولهم عمرًا، وألمعهم شخصية، وأعمقهم أثرًا، كما كان روسو ومنتسكيو من أشهر كتاب فرنسا يومئذ)).

ومن الواضح أن أبرز ما امتازت به الحركة الفكرية فى فرنسا هو الاهتمام الشديد بتغيير حال المجتمع، فكان لفلسفة "لوك" أثرها فى الاتجاه نحو تطبيق الفكر الإنسانى مع التحرر من القيود الدينية للتخلص من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد. ومن ثم شغلت الأذهان فى فرنسا بالمشاكل

المختلفة من اجتماعية وسياسية ودينية. ولم تعد قاصرة على رجال الأدب والطبقة الأرستقراطية، بل تعدتها إلى أفراد الطبقة الوسطى والمتعلمين من شباب الجيل، وذلك أمر ميزها عن حركة النهضة، وازدهرت فى فرنسا تبعًا لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفى والإنسانى من الرسائل والبحوث التاريخية والفلسفية والتربوية، ونشأت بعض الكليات فى الأقاليم، وأنشئت الجمعيات الأدبية والمكتبات وقاعات المطالعة، كما ظهرت الصحف المحلية[٣].

والواقع أن هذه الحركة قد انفردت بين سائر الحركات التقدمية بأنها حركة إنسانية كاملة، فنادت بإيقاف التعصب الدينى ومنح الفرد حرية العبادة بالمعنى الصحيح، وأرادت للناس بحق أن يكونوا كما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. كما كان أثرها فعالاً فى النفوس عامة، فلم يقتصر على فرنسا وحدها بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوروبية، فأدت بذلك ما ينبغى للثورة الحقة من خدمات للحياة البشرية، فهى قد خلصتها من شوائب العنف والاعتقاد فى الخرافة، وحرصت فى دعوتها أشد الحرص على اقتلاع جذور الحسد والخلافات بين الطبقات. فلا فضل لأحد على أحد إلا باستقامة الضمير وسلوك الصراط السوى. ولم تكن السبل سهلة ميسرة أمام أولئك الفلاسفة والمفكرين على أن منهم قد نعتوا بالكفر والإلحاد وفى مقدمتهم فولتير وروسو.

على أن القدر التاريخى فى حياة البشر قد مهد لانتشار مذهب تلك الطائفة من الفلاسفة والمفكرين، فهى كتبت باللغة الفرنسية التى أصبحت لغة الثقافة فى أوروبا، فاستقبلها الناس وأحلوها محل اللغة اللاتينية فى سهولة ويسر، مما ساهم فى وصول تلك الأفكار الجديدة إلى بلاط الملوك والأمراء فى برلين وفيينا وسان بطرسبورج ومدريد. وكانوا يومئذ أصحاب القوة والبأس الشديد. إلا أن ذلك لم يخل نفوسهم من نزعة الأبوة والرغبة الشديدة، فى إصلاح المجتمعات الإنسانية ودفعها إلى التقدم عن طريق الثقافة الرشيدة.

ويرجع الفضل فى انتشار تلك الحركات الإصلاحية أن مبعثه لم يكن رغبة المفكرين فى إقرار ما يسمونه الحكم الديمقراطى، وإنما كانت الرغبة الحقة وهى إبراز الحرية وتحصينها من كل عدوان، وآية ذلك أن انتشار أراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطاءها لواء الزعامة يؤمئذ لم يكن مبعثه مظاهر الحكم الديمقراطى، ففولتير مثلاً لم يكن ديمقراطى النزعة، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية فى أوسع معانيها حرية الفكر، وحرية القول، وحرية النشر، وحرية الفعل، فالحرية كانت فى رأيهم التخلص من سائر طبقات المجتمع الأوروبى.

ويمكن إضافة اتجاهات القدر فى تاريخ البشر ذلك أن موجة عاتية من الكره قد طغت على الكنيسة واتباعها، فكانت سلاحًا من أسلحة الإصلاح التى أعانت الفلاسفة الفرنسيين فى نشر مذاهبهم وهدم آثار الماضى بكنيسته التى كانت تقف حائلاً دون كل إصلاح وتقدم. ومن حق التاريخ أن يقرر فى صدق وإخلاص أن حملات فولتير وغيره من المفكرين فى فرنسا على الفساد المتأصل فى حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية فى فرنسا وليس من شك فى أن فلاسفة العصر كانوا على حق عندما هاجموا الكنيسة[٤].

ليس من شك أن الدور الذى قام به رجال الفكر الذين سبق الحديث عنهم قد كانوا بمثابة نفخة الصور فى قيام الثورة ولكن البواعث المادية كانت أصيلة كذلك، فالجوع والظلم الاجتماعى وسوء نظام الحكم وفساد الكنيسة وتدهور أحوال البلاد الاقتصادية، كل ذلك فتحٌ العقول والقلوب والأسماع والأبصار لاستقبال نداءات الثورة كما أحجبت وقود نارها حتى بلغت منتهاها[٥]. وكان لبعض الكتاب الفرنسيين دور فى إذكاء الثورة الفرنسية.

كان فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨م) أشهر كتاب القرن الثامن عشر وأقواهم أثرًا وقد كان لكتبه رواج عظيم[٦]. وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية.

ولكن كان تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ قد طغى عليه تأثير روسو. فقد بدا فولتير شديد المحافظة، شديد الازدراء لجماهير الشعب، شديد الاتسام بطابع السادة الاقطاعيين، وقد رفضه روبسبير، وظل "العقد الاجتماعى" سنين إنجيلاً للثورة. أما عن ذلك فيقول بونابرت "كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعًا عن روسو، أما اليوم فقد انعكس موقفي. فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفًا به. فهو رجل معقول دائمًا لا بالمهرج ولا بالمتعصب، أبدا". وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد. وقد صدرت بين عامي ١٨١٧، ١٨٢٩ اثنا عشر طبعة من مجموعة أعماله. فى تلك السنوات الاثنا عشر بيع من كتب فولتير نيف وثلاثين مجلد[٧].

وكان تأثير فولتير الدينى واضحًا فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى، وانتقلت رأسا من النهضة إلى التنوير، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التى رافق التغيير، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستنتية وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير فى جملتها كانت إصلاحًا أعمق من ذلك الذى أحدثه لوثر وكلفن، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط، بل تحدت صميم أسس المسيحية، وقد جمع فولتير فى صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية، وأضفى عليها مزيدًا من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفه الروح، حتى لقد بدأ حينًا "كأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه"[٨].

لم يكن لفولتير اهتمام واضح بالسياسة لأنه كان يكره التعسف والظلم فى حكم الشعوب لاهتمامه بالمبادئ والشعارات، وكان يوجعه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولا أدل على ذلك فى اهتمامه بالحياة السياسية من أنه كان يؤدي الحكم الملكى المطلق فكان صديقًا حميمًا لفردريك الثانى ويعتبر استبداده أحسن مثل يمكن أن يحتذى به فى سائر أنحاء أوروبا.

نادى فولتير بإصلاح القضاء عن طريق توحيد القانون فى سائر أنحاء فرنسا وتطبيقه بطريقة عادلة وجعله واضحًا للجميع، وتعديل قوانين العقوبة ولاسيما الخاصة منها بالتعذيب وطالب كذلك بإصلاح نظام الضرائب وإلغاء المحلية لأنها تتسبب فى إعاقة توفير الضروريات الحيوية. والعالم كله لا يجهل فضل "فولتير" الذى سجلته كتبه العظيمة بأسلوبه اللاذع الرائع فى آن واحد[9]. وتأثير جيل جوته من الشباب بفولتير تأثرًا عميقًا وذهب جوته إلى أن فولتير يعد دائمًا أعظم رجل فى أدب العصور الجديد بل وربما جميع العصور. وفى إنجلترا أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير مثل جودوين، وبين، ومارى، ودلستونكرافت، وبنتام، دبايرون، وشلى، ولكن يمكن القول عمومًا أن الربوبية الإنجليزية سبقته فقللت من حد تأثيره، ثم أن السادة الإنجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين فقد غطى تأثير داروين على تأثير فولتير فى إضعاف الإيمان الدينى[10].

ويجئ دور مونتسكيو **Montesquien** (١٦٨٩ – ١٧٥٥م) كان باحثًا متعمقًا فى المسائل الدستورية ومحافظًا بطبعه وكتابه "روح القوانين" **Esprmit des lois** إنما هو بحث عام فى أشكال الحكومة. وقد صار هذا الكتاب المعين الذى يتزود منه بالأفكار أولئك الذين انصرفوا إلى مهمة البناء السياسى لبلادهم وهى مهمة ستصبح شائعة فى السنوات التالية وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد بعيد. على أن الكتاب نفسه متأثر إلى حد بعيد بالدستور الإنجليزى. الأمر الذى يعترف به عن طيب خاطر مونتسكيو نفسه الذى كان معجبًا بهذا الدستور الأخير أيما إعجاب شأن الكثيرين من الفرنسيين فى زمنه، فمونتسكيو يشيد بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط والمراجع ويعجب فى النظام الإنجليزى بوجه خاص بما أسماه "فصل السلطات" أى استقلال فروع الدولة الثلاثة – التشريعية والتنفيذية والقضائية عن بعضها البعض. وإن كان قد أخطأ فى ظنه السلطتين

التنفيذية والتشريعية فى إنجلترا منفصلتين إحداهما عن الأخرى[11]. وأظهر مونتسكيو مساوئ الحكم المطلق، وطعن، فى الحكم الاستبدادى[12].

أما جان جاك روسو Jean Jack Rosseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) لم يكن فرنسى الأصل وإنما يرجع أصله، إلى جنيف. وبقيت آراؤه وكتاباته تؤثر فى الفرنسيين من جيل إلى جيل حيث دعا إلى الرجوع إلى الطبيعة للتخلص من قيود الحضارة[13] وقد كان شديد الميل إلى الدين بطبعه ولكنه لم يكن كاثوليكيًا وكان يحس بشرور عصره وألام الناس ولكنه لم يمنح رضاءه لأى من الحلول المقترحة[14] ولهذا الغرض وضع كتابه العقد الاجتماعى Contrat Society الذى نشر عام ١٧٦٢ يلخص آرائه في الحكم ولكنه يفعل ذلك على نحو جعل الناس يختلفون على حقيقة مواده حتى يومنا هذا؛ يبدأ باحتجاج صارخ على طغيان عصره "ولد الإنسان حرًا فما باله مكبلاً بالأغلال فى كل مكان" ثم يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها للشعب وأنها نمت إليه وحده دون سواه وأن من حقه دائمًا، وعلى الرغم من جميع المعاهدات أو الدساتير — أن يعدل أو يلغى أشكالها. ومع ذلك فهو لا يرى أن الديمقراطية ممكنة إلاً فى الدول الصغيرة الحجم ويؤمن بأن اللجوء إلى ديكتاتور قد يصبح لازمًا، ويختم بتأكيد ضرورة الدين فى أى دولة داعيًا إلى فرض صورة مدنية بسيطة منه على الجميع، بل ومعاقبة الخارجين بالإعدام إذا اقتضى الأمر. وقد امتد تأثير آراء روسو وعباراته إلى أبعد من دائرة دارسى مؤلفاته بكثير والثورة الفرنسية تحمل من أولها إلى آخرها أثار تفكيره[15].

وقد توجت حركة ازدهار الآداب والفلسفة والبحوث التاريخية وغيرها فى فرنسا يومئذ بظهور دائرة المعارف الكبرى فى أربعة وثلاثين مجلدًا بين عامى ١٧٥١، ١٧٧٢، وقد أثرت تأثيرًا عميقًا في فرنسا، بل وتعدتها إلى سائر الأقطار الأوروبية. ويساهم فى تأليفها كل من "ديدرو" Diderot (١٧١٣ — ١٧٨٤) والمير Almert (١٧١٧ — ١٧٨٣) وكانت تتضمن ملخصًا للمعرفة

الإنسانية. ولذلك لم يقابلها رجال الدين بالرضى بل تقدموا بشكوى إلى البرلمان ضد هذه الدائرة. بدعوى أنها تهدد الدين. وقد ذهبت سائر الجهود التى بذلت لإبادة دائرة المعارف هباء. ولا عجب أن تكون موضع مقاومة الفئات الرجعية فقد أشارت إلى الظلم السياسى والاجتماعى السائدين فى ذلك العهد وإلى عدم التساوى فى تأدية الضرائب، وإلى فساد نظام القضاء، وتفاهة الحروب وما إلى ذلك من العيوب(١٦).

وقد حظيت كتابات فولتير ومونتسكيو وروسو باهتمام بالغ فاق كتاب ذلك العصر، ولكن ثمة جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة بأعمال الثورة، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين **Economists** أو الطبيعين **Physiocrats** وقد تأثر هؤلاء إلى حد بعيد بكتابات الاقتصادى الإنجليزى آدم سميث. وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون فى فرنسا هم ميرابو أبو السياسة الذى ذاع صيته فى الثورة، وقبل هؤلاء جميعًا كويزناى المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد "الجدول الاقتصادى" **Tableau Economiaque** بأنه الدواء الناجع لمتاعب فرنسا وكتابات هذه الجماعة لم لم تنل استحسان فولتير ومنتسكيو. وتتضمن كتاباتهم الضخمة المبادئ التالية باعتبارها تعاليم أساسية:-

استخدام العمل فى الأرض هو مصدر كل ثروة والعمال هم فى الحقيقة أكثر الطبقات إنتاجًا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة كما أن تدخل الحكومة يجب أن يقل إلى أدنى حد، والإصلاحات اللازم تنفيذها هى إطلاق الحرية الكاملة للتجارة وإنشاء نظام عام للتعليم، كما أن جميع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة، هى ضريبة الأرض. فميرابو يرى أن هذه المبادئ كفيلة "بإصلاح كل ما فسد وقد بذل تيرجو الذى كان تلميذًا حصيفًا من تلامذة هذه المدرسة جهودًا واضحة. لتطبيق تعاليم كويزناى كمفتش فى الأقاليم

(Intendant) ثم كوزير للمالية: وقد كان لهؤلاء أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقًا من أهمية اتباع روسو وفولتير[١٧].

ثانيًا: أثر نجاح ثورة الإستقلال الأمريكية.

لم يكن ما ذكر من جهود المفكرين من رجال الإصلاح وحده سببًا فى إشعال نار الثورة، بل أضافت الأقدار إلى ذلك نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية فى عام ١٧٨٣ ، كان لهذه الثورة أثرها العميق فى فرنسا؛ فقد أثرت فى سياسة فرنسا الخارجية عندما وافقت فرنسا على دخول الحرب بجانب الثوار ضد إنجلترا، على أن آثارها الأدبية كانت أكثر وقعًا وأبلغ أثرًا، إذ أخذ الرأى العام الفرنسى يتابع باهتمام بالغ أحداثها وقد ازداد تحمسه بالفكرة لتقديم المساعدة للثوار بينما كان لويس السادس عشر غير متحمس للفكرة، ويرى الاكتفاء بالمؤازرة الأدبية للثوار، ولكن لم يلبث أن انتصر الرأى العام الفرنسى وتغلب على الحكومة. ولم تلبث حكومة فرنسا أن تعاهدت مع الثوار، ودخلت الحرب معهم ضد إنجلترا، أثرت تلك الحركة تأثيرا بالغا فى نفوس الفرنسيين بفضل ما قام به رجال الأدب والمفكرون من تصوير لمجهودات الثوار وحماستهم وجرأتهم وخاصة الدور الذى أداه "بنيامين فرانكلين **Benjamin FranKlin**" فى هذا المضمار، وهو من أبناء بوستن "اشتغل بالطباعة واهتم بعلم الأخلاق، وكان عالمًا ومخترعًا وسياسيًا بارعًا. نجح فى الظهور بمظهر البطل أمام الرأى العام الفرنسى بل العالمى لما اتصف به من خلق رفيع، وذكاء نادر، وسياسة حكيمة، .فهو لم يشبه فولتير ولا روسو من حيث المناداة ببعض المبادئ؛ ففولتير رغم ما اتصف به من الحكمة والنزاهة لم يكن مستقيمًا وكثيرًا ما أثار الرأى العام بحوادث منازعاته وبؤسه ومصائبه. كما أن روسو الذى أحبه الناس لاهتمامه بالفرد ولم يكن صائبًا فى كل آرائه، كما كان يعيش عيشه غريبة غير مستقرة، بينما كان فرانلكين فيلسوفًا حقًا، فقد اتصف بالاستقامة والحكمة فى بساطة وصدق مما حبب النفوس إليه، لتعلقه بالمثل العليا فى غيرة وتعصب

وكانت تتسلط عليه فكرة واحدة وهى الدفاع عن قضية ذلك الشعب الذى كان ينتمي إليه، والذى كان يعمل على حريته.

عند زيارة فرانكلين لباريس للمرة الأولى عام ١٧٦٧ ترك ذاكره ماثلة للأذهان، لذلك استقبلته الصحف الفرنسية بكل حماس فى زيارته التالية لباريس عام ١٧٧٦. رحبت به الطوائف المختلفة من شعراء وكتاب وسياسيين وقد أصبح الشخصية البارزة والمثل الذى يحتذى به فى باريس بين عامى ١٧٧٦، ١٧٨٤. وقد كللت جهود فرانكلين بالنجاح عندما أعلن استقلال المستعمرات الأمريكية، إذ كان فى هذا الإعلان اعتراف صريح بالثورة، وبإنشاء مجتمع جديد على أسس وقواعد سليمة لا تقوم على الامتيازات والتقاليد بل تقوم على احترام حرية الفرد والاهتمام به. وقد شعرت الحكومة الفرنسية بما فى هذا الإعلان من تحد غير مقصود لها وانتقاد لنظمها العتيقة، لذلك وقفت في سبيل إعلانه، ولكنه مع ذلك أخذ فى الانتشار سرًا. فنشر بالفرنسية ثلاث طبعات بين عامى ١٧٧٨، ١٧٨٣ (١٨).

ثالثًا: الأسباب السياسية

كان انهيار النظام الحكومى من أهم الأسباب السياسية فقد أخفقت ملكية البوربون فى أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادى والفكرى ونشبت الثورة فى فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأوًا من الذكاء أبعد مما بلغته أى أمة معاصرة أخرى. وفرض فكر مواطنيها على الدولة بأكثر حدة مما كان على أى حكومة فى ذلك العصر أن تلبيه فقد استشرى الاضطراب والفوضى فى كل مكان، ففى فرساى تنازع مجلس الملك فى اختصاصه مع الوزراء الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت. كما تنافسوا على الأموال ذاتها ولم تفرض عليهم من فوق سلطة توافق بين سياساتهم. وانقسمت الأمة إلى دوائر فى مجال القضاء؛ وفى أخرى إلى أقسام مالية فى المالية، وفى ناحية ثالثة إلى إدارات فى الجيش وفى رابعة إلى

ابرشيات فى الكنيسة. وفى كل قسم مالى كان الناظر الملكى يصطدم بالحاكم والبرلمان الإقليمى. وفى أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع الفقراء، والنبلاء مع البورجوازيين والبرلمانيين مع الملك، وأصبحت الحاجة ماسة إلى قضية موحدة.

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ومع ذلك كان القضاة من أفضلها. واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى، وشمالها القانون العام والاقطاعى. وكما يقول البعض "إن العدالة كانت معقدة مكلفة بطيئة" رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد. وكانت السجون غير إنسانية والعقوبات وحشية والتعذيب القضائى ظل مسموحًا به فى عام ١٧٧٤. وكان القضاه غير قابلين للعزل وقد ذهب السير هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا يتفوقون كثيرًا على نظرائهم فى أوروبا" وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء. وقد اختير أغناهم وأعظمهم نفوذًا أعضاء فى برلمان باريس[١٩].

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة. فالملك وفقًا للتقليد البوربونى هو المشرع الوحيد، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية، وهو المحكمة العليا. فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أى شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة. وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة، تعد نفسها لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها. ففى عام ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسر المالكة و٨٨٦ نبيلاً. هم ونساؤهم وأبناؤهم يضاف إليهم ٢٩ طاهيًا و ٥٦ صيادًا و٤٧ موسيقيًا وثمانية معماريين، وأشتات من السكرتيريين وكهنة القصر، والأطباء والسعاة والحراس... يبلغون فى مجموعهم ستة آلاف شخص. مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب. وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص. وكذلك لبعض

النبلاء الممتازين – أمثال كونديه وأمير كونتي ودوق أورليان ودوق بربون. واحتفظ الملك بعدة قصور. في فرساي – ومارلي – ولامويت، وموودون، وشوازي، وسان – أويبر، وسان جرمان، وفونتنبلوه، وكومبيين، ورامبوييه. وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام، وفي سنة ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ فرنكاً[٢٠].

وكانت رواتب موظفي البلاط معتدلة. ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطة؛ من ذلك أن المسيو أوجار – وكان سكرتيرا في إحدى الوزارات – لم يتجاوز راتبه تسعمائة جنيه في العام. ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة، وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرؤسوهم. مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع باسمه مرتين في السنة. ووزعت عشرات المعاشات التي بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوي النفوذ أو محاسيبهم وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذي سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت، وأن يقدم المهر لبنات النبلاء عند زواجهن. وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام؛ وكل هذه المعاشات، والهبات، والرواتب، والمناصب الشرفية، كانت تدفع من إيرادات الأمة الفرنسية. وقد كلف البلاط فرنسا مبلغا جملته خمسين مليون جنيه في العام – وهو عشر مجموع إيراد الحكومة[٢١].

كما كانت ماري أنطوانيت أكثر أعضاء البلاد إسرافا. ذلك أنها قد ارتبطت بزواج عليل، وحرمت الرومانسية ولم تشغلها علاقات غرامية، فراحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالي من الثياب، والجواهر ومشاهدة الأوبرات، والمسرحيات، وكانت تخسر الثروات في القمار وإعفاء الثروات للمحاسيب في

كـرم مـتـهور. وقـد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها فى عام واحد (١٧٨٣)، وأتاهـا مصمموا الأزياء بالغريب والطريف من الأبواب المسماة "المباهج الطائشة" أو "العلامـات المكـبوتة" أو الـرغبات المقـنعة". وكانـت مـصففات الشعر يعكفن الساعات لتصفيف شعرها وقد أنفقت أموالاً طائلة فى هذا.

أمـا شـغفها بالحلـى والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوسًا. ففى عام ١٧٧٤ ابـتاعت مـن بومـر – وهـو الجواهرجى الرسمى للتاج – أحجارًا كريمة قيمـتها ٣٦٠,٠٠٠ جنـيه. وأهـداها لويس السادس عشر طقمًا من العقيق والماس والأسـاور ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيهًا، ولكن الشعب لم يغتفر لها هذا التبذير المفرط فـى ضـرائبه[٢٢]، واتهمـتها الـشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التى وقعـت بـسبب شح الخبز عام ١٧٨٨: "إذا لم يكن لديهم خبزًا فليأكلوا كعكًا" ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب[٢٣].

رابعًا: الأحوال الاجتماعية وأثرها فى إثارة الشعب الفرنسى.

ولعـل أكثـر مـا كـان يسئ لفرنـسا أنهـا كانـت لا تـزال تحتفظ بنظام الطـبقات البغـيض ومـا يـرافقه من امتيازات لفئة قليلة من الناس على حساب عامـة المواطنين. فالفرنسيين كانوا مقسمين إلى طبقات ثلاث تفصل بينها حدود يصعب تخطيها.

أ - الأشراف.

ويقـف هـؤلاء فـى أعلـى مـراتب المجـتمع الفرنـسى يحـيطون بالملـك ويعيـشون إلى جانـبه يـؤيدونه ويدافعـون عـن نظامـه وبالمقابل يعيشون فى ظل حمايـته ويتمـتعون بامتيازات كثيرة بعضها يرجع فى أصوله إلى عصر الإقطاع. فللأشـراف أراضـى واسـعة جـدًا فـى الأريـاف يـستغلونها بواسـطة الفلاحـين. والأقـنان. وقـدرت مـساحة هـذه الأراضـى قـبل الـثورة الفرنـسية بقليل بخمس الأرض الفرنـسية الصالحة للزراعة. وللأشراف وحدهم حق شغل المناصب العليا

فـى الجـيش والإدارة والقـضاء والدبلوماسية. ولهم أيضًا على الفلاحين العاملين فـى أراضـيهم حقـوق كـثيرة مـنها حـق فرض ضرائب معينة، ولهم أن يجبروا الفلاح على طحن غلاله فى مطاحنهم وأن يعصر زيته وخمره فى معصرته. ولهم أيضًا حقـوق الـصيد فـى أراضـيهم. وللأشـراف فـوق ذلـك إعفـاءات كثيرة فى مجـالات الـضرائب والالتـزامات المالـية تجاه الدولة. وهذه الحقوق والامتيازات كان النبلاء يتوارثونها منذ العصور الوسطى. إلا أنها فى القرن التاسع ومع تغير الأوضاع الاقتصادية وبداية التصنيع وانتشار الأفكار الحرة الجديدة باتت تشكل عبئًا ثقيلاً على عاتق الفرنسيين(٢٤).

ب - رجال الدين.

وكـان هـؤلاء أيضا يشكلون طبقة ممتازة إلى جانب الأشراف، لهم نفوذ قـوى وامتـيازات تقليديه قديمة حصلوا عليها فى العصور الوسطى، ووضع مالى ممـتاز. فالأديـرة الكثيرة المنتشرة فى جميع أنحاء فرنسا كانت تمتلك مساحات شاسـعة مـن الأراضـى الـزراعية تـبلغ تقريبًا خمس مساحة فرنسا، يعمل فيها ألـوف مـن الفلاحـين فـى ظـروف قاسـية شـديدة. وكان للكنيسة مورد مهم هو ضـريبة العـشور تجمعهـا سنويًا من الفرنسيين بلغت حصيلتها فى أواخر القرن الثامن عشر مائتى مليون فرنك ذهب. وفوق هذه الامتيازات فإن الكنيسة كانت معفاة من أكثر الضرائب الحكومية. ومما كان يثير حفيظة الفرنسيين أن الكنيسة لم تكـن دائمًـا تـصرف هـذه الأمـوال فـى الأماكن المخصص لها من أجل صالح الجماعة المسيحية(٢٥).

جـ - الطبقة الوسطى.

أمـا عامة المواطنين فكانوا ينتظمون فى طبقة واحدة هى طبقة العامة أو الطبقة الثالثة. وهؤلاء تحملوا أعباء الدولة كلها، منها دفع الضرائب المتزايدة. وتقـديم الجـنود للحـروب الكثيرة، وخدمة الكنيسة والأشراف، وبعبارة موجزة فإن الطبقة الثالثة كانت تلتزم بأعباء ضخمة. تجاه الدولة والبلاد لا يقابلها إلا

حقوق ضئيلة. فهى محرومة من أبسط حقوق الإنسان الطبيعية كحق الحرية والمساواة أمام القانون وحق اختيار النظام السياسى أو الاقتصادى الذى يوافق رغباته ومصالحه[٢٦].

وقد تفردت فئة قليلة من أبناء الطبقة الثالثة بوضع مالى ممتاز جعل لها مكانة خاصة ودورًا رئيسيًا فى إدارة شئون البلاد الاقتصادية أطلق عليها اسم "البورجوازية" وتعود هذه الفئة إلى الفترة الأخيرة من عصور الإقطاع حين بدأت أقلية من الأقنان تتحرر تدريجيًا من نفوذ السادة وتملك أرضًا تستغلها لصالحها أو تمارس عملاً تجاريًا أو صناعيًا. ومما سهل مهمة هؤلاء وجعلهم مع الوقت يسيطرون على الصناعة والتجارة ترفّع طبقة الأشراف والنبلاء عن ممارسة مثل هذه الأعمال. ثم إن اكتشاف أمريكا، وما تدفق على أثر ذلك من أموال وذهب إلى أوروبا، واتساع آفاق التجارة داخل أوروبا وخارجها، سهل على هؤلاء سبل الغنى والثروة وظهرت بين أبنائهم وأحفادهم فئة من المثقفين المتعلمين، برعوا فى فنون الطب والهندسة والقانون والفلسفة ولم يمض وقت حتى غدت هذه الفئة المثقفة الناشطة مزاحمة جديدة لأبناء الأشراف على المراكز الكبرى فى الدولة والإدارة خاصة تلك التى تحتاج إلى العلم والاختصاص وهى أمور لم تكن لتتوفر كثيرًا لدى أبناء النبلاء. وكان منهم فى القرن الثامن عشر بصورة خاصة كتاب وعلماء وفلاسفة ساهموا فى تنوير الجماهير وجعلها تدرك ومالها من حقوق مهضومة[٢٧].

ومما ساعد هؤلاء المثقفين فى مهمتهم كون برامج التعليم كانت أدبية محضة، فكانت تعتبر الأدب القديم وبصورة خاصة أدب اليونان كمعين لا ينضب للثروة الأدبية والفلسفية. والأدب اليونانى، بما فيه من حرية وفردية إذ لم يكن اليونانيين القدماء موحدين أو خاضعين لسلطة مركزية قوية، نفخ فى الفرنسيين روح الثورة على الظلم. ومن هذه الزاوية كانت برامج التعليم تساعد على الثورة وبصورة خاصة ضد طبقة النبلاء والأشراف الذين ظلوا يحتفظون

بامتيازاتهم فى المجالات السياسية والعسكرية، بينما كان أبناء البورجوازية يشعرون بأنهم فى وضع شاذ. إذ كانوا يرون عندهم العلم والخبرة والمال، ومع هذا فالسلطان والنفوذ للأشراف الميالين إلى المبادئ المحافظة والرجعية. لذا فإن الثورة ستكون فى بدايتها على الأقل على امتيازات الأشراف ورجال الدين أكثر مما هى على النظام الملكى نظرًا للدور الأساسى الذى ستلعبه فئة المثقفين البورجوازيين فى خلق الثورة وتوجيه أحداثها[٢٨].

ولعل أسوأ ما كان فى وضع فرنسا هو أن الجميع كانوا يعرفون أن هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها والإعفاءات الضرائبية كلها أمور بغيضة على قلوب الجماهير ثقيلة الوطأة يتمنى الجميع القضاء عليها وحتى الوزراء ومختلف أجهزة الحكم كانت تعرف ذلك. بل أن أكثر من وزير حاول إصلاح الوضع ولكن دون نتيجة. حتى أن الملكية بدت بسبب عجزها عن القضاء على هذا الامتيازات وكأنها فقدت مرونتها وقدرتها على التكيف مع ضروريات الزمن، بحيث بات عليها أن تقف منتظرة ما سيفرضه القدر من حلول لمشاكل عجزت هى عن اتخاذ أية مبادرة لمعالجتها. ولم تعجز الملكية عن حل مشكلة الامتيازات فقط بل عجزت أيضا عن حل المشكلة المالية المزمنة التى كانت تعانى منها فرنسا[٢٩].

د - طبقة الفلاحين.

وتتكون منها غالبية السكان، فلا يجب أن يغيب عن أذهاننا حقيقة مهمة وهى أن فرنسا ظلت دولة زراعية، وإذا استبعد سكان المدن ورجال الدين والنبلاء يبقى أربع أخماس السكان من الفلاحين. ولم يكن بين هذه الطبقة من يرقى إلى الطبقة الوسطى غير قلة ضئيلة. فى أقاليم "نورمانديا" **Normandy** وبيكارديا **Picardy** وارتوا **Artois** أما فى سائر أنحاء فرنسا فكان أغلب المزارعين ينتمون إلى طبقة الفلاحين. وهكذا كانت طبقة الفلاحين تفوق ما عدا من الطبقات فى العدد[٣٠].

وكانـت حال الفلاحين التعسة من الأسباب الجوهرية فى وقوع الثورة. وعلـى الرغم من أن لويس السادس عشر قد حرر ما كان باقيًا من عبيد الأرض، إلا أن ذلـك لم يغير من شعورهم لأن تلك الفئة كانت أقلية. كان الفلاح لا يزال يـرزح تحـت أعـباء الـسخرة، فكان ملزمًا بالعمل فى جزء من أرض سيده دون أجـر، وكـذلك كـان ملـزمًا بطحـن غلالـه فـى طاحـون السيد، وعصر عنبه فى معـصرة الـسيد، وخبـز دقـيقة فـى فـرن السيد، كما كان مضطر إلى دفع بعض الـضرائب غير العادلة، كما كان لا يملك حق عرض محصوله فى السوق، وكان ملـزمًا أيـضًا بدفع ضريبة إذا مر بطريق أو استخدم نهرًا، يؤديها للسيد تارة أو للمدينة أو للملك نفسه تارة أخرى.

ولم تكـن الطـبقة الوسـطى تثق فى هذه الطبقة الدنيا، كما كانت تكره النـبلاء، ولكـنها رأت فـى شـتاء عام ١٧٨٩ ضرورة التقرب من طبقة الفلاحين حتـى تحقـق مـا أرادت مـن سياسـة، فأخـذت تحـرض هـذه الطبقة مثيرة فى نفوسها كل ما يدفعها إلى الثورة والتعبير عن ضروريتها. كان استياء هذه الطبقة واضـحًا؛ فـأرادت أن تـتخلص مـن الالتـزامات الإقطاعية ومن الضرائب وهكذا كانـت هـذه الطـبقة هـى الـسلاح الـذى اسـتخدمته الطـبقة الوسـطى لتحقـيق أغراضـها. فكـان لهـا ما أرادت عندما تمت الانتخابات لمجلس طبقات الأمة. وعـندما اسـتخدمت هـذه الطـبقة لتقـضى علـى معـالم الظلم والاستبداد فكانت الوسيلة هى إسقاط حصن الباستيل(٣١).

خامسًا: الأزمة الاقتصادية ومحاولات الإصلاح.

كانت فرنسا تشكو فراغًا مزمنًا فى خزينتها ربما عادت جذوره إلى أيام لـويس الـرابع عـشر وما خاضته فرنسا من حروب فى زمنه. ولم يبادر أحد منذ ذلـك الـوقت لعـلاج الوضـع بصورة جذرية. وقد برزت هذه الأزمة بصورة جادة عقب حرب الاستقلال الأمريكية وما تكبدته فرنسا من مصاريف باهظة لمساعدة الأمريكيين فى صراعهم ضد الاستعمار البريطانى. ولعل الغريب فى الموضوع هو

أن هذه الأزمة لم تكبر فى أساسها بسبب ضعف موارد الأمة الفرنسية، بل على العكس، ففرنسا كانت تملك زراعة مزدهرة وصناعة على درجة كبيرة من التطور وتجارة خارجية نشطة للغاية. إنما الأزمة كانت ناشئة عن عجز الدولة فى الموازنة وذلك بالدرجة الأولى لكون الفئات القادرة على دفع الضرائب كانت لا تفعل ذلك بسبب الامتيازات القديمة. فالخلل إذا كان فى موازنة الدولة وليس فى موارد الأمة ومصاريفها.

ولكى ندرك حقيقة الوضع المالى لفرنسا يكفى أن ننظر إلى حسابات الخزينة للعام ١٧٨٨ وهو العام السابق للثورة كانت مصاريف الدولة لهذا العام ٦٢٩ مليون فرنك بينما لم تكن الواردات تزيد عن ٥٠٣ مليون فرنك، أى بعجز ١٣٦ مليون فرنك وهو ما يعادل ٢٠٪ من الميزانية العامة للدولة[٣٢].

ولعل أسوأ ما فى هذه الموازنة هو طريقة توزيع المصاريف فيها، فأكثر من نصفها أى ٣١٨ مليون فرنك يذهب إلى جيوب المرابين لتسديد ديون السنوات السابقة، و ١٦٥ مليون فرنك تذهب للجيش والبحرية يأخذ ١٢ ألف ضابط معظمهم من أبناء النبلاء والأشراف ٤٦ مليونًا منها بصورة مرتبات ومصاريف. وتبلغ مصاريف القصر الملكى والحاشية ٦٪ من الموازنة، بينما تقل مجموع الاعتمادات المخصصة للتعليم والجامعات والخدمات العامة عن ٢٪ من مجموع الموازنة.

لقد جرت عدة محاولات زمن لويس السادس عشر لإصلاح الوضع المالى فى البلاد كان أبرزها المحاولات التى قام بها تورجو **Turgot** ونيكر **Necker** إلا أن هذه المحاولات فشلت أمام استحالة إجبار النبلاء والأكليروس على التنازل عن بعض امتيازاتهم، وعلى دفع الضرائب التى تترتب عليهم بالنسبة لثرواتهم وقدراتهم على الدفع. والواقع أن وضع الميزانية الفرنسية لم يكن ميؤوسًا منه كما قد توحى الأرقام. فالبلاد الفرنسية غنية جدًا. ولو وزعت

الضرائب فيها بشكل عادل لأمكن بسهولة موازنة مداخيل الدولة ومصاريفها[٣٣].

أما عن محاولات الإصلاح الاقتصادى، فكان أولها على يد تورجو (١٧٧٤ — ١٧٧٦) فكان أول هم لويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التى استشرت فى الإدارة والمالية. وكان الشعب يطالب بإلحاح بعودة البرلمانات التى أقصيت، فأعادها، وأقال موبيو الذى حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى. وكان تورجو رجلاً فرنسيًا من معدن شبيه بالذى وجده لويس الرابع عشر فى كولبير كرس نفسه لخدمة وطنه، واتسم ببعد النظر والعكوف على العمل بغير ملل[٣٤].

وقد أمن بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة، وأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة[٣٥]. وقد تبين لتورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك، لذلك أمر بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات، والإنتاج، والتجارة، خطوة بخطوة. وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة. وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنبًا لتذمر أهل المدن فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة، وحددت سعر الخبز، ولكن انخفاض الأسعار ثبطت همة الفلاح عن زرع المزيد من الغلال، وثبطت غيره عن الاشتغال بالزراعة، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة دون زراعة، وعطلت ثروة الأمة المكنة عند بيعها. وبدأ إصلاح الزراعة فى نظر تورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا. ذلك أن إطلاق يد المزارع فى بيع غلته باى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى، ويزيد قوته الشرائية، وينهض به

من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لابروبيد فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى[٣٦].

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر تورجو من المجلس الملكى مرسومًا أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل المدينة سيكون محرجًا فحين ارتفع سعر الخبز فى ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشغب فى عدة مدن. ففى الأقاليم المحيطة بباريس. والتى تتحكم فى انسياب الغلال إلى العاصمة. راح بعض الرجال ينتقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد، مما اضطر الملك إلى خفض سعر الخبز[٣٧] ثم ألغاه مرة أخرى وأصدر تورجو أوامر للتوفير فى مصروفات الدولة. ولتحصيل الضرائب تحصيلاً أكثر كفاءة وللإشراف بدقة على الملتزمين العموميين ثم ينقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة، ومركبات البريد، وصنع البارود إلى الدولة.ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء "بنك الخصم" وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية وتلقى وإعطاء القروض وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند إبرازه. وفى نهاية ١٧٧٥ خفض المصروفات إلى ٧٠٠,٠٠٠ وأنقص الفائدة على الدين الأهلى من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة، ويسدد بهذه الطريقة ديونًا كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى إثنا عشر فى المائة، وأوشك أن يوازن الميزانية، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد والإسراف، وعدم الكفاءة وكثرة الفاقد[٣٨].

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ تورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال بباريس، وألغى العدد الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه. فألغى مرسومان، وعدلت الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم. فأغتبط الفلاحون، وألغى الرابع السخرة وهى أيام محددة فى السنة

يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين لصيانة الكبارى والقنوات، والطرق؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجرًا عن هذا العمل من حصيلة ضريبية تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية، وأغتبط الفلاحون. وشكا النبلاء، وأثار تورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك[٣٩].

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية. وكانت قد أصبحت أرستقراطية، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريبًا، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى الحرف. وقد عطلت الاختراع، وعرقلت التجارة بالمكوس إذ يحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة — وهم رجال يوفرون رأس المال، والتنظيم، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل، سواء للمنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم — هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها تؤدى إلى تقييد التجارة. أما تورجو التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع، والمشروعات والتجارة، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية[٤٠].

وكانت مراسيم تورجو — وديباجاتها — قد ألهبت عليه غضب جميع الطبقات ذات النفوذ، خلا التجار ورجال الصناعة الذين نعموا فى ظل الحرية الجديدة. والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية ومع ذلك عارضه بعض التجار سرًا لأنه تدخل فى احتكاراتهم. وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء. وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قراراته لنقصه. ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافرًا لتخفيض نفقاتهم. وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة. وساء

الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم، ومعاشاتهم ووظائفهم الفخرية. أما موريبا، وهو الأعلى منه منصبًا في الوزارة، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين. وكتب السفير السويدى يقول "إن تورجو يجد نفسه الهدف لحلف رهيب جدا"[٤١].

أما مارى أنطوانيت فقد رضيت عن تورجو أول الأمر، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته. ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) إسرافها فى الثياب والعطايا ولم يخف تورجو فزعه من مطالبها من الخزانة. وعليه أقسمت الملكة لتنتقمن منه. وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة في الوزير الثورى. ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة. وطبقة النبلاء، وحتى البرلمان. وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد بمرور الزمن فإتلافها معناه خلخلة ركائز الدولة. ولكن تورجو قد أقصاها كلها[٤٢]. وفى ١٢ مايو سنة ١٧٧٦ أرسل إلى تورجو أمرًا بأن يستقيل فاستقال وعاش بعد إقالته عيشة هادئة في باريس، يدرس الرياضة والفيزياء، والكيمياء، والتشريح[٤٣].

خلف تورجو فى رقابة المالية كلونى دنوى، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية، ولم ينفذ مراسيم الغلال، وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليونًا من الجنيهات بفائدة ٤٪، ولم يكتشف الوزير الجديد نيكر (١٧٧٦ – ١٧٨١) طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيرًا من إنشاء يانصيب قومى (٣٠ يونيو ١٧٧٦). فلما مات كلونى (أكتوبر) اقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفأ نقاد تورجو[٤٤].

كان جاك نكر بروتستنتى من جنيف. وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكر "مديرًا" للخزانة الملكية "بناء على تزكية موريبا. وكان تعيينه يشوبه بعض الشوائب، فقد أغضب بعض الأساقفة السماح لبروستنتى

سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة، فأجاب موريبا، "فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة" وسترًا لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقبًا عامًا للمالية له الرئاسة الإسمية على نكر. وتضاءلت معارضة الأكليروس حين جعل نكر تدينه واضحًا جليًا. وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو، وعين نكر مديرًا عامًا للمالية وقد رفض أن يتقاضى راتبًا، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص. لكنه ظل محرومًا من لقب الوزير، ولم يسمح لم بعضوية المجلس الملكى[٤٥].

وقد وفق فى حدود سلطته على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة. وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال. وقد أرسى فى الإدارة المالية نظامًا وحسابات ووفرًا أفضل وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة، واستطاع طرح أسهم بقروض أكسبت الخزانة ١٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا خلال عام واحد. ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب، وحسن المستشفيات، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء بفائدة منخفضة، وواصل جهود تورجو للحد من نفقات البلاط. والبيت الملكى والملكة ورد إلى الملتزمين العموميين جميع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق. وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى، وجرينويل، ومونتويان، ووضع سابقة مهمة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوية لممثلى النبلاء الأكليروس مجتمعين. على أن الملك يختار أعضاء هذه المجالس، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية... وقد ظفر نكر بنصر مهم حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه. فلما رفضوا أشار نكر عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا، مع دفعه التعويضات للإقطاعيين ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده

أجـاب بـأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغًا يعسر معه إلغاؤه بمرسوم. وفـى سـنة ١٧٨٠، وتحـت إلحـاح أيـضًا أمـر الملك بإنهاء التعذيب القضائى، وإلغـاء الـسجون السفلية، وفصل السجناء الذين جرموًا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكمـوا بعـد. وفـصل كلـتا الفئـتين عـن الأشـخاص المقـبوض علـيهم بـسبب الدين[٤٦].

وكانـت المحاولـة الإصـلاحية الأخـيرة التـى قـام بهـا الوزيـر كالـون Calonn (١٧٨٣ – ١٧٨٧م) وقـد هـدف كالون من برنامجه الإصلاحى لجعل الفرنـسيين يتـساوون كلـهم فى تحمل مصاريف الدولة بغض النظر عن مراتبهم الاجتماعـية وعمـل أيـضًا على هـدم الحواجـز والحـدود الجمركية بين الأقاليم الفرنـسية لتنـشيط الـتجارة الداخلـية وتـسهيل انـتقال البـضائع والسلع داخل فرنـسا. ولإقـناع الأكلـيروس بـتعديل إصـلاحاته باعتـبارها ضـرورة لابـد مـنها ولـسلامة الـنظام والـبلاد دعـى مجلـس الأعـيان – وهـو مجلـس يمـثل طبقتى الأكلـيروس والأشـراف نـادرًا مـا كان يدعى للاجتماع – فى سنة ١٧٨٧ وشرح أمامـه أوضـاع فرنـسا المترديـة واقتراحاتـه الإصـلاحية محمـىٍّ أعـضاء المجلس المذكـور مـسؤولية الوقـوف فى وجه الإصلاح، وبالرغم من فشل هذه المحاولات كانت نتائجها مذهلة على اعتبار أن التقرير الذى تلاه أمام المجلس المذكور قد نـشر علـى الفرنـسيين بحـيث عرفوا للمرة الأولى وعلى لسان وزير مسئول مدى تردى الأوضاع المالية وأسباب ذلك وقد أوجز فى التقرير المذكور وضع فرنسا بما يلـى "**أن فرنسا تتكون من ولايات وأقطار منفصلة وإدارات مختلطة متنوعة، لا تعرف مقاطعاتها شيئًا عن بعضها البعض، وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبـئًا مـا بيـنما العبء كله يقع على الجهات الأخرى، وحيث أكثر الطبقات فـيها ثـراء يفرض عليها أخف الضرائب، وحيث الامتيازات تحول دون كل تـوازن، وحـيث يـتعذر إقامـة حكـم ثابـت دائم، ووجود إدارة مشترطة فلا**

عجب إذا هي غضت بالعيوب، وحفلت بالمساوئ، ومن المعتذر في حالتها الراهنة أن تحكم حكما صالحاً"(٤٧).

وكان يرافق تدهور الوضع المالي نقص متزايد في موارد الطبقات العاملة وذات الدخل المحدود بحيث يصعب الاعتماد عليها في أية محاولة لإصلاح أوضاع الخزينة. فخلال نصف القرن السابق للثورة كانت الأسعار قد ارتفعت بنسبة ٦٥٪ بينما لم ترفع الأجور في نفس الفترة الزمنية بأكثر من ٢٢٪ (٤٨).

وقد زاد في تردي الأوضاع العامة والمالية والأزمة الاقتصادية الدورية التي حدثت سنة ١٧٨٨ والتي أصابت الطبقة البورجوازية في داخلها بشكل عنيف. وكذلك المواسم وخاصة موسم القمح كانت معطلة في السنة المذكورة. فعم القحط أنحاء البلاد وانخفض انتاج الحنطة في الموسم المذكور إلى أدنى مستوى عرفته فرنسا. ولم يكد يأتي ربيع سنة ١٧٨٩ حتى عز الخبز وارتفع سعره ولم يعد بمتناول القسم الأكبر من الفلاحين والعمال في المدن. وكانت المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا قد زادت في حدة الأزمة بما أتاحته للتجار من تصدير القمح للإنجليز سعيًا وراء الربح رغم حاجة الفرنسيين لقمحهم. وعبثًا طلب الرأي العام بإلغاء المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا والتي تتيح تصدير القمح إليها. فانتشرت المجاعة وعم الاستياء في المدن والأرياف وأخذ الفلاحون يطوفون مستنجدين تارة ومحرقين المنازل تارة أخرى. وتلبد الجو الفرنسي بغيوم الثورة(٤٩).

وخلف كالون "دي بريين **de Brienne**" (١٧٨٧ — ١٧٨٨) وهو رئيس أساقفة "تولوز" وكان آخر من تمتعوا بنفوذ سياسي من رجال الدين. وفي عهده وافق مجلس الأعيان على غالبية مقترحات "كالون" ولكنه رفض فرض ضريبة عامة على الأرض. فاستخدم الملك حقه في فرض الضرائب. وهنا رفض البرلمان فرض الضريبة العامة على الأرض، وقد أدى ذلك إلى اعتزال "دي بريين" في ١٧٨٨.

علـى أن الـبرلمان كـان قـد وافـق قـبل اعتزاله منصبه. عام ١٧٨٧ على مرسـوم حرية التجارة الداخلية وإنشاء المجالس الإقليمية، وإلغاء السخرة. وفى عـام ١٧٨٨ تولى نيكر الوزارة ليعد العدة لدعوة مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد في فرساى فى ٥ مايو من العام التالى فأخذت الأنظار تتجه نحو نيكر. وتعلقت الآمال بشخصه لحل الموقف.

وقـبل الحـديث عـن الأحداث التى جرت لابد من إلقاء نظرة على كل مـن بـرلمان بـاريس الـذى أصر على رفض تسجيل مشروع القانون الذى اقترحه الملك لفرض ضريبة عامة على الأرض. وعلى مجلس طبقات الأمة الذى اتجهت نحوه الأنظار كوسيلة أخيرة لمعالجة الأزمة المالية(*).

فـى الـثامن من أغسطس سنة ١٧٨٨ فى جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال، دعا الملك أخيرًا مجلس طبقات الأمة للانعقاد فى العام التالى، وأرجع نيكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذى يهيمن منه على مالية فرنسا. ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذى أهملت دعوته للاجتماع طويلاً، والذى كـان يجـتمع فـيه رجـال الـدين والأشراف وممثلو الطبقة الثالثة "طبقة العامة" ويـتداولون ويقترعـون كـل على حده. وكان كل ما يأمله نيكر من دعوته أن يقر المـال الـلازم لمعادلـة الميزانية، فيسد بذلك الهوة العميقة فى عجز الميزانية. ولم تـضع الحكـومة قبل انعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستورى، أو تعد أى إرشـادات لهـدى مجلـس قلـيل الخبرة، كهذا المجلس المؤلف من ألف ومائتى عضو، خلال عمله، ومع أنه تم الاتفاق فى ٢٤ يناير ١٧٨٩ على أن يكون عدد ممثلـى الطـبقة الثالـثة معـادلاً لعـدد أعـضاء الأشـراف ورجـال الدين معًا، فإن الحكـومة لم تقـرر شـيئًا، بـل أنهـا لم تقـرر حتـى هذا الأمر الخطير وهو، هل يجمـع جمـيع أعـضاء الطـبقات الـثلاث معًـا، أو يجتمع ممثلو كل طبقة على حـده؛ والحـق أن لـويس لم يكـن ينتظر، أو يدرك الحركة الهائلة التى ترتبت

علـى دعـوة مجلـس طـبقات الأمـة فى فرساى، والتى خلقت رأيًا عامًا سياسيًا قوى الإرادة شديد الهياج[٥١].

ومع ذلك فإننا نجد المطالبة بالإصلاح الدستورى فى هذا الشكل أو ذاك ظاهـرة فـى جـلاء، فـى العـرائض التى رفعتها كل هيئة وناحية فى فرنسا إلى الحكـومة، أو نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الدقيقة. ولم يكن ذهن فرنسا يجـنح إلى الجمهـورية. بل كان يطالب فقط بأن الضرائب يجب أى تفرض من غـير مـوافقة الـشعب، وأن تلغـى ضـريبة البـيوت والعقار الثابت وهما أمنيتان أجمـع الـناس، بـرغم تـضارب المـصالح، على المطالبة بتحقيقها. وثمة عريضة وزعـت علـى نطـاق واسـع كتـبها قـس شـاب ممتاز الذكاء، ورسم فيها مملكة دستورية تشبه كثيرا تلك التى أقيمت فى فرنسا عقب سقوط نابليون. وكان ذلك القـس هـو تاليران **Talleyrand** أسقف أوتان الذى أثبتت الأيام أنه كان أحكم مـن الكـثير مـن أبـناء وطـنه. فقـد قدر له سنة ١٨١٤، بعد أن أشرقت حروب الـثورة على الانتهاء، أن يدير دفة الأمور فى فرنسا على النمط الذى سعى عبثًا أيام شبابه أن يخطه لها[٥٢].

ولكـن لمـا الـتأم عقـد المجلـس فى فرساى فى مايو ١٧٨٩، وقع ممثلو طـبقة العامة تحت تأثير عقلية السوقة فقد اجتمعوا فى وقت هياج شديد وآمال عريضة، وعقدوا من بادئ الأمر النية على أن يمنحوا فرنسا نظمًا وهيئات تكون موضـع حـسد العـالم لها، وأنموذجًا لسائر البلدان. فلم يكن ممثلو تلك الطبقة، وقـد تـشربت نفوسـهم بهـذه الـروح يملـيون إلى أن يحتملوا معارضة من جانب الطـبقات المـتازة، فأعلـنوا فى ١٧ يونيو أنهم يكونون "الجمعية الوطنية" وفى اجـتماع شهير عقد فى ٢٠ يونيه فى ملعب التنس بجوار قصر فرساى، أقسموا بألا ينفضوا حتى يضعوا لفرنسا دستورًا.

وكـان العمـل الـذى فرضـوه علـى أنفـسهم ضخمًا جبارًا، فإن الدستور الأمريكـى سـنة ١٧٨٩ الـذى وضعته وصقلته لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاءة

ممتازة كانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة فى مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة. أما الجمعية الوطنية الأكثر عددًا المنعقدة فى فرساى، فقد جرت مداولاتها فى مملكة تجيش بالفوضى، وتحت غوغاء باريس وصخبهم ووعيدهم. وكان إصلاح نظام الملكية الفرنسية القديمة العهد إصلاحًا حكيمًا عملاً شاقًا على أى حال[٥٣].

وكان هنالك بعضًا من البطانة الملكية تتوق إلى استخدام القوة فى كبح جماح الجمعية، والقضاء على اضطرابات العاصمة التى ازدادت استفحالاً. فأذعن لويس بعض الإذعان فأقال فى ١١ يوليو نيكر المبغض — أقاله لأمور ثلاثة لأنه بروتستانتي، ولأنه حديث نعمة، ولأنه مصلح. وأمر بإقامة معسكر قرب فرساى لجند نظاميين ووضعوا تحت أمرة برجلى، وهو قائد قديم مجرب ذائع الصيت. واستهوت الأن لويس سياسة القوة والبطش، وهو الذى كان ينادى من قبل بوجوب الإصلاح[٥٤].

فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذا، هو الرد التاريخى الذى مازالت فرنسا تحتفل به عيدا قوميًا فى ١٤ يوليو من كل عام حين استسلم فى ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ حصن الباستيل إلى غوغاء كانوا قد سلحوا أنفسهم بما غنموه. ومن المرجح أنهم كانوا يموّلون من بعض أرباب الأموال الذين رأوا فى نيكر الأمل الوحيد للإصلاح المالى. ولم يكن هنالك فخر كبير فى هجوم على حصن كانت مدافعه مهجورة عديمة الاستعمال. ولكنه كان نظرًا للظروف التى سبقت وتبعت استسلامه. مصدر عار وخجل شديدين: تلك الظروف التى ترى فى الذعر الشديد الذى حًل إذ ذاك بسكان العاصمة، أو فى مشاهد التدمير والنهب، أو فى تمرد بعض الجند وشغب البعض الآخر، أو فى ذبح حامية الباستيل ذبحًا على النذالة والقسوة. بيد أن الاستيلاء — بالرغم تدنسه بالجريمة — على ذلك السجن القديم الذى فى أطراف باريس وهدمه كان عملاً سياسيًا فذًا رائعًا. ففى طول أوروبا وعرضها هللّ الناس وكبروا مرحبين

(١) عبدالعزيز سليمان نوار، عبدالمجيد نعنعى، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة، بيروت ١٩٧٣، ص١٩ ، ٢٠.

(٢) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، ص٢٥، ٢٦.

(٣) نفسه، ص٢٥، ٢٦.

(٤) نفسه، ص٢٧.

(٥) نفسه، ص٢٨.

(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة، روسو والثورة، المجلد الثانى والعشرون، الجزء ٤٢، ترجمة فؤاد انداروس، القاهرة ٢٠٠١، ص٣٦٠.

(٧) نفسه، ص٣٦١.

(٨) نفسه، ص٣٦٢.

(٩) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٨، ٢٩.

(١٠) ول ديورانت: المرجع السابق، ص٣٦٢.

(١١) أ. ج. جرانت، هارولد تمبرلى، أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩- ١٩٥٠، ترجمة بهاء فتحى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٥٠، ص٥٤.

(١٢) زينب راشد: المرجع السابق، ص٣٠.

(١٣) محمد مظفر الأدهمى: أوروبا فى القرن التاسع عشر دراسة فى التاريخ والفلسفة، الرباط ١٩٨٥، ص١٠.

(١٤) أ. ج. جرانت؛ هارولد تمبرلى: المرجع السابق، ص٥٤.

(١٥) نفسه، ص٥٥.

(١٦) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٣١، ٣٢.

(١٧) جرانت، تمبرلى: المرجع السابق، ص٥٦.

(١٨) المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥.

(١٩) ول ديورانت: المرجع السابق، ص٣٠٩، ٣١١.

(٢٠) نفسه، ص٣١١.

(٢١) نفسه، ص٣١١، ٣١٢.

(٢٢) نفسه، ص٣١٣.

(٢٣) نفسه، ٣١٧.

(٢٤) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى: المرجع السابق، ص٢٣.

(٢٥) نفسه، ص٢٤.

(٢٦) نفسه، ص٢٤.

(٢٧) نفسه، ص٢٤.

(٢٨) نفسه، ص٢٤، ٢٥.

(٢٩) نفسه، ص٢٥.

(٣٠) زينب عصمت: المرجع السابق، ص٤٢، ٤٣.

(٣١) نفسه، ص٤٢، ٤٣.

(٣٢) عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى: المرجع السابق. ص٢٥، ٢.

(٣٣) نفسه، ص٢٦، ٢٧.

(٣٤) ول ديورانت: المرجع السابق، ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٣٥) نفسه، ص٣٢٥.

(٣٦) نفسه، ص٣٢٦.

(٣٧) نفسه، ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٣٨) نفسه، ص٣٢٩.

(٣٩) نفسه، ص٣٣٠.

(٤٠) نفسه، ص٣٣٠، ٣٣١.

(٤١) نفسه، ص٣٣٢، ٣٣٤.

(٤٢) نفسه، ص٣٣٣، ٣٣٤.

(٤٣) نفسه، ص٣٣٥.

(٤٤) نفسه، ص٣٣٦.

(٤٥) نفسه، ص٣٣٦، ٣٣٧.

(٤٦) نفسه، ص٣٣٨.

(٤٧) هربرت فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٨؛ عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعى: المرجع السابق، ص٢٧.

(٤٨) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعى: المرجع السابق، ص٢٨.

(٤٩) نفسه، ص٢٨.

(٥٠) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٤٩.

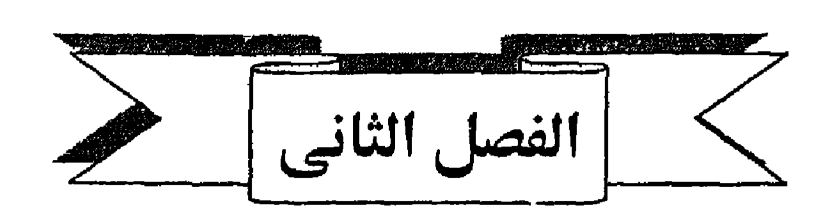
(٥١) هـ. فشر: المرجع السابق، ص١٠.

(٥٢) نفسه، ص١٠.

(٥٣) نفسه، ١١.

(٥٤) نفسه، ١١، ١٢.

(٥٥) نفسه، ص١٢.



﴿مراحل الثورة الفرنسية﴾

أولاً : تفاقم الأزمة الاقتصادية وانعقاد الجمعية الوطنية.

ثانياً : سقوط الباستيل

ثالثاً : دستور ١٧٩١.

رابعاً : حل الجمعية الوطنية وفرار الملك.

خامساً : حروب الثورة الفرنسية.

سادساً : دستور حكومة الإدارة وتطور الأحداث.

مراحل الثورة الفرنسية

أولاً: تفاقم الأزمة الاقتصادية وانعقاد الجمعية الوطنية.

فى صيف سنة ١٧٨٨ اشتدت الأزمة الاقتصادية فى فرنسا لدرجة كبيرة، وانتشر الجوع فى بعض الأرياف وفى الأحياء التى يقطنها العمال والفقراء فى المدن الكبرى. وعجز نيكر المعروف بحنكته وحسن تدبيره، - والذى كان قد استدعى مجددًا فى سنة ١٧٨٨ لاستلام وزارة المال - عن ضبط الأمور وتأمين القوت للجائعين خاصة وأن خزينة الدولة أصبحت خاوية، إذ ورد فى التقرير الذى سبق أن قدمه الوزير كالون إلى مجلس الأعيان فى سنة ١٧٨٧ أن ديون الخزينة الفرنسية تبلغ أربع مليارات فرنك مضافًا إليها الديون الكبيرة التى ترتبت على البلاد بسبب المشاركة فى حرب الاستقلال الأمريكية.

وأمام خطورة الوضع الاقتصادى والمالى اقترح الوزير على لويس السادس عشر طرح المشكلة بكاملها على الأمة الفرنسية عن طريق دعوة مجلس الطبقات الذى يتمثل فيه جميع فئات الشعب، والذى لم يكن قد دعى للاجتماع منذ ١٧٥ عامًا. وقد وافق الملك على هذه الخطوة رغم ما كان يرافق ذلك من مخاوف ومحاذير وشكوك. فالعرش يحتاج للمال وهذا لم يعد من الممكن تأمينه إلا بموافقة وقبول جميع ممثلى الشعب. ووضع نيكر، بتكليف من الملك، نظامًا انتخابيًا جرت الانتخابات العامة على أساسه فى جميع أنحاء المملكة. وقد رحبت الطبقات الشعبية بهذا التدبير، راجية أن تحصل بواسطته وعن طريق المجلس الجديد على الخبز وكذلك وافقت البورجوازية على هذه الخطوة بهدف الحصول عن طريق مجلس الطبقات على قسط من الحريات الديمقراطية وعلى حقها فى المشاركة فى شئون الحكم والسلطان. وهكذا وضع الفرنسيون أقدامهم على أعتاب الثورة[1]. تألف المجلس الجديد من ١٢٠٠ عضو نصفهم يمثل طبقة العامة والنصف الآخر يمثل بالتساوى طبقتى الأشراف والأكليروس. وكانت التقاليد القديمة تقضى بأن تجتمع كل طبقة على حدة وأن يجرى التصويت

على أساس الطبقة وليس على أساس أصوات جميع الممثلين. وقد حرر الناخبون في جميع أنحاء فرنسا عرائض حملها أعضاء المجلس الجديد (كما تنص على ذلك التقاليد الدستورية القديمة في فرنسا) تفيض بالشكوى وتحدد المطالب الأساسية التي يريد الفرنسيون تحقيقها وهي، صيانة الحريات العامة ومنع التعدي عليها إلا بموجب القانون. وإلغاء الامتيازات القديمة ومساواة الجميع أمام القانون، وعدم فرض الضرائب إلا بموافقة الشعب ممثلا بمندوبيه في مجلس الطبقات. وأخيرًا توزيع الأعباء الضرائبية على الجميع بالتساوي بغض النظر عن الانتماء الطبقي.

والواضح من هذه المطالب أنها على درجة كبيرة من الاعتدال ولا تحمل في طياتها أي عداء للنظام الملكي أو رغبة في إحداث تغيير جذري في النظام السياسي والاقتصادي في فرنسا. وأبرز ما فيها أنها من وضع مواطنين لا يزالون على ولائهم للملكية وعلى حبهم للملك، يدفعهم مثل أعلى هو العمل على تحويل فرنسا إلى ملكية برلمانية دستورية[٢].

وفي الاجتماع الأول الذي عقده مجلس الطبقات في اليوم الخامس من شهر مايو، ألقى نيكر خطابًا أوجز فيه التدابير التي يقترحها لإصلاح شئون بيت المال ولم يشر من قريب أو بعيد إلى موقف الدولة من المطالب التي يود الفرنسيون تحقيقها وقد ظهر منذ البداية أن الحكومة لم تكن لديها خطة واضحة للإصلاح ولم يكن لديها أي جواب على المطالب الكثيرة والمتنوعة التي جاء بها ممثلو الأمة. حتى أنه لم يكن للحكومة موقف واضح من بعض القضايا الشكلية المتعلقة بالنظام الداخلي للمجلس. في نفس الجلسة طرح زعماء الطبقة الثالثة مشكلة التصويت في المجلس الجديد وأصروا على أن يجري بالاقتراع الفردي وليس على أساس الطبقات. وكان هدف هؤلاء من ذلك الحصول على أغلبية في المجلس لأخذ المبادرة عند طرح الاقتراحات والقوانين على التصويت. ونظرًا لكون عدد مندوبي الطبقة الثالثة يتساوى مع عدد مندوبي

الأكليروس والأشراف ولكون الكثيرين من مندوبي هؤلاء ميالين للتعاون مع الطبقة الثالثة فإن أي اقتراح بالأسماء سيجعل الأغلبية بجانب الطبقة الثالثة. ولم تقدم الحكومة أي رد منطقي ومقبول على هذا الاقتراح كما لم تتقدم باقتراح بديل يأخذ بعين الاعتبار مطالب الشعب بل اكتفى الملك برفض الاقتراح والتمسك بالأسلوب القديم الذي كان يعمل به منذ أكثر من قرنين. وبذا يكون الملك قد ارتكب حماقة كبيرة أبعدت ممثلي الطبقة الثالثة عن العرش مع كونهم كانوا لايرغبون في ذلك، ودفعهم في سلوك طريق مستقل[٣].

طال النقاش كثيرًا حول هذا الموضوع وتمسك الملك ومن ورائه ممثلو الأشراف والنبلاء بطريقة الاقتراع التقليدية مما جعل ممثلي الطبقة الثالثة الذين علقوا الآمال الواسعة على المجلس الجديد يميلون لأخذ زمام المبادرة من الحكومة والعرش والانفراد بالعمل لتحقيق الإصلاح الدستوري الشامل. وقد تم التحول الأساسي حين وافق ممثلوا الطبقة الثالثة ومن يقف موقفهم من الأكليروس والأشراف على اقتراح تقدم به سييياس وهو راهب متنور من أنصار المبادئ الحرة يدعو لاجتماع هؤلاء في مجلس تشريعي يمثل البلاد ويطلق عليه اسم "الجمعية الوطنية" وكان ذلك في ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩. وفي اجتماع ثان عقد في ٢٠ يونيو في ملعب للتنس يقع على مقربة من قصر فرساي، أقسم هؤلاء على أن يوالوا اجتماعاتهم مهما كانت الظروف والاعتبارات إلى أن يضعوا لفرنسا دستورًا جديدًا يصون حقوق المواطنين ويضمن حرياتهم. وبذا تحول مجلس الطبقات عن الهدف الأساس الذي دعي من أجله وهو فرض ضرائب جديدة، وأصبح جمعية تشريعية تعمل لوضع دستور يلبي حاجات المواطنين.

ولما لم يكن الملك راضيًا عن الخطوات المتخذة فقد دعا في الثالث والعشرين من الشهر المذكور مجلس الطبقات إلى الاجتماع وأبلغ أعضاءه عن رغبته في أن يظل الفصل بين الطبقات قائمًا، وأعلن إلغاء القرار الذي اتخذ بتحويل المجلس إلى جمعية وطنية. رفعت الجلسة على أن تستأنف في اليوم

التالى. وكل طبقة على حدة وذلك لدراسة مشروع إصلاح الإدارة وتقويم أوضاع بيت المال. وانسحب الملك وتبعه الأشراف والأكليروس، إلا أن مندوبى الطبقة الثالثة ومناصريهم من الأشراف والأكليروس بقوا فى أماكنهم مما جعل أحد موظفى البلاط يذكرهم بضرورة إخلاء القاعة[٤].

وهنا أفرزت الثورة، أحد أبرز زعمائها وأوائل روادها ميرابو الذى رد بعبارته الشهيرة: "نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الحراب". كان ميرابو يمثل هوية الثورة فى عهدها الأول. إذ كان يريد تحقيق الإصلاح مع الإبقاء على العرش والملك. فقد كان يريد تحقيق نوع من المشاركة فى السيادة والسلطان بين الشعب والعرش والقضاء على الاستبداد والفردية. وعلى الرغم من ذلك كان ملكيا دستوريًا وظل كذلك حتى الرمق الأخير من حياته.

ولم يلبث الشعب أن سجل بعد أيام قليلة أولى انتصاراته حيث التحق ممثلو الأكليروس والأشراف بناء على أوامر الملك بالجمعية الوطنية. إلا أن ذلك لم يوقف مسيرة الأحداث. وشعر الملك وحكومته بأن الوضع فى العاصمة بدأ يأخذ شكلاً خطيرًا وأن رياح التمرد والثورة أخذت تنتشر من باريس فى كل الاتجاهات. لذا استدعيت بعض فرق الجيش، على سبيل الاحتراز إلى فرساى واتخذت تدابير أمن مشددة وأقيل نيكر ربما بسبب أفكاره الإصلاحية واستبدل بأحد أعوان الملك وكان ذلك فى الثانى عشر من شهر يوليو[٥].

ثانيًا: سقوط الباستيل.

هذه التدابير خلفت عند الفرنسيين أثرًا سيئًا نظرًا لعلاقة الوزير الجديد بالملكة والبطانة الملكية. ولما رافقها من إشاعات عن رغبة ملكية بحل الجمعية الوطنية، ولم تلبث أن عمت العاصمة الفرنسية مظاهرات صاخبة لعب فيها بعض الخطباء المتطرفين من أمثال مارا وديملون دورًا فعالاً. وسيطر المتظاهرون على دار البلدية فى باريس (الكومون) وجعلوها مركزًا لمقاومة السلطة ونظموا حرسًا أهليًا أعطوا قيادته للمركيز دى لافاييت بطل حرب الاستقلال الأمريكية

فـى الظاهـر للمـساعدة علـى حفـظ النظام وصيانة الأموال والأرواح، وعمليًا كان الهدف من ذلك مقاومة الجيوش التى أخذ بجمعها الملك عند فرساى.

ومـن أجـل الحـصول علـى الـسلاح هـاجم المتظاهـرون مخـازن السلاح ونهبوها ثم اندفعوا بقوة نحو سجن البستيل الذى طالما كان فى نظر الفرنسيين رمـز طغـيان الملكية وظلمها، فحطموا أسواره وذبحوا حاميته وأطلقوا سراح من كان فيه من مسجونين. وكان عدد هؤلاء قليلاً، لأن الدولة كانت قد أقلعت منذ مدة طويلة عن استعماله كسجن(٦).

كانـت الظاهـرة الأسـاسية فـيما حـدث يـوم ١٤ يولـيو وهو اليوم الذى يـسميه الفرنـسيون "يـوم الحـرية" والذى لا يزالون يحتفلون به حتى الآن، هو انتـشار الـبطش والعـنف وهى أمور ما كان دعاة الثورة من البورجوازيين وأنصار الاعـتدال وهـم الأغلبـية الـساحقة فـى الجمعـية الوطنـية، يريدونها أو يتمنون حـدوثها. وقـد بدأ منذ ذلك اليوم أن الثورة قد أفرزت قوى متطرفة فى أهدافها وأسـاليبها وأن هـذه القـوى بدأت تأخذ طريقها إلى مراكز القيادة والتوجيه بين الجمـاهير الفرنـسية وهـو الأمـر الـذى أثـار الخوف والحذر فى أوساط الجمعية الوطنية وبين الفئات المعتدلة.

وكـان لـسقوط الباسـتيل أثر مهم فى توجيه أحداث الثورة ففى باريس تمركـزت الـسلطة الفعلـية فـى يد أعضاء بلديتها يحميها ويدافع عنها الحرس الأهلـى الـذى كـان بمـثابة نـواة جـيش الـثورة وفى خارج باريس اعتبر الناس الحـدث بمـثابة إشـعار بـبداية مرحلة التحرر ورفع نير المظالم القديمة. فهاجم الفقـراء والفلاحـون فـى الأقالـيم والأديرة وقصور الأشراف وأحرقوا بعضها. وقد صـبوا غـضبهم بـصورة خاصـة علـى كـل مـن لـه علاقة بالضرائب والامتيازات القديمة. فهاجموا مكاتب الضرائب وأحرقوا السجلات الرسمية، ولاحقوا الجباة المالـيين، وأتلفـوا كـل ما يثبت امتيازات الكنيسة وحقوق الأكليروس وقد ساعد على انتشار العنف والإرهاب أن رجال الحكومة فى الأقاليم وقفوا موقف المتفرج

من الأحداث مخافة أن يحل بهم ما حاق بحرس الباستيل. وأمام عجز السلطة اضطر المواطنون فى المقاطعات أن يسلكوا مسلك أهالى باريس ويأخذوا زمام الأمر بأيديهم ويؤلفوا لجانًا للإشراف على أعمال الحكومة والمحافظة على الأمن والنظام وأمام هذه الأحداث شعرت الملكية بخطورة الموقف وبأن المبادرة باتت بيد الجماهير الفرنسية فاضطرت لإظهار بعض التنازلات. أبعد الملك بعض وزرائه وأعاد نيكر لوزارة المالية، وقبل علم الثورة المثلث الألوان(٧).

وهذا الموقف المعتدل والمستسلم بعض الشئ من جانب الملكية لم يكن كافيًا لامتصاص نقمة الجماهير وهياجها بل أن الجميع كانوا يشعرون بأنه لابد من القيام بأعمال أكثر جدية لتهدئة الأحوال فى المقاطعات وإرضاء الفلاحين الثائرين، ففى مساء ٤ أغسطس اجتمعت الجمعية الوطنية فى جلسة خاصة للبحث عن الوسائل الكفيلة لوقف تيار الاضطراب الجارف فى ضوء اقتراح الفيكونت دى نواى وهو من زعماء الأشراف إلغاء الحقوق الإقطاعية للنبلاء. وفى جو حماس عارم اقترعت الجمعية الوطنية بالموافقة على سلسلة من القرارات تهدف لإلغاء هذه الامتيازات أهمها(٨):

١- إلغاء جميع حقوق الأشراف الإقطاعية وما يتبعها من حقوق قضائية.

٢- إلغاء أعمال السخرة والضرائب المفروضة على المطاحن والأفران.

٣- إلغاء امتيازات جمعيات الأقاليم والمقاطعات.

٤- إلغاء ضريبة العشر التى كانت تدفع للكنيسة.

٥- إعلان المساواة التامة بين جميع المواطنين فى الحصول على الوظائف العامة.

٦- إصلاح القضاء بحيث يتساوى الجميع أمامه فى الحقوق والواجبات.

وقد لاقت هذه المقررات استحسانًا كبيرًا لدى الجماهير الفرنسية وبصورة خاصة لدى الفلاحين فى الأرياف باعتبار أنها أزالت نهائيًا وبصورة قانونية هذه المرة كل ما كان قد بقى فى فرنسا من آثار النظام الإقطاعى. إلا

أنهـا مـن ناحـية ثانية أعطت فى المدى القصير نتائج سيئة للغاية على الصعيد المـالى، إذ ألغـت دون دراسـة ورويـة سلسلة مـن الضرائب كانت تشكل نصف مداخـيل الخزانة. ومع أن ميرابو استدرك هذا الأمر بناء على إشارة وزير المالية نيكر وجعل الجمعية الوطنية تقر ضريبة تبلغ ربع المداخيل. فإن ذلك لم يعوِّض ما فقدته الحزينة وعلى أية حال فهذه هي المرة الأولى فى تاريخ فرنسا الحديث تفرض فيها ضريبة تصيب الأغنياء بأكثر مما تصيب الفقراء ولعلها أولى ثمار الثورة الفرنسية[٩].

ومـنذ ذلـك الحـين بـدأت تـسير باريس فى طليعة التاريخ وكان سقوط الباسـتيل إعلانًـا بـأن باريس لا تنوى أن يفلت الدستور من بين يديها. وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا. أما لويس فما كان منه عند وصول الخبر إلا أن قـال: أنهـا فتـنة كـبيرة، فأجابه الدوق دى ليانكور: "كلا يا مولاى، أنها ثـورة عظـيمة"[١٠]. وأصبح الآن خسوف الملكية كاملاً، فقد باتت عاجزة عن أن تحمـى أصـدقاءها أو تقـضى علـى أعـدائها. وأرغـم الملـك على تجرع كل هوان وذلـة، فألزم أن ينقض أوامره للجنود، وأن يعزل وزراءه، ويستدعى نيكر، وأن يـبارك علانـية اسـتيلاء الـرعاع على الباستيل، وأن يقبل على ملأ من الناس، بحكـم الأمـة بعد تحررها، الشارة المثلثة الألوان الجديدة التى ابتكرها لافاييت محرر أمريكا والقائد المنتخب للحرس الأهلى[١١].

ومـع ذلـك فلم تكن باريس بواثقة من فريستها. فقد تراءى لها أن الملك طالمـا كـان حـرًا طلـيقًا، فإنـه يـصبح مصدر خطر عليها، فقد يستأنف ألاعيبه الـرجعية القديمـة، فـيجمع جـندًا حوله، أولا يصدق على المراسيم التى تقررها الجمعـية الوطنـية، أو يدبـر الفرار. وقوى الشعور بأن خطره يقل لو أنه قام فى بـاريس حـيث يمكـن للكومـون Commune — وهو مجلس بلدى باريس — أن يـراقبه، وللحـرس الوطنـى أن يحـيطه بالحـراس. وكانـت صـاحبه هـذا الرأى

والداعية له عند لفيف من أصدقائها للمتحمسين، سيدة في مقتبل العمر بارعة الجمال فصيحة اللسان، هي مدام رولان، قرينة مفتش مناجم رزين وقور.

وفي خلال هذه الفترة العاصمة استوعبت أساليب الثورة، فكان تحت تصرفها أموال ومنظمون، وغلاة ومتطرفون، ومورد غزير من الأوباش تعهد إليهم بأعمال الشغب والعنف وفي الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ ظهر عذر يسوغ أحداث انقلاب، فقد دعا الملك فرقة الفلاندر إلى فرساى. ورفض التصديق على قانون أجازته الجمعية الوطنية، وأشيع أنه يفكر في الفرار، وأن الحرس الملكي داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان. فكان شبح الرجعية الذى توارى في يوليو قد أخذ يرفع رأسه من جديد(١٢).

وكانت هذه الظنون — مضافًا إليها شح الخبز حينذاك في باريس — كافية لأن تحرك ذلك الزحف الشهير إلى فرساى في ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩؛ ذلك الزحف الذى بدأ يتجمع حفنة من النساء الجائعات يولولن في طلب الخبز. ولكن جاء على أثره الحرس الوطني بقيادة لافاييت، فأحضروا معهم الأسرة الملكية إلى باريس، وإلى قصر التويلرى الكئيب القارس البرد الذى أصبح أشبه بالسجن للملك والملكة(١٣).

وعقب سقوط الباستيل، حينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وبيوت النبلاء تلتهمها النيران، جاء تاليران خفية إلى الكونت دارتوا **D'Artois** أصغر أخوى الملك، جاء يحضه على أن يحمل الملك على حل الجمعية الوطنية، وإعادة النظام إلى نصابه بالقوة. ولكن الملك أبى ذلك عطفًا منه وشفقة ولمّا لم يضمن دارتوا لنفسه الحماية الكافية، فرّ عبر الحدود، بادئًا بذلك أولى موجات الفرار المتعاقبة التى جلبت هذا الشر المستطير على فرنسا وأوروبا.

وصعب أن نغلو في تعداد الشرور والنتائج السيئة الناجمة عن وجود شراذم من الأشراف الحانقين يتحالفون مع أعداء بلادهم ويتآمرون عليها، إما عن طريق حرب أجنبية، أو بث روح الفتنة والنضال الداخلى، كى يستأصلوا

نظمها وهيئاتها الجديدة. فإن جميع الكوارث الكبرى التى انتابت فرنسا إبان الثورة. كإعدام الملك والملكة وجنون الشك والريبة والإرهاب، والفظائع التى ارتكبت، وقمع الآراء المعتدلة الإنسانية — إن هذه الكوارث لتتصل من قريب أو بعيد بالمخاوف التى أثارها حقد المهاجرين الدفين، وقوة حلفائهم المسلحة سواء فى الداخل أو الخارج، فإن أكثر ما قضى مضاجع الثوار هو ارتيابهم فى وجود أنصار مستترين للملكية فى جميع أرجاء فرنسا[١٤].

وبعد سقوط الباستيل أيضًا سادت الفوضى كل شئ، ساءت الإدارة والجيش — وخاصة الأسطول الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، وأشعل الفلاحون النار فى قلاع أسيادهم وقصورهم، ولم يوجد فى طول البلاد وعرضها من يطيع القانون، أو يدفع الضرائب. وألفت كل ناحية من نواحى فرنسا حرسا أهليًا: تلك القوة العسكرية الهائلة العظيمة الشديدة الولاء للثورة، قرر عنها كيد الخصوم[١٥].

وفى ٢٦ أغسطس أعلنت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الإنسان أبرزت فيها بصورة واضحة الحقوق الأساسية للمواطن على الدولة، وأبرز هذه المبادئ، أن الناس يولدون ويظلون أحرارًا متساويين فى الحقوق. وأن الغرض من الحكومات ضمان وحماية الحقوق الطبيعية للإنسان. وهى الحرية، والملكية، وحماية الأرواح، وحق دفع المظالم. كما لا يجب أن يسجن أحد أو يوقف إلا فى الحالات التى يحددها القانون، كما أن لكل أمة الحق فى مشاركة حكومتها فى وضع القوانين وتقرير الضرائب.

ويلاحظ أن فى هذا الإعلان الكثير من مبادئ روسو ومن روحه التواقة للحرية. كما أن أثر وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكى دور واضح فى نصوص الإعلان الفرنسى. ولعل مرد هذا الإعجاب والتقدير الذى كان يشعر به كل فرنسى مثقف للديمقراطية لما للفرد فى ظلها من حقوق وحماية. وقد نشر هذا الإعلان بحيث يأتى كمقدمة لدستور سنة ١٧٩١[١٦].

وكانت مقررات ٢٦ أغسطس تنتظر لتصبح نافذة المفعول لموافقة الملك عليها ولم يكن من المنتظر أن يوافق عليها بسهولة لأنها تعتبر بمثابة تجريد للعرش من أكثر سلطاته، وجعل الشعب المصدر الأساسى للسلطات. وبالفعل رفض الملك التوقيع على تلك القرارات مما جعل الوضع يتأزم فى باريس وجماعات المتطرفين، والمشاغبين يزداد نشاطها وفى نفس الوقت استدعى فرقة الفلاندرز إلى فرساى للمساهمة فى حمايته، كما أن شائعات سرت فى باريس تقول بأن علم الثورة قد أهين فى إحدى الاحتفالات فى فرساى. صادف كل ذلك فقدان الخبز من أسواق باريس فى مطلع أكتوبر بسبب قلة التنظيم وخوف التجار من أعمال السلب والنهب وليس بسبب فقدان الحبوب. هذه الاعتبارات كلها جعلت الناس يطالبون بانتقال الملك إلى عاصمته. وفى ١٥ أكتوبر خرجت من باريس مظاهرة ضخمة تتقدمها النساء باتجاه فرساى للعودة بالملك لأن بعودته يكثر القمح فى الأسواق حسب ما اعتقدن. وقد أدرك المعتدلون من رجالات الثورة ما قد ترتكبه من حماقات الجماهير الزاحفة فتبعها لافاييت قائد الحرس الوطنى على رأس رجاله. وفى فرساى طلب من الملك باسم بلدية باريس العودة للعاصمة وفى السادس من الشهر المذكور وصل الملك وعائلته. فى حماية الحرس الوطنى. إلى باريس وعلى صدره شارة الثورة. وفى نفس الوقت صادق على مقررات الرابع والسادس والعشرين من أغسطس. ولقد حل الملك وعائلته فى قصر التويلرى تحت حماية الحرس الوطنى وبات بذلك تحت نفوذ الثورة(١٧).

عقب مغادرة الملك لفرساى انتقلت الجمعية الوطنية أيضًا إلى العاصمة لتتفرغ للمهمة التى ندبت نفسها من أجلها وهى صياغة الدستور الجديد. إلا أنها فى باريس باتت تحت رحمة العناصر الثورية وبصورة خاصة الفئات المتطرفة منها مما سيؤثر إلى حد كبير فى وضع نصوص الدستور وينفخ فيه الكثير من روح التطرف والعنف(١٨).

وفى صيف سنة ١٧٨٩ ومع احتراق قصور ومزارع الكثير من الأشراف، ومع صدور قانون إلغاء الامتيازات القديمة، أدرك الكثير من النبلاء والأكليروس استحالة التفاهم مع أعضاء الجمعية الوطنية واقتنعوا بخطورة البقاء فى فرنسا منتظرين ما ستحمله لهم الأيام. فأخذوا يغادرون فرنسا جماعات وأفرادًا. فمنهم من هاجر ليجمع السلاح ويحرض الأجانب ليستعين بهم على محاربة الثورة، ومنهم من رحل خائفًا على حياته وعائلته. ومنهم من أبتغى من هجرته مأمنًا ينتظر فيه زوال الغمة وعودة الأوضاع فى فرنسا إلى سابق عهدها. وكانت قلّة من هؤلاء فهمت حقيقة ما يجرى فى فرنسا، واستحالة إعادة التاريخ إلى الوراء فاتخذ المهاجرون أماكن لإقامتهم فى بلجيكا، وعلى ضفاف الراين، حتى يكونوا على مقربة من حدود بلادهم، وجعلوا من كوبلنز مقرًا للعناصر الناشطة منهم، ومركزًا لتآمرهم ضد بلادهم وثورتها والواقع أن الكثير من الكوارث أصابت فرنسا بسبب تآمر هؤلاء مع الأجنبى واستعداء دول أوربا على فرنسا وتحريض عناصر كثيرة داخل فرنسا على مناوأة سادة البلاد الجدد. وكانت فى مقدمة العناصر المهاجرة الكونت دارتوا شقيق الملك الذى أساء كثيرا بطيشه وتآمره لبلده[١٩].

وكانت ثمة فكرة واحدة انتشرت فى جميع أنحاء فرنسا هى أن الشعب هو صاحب السيادة، ومصدر كل سلطة وبدت ملكية النظام القديم للناس خدعة كبرى، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعد بالأمة المستضعفة، بل أنهم لم يكونوا يومًا من الأيام تلك الأمة، فقد صاروا مواطنين: يملكون حق إعلان الصلح والحرب، وإبرام المعاهدات، ومباشرة القضاء وتنظيم الكنيسة، والإشراف على الجيش والأسطول، وسن القوانين وفرض الضرائب، وتراءى لهم أن ليس ثمة قوة فى العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف أمام إرادة الشعب التى تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها. وأن روح الاتحاد والتضافر التى تؤلف بين أعضاء الجماعة الواحدة، سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة، أم مجلسًا بلديًا،

أم طبقة من طبقات المجتمع، أم شركة، أم نقابة عمل، يجب أن تذعن لأوامر فرنسا التى لا تتجزأ[٢٠].

كان هذا هو المنطق، وتلك العواطف التى استهوت فرنسا، واستحوذت على عقول أبنائها فى صيف ١٧٨٩. وكان هذا هو نداء الديمقراطية الجديدة الذى وجهته شعوب أوروبا المتهنة الجانب.

وقد ذاعت تلك الفلسفة التى انطوى عليها إعلان حقوق الإنسان، بعباراته الخلابة، ومبادئه التى لم توضع موضع التجربة؛ هذا الإعلان الذى بدئ به دستور سنة ١٧٩١، فأثارت عباراته العزة فى النفوس، وأيقظت الأمانى والآمال فى بيوت لا تحصى. ولم تثمر إلا قليلاً نصائح العقل والحكمة ونداءات الاعتدال، إزاء القوة المضللة الساحرة لهذا المنطق. وكان الاعتقاد بصلاح الطبيعة البشرية الذى تنطوى ملكية هذه النظريات مصدر معظم المحن القاسية والنكبات المريعة التى حلت بفرنسا فى تعاقب سريع. فقد غاب عن الفرنسيين أنهم أمة لا تتألف من ساسة ملائكة، بل من شعب يحتاج — ربما أكثر من أى شئ آخر — إلى سلطة حازمة ويد قوية لترقية مواهبه وصفاته العظيمة ترقية كاملة[٢١].

ثالثًا: دستور ١٧٩١.

وتحت الطبقة البورجوازية (الطبقة الوسطى)، كانت هنالك طبقات العمال الجائعة جسمًا وعقلاً. المتحجزة القلب من جراء إهمال أمرها، وتنفيذ القوانين المجحفة غير العادلة فيها، طبقات حفلت بالمجرمين والمهربين وقطاع الطرق وسفاكى الدماء. فإنه فى ليلة اقتحام الباستيل أخذت النسوة والأطفال ترقص على ضوء المشاعل حول رءوس مقطوعة لثلاثة من الأسياد الفرنسيين قضوا حياتهم بلا دنس أو عيب. ومع ذلك فلم يأبه لذلك الإنذار البشع. وامتنع الملك ووزراءه من توجيه خطى الجمعية وهدايتها، ورفضت الجمعية بدورها أن تحكم فرنسا، أو تحفظ الأمن فى باريس. ولما انتقل الملك والجمعية إلى العاصمة

انتقل مركز السيادة فى فرنسا إلى الأندية السياسية التى كانت أهمها نادى اليعاقبة. ذلك النادى الذى صار فى وقت وجيز قطب الرحى فى اتحاد واسع النطاق، وحاكم فرنسا الحقيقى. ولم تحاول قط الحكومة أن تضرب على أيدى الهيئات الثورية، أو تقاوم أفعالها التى أوصلت الرعب فى قلوب أعضاء الجمعية الوطنية، وبذرت بذور الفتنة والتمرد.

وسيهتم التاريخ على الدوام بأمر ميرابو Mirabeau ذلك المغامر والسياسى والخطيب الشعبى والمشّرع الذى وقف فى وجه تيار الفوضى الجارف وإنقاذ تاج فرنسا. فقد وضح له كل الوضوح، كما وضح لمونييه Mouni وأشخاص حكماء آخرين، أن السبيل إلى إنقاذ فرنسا من التردى قيام حكومة قوية شديدة البطش. ولكن أنى لهم أن يجدوا القوة والحزم؛ أنهم لم يجدوهما فى الملك، أو فى أخيه الأصغر الكونت دى بروفانس، ولا فى لافاييت المختال المذهو بنفسه، والقائد غير الكفء لحرس باريس الأهلى[٢٢].

وحبطت جميع المحاولات لتأليف وزارة ملكية قوية، وتحطمت على صخور المبادئ الديمقراطية جميع المقترحات التى يحتمل أن تقوى مركز السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد، كإنشاء مجلس تشريعى ثان ومنح الملك الحق المطلق فى رفض التصديق على أى مشروع قانون، وتخويل الوزراء حق الجلوس فى السلطة التشريعية. ولم يستطع ميرابو نفسه أن يعتمد حتى على تأييد الأعضاء الملكيين فى الجمعية الوطنية، لأن كثيرين منهم كانوا هدامين يميلون بجوارحهم إلى جعل الدستور أسوأ ما يمكن بغية الحط من فوائد الديمقراطية ولما انتهى رأى ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شئ مع الجمعية، اقترح سرًا على البلاط أن يرحل علنًا من باريس، وربما كان اقتراحه هذا من بين جميع خططه العديدة. أقلها تهورًا وقنوطًا ولكنه جاء بعد فوات الأوان، وذلك أن فرنسا صارت — ولما تدر جمهورية قلبًا وقالبًا[٢٣].

وقد أبقى الدستور على الفوضى الناجمة عن تشتت السلطات. هذا التشتت الذى وجدته الجمعية الوطنية قائمًا ولم تفعل لتقويمه. وقد عمَّرت الملكية. ولكن كظل فقط، لأن السلطة الحقيقة صارت فى يد أربعين ألف مجلس. تدفع من الضرائب ما راق لها أن تفرض على نفسها، ولها وحدها حق استدعاء الحرس الخاص بها واستخدامه. فكان الخوف القاتل من سلطان الحكومة — وذلك الخوف البادئ فى اعتقاد صلف لا يقبل مناقشة — بفائدة الانتخابات والهيئات الشعبية كان ذلك الخوف عيبًا من أكبر عيوب المحاولة الأولى وتنظيم فرنسا[٢٤].

وعيب آخر نتج من منطق الثورة الديمقراطى بعينه، هو إخضاع رجال الدين لدستور مدنى، فقد كان مبدأً أساسيًا من مبادئ الثورة أن الهيئات المشتركة خطره على المجتمع وذات سجل طويل حافل بالتعصب كسجلها. فقد كانت محط البعض من مجلس تشريعى معاد لهيئة رجال الدين. فأخذت الجمعية تكيل لهم الضربة تلو الضربة فألغت أولا العشور الكنسية، دون دفع تعويض. ثم تلت ذلك بمصادرة جميع أملاك الكنيسة. وحل طوائف الرهبنة الدينية وتحرير الرهبان والراهبات من النذور وألحق بذلك تخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتيين تخفيضًا عظيمًا. ولكن لما كانت الجمعية قد تركت العقائد والعبادة من غير أن تمس، فإن هذه الإجراءات برغم تعسفها وشدتها لم تكن لتقدم حائلاً يتعذر التغلب عليه[٢٥].

وكانت الكنيسة تمتعض جد الامتعاض من سلب ضياعها الواسعة وأوقافها الغنية، ومن الإجراء الذى جعل رجال الدين ذوى مرتبات خاضعين لحكومة ديمقراطية. ولكن الكنيسة فى فرنسا خضعت أمدًا طويلاً للدولة، فلا يستطيع مسيحى أن يستنكر إجراء كهذا حرم كبار رجال الدين من إيراداتهم الضخمة. كى يرفع قليلاً من الرواتب الزهيدة لصغار القساوسة. بيد أن أعظم إثم أثار حفيظة قلوب رجال الدين على الجمعية، وجعل النزاع بينهم وبينها

مما يتعذر رتقه وإصلاحه، هو قرار الدستور الذى بمقتضاه يختار الأساقفة بواسطة ناخبى المديريات، والقسس بواسطة مجالس المراكز المحلية. أو بواسطة مجالس المراكز المحلية. فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين قد يكونون بروتستانت، أو حتى ملحدين.

والحق أنه لم يمكن ثمة خطأ ارتكبته الجمعية التأسيسية أبعد أثرًا فى نتائجه كتلك الإهانة غير المسوغة أو الضرورية التى وجهتها إلى عقائد الشعب الدينية. فقد انحاز فى بدء الثورة قساوسة القرى إلى قضية الشعب. فكان تأييدهم إياها جليل القيمة عظيم القدر. أما الآن فقد انقسم رجال الدين فريقين فريقًا مسايرًا حلف اليمين بطاعة الدستور، وأخذ يقبض مرتبه، وفريقًا شجاعًا عصى وتمرد، وبدلاً من أن يقبل البقاء فى أحضان كنيسة منشقة عن البابا، هام على وجهه مهددًا بالجوع والسجن والموت ولكنه حمل معه ولاء رعيته(٢٦)؛ فصار القسس الذين لم يحلفوا يمين الولاء للدستور من بادئ الأمر، مركزًا منيعًا لمقاومة حكومة الثورة. وكانوا فى مقاطعتى فاندى وبريتانى، وفي كل مكان خفقت الشارة البيضاء مناضلة العلم المثلث الألوان. وفى هزيمتهم واضطهادهم توجت هاماتهم بأكاليل النصر والفخار.

واقتصاديًا فلم يكن في جميع تصرفات الجمعية شئ يشم منه رائحة الاشتراكية فقد هاجمت الثورة الفرنسية الملكية، إذ كان أعضاء الجمعية التأسيسية راسخى الإيمان بحرية الفرد. فناهضوا حتى تلك الألوان من الاتحاد الاقتصادي كنقابات العمال التى وجد فيما بعد أنها ضرورية لحماية الضعفاء من عسف الأقوياء وبات الفلاح قادرًا على أن يزرع ما يشاء ويبيع أينما يشاء وألغى نظام استرقاق الأرض، ونبذ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار الملاك وخفف من وطأة قوانين الصيد، وحرم مالك الأرض من حقوقه فوق أتباعه من العامة.

ولكن مع تغير نظام الأرض فى مظاهرة الخارجية بقى أساسه كما كان بلا تغيير، وظلت الأرض يفلحها صغار الملاك أو المستأجرين من الفلاحين. أو

تـزرع حسب نظام الإيجار المشترك الذى بموجبه يساهم كل من صاحب الأرض والمستأجر فـى تكاليـف الـزراعة، ويقتـسمان الأربـاح. ولكـن ثمة مشروع نظام شيوعى زراعى أو مشروع بمقتضاه تملك الدولة الأرض، لم يعرض قط على بساط الـبحث، أو يقـدم اقتراحًـا وقـد نـشأت لحاجـات الدولة نفسها، رابطة مادية متيـنة العـرى وثقـت أواصـر ارتباط طبقى الفلاحين بالثورة، وضمنت — جزئيًا على الأقل — عدم قلب عمل الجمعية التأسيسية فى هذه الناحية[٢٧].

وقـد احـتاجت الجمعـية فـى أثـناء حكمها فرنسا إلى المال. فسعت إلى الحـصول على مطلبها منه بإصدار أوراق مالية ضمنت أولاً بأملاك الكنيسة، ثم بعـد ذلـك بـأملاك العـرش والمهاجرين. وأصدرت فى بادئ الأمر (ديسمبر سنة ١٧٨٩) أوراقًـا بأربعمائـة مليون فرنك اعتبرتها كسلفة تسدد مما ينتج من بيع أمـلاك الكنيـسة ولكـنها مـا لبـثت طـويلاً حتـى وجدت هذا المبلغ غير كاف. فأخـذت تـسدد ثمـن حاجاتهـا الجديدة بإصدار أوراق جديدة. فما عتم أن حل التـضخم المـالى، مـصحوبًا بنـتائجه المحتومة، ومن انحطاط قيمة تلك الأوراق، وبيع الأرض بأثمان تثير السخرية.

وبـسبب تدهـور قـيمة الـنقد تدهـورًا سـريعًا أدى ذلـك لانحطـاط قيمة الأوراق المالـية الفرنـسية وإلى فقـر خـزينة الحكـومة وأصحاب العقارات وسكان المـدن وسـاعد علـى استمرار الهياج الثورى فى باريس بخلق جو مفعم بالمضاربة والفـزع. ولكـن الفـلاح الـذى اشترى الأرض بأبخس الأثمان ظفر من جراء ذلك بمكاسـب طيـبة. ولهـذا السبب. من بين أسباب أخرى، كان يحق له مع كثير من المضاربين فى الأرض من سكان المدن أن يبارك الثورة[٢٨].

وحـدث حـادث ظهـر لـه منه أنه حتى دوافع الضمير لن تكون موضع احترام الثوار. ففى ذلك اليوم قصد الملك والملكة إلى سان كلولتناول لتناول العشاء الربانـى فـى كنيـستها، ولكـن الغـوغاء ردوهمـا خائـبين. فكانـت هذه الإهانة حاسمـة. إذ عقـدت الأسـرة المالكـة العزم على الفرار إلى الحدود، حيث بوبييه

علـى رأس قـوة ملكـية مواليـه لـتمد لها يد الحماية والعون وقبل أن يبرح الملك بـاريس كتب منشورًا يعلن فيه بطلان الأوامر الدستورية التى أرغم على توقيعها وطالـب بتعديلها. ولكن كشف أمر الهاربين فى فارن "Varennes" (٢٢ يونيو ١٧٩١). وأعـيدوا إلى بـاريس. ومنذ تلك اللحظة قضى على الملكية بالهلاك. إذ ظهر الملك كالخصم العلنى للدستور، وكمحرض على الحرب الأهلية، وكحليف للدول الأجنبية المعادية للثورة، فأوقف عشرة أسابيع عن العمل. وقامت حكومة جمهـورية فـى كـل شئ، ما خلا الاسم (الملكية)، عملت على تلطيف المخاوف التى ساورت النفوس بانحلال فرنسا فيما إذا ألغيت الملكية[٢٩].

رابعًا: حل الجمعية الوطنية وفرار الملك

وعـندما أكمـل وضـع الدسـتور حلـت الجمعـية الوطنـية، نفـسها (١٤ سبتمبر ١٧٩١). وكانـت قـد أجـازت مـن قـبل قانـونًا دل على روح إيثار من جانبها، ولكنه لم يفد فرنسا إلا قليلاً. ذلك أنه قضى بتحريم انتخاب أعضائها فـى الجمعـية التـشريعية الجديـدة. ففـى خفـة اكتراث ضحى واضعوا الدستور الفرنـسى الأول بالخـبرة التـى جمعـوها خـلال عامين حافلين بالعمل السياسى الجـم النـشاط، وقـبلوا أن يكلوا أمر تنفيذ الدستور إلى رجال غير مجربين. وبذا قـضت المقاديـر بـأن الجمعـية الوطنـية هـى الـسبيل إلى قيام حكومة استبدادية حربية، وبذر بذور حرية عامة[٣٠].

وعلـى الرغم من أن الملكية قد تبنت الكثير من مقررات الثورة وأظهرت فـى كـثير مـن المناسبات، طائعة أو مختارة، رضاها عن بعض الزعماء الثوريين فإن الملك والملكة ظلا يضمران الكره والعداء للنظام. فكانا على اتصال سرى دائم بملـوك أوروبـا يحثانهم على نجدة العرش الفرنسى، وبالمهاجرين يتآمران معهم علـى الـثورة. ولم يفقدوا الأمل فى أية لحظة من قيام أوضاع أفضل تساعد على اسـتعادة حقـوق الملكية المسلوبة والقضاء على الحركة الثورية فى فرنسا. إلا أن ضـغط المهاجـرين علـى الملـك وتـزايد سـيطرة العناصر المتطرفة على الثورة كانا

يجعلان صبر الملك ينفذ تدريجيًا. وجاء أخيرًا الدستور المدنى للأكليروس فاستنفذ آخر ما تبقى لدى الملك الفرنسى من صبر وقدرة على الاحتمال. فالقانون المذكور وقرار الحرم الصادر عن قداسة البابا جعلاه فى موقف المتمرد الخارج على تعاليم الكنيسة، إذا ما استمر فى صمته وقبوله، بالتنظيم الكنسى الجديد، وهو المسيحى المؤمن المتدين.

والواقع أنه ليس الملك وحده هو الذى ضاق صدره ذرعًا بتزايد الاتجاهات المتطرفة فى الثورة، بل أن بعض زعمائها وروادها الأوائل شعروا بذلك وأخذوا يحاولون وقف تيار التطرف مثل ميرابو الذى ظل دومًا كما عرفنا فى السابق يؤمن بملكية دستورية تكفل للمواطنين الحريات الأساسية. وقد حاول ميرابوا أكثر من مرة متعاونًا مع بعض العناصر المعتدلة، إقامة حكومة قوية نافذة قادرة على وقف تيار التطرف والقضاء على عناصر الشغب والإرهاب التى بات ضغطها على الجمعية الوطنية قويًا. بحيث يجعلها ضعيفة مشلولة[٣١].

وفى سبيل هذا الهدف عمل الملك على التغلب على الجمعية الوطنية لإعادة سيادة القانون والنظام فى فرنسا. إلا أن وفاة ميرابو المفاجئة فى أبريل ١٧٩١ أفقدت الملكية الدستورية سندًا قويًا ربما كان بإمكانها مساعدتها على البقاء والاستمرار، وأخيرًا اتجه الملك نحو المهاجرين الذين كانوا على اتصال مستمر بالملكة عن طريق الوزير السويدى دى فرسن **de Fersen** ليساعدوه على الخروج من البلاء اعتقادًا منه أنه فى الخارج سيصبح أقدر على إنقاذ فرنسا والعرش. وقد تولى الوزير السويدى تنظيم هرب العائلة المالكة من باريس إلى خارج الحدود. خرج الملك وعائلته سرًا فى عربة مقفلة من العاصمة باتجاه الحدود الشمالية الشرقية ووصل فى ليل ٢١ يونيو إلى فارين وهى مدينة صغيرة قرب الحدود. إلا أن أمرهم كشف هناك وأجبروا على العودة فى صباح اليوم التالى تحت حراسة مشدودة إلى باريس[٣٢].

الواقع أن هرب الملك قد هدم كل الجسور التى كانت العناصر الثورية المعتدلة تحرص منذ البداية على استمرارها بين والثورة. بل أكثر من ذلك فإن هذا الحدث قد قضى على كل أمل بإقامة ملكية دستورية فى فرنسا وأطلق للعناصر المتطرفة وللجمهوريين عامة حرية العمل والدعوة لأفكارهم بعد أن ظهر الملك علانية بمظهر الخائن المتعاون مع المهاجرين أعداء الثورة ومع دول أجنبية تضمر الكره والبغضاء لفرنسا ولثورتها. ولعل مما زاد من حرج موقف الملكيين والمعتدلين إجمالاً كون الملك كان قد صرح قبل هربه بأن كل ما وافق عليه بعد جلسة الثالث والعشرين من يونيو يعتبر باطلاً، وأنه قد حصل بالرغم من إرادته. وهذا يعنى صراحة بأن الملك يرفض كل ما حققته الثورة حتى ذلك الوقت من أعمال ومنجزات.

ومنذ عودة الملك إلى باريس صار مصير العرش وسيده موضع بحث ومناقشة صارت الفئات المتطرفة المتزايدة القوة والنفوذ تنادى علنًا بضرورة قيام الجمهورية. إلا أن عناصر الاعتدال تخوفت كثيرًا من مغبة خلو العرش أو زوال الملكية وما قد يحدث بعد ذلك من فراغ فجزمت أمرها واعتمدت على قوتها العددية فى الجمعية الوطنية واقترحت إعادة الملك إلى عرشه مع تقييد سلطانه لحد كبير. وبالفعل أصدرت الجمعية الوطنية قرارًا بهذا المعنى عللته أمام جماهير باريس الثائرة المتطرفة، والتى باتت جمهورية قلبًا وقالبًا، بأن الملك نقل من قصره عنوة وهو بالتالى لا يعتبر مسؤولاً عن عملية الهرب.

إلا أن العناصر الجمهورية والمتطرفة طعنت بهذا القرار ونظمت تظاهره ضخمة فى السابع عشر من يوليو قصدت منها إرهاب الجمعية الوطنية وأخذ زمام المبادرة من أيدى العناصر المعتدلة فيها. غير أن الحرس الوطنى تدخل بسرعة، لكبح جماح عناصر التطرف والإرهاب، وللبقاء طالما أمكن ذلك، ضمن إطار الشرعية القانونية وفى خط الاعتدال، فشتت المتظاهرين وفرق جموعهم وحافظ على سلامة الجمعية الوطنية وسيادتها. واتخذت الجمعية الوطنية

تدبيرا سريعًا قصدت منه إرضاء جماهير باريس الغاضبة، فأمرت بوقف الملك عن ممارسة سلطاته، دون أن تمس حقه بالعرش إلى حين الانتهاء من وضع دستور جديد للبلاد يقسم له يمين الولاء والاحترام[٣٣].

وحتى صيف سنة ١٧٩١ كانت جميع الجهود التى بذلها المهاجرون لجر الدول الأوربية لحرب مع فرنسا بقصد حماية عرشها والقضاء على ثورتها قد فشلت. وكذلك فشلت جهود الملك لدى قريبه إمبراطور النمسا، والوعود المغرية للإنجليز بإعطائهم بعض المستعمرات الفرنسية. فإمبراطور النمسا كانت تشغله أمور بلاده الداخلية عن الاهتمام لشئون فرنسا يضاف إلى ذلك أنه كان بطبعه كثير الكلام مترددًا غير مقدام. أما الإنجليز فكانت تشغلهم عن أحداث فرنسا أمور تجارتهم الخارجية وأساطيلهم البحرية وصناعتهم الناشئة المتطورة بسرعة مذهلة[٣٤].

غير أن قرار الجمعية الوطنية بتجريد الملك من سلطاته، عقب محاولته الفرار، والذى اتخذ بقصد استرضاء عناصر التطرف فى باريس، فقد أثار انتباه ملوك أوروبا، بشكل سريع وغير منتظر وجعلهم يشاركون بصورة أكثر جدية بالاهتمام بالشؤون الفرنسية. وفى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩١ اجتمع فى بلنتيز إمبراطور النمسا وملك بروسيا للتداول فى أمر التطورات الجارية فى فرنسا ثم صدر فى نهاية مؤتمرهم بيانًا مشتركًا أعلنا فيه: أن من واجب جميع الملوك أن يعملوا على حماية العرش الفرنسى وتعزيز سلطان صاحبه. كما أعلنا عن استعدادهما للتدخل ومساعده الملك الفرنسى إذا استجاب ملوك أوروبا لهذه الدعوة. ويفهم من هذا أنهما لا يتدخلان إلا إذا قبل جميع ملوك أوروبا وهو أمر لم يكن متوقعًا أو ممكنا آنذاك. كما هو واضح فقد صيغ البلاغ المذكور بلغة دبلوماسية ملتوية لم يألفها رجال الثورة فى فرنسا وجماهير باريس — فاسئ لدرجة أنهم اعتقدوا جمعيًا أن النمسا وبروسيا على استعداد التدخل وإعلان الحرب، مما زاد فى موقف الملك صعوبة ظهوره بمظهر المتعاون والمتضامن مع

قـوى أجنبـية، وهـذا أعطـى المتطـرفين وأعـداء الملكـية مزيدا من القوة المعنوية والسيطرة على مقدرات الثورة[٣٥].

خامساً: حروب الثورة الفرنسية.

فـى ٢٠ أبـريل عام ١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، ودخلت جيوشـها بلجـيكا إلا أن هـذا الهجـوم انقلـب وبـالاً علـى الفرنسيين أمام تقدم الجـيوش النمـساوية التـى وصـلت الحـدود الفرنـسية بعـد أن دفعـتهم داخـل أراضيهم. ثم أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا وتشكلت قيادة نمساوية بروسية مـشتركة. وفـى ١٩ أغـسطس اجـتازت الجـيوش المتحالفة الحـدود الفرنسية، وحوصـرت فـى فـردون مفـتاح بـاريس الشمالى، فانتفض الشعب الفرنسى بكل حماسـة لـمواجهة العـدوان الـزاحف نحو عاصمته، كما رفع شعار تصفية أعداء الـثورة ليلقـى القـبض علـى الآلاف ولـيعدم الكثيرون. ومع سقوط فردون بأيدى النمـساويين والـبروس تـصاعدت عملـيات الانخـراط فى صفوف الجيش واندفع المتطوعون صوب الشمال لمشاركة الجيش فى معركة المصير. وفى ممر فالمى صمد الفرنـسيون بقـيادة ديمورييه وأوقفوا زحف الجيوش المتقدمة بعد أن ظن الحلفاء أن الفرنـسيين سـيفرون مـن أول طلقـة مدفع كما حدث فى الأراضى المنخفضة. واضـطر الجـيش الـزاحف إلى وقـف هجومه بعد اندحاره فى معركة فالمى التى أعـادت الـثقة إلى نفـوس الفرنـسيين. أمـا عـن الجمعية التشريعية فإنها أنهت أشـغالها فـى ٢٠ سـبتمبر بعد وصول أنباء النصر ليحل محلها المجلس الوطنى الذى كانت انتخاباته فقد بدأت فى الثانى من الشهر نفسه[٣٦].

وكـان المؤتمـر الوطنـى (١٧٩٢) بـصفته الجمعـية التأسيـسية الجديـدة المنتخـبة بالتـصويت العام، يمثل وحدة الأمة، ويتمتع وحده بكل السلطات فلم يكـن فـى مقـدور كومـون باريس وهى البلدية الثائرة إلا أن تختفى أمام التمثيل القومـى. وفهمـت ذلـك فاعـتدلت وذهـبت إلى حـد التنصل من لجنة مراقبتها. فانقطـاع صـراع الأحـزاب يـرجع إلى الجيرونـد وحـدها لأنهـا تـسود المؤتمـر.

فالجبليـون فـى الواقـع ضـاعفوا مـسايرتهم فـى الأيـام الأولى لأنهـم أحـسوا بضعفهم[٣٧].

ولقد اجـتمع المؤتمـر الوطنى على إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢. بـدأت بعـد ذلـك محاكمـة لـويس السادس عشر أمام المؤتمر حيث وجهت إليه تهمـة التآمـر علـى سـلامة الأمـة والتواطـئ مـع الدول الأجنبية المعادية لفرنسا والعمـل علـى قلـب الدسـتور الفرنـسى. لقد عارض الجيروندون محاكمة لويس الـسادس عـشر خـوفًا مـن استثارة الدول الكبرى، لكن ذلك لم يكن مجديًا فقد صـدر الحكـم عليه بالإعدام بالمقصلة ونفذ ذلك فى ٢١ يناير ١٧٩٣، وكان وراء ذلـك اليعاقـبة الـذين وجـدوا أن التعجـيل بإعـدام لويس السادس عشر سيكون وسـيلة لإرهـاب أنـصاره الـذين بـدأوا ينـشطون بـشكل ظاهـر ضـد الثورة التى تـصاعدت حماسـة جماهيرها عندما بدأت الجيوش الفرنسية تحقق الانتصارات بعـد معركة فالمى حيث احتل الفرنسيون بلجيكا وولايات الراين ونيس وسافوى وأعلن المؤتمر أنه على استعداد لمساعدة كل أمه تطالب بحريتها وتريد التخلص من حكامها، فأصبحت فرنسا فى نظر الحكام الأوربيين دولة غزو وتوسع، فى الـوقت الذى أعلنت فرنسا تبنيها لنظرية الحدود الطبيعية التى تقول أن الراين هو الحد الطبيعى والجغرافى لفرنسا[٣٨].

بعـد فالمـى ببـضعة أسـابيع، حمل النصر جيوش الجمهورية إلى الألب والـراين. وكانـت الدعاية الثورية والفتوحات الفرنسية تهدد مصالح دول الجكم الملكـى فجـاء الـرد علـى ذلـك بعقد تحالف عام ضد الأمة الثائرة فبعد احتلال بلجـيكا بدأت الحكومة الإنجليزية بقيادة بت Pitt تتحول تدريجيًا عن سياسة الحـياد وفـى ١٦ نوفمـبر سـنة ١٧٩٢ أعلـن المجلـس الفرنسى التنفيذى حرية مـداخل الآيـسكوت دون الاهـتمام بمعاهـدة مونـستر التـى أغلقتها. وهى حجة جديـدة لأنصار الحرب فى إنجلترا. واكمل القرار، الذى يعد بمساعدة الشعوب الثائرة، إغضاب القادة الإنجليز. فضاعف بت الإجراءات العدائية. فأعلن بلاط

لندن الحداد لدى عمله بخبر إعدام لويس السادس عشر وأمر السفير الفرنسي الشفير ثوولان بمغادرة البلاد، وعلى أثر ذلك أعلن المؤتمر الحرب على إنجلترا وهولندة. ثم أعلن الحرب على أسبانيا في جو من الحماسة والهتاف وتبعت ذلك القطيعة مع أسياد إيطاليا[٣٩]. وعلى الرغم من أن أكثر الدول الأوروبية كانت في حالة حرب مع فرنسا فإنها لم تكن متحدة، وقد أقامت إنجلترا التحالف بارتباطها على التعالى مع جميع المحاربين بواسطة سلسلة من المعاهدات من مارس إلى سبتمبر ١٧٩٣، وهكذا نشأ بالتدريج التحالف الأول الذى كانت إنجلترا روحه.

ولم يكن في استطاعة الثورة أن تعتمد إلا على ذاتها. على أن الجيروند لم تستعد للحرب. فقررت انتصارات الحلفاء مصيرها[٤٠]، وقد تمكن هذا التحالف من إلحاق الهزائم بالجيوش الفرنسية، فانكفأت داخل حدودها، وقد صاحب ذلك حركات عصيان وتمرد حيث بدأ الملكيون يستولون بالقوة على العديد من الأقاليم الفرنسية الغربية بمساعدة قوى شعبية أضناها الجوع والتشرد. وعندما استفحل العصيان اتخذت الثورة موقفًا صعبًا لإنهاء الثورة المضادة، وظهر عليه العهد الإرهابى بقيادة اليعاقبة، والذى تميز بالسعي لتصفية أعداء الثورة في الداخل، ووقف الحرب الأهلية ثم التصدى بعد ذلك للزحف الأجنبي، ولتحقيق ذلك أنشأت محكمة الثورة للنظر في كل قضية، ولجنة الأمن العام لمراقبة الجهاز الإداري ودفعه إلى الأمام، وتنظيم الدفاع عن الوطن والقضاء على أعداء الثورة في الداخل. ولكن سياسة الشدة تحولت فيما بعد إلى حملة إرهابية دموية بقيادة اليعاقبة أفزعت فرنسا وأرعبها، وقادت إلى تصفية رجال الثورة بعضهم لبعض، حيث تمت تصفية الجيروندويين على يد اليعاقبة بقيادة روبسبير ورغم سوء سياسة الإرهاب على الناس فإنها ساعدت من ناحية أخرى على قمع العصيان وإنهاء حركة التمرد في الداخل، كما تمكن الفرنسيون من استرداد ميناء طولون الذى كان الإنجليز سيطروا عليه، وقد قاد

الهجوم الناجح لتحرير طولون فى ديسمبر ١٧٩٣ أيضًا الضابط نابليون بونابرت. كما أحرز الفرنسيون سلسلة انتصارات أعادتهم إلى هولندا، فدخلوا امستردام واستولوا على الأسطول الهولندى بسهولة، أما الدول الأوروبية فلم يبق تحالفها كما هو، بل خرجت بروسيا وهولندا وأسبانيا من الحرب ولم تبق سوى النمسا وبريطانيا فى الميدان. فى الوقت نفسه انتهت العهد الإرهابى بالقضاء على روبسبير وأنصاره[٤١].

سادسًا: دستور حكومة الإدارة ١٧٩٥ وتطور الأحداث

أصبح من واجب المؤتمر أن يضع دستورًا جديدًا لفرنسا من شأنه أن يخلق توازنًا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ثم يضمن فى الوقت نفسه المحافظة على سيطرة العنصر الثورى المعتدل الذى انتصر فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤. وتم للمؤتمر وضع دستور العام الثالث (١٧٩٥). وقد استمر هذا الدستور قائمًا مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه حتى قضى عليه نابليون فى انقلاب بروميرِ **Brumaire** عام ١٧٩٩.

وأهم مميزات الدستور، أن حق الانتخاب أصبح مشروطًا – كما كان فى الماضى فى الدستور الأول للثورة – بالنصاب الذى يدفعه المنتخب من الضرائب، ومعنى ذلك أن الملكية كانت شرطًا من شروط المساهمة فى الحكم والعمل السياسى. كما كانت الهيئة التشريعية، تتكون من مجلسين، مجلس الخمسمائة ولا يقل سن العضو فيه على ثلاثين عامًا، ثم مجلس الشيوخ وكان يمثل الوقار والتروى فى إصدار آرائه، ولا يقل سن العضو من أعضائه عن أربعين عامًا. وكان من حق هذا المجلس أن يرفض ما يراه مجلس الخمسمائة فيعطله لمدة عام. وللمجلسين حق عقد جلساتهما فى أى مكان فى فرنسا فيما عدا باريس، وقد اتخذ هذا الاحتياط لمنع وصول تأثير الشعب الباريسى الخطير على قرارتهما. ويعاد انتخاب ثلث أعضاء المجلسين سنويًا[٤٢].

أما السلطة التنفيذية فوضعت في يد لجنة عدد أعضائها خمسة مديرين لذلك أطلق على حكومة هذا العهد اسم حكومة الإدارة **Directore** وكانت الهيئة التشريعية هى التى تنتخب أولئك المديرين الخمسة، لمدة خمس سنوات، وآية ذلك أن يختار مجلس الخمسمائة خمسين اسمًا يعرضون على مجلس الشيوخ، فيختار منهم خمسة ويسقط منهم واحد سنويًا بالاقتراع. وأغفل الدستور حق أولئك المديرين الخمس في تعيين الموظفين فأدى ذلك إلى شئ من الفوضى، يتأرجح الأمر فيها إلى فرض حقهم في سلطة التعيين أو إغفال هذا الحق. ولم يكن من حق هؤلاء المديرين التدخل في تنظيم الشئون المالية، وإنما كان يعهد بذلك إلى طائفة من الموظفين ينتخبهم أعضاء الهيئة التشريعية، وكان ذلك من معوقات السلطة التنفيذية(٤٣) ولكى يضمن المؤتمر استقرار الجمهورية فقد اشترط أن يكون ثلثا أعضاء مجلس الخمسمائة من أعضاء المؤتمر الوطنى. ونص نظام انتخاب أعضاء مجلس الخمسمائة على امتلاك الناخب قدرًا معينًا من العقار مما أدى إلى حرمان حوالى ثلاثين مليون مواطن فرنسى من الانتخاب. وكان فى هذا تثبيت لسيادة ونفوذ الطبقة البرجوازية التى قضت على اليسار المتطرف والإرهاب الدموى(٤٤).

وكان أعضاء حكومة الإدارة الجديدة هيئة مختلطة تعمل على أن تعالج الحالة الاقتصادية والمالية المتدهورة للبلاد وأن تحصل على النصر النهائى فى حروبها الخارجية وقد عهد الجانب العسكرى إلى أحد أعضاء حكومة الإدارة من الذين اشتهروا بالقدرة والكفاءة فى إعداد الجيوش، كان على فرنسا أن تهاجم النمسا فاختارت نابليون بونابرت لقيادة أحد جيوشها الثلاث هناك بعد أن قررت مهاجمة النمسا فى ألمانيا وفينا وإيطاليا وليدمر جيش سردينيا(٤٥) وأرغمها على توقيع هدنة شيراسكو **Cherasco** ، ثم إلى إبرام صلح معه لم تلك المملكة فى يوم من الأيام من القوة بحيث تحاول جديًا نقضه.

ثـم وجـه نابلـيون حملـته إلى لـودى **Lodi** ملكه ولاية ميلان ونتج عن انتـصاره فـى ريفـولى **Rivoli** تسليم ماتنوا **Mantua** ، وعقد معاهدة ليوبن سنة ١٧٩٨. وهـزم الجيش البابوى فى انكونا **Ancona** ، ونتج عن ذلك ابتزاز المال والأسـلاب مـن الفاتـيكان وإجـبار البـابا علـى النزول عن أفنيون **Avigations** والفينـسيان **The Venaissin** فـى فرنـسا وبعـض الـولايات الـبابوية **The Legations** . وحـولت لمـباردیا **Lambardy** إلى جمهـورية الألـب الـشمالية وجنوة إلى جمهـورية لـيجورية **Liguria** ، ومـنح لكـل منها دستور على غرار الدستور الفرنسى كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية[٤٦].

ويجدر بنا أن نترك الآن حروب نابليون لنعود إلى بحث متاعب فرنسا الداخلـية، إن تـاريخ فرنـسا يفقد فى الفترة ما بين سنة ١٧٩٥ إلى ١٧٩٩ تلك الأهمـية التـى كانـت لـه حتـى يـوم حركة فندمییر، فإن الصراع الذى دار بين زعمائهـا فـى تلـك الفـترة كـان فى معظمة صراعًا فرديًا أنانيًا. وقد بدأ الجيش يـتدخل مـن حـين لآخـر فـيما ينـشأ مـن صـراع وأخذ الحكم العسكرى يقترب بوضوح[٤٧].

فـى تلـك الأثـناء كـان الموقف الداخلى فى فرنسا يهيئ لظهور الملكية. فقـد أتـت انـتخابات الهيـئة التـشريعية المؤلفة من مجلس الخمسمائة ومجلس الـشيوخ، وهـى التـى فرضـها دسـتور ١٧٩٥ ، الـذى قـضى بتغيير ثلث أعضاء الهيـئة التـشريعية كـل عـام بأعـضاء يمنيين يمثلون مصالح الطبقة البورجوازية والمهاجرين الملكيين الذين يريدون إنهاء الحرب وعقد السلام السريع. وقد تألف مـن هؤلاء البورجوازيين والملكيين والكاثوليكيين المنضمين إليهم اتحاد أو حزب يطلـق علـيهم اسـم "حزب اللكيشيان" نسبة إلى شارع كليش الذى كان مقرهم، فأخـذ يـسعى بموافقة دوق دى بروفنس والملك لويس الثامن عشر فى ١٠ مارس ١٧٩٧ للحصول على الأغلبية فى الهيئة التشريعية[٤٨].

وبالفعل نجح هؤلاء نجاحًا ساحقًا فى انتخابات المجلس الابتدائية فى ٢١ مارس ١٧٩٧ والمجالس الانتخابية فى ٩ أبريل بتأمين كل من النمسا وإنجلترا، وانتخب "بيشيجرو" رئيسًا لمجلس الخمسمائة. وفى الوقت نفسه سعى هؤلاء للحصول على الأغلبية فى حكومة الإدارة باستقلال دستور ١٧٩٥ الذى يقضى بسقوط عضو واحد من الهيئة التنفيذية كل عام، ولكن الجمهوريين فى حكومة الإدارة تمكنوا من الاحتفاظ بالأغلبية، وكونوا ما عرف باسم الثلاثية الدكتاتورية "المؤلفة من بارا **Baras** ولاريفييه ليو **La Revilliere Lépeaux** وروبل **Reubell** فى مواجهة كارنو وبارتليمى الملكيين. وبذلك نشأ تناقض بين المجلسين المكونين من اليمينيين الملكيين، وحكومة الإدارة المكونة غالبيتها من الجمهوريين، وقد حاول المجلسان التخلص من الثلاثية الدكتاتورية عن طريق توجيه الاتهام ضد الثلاثة، ولكنهم تمكنوا من احتلال مكان المجلسين والقبض على بارتليمى فى حين هرب كارنو، واستصدروا من المجلسين قرارًا بإلغاء انتخاب ١٤٥ نائبًا، ونفى ٥٣ نائبًا أخرين منهم كارنووبارتليمى وبيشيجرو، ووضع الجيش تحت سلطان وإشراف بونابرت وأوجيرو **Augereau** أحد قواد بونابرت وغيرهم من أصدقاء بارا **Baras** .

عرف هذا الانقلاب الذى قضى على حزب اللكيشيان والملكيين باسم انقلاب فركتيدور **Fructidor** فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧. وثبت وضع نابليون بعد إعلان تأييده لثلاثية الدكتاتورية، ووصل إلى حد إبداء استعداده لعبور الألب والعودة إلى باريس لحماية الجمهورية، وإيفاد أحد قواده وهو أوجيرو فى ٨ أغسطس ١٧٩٧ لقيادة الجنود بها(٤٩).

وكان من نتيجة الانتصارات التى حققها نابليون فى الأراضى الإيطالية، طلبت النمسا توقيع معاهدة كامبو فورميو (١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨) فحصلت النمسا بذلك على ممر إلى الأدرياتيك وظل مصير ضفة الراين اليسرى

محفوظًا ولو تنازلت عن بلجيكا. وسوف يكون موضوع نقاش فى مؤتمر مخصص لعقد الصلح أيام الإمبراطورية[٥٠].

لقد جرى توقيع معاهدة كامبو فورميو وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وفى الواقع فى باستاريانو مقر إقامة بونابرت. رغم تعليمات حكومة الإدارة بالتنازل عن ضفة الراين اليسرى، وإعادة جمهورية البندقية، فقد تنازل بونابرت للنمسا عن اليستريا ودولماتيا ومداخل كاتارو وعن البندقية. واحتفظت فرنسا من أراضى البندقية القديمة، بالجزر الأيونية (كورفو، وزانت وسيفالونيا) واعترفت النمسا بجمهورية غربى الألب "دولة مستقلة" وتنازلت عن بلجيكا. أما الضفة اليسرى فقد وافقت النمسا بموجب بنود سريعة على ضمها وصدقت حكومة المؤتمر على المعاهدة رغم عدم رضاها عنها. كيف تستطيع المقاومة؛ فانفجر الفرح لدى إعلان الصلح فى بلاد متعبة. ولم يكن فى استطاعة حكومة الإدارة إلا الرضوخ[٥١].

وشعرت الحكومة البريطانية بالخطر حين شعرت بأنها تقف بمفردها فى وجه فرنسا التى اتسعت حدودها والتى سيطرت على هولندا، وتحالفت مع أسبانيا. ولكن الأمر لم يكن يهددها بكثير فى المحيط الأطلسى إلا فى حالة قيام أسطول طولون بالتحرك وبالانضمام إلى الأسطول الأسبانى، والوصول إلى تدعيم أسطول برست. وكان التوسع الفرنسى قد أثر على حجم الصادرات، وأثر بالتالى على الأرباح التى كانت لازمة لتمويل القروض. فكان على إنجلترا أن تعمل على عودة التكتل من جديد. ولكن كانت النمسا منهوكة القوى، وكانت بروسيا تتطلع إلى الحصول على تعويضات فى ألمانيا، فلم تظهر أية استجابة حتى وقت الحملة الفرنسية على مصر، أما بول الأول فإنه احتفظ بموقف المتفرج، رغم عدائه للثورة الفرنسية. وظلت إنجلترا خلال عام كامل، عاجزة عن الاعتماد إلا على نفسها فكان عليها إذن أن تضاعف من مجهوداتها[٥٢].

وقبلت النمسا الصلح الذى أملى عليها إملاء، ولكن بريطانيا ظلت منتصرة منيعة فى البحر، فراحت حكومة الإدارة تبحث جاهدة عن نقطة ضعف عزيمتها وبدأ فى بعض الأوقات أنه قد عثر على مرادها، كانت إنجلترا

تعلم وهى تقاوم فرنسا، بضرورة إشعال نار الحرب على القارة من جديد حتى تتمكن من التغلب على منافستها ولكن الألمان لم يكونوا مستعدين للمشاركة فى العملية، ومع ذلك فإن إرسال الحملة لمصر، وإنشاء الجمهورية فى روما، ساعدتا على إعادة تشكيل هذا التكتل ووصل بول الأول الذى أصبح حليفًا للدولة العثمانية على البحر المتوسط، وأصبح حاميًا لجماعة فرسان مالطة وحاميًا لبلاط نابولى. وتشجع هذا البلاد الأخير نتيجة لوجود نلسون، وبدء العلميات الحربية، الأمر الذى غيَّر من الأوضاع الموجودة فى إيطاليا، ودفع توجوت إلى قبول مساعدة روسيا[٥٣].

فقد كان بول الأول يكره الثورة الفرنسية. وأخذ ينفق بعد كامبوفورميو على جيش كونديه، وسمح للويس الثامن عشر بالإقامة فى ميتاو. وبلغة أن بعض رجال بولندا المعروفين كانوا موجودين فى جيش بونايرت، وأن سفير فرنسا فى فيينا كان يرحب بهم. وزاد التقارب بينه وبين الجزويت الذين كانوا يأملون فى تحويله إلى المذهب الكاثوليكى، ووضع فرسان مالطة تحت حمايته فى سنة ١٧٩٧. وزاد حنقه نتيجة لسقوط الجزيرة فى أيدى الفرنسيين، وأخذ فى تسليح قواته، وانتخبه الفرسان فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ سيدًا أعظم لجماعتهم، وعرض مساعدته على ملك نابولى حيث علم أنه كان فى موقف صعب[٥٤].

ولم يكن هذا الاتجاه يدل على مجرد ميل شخصي؛ فمنذ أن كانت كاترين قد وصلت إلى البحر الأسود. اتجهت أنظار الروس صوب البحر المتوسط، وفتح بول موانئ القرن أمام التجارة الأجنبية؛ وأخذت السفن اليونانية تصل إليها، ولكنه كان يرغب أكثر من ذلك فى التوصل إلى فتح المضايق. وكانت هذه السياسة تتمشى مع عملية التوغل فى الإمبراطورية العثمانية، والتى كانت معاهدة كوتشك قينارجى قد بدأتها، بإعطائها قيصرة روسيا حقًا غير واضح للتدخل فى صالح العناصر المسيحية. وكان تفكك الإمبراطورية العثمانية

يعطى فرصًا جديدة للقيصر. وكان سليم الثالث قد حاول منذ سنة ١٧٩٣ إنشاء جيش حديث، لكن سلطته كانت اسمية فى عدد كبير من الولايات. وقامت حركات انفصالية، أو على الأقل استقلالية فى ألبانيا وسوريا وجزيرة العرب، وفى بلاد اليونان وبلاد الصرب[٥٥].

وساعدت الحملة الفرنسية على مصر على زيادة حركة التوسع الروسى فبعد إعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، وجدوا من الأفضل أن يوافقوا على عقد التحالف الذى عرضه بول الأول عليهم. وفتحت معاهدة ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨ المضايق والموانئ العثمانية في وجه الروس التى تدخل إلى البحر المتوسط بغزو الجزر الأيونية، وكانت كورفو آخر جزيرة سقطت، فمن ٣ مارس سنة ١٧٩٩ أصبح لروسيا مركزًا متفوقا فى الدولة العثمانية، خاصة وأنها كانت مجاورة لها؛ وكان فى وسع مالطة ونابولى إن أمكن علاوة على أى ملوك وأمراء فى إيطاليا أن تعطيها قواعد تمنحها السيطرة على البحر المتوسط.

وفى أثناء ذلك كانت مارى كارولين قد اقتنعت بتأكيدات نلسون وأصدرت أوامرها بغزو جمهورية روما. وزاد العمل من حماس بول الأول الذى تحالف فى يوم ٢٩ ديسمبر ١٧٩٨ مع نابولى ومع الإنجليز وتعهد بإرسال قواته إلى نابولى ولمباردیا[٥٦] وحينما قرر بول الأول أن يرسل أحد جيوشه، وافق على أن يسمح لهذا الجيش بحق عبر الأراضى النمساوية. ومر شهر قبل أن تعلن حكومة الإدارة الحرب على الحكومة النمساوية فى ١٢ مارس سنة ١٧٩٩، ووجدت هذه الحكومة الأخيرة نفسها منضمة لتكتل دون أن توقع على أية معاهدة. وسرعان ما قام الفرنسيون بامتلاك توسكانيا وأخذوا البابا بيوس السادس إلى فالانس حيث توفى فى شهر أغسطس[٥٧] ولم تدخل بروسيا هذا التحالف.

وهكذا اكتمل التحالف الثانى، ولم يدخل جوستاف الرابع ملك السويد إلى هذا التكتل إلا فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩، ولم يقدم قوات محاربة. وكان

هـذا الـتحالف أقـل صـلابة من التكتل الأول. وكالعادة تكفلت إنجلترا بنفقات الجـيوش المـتحالفة، ولكـن هناك ظروف اقتصادية صعبة تمر بالروسيا وإنجلترا ولذلك لم يحقق الحلفاء أى تقدم فى ميدان التنظيم وطرق الحرب على الرغم من فقدان فرنسا بعض الأراضى التى استولت عليها فى حملاتها بقيادة نابليون.

وكانـت حكـومة الإدارة تعانى صعوبات بالغة. وكانت طبيعـتها مسئولة جـزئيًا عـن تلـك الـصعوبات، فقـد كانـت الحكـومة مليـئة بالفساد والفضائح. فحكومة الإدارة لم تسقط بسبب فضائح الحكم دائمًا بسبب الهزيمة فى الحرب. ولقـد سـبق لأعـضاء حكـومة الإدارة أن اسـتخدموا قـوة الجـيش وهيبـته مرتين ليـبعدوا عـن المجلـسين نوابًا معادين لسلطانهم انتخبتهم البلاد ولكنهم أخفقوا هذه المرة (يونيو ١٧٩٩) فى الحصول على تأييد الجيش بعد أن حاقت الهزيمة بالبلاد وأصبحت مهددة بالمزيد من الهزائم فتشجع المجلسان وأقالا أحد أعضاء حكـومة الإدارة وأرغمـا عـضوين آخـرين علـى الاستقالة وتألفت حكومة الإدارة الجديـدة مـن سـييزوبارا وديكوومولان وجوهيبيه وهم آخر من تولوا عضوية هذه الحكـومة فلقـد أطلـت اليعقوبـية الديمقـراطية برأسـها مـن جديد لأن البلاد قد اعتراهـا القلـق فأصـبحت علـى اسـتعداد للتهلـيل لأى شـخص يمـنحها العزة والأمن(٥٨).

وصـل نابليون إلى فرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ فاستقبل بحماسة فائقة ولم يـؤخذ علـيه فـشل مغامرته فى مصر. فقد حدث هذا الفشل فى مسرح بعيد وفـى ظـروف مـبهمة. فذكـر لـه الـناس فقـط حـروبه فـى إيطالـيا وكيف أرغم النمـساويين علـى قـبول الـصلح، وعـزز مـسلكه سمعته الطيبة فقد بدأ متواضعًا مـتحفظًا، لا يسرف فى التباهى بانتصاراته ويخالط رجال العلم أكثر مما يخالط العسكريين. ومع ذلك فليس ثمة شك فى أنه كان يتطلع طوال الوقت إلى القيام بدور سياسى كبير، وفى أنه تدبر المشكلة وحلولها بعناية منذ وصوله إلى فرنسا.

كـان مـن المـؤكد أن تغـير ما لابد أن يحدث فى الحكومة. فماذا تكون طبـيعة هذا التغيير؛ لقد وطد نابليون علاقاته ببارا حليفه القديم وسييز صاحب النظـريات الـسياسية، وتـاليران الأسـقف الـسابق واليعقوبـى، أبـرع مدبـرى المؤامـرات وأشـدهم ضبطًا للـنفس. وراح نابليون ينصت إليهم جمعيًا وإن أبقى لنفسه الرأى الأخير. وكان أمله أن تبلغ شهرته بين جميع الطبقات حدًا يؤدى إلى المناداة به رئيسًا للدولة بصورة تلقائية، فيحكم استنادا إلى شئ هو أقرب ما يكـون إلى الحـق الدسـتورى فـى الحدود التى تسمح بها أوضاع فرنسا فى عهد الـثورة، ولا يـضطر إلى إشـهار الـسيف أو إراقة الدماء. ونحن نستطيع أن نفهم المؤامرة الكبرى التى أقدم عليها بوضوح أكبر، إذا علمنا أنها لم تسر وفق الخطة المرسـومة، وأنه لم يكن راغبًا فى اللجوء إلى العنف، وأن حاجته إلى استعراض قـوته — وأن لم يـضطر إلى اسـتخدامها — فقد تركت فى مستقبل حياته العامة أثر محسـوسًا[٥٩].

ولقـد سـاعده أن أخـاه لوسيان كـان رئيـسا لمجلس الخمسمائة وكان نابلـيون يأمل أن يستخدم المجلسان حقهما الدستورى فى الانتقال إلى سان كلو لأن بـاريس لم تزل — حتى ذلك الوقت مكانًا غير مناسب للقيام بثورة مضادة. وفى أن يعهد المجلسان إليه بقيادة قوات باريس، ثم يصوتان فى اجتماع تحيط بـه القـوات — لـصالح تعـديل الدسـتور ويكلفانـه بالإشـراف علـى هـذا العمـل وتوجـيهه، ولم يكـن يـشك فـى أن هـذه الخطـوات سـتؤدى — إن تمت — إلى انفـراده بالـسلطة تقـريبًا، حقـا إنـه لابـد مـن التخلص أولاً من أعضاء حكومة الإدارة، ولكنه كان يأمل أن يتمكن من إغرائهم بالاستقالة.

ولقد نفذت الخطة إلى نقطة معينة. فقد استقال سييزوديكو، اللذان كانا مشتركان فى المؤامرة وإن لم يكن اشتراكهما كاملاً كما كان يتصوران، على أمل أن يحـذو الآخـرون حـذوهما. وكـان بـارا يأمـل أن يـنال نـصيبًا مـن المسئولية والـسلطة. فأصـابه الكمـد عـندما تبين أن الدور الذى ترك له كان سلبيًا، وفى

النهاية استقال هو الآخر. وقد اعتقل العضوان الباقيان بحكومة الإدارة اللذان رفضا أن يستقيلا. وفى يوم نوفمبر سنة ١٧٩٩ قرر مجلس الشيوخ الانتقال إلى سان كلو، وعهد بالقيادة المنشودة إلى نابليون وفى ١٠ نوفمبر وقعت الأزمة الحقيقية، كان نابليون يعلم أن مستقبلة كله متوقف على أحداث ذلك اليوم. وقد قال لسييز أثناء الرحلة إلى سان كلو "سينتهى بنا المطاف أما إلى هنا (مشيرا إلى المكان الذى نصبت منه المقصلة) وإما إلى قصر لوكسمبرج". وفى سان كلو ألقى خطابًا فى كلا المجلسين على التوالى، ولكن الأمور لم تعد تسير وفق الخطة المرسومة، فالمجلسان لم يتأثرا بشعبية نابليون إلى حد الذى يدفعهما إلى التصويت على إلغاء الدستور ووجودهما ذاته. وقد استمع الشيوخ إلى خطاب نابليون يردد ثم أعلنوا ولاءهم للدستور أما أعضاء مجلس الخمسمائة فقد طردوه فى شئ من العنف من قاعدتهم عندما مثّل أمامهم. فأصبح جليًا أن الشعبية والعبارات البراقة لن تحل المشكلة، واضطر نابليون إلى اللجوء مكرهًا إلى حد السيف. فعندما أخطره أخوه أن زمام المجلس قد أخذ يفلت من يديه، استدعى القوات لدخول القاعة وطرد الأعضاء وكانت لحظة عصيبة بالنسبة له، فهل يا ترى سيصوب جنود الجمهورية حرابهم إلى حكومة فرنسا الحرة؛ لقد أطاعوا الأمر دون تردد يذكر، فلاذ معظم أعضاء السلطة التشريعية بالفرار، بينما صوتت البقية الباقية التى كانت متواطئة مع كبير المتآمرين، لصالح تعديل الدستور، وعينت ثلاثة قناصل للاضطلاع بذلك. وهؤلاء الثلاثة هم نابليون وسييزوديكو، وفى ١١ نوفمبر عاد نابليون إلى باريس وكان الانقلاب قد تم، فتقبلته العاصمة وفرنسا كلها بهدوء مذهل. فلم يكن ثمة من يعطف على المجلسين أو أعضاء حكومة الإدارة. وأصبحت البلاد مهيأة للدخول فى تجربة جديدة[٦٠].

عندئذ أطلق سراح كل من المديرين السابقين "جوييه ومولان" وظن كل من "سييز" وتاليران وغيرهما من المدنيين ممن شاركوا بونابرت فى تدبير

الانقلاب أنهم سينفردون بتدبير شئون فرنسا المدينة، على أنهم لم يكونوا يجهلون طبيعة بونابرت وطموحه وبراعته فى خلق السبل التى يسلكها للوصول إلى ما يريد وإن كانوا قد ظنوا في المجال العسكرى ما يمكن أن يشبع طموحه. ولكن أشد ما كانت دهشة "سييز" عندما تبين أن بونابرت قد أثبت دراية ومعرفة وثيقة بكثير من الشئون المدنية، وقد توصل عن طريق ذلك إلى قرارات معينة كان من الصعب إقناعه بالعدول عنها[٦١].

(١) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص٢٩، ٣٠.

(٢) نفسه، ص٢٠، ٣١.

(٣) نفسه، ص٣١.

(٤) نفسه، ص٣١، ٣٢.

(٥) نفسه، ص٣٣.

(٦) نفسه، ص٣٣، ٣٤.

(٧) نفسه، ص٣٤.

(٨) نفسه، ص٣٥.

(٩) نفسه، ص٣٥، ٣٦.

(١٠) هـ. أ. فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص١٢.

(١١) نفسه، ص١٣.

(١٢) نفسه، ص١٣.

(١٣) نفسه، ص١٤.

(١٤) نفسه، ص١٤.

(١٥) نفسه، ص١٤، ١٥.

(١٦) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعى: المرجع السابق، ص٣٦.

(١٧) نفسه، ص٣٦، ٣٧.

(١٨) نفسه، ص٣٧.

(١٩) نفسه، ص٣٧، ٣٨.

(٢٠) هـ. أ. فشر: المرجع السابق، ص١٥، ١٦.

(٢١) نفسه، ص١٦.

(٢٢) نفسه، ص١٦، ١٧.

(٢٣) نفسه، ص١٧، ١٨.

(٢٤) نفسه، ص١٨.

(٢٥) نفسه، ص١٨، ١٩.

(٢٦) نفسه، ص١٩.

(٢٧) نفسه، ص١٩، ٢٠.

(٢٨) نفسه، ص٢٠، ٢١.

(٢٩) نفسه، ص٢١.

(٣٠) نفسه، ص٢٢.

(٣١) عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٤٠.

(٣٢) نفسه، ص٤١.

(٣٣) نفسه، ص٤١.

(٣٤) نفسه، ص٤٢.

(٣٥) نفسه، ص٤٣.

(٣٦) محمد مظفر الأدهمي، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٤.

(٣٧) البير سوبول: تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كورس، بيروت، باريس — دار منشورات عويدات، الطبعة الرابعة ١٩٨٩، ص٢٥٧.

(٣٨) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص١٤.

(٣٩) البيرسوبول: المرجع السابق، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٤٠) نفسه، ص٢٦٥.

(٤١) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص١٥.

(٤٢) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٦٩.

(٤٣) نفسه، ص١٧٠.

(٤٤) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص١٦.

(٤٥) نفسه، ص١٨.

(٤٦) فشر: المرجع السابق، ص٤٩.

(٤٧) جرانت ، تمبرلى: المرجع السابق، ص١٥١.

(٤٨) عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، ١٩٩٧ ، ص٤٠٨.

(٤٩) نفسه، ص٤٠٩.

(٥٠) البيرسوبول: المرجع السابق، ص٤٨٨.

(٥١) نفسه، ص٤٨٩.

(٥٢) جورج ليفيير : عصر الثورة الفرنسية، تعريب جلال يحيى، القاهرة، ١٩٧٩، ص٤٧٨.

(٥٣) نفسه، ص٤٨٦.

(٥٤) نفسه، ص٤٨٦.

(٥٥) نفسه، ص٤٨٧.

(٥٦) نفسه، ص٤٨٧، ٤٨٨.

(٥٧) نفسه، ص ٤٨٨، ٤٨٩.

(٥٨) جرانت ، تمبرلى ، المرجع السابق ، جـ١، ص١٦٣.

(٥٩) نفسه، (جـ١) ، ص١٦٤.

(٦٠) نفسه، جـ٢ ، ص١٦٦.

(٦١) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص١٩٥.



الفصل الثالث

﴿فرنسا من ١٧٩٩ حتى ١٨١٤م﴾

أولاً : عهد القنصلية (١٧٧٩ – ١٨٠٤) ودستورها

ثانياً : نابليون والسياسة الخارجية فى عهد القنصلية

ثالثاً : عهد الإمبراطورية ١٨٠٤ – ١٨١٤

رابعاً : سياسة الحصار القارى ضد بريطانيا

خامساً : عوامل انهيار إمبراطورية نابليون

فرنسا من ١٧٩٩ حتى ١٨١٤م.

أولاً: عهد القنصلية (١٧٧٩ – ١٨٠٤) ودستورها

بعد انقلاب برومير بأسابيع قليلة وافقت البلاد بأغلبية كبيرة من الأصوات على دستور جديد. خوّل نابليون بوصفه القنصل الأول – من بين قناصل ثلاثة – سلطة مطلقة على مصير فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية.

فقد كان نابليون وليد الثورة، ومثل كثيرين من أذكياء الرجال، مكنه ذلك الإنقلاب الاجتماعي الهائل من أن يضع نفسه في طليعة القابضين على زمام الأمور، أضف إلى ذلك أن عقله الناشئ كان قد تهذب، وأدب الانتقاد والتمرد قد ظهر ذلك الأدب الذى نادى بالثورة، وأنذر باندلاع لهيبها. وكان فتح باب الترقية أمام الذكاء والمواهب مما يهواه قلبه، ويحنوا إليه فؤاده ذلك الأمر الذى هو روح الديمقراطية وعماد السلطة، وسر الانتصارات الحربية التى جعلت أوروبا بأسرها تنتقض أمام الثورة[1].

فقد عقد نابليون العزم على الاحتفاظ بهذا الجانب من ثمار الثورة على الأقل. فقد يفرط فى الحرية السياسية، أما المساواة الاجتماعية فكانت فى نظره جليلة الشأن عظيمة القدر. والحق أن التفوق العجيب الذى أحرزته فرنسا على أوروبا أيام القنصلية والإمبراطورية لا تفسره عبقرية قائدها الفذة وحدها. بل يرجع أيضًا إلى الحقيقة الواقعة، وهى أنه بالقضاء على الامتيازات وضعت تحت إمرة نابليون خيرة قرائح أكثر أمم أوروبا الغربية اكتظاظًا بالسكان، وأعلاها مدنية. فقد كان تاليران يضطلع بأعمال وزارة الخارجية، وفوشيه Fouché مديرًا للشرطة وقلدّ رجال العلم مناصب الوزارة – الأمر الذى لم يسمع بمثله فى هوايتهول (مقر الوزارات البريطانية بلندن). وكان مجلس الدولة فى فرنسا أكفأ هيئة من الخبراء ذوى الدراية والكفاية رأتها أوروبا إلى ذلك الحين. كما ترقى معظم جنرالات فرنسا الذين قادو جيوشها المظفرة – عن جدارة واستحقاق من صفوف الجند العاديين[2].

وبذل نابليون جهدا كبيرا فى إصلاح أمور البلاد الاقتصادية فأوقف سياسة القروض الجبرية التى كانت تتبعها حكومة الإدارة، والتى أثارت الرأى العام ونظّم الضرائب، فوحدها وساوى بين الجميع فى تأديتها وأنشأ لها نظامًا دقيقًا يتبعه مباشرة، فكان أمر التصرف فيه لرأيه المباشر. وأنشأ إدارة جديدة للجمارك، وسجلاً خاصًا للأراضى الزراعية والغابات وجعل أملاك الدولة ضمانًا للسندات التى أصدرتها، فرفع ذلك من قيمتها وسهّل بذلك السبيل أمام الدولة لتسديد ديونها، وأعاد نابليون نظام الغرف التجارية وضبط أمورها، وأعاد بناء الصناعات فأنقذها من الضياع والفساد. واستعان فى كل ما تقدم من النهوض باقتصاديات البلاد بجهود الخبير المالى المعروف "جودان" الذى كان له الفضل فى تأسيس بنك فرنسا[٣].

وعطف نابليون على المهاجرين، فأنصف ذوى قرباهم مما اقترفه المهاجرون من آثام، واستصدر بذلك قرارا قوبل بارتياح عظيم، وعفا عمن عادوا من المهاجرين، كما رحب بعودة الكثيرين ممن رغبوا فى العودة إلى فرنسا. واستدعى من الفارين بعض الشخصيات البارزة أمثال "لافييت" **Lafayette** وكارنو "**Carnot**"، فاستعان بالأخير فى تنظيم وزارة الحربية، وقد كان لكارنو الفضل فى إصلاح حالة الجيش وإعداد فرنسا إعدادًا عسكريا بسرعة تدعو إلى الدهشة.

أما الثوار من ذوى النزعة الملكية الذين اشتركوا فى ثورة "لافنديه" فإنه قد عفا عمن تابوا إليه وقدموا له فروض الطاعة والولاء، ثم أنزل العقاب على من تآمروا عليه منهم فأعدم زعيمهم كادودال **Cadoudal** بعد اكتشاف تآمره على نابليون عام ١٨٠٤م[٤].

أما عن موقف نابليون من الكنيسة فمن المعروف أنه لم يكن متدينًا أو متمسكًا بدين رسمى، إلا أنه كان يدرك ما للدين من هيبة وسلطان فى نفوس جماهير أوروبا المسيحية وخاصة عند الفلاحين وسكان الأرياف فى فرنسا وخارجها كان نابليون يؤمن بضرورة تماسك الهيئات الاجتماعية، ويمقت إلى

حد كبير روح التفكك والفردية التى سادت زمن الثورة، والدين يساعد بصورة قوية، فى نظر بونابرت، على تحقيق هذا التماسك إذا كان يقول "إن الدين هو سر النظام الاجتماعى" لهذا سعى منذ بداية عهده لإيجاد اتفاق بين الدولة والكنيسة يزيل القطيعة القائمة منذ صدور القانون المدنى للأكليروس، ويحفظ للبلاد وحدتها ويعيد للأكليروس هيبتهم واحترامهم. وكان يسعى أيضًا لتحقيق هدف آخر من وراء الاتفاق مع الكنيسة، فباتفاقه مع الأكليروس يضعف إلى حد كبير من العناصر المناوئة للثورة الفرنسية ولحكمه، الذى طالما حصل على تأبيد قوى من الكنيسة فى فرنسا وخارجها. ثم أنه كان يدرك أن البلدان التى ألحقها بفرنسا مثل بلجيكا والأراضى الألمانية على نهر الراين، وكذلك الأراضى الخاضعة للنفوذ الفرنسى فى إيطاليا، تضم كلها مواطنين كاثوليك فى أغلبيتهم الساحقة وعلى درجة كبيرة من التدين والولاء للكنيسة. فأى اتفاق يبرم بين حكم نابليون والأكليروس سيعمل ولو بصورة غير مباشرة على تميكن دعائم نفوذه بين هؤلاء الناس. ثم يجب أن نذكر دومًا بأن الفرنسيين هم فى أغلبيتهم من الكاثوليك المؤمنين وأن إلتحاق الكثيرين منهم بالثورة لا يعنى أنهم تخلّوا عن دينهم وألحدوا، ونابليون يرى أن دعوة الكنيسة لممارسة رسالتها المسيحية يرضى الكثيرين من الفرنسيين ويلاقى استحسانهم ولو ضمنيًا(٥).

بعد مفاوضات طويلة وشاقة وعسيرة بين الفرنسيين والكنيسة، لقيت الكثير من المعارضة والعراقيل فى أوساط الفريقين، أمكن الوصول إلى اتفاق نهائى زمن البابا بيوس السابع. وفى ١٦ يوليو ١٨٠١، وقع الكاردينال كونسالفى **Consalvi** نيابة عن الحبر الأعظم اتفاق الكونورداتو فى مدينة باريس بموجب اتفاق الكونورداتو المذكور اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية وبالكاثوليكية ديانة لأكثرية الفرنسيين وأعطى الأكليروس حق ممارسة الطقوس الدينية فى فرنسا بصورة علنية، مع السماح للسلطات الحكومية بالتدخل لتحقيق ضروريات الأمن والنظام العام(٦).

بالمقابل اعترفت البابوية بقوانين مصادرة الأملاك الكنسية التى صادرتها الثورة وتعهدت بألا تعرقل بيع ما تبقى من أملاك الأكليروس حتى ذلك الحين بيد الدولة. على أن تتعهد الخزانة الفرنسية بتأمين مرتبات رجال الدين. ويقوم القنصل الأول بتعيين الأساقفة على أن يوافق على ذلك قداسة البابا، وعند وضع الاتفاقية المذكورة موضع التنفيذ عادت الكنيسة للعمل فى فرنسا إلا أنها فقدت استقلالها القديم وأصبحت إلى حد كبير خاضعة للسلطات المدنية. وعلى أية حال فإن الاتفاق لقي معارضة شديدة من المتطرفين عمن بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ومن كبار ضباط وقادة الجيش الفرنسى الملحدين. وكذلك فى أوساط المثقين والمفكرين والفنانين الفرنسيين بالتيار الحر الذى أوجده كتاب القرن الثامن عشر، غير أن نابليون تجاوز عن هذه المعارضة ووضعها موضع التنفيذ(٧).

أما عن دستور القنصلية فكانت هناك خمس مجموعات تشريعية Codes هى القانون المدنى، وقانون المرافعات المدنية. وقانون الإجراءات الجنائية وقانون العقوبات والقانون التجارى. وقد مرت هذه التقنيات بعدة مراحل قبل أن تصبح نافذة ملزمة فى فرنسا. وهناك هيئات كان لها الدور الحاسم فعلاً فى إقرارها: هما اللجنة الابتدائية التى وضع فيها مشروع القانون المدنى ومجلس الدولة الذى عرضت عليه الاقتراحات وترأس الكثير من جلساته نابليون بنفسه. وكان نابليون ينظر إلى واجباته بعين الجد، فحضر خمسًا وثلاثين جلسة من سبع وثمانين جلسة خصصت للقانون المدنى. وقد انحاز بطبيعة الحال إلى جانب تدعيم السلطة فى الأسرة والدولة جميعًا فناصر فكرة السيادة المطلقة للأب داخل الأسرة على الزوجة والأطفال على حد سواء، وأيد بشدة مبدأ خضوع المرأة للرجل، وسمح القانون المدنى للأب بأشياء كثيرة تصل إلى سجن أبنائه، وسمح بالطلاق ولكنه أحاطه بالقيود، وأيد تقسيم الملكية فأصر على أن تقسم بالمساواة بين الأبناء حصة كبيرة من التركة على الأقل؛ وأمن الكثير من المكاسب التى حققتها الثورة ولكن نفوذ نابليون الشخصى كان مسئولاً

عن تجميد كثير من الأحكام التى أتت بها الثورة مجالاً فيما تمارس فيه نفوذها.

أما القوانين الأخرى فليس لها أهمية القانون المدنى؛ فمحكمة الإجراءات الجنائية إنما هى — من عدة أوجه — صورة للنموذج الإنجليزى على أن نظام المحلفين قد قوبل بهجوم عنيف، وأعلن الكثيرون أنه فى مصلحة المتهم بأكثر مما ينبغى وأنه يحد من سلطة الحكومة، ولكن الرأى قد استقر على الأخذ به فى النهاية، والفضل يرجع فى ذلك إلى حد بعيد إلى نفوذ نابليون. وقد رؤى أن تكون قرارات المحلفين بالأغلبية، وأن تجرى المحاكمات علنًا، وأن يسمح بالدفاع فى جميع القضايا. وتقرر — رغم معارضة الساسة الثوريين — الاحتفاظ فى التقنين الجديد بذلك الإجراء الذى يميز المحاكمات الفرنسية وهو أن يصدر ضد المتهم قرار اتهام تمهيدى سرى فى الغالب من قاضى التحقيق.. وسمح فى العقوبات بعقوبات الوصم ومصادرة الأملاك، بقيود صارمة[8].

أما بالنسبة للتعليم عمل نابليون على إصدار تشريع خاص بالتعليم يتماشى مع فلسفته التعليمية. وقد طبق هذا التشريع فى جميع أنحاء فرنسا، وأهم ما ورد فيه تأكيده على السعى بكل جهد لتحقيق مجانية التعليم الابتدائى للفقراء مما يتيح الفرصة لتعلم جميع أبناء الشعب الفرنسى وعمم سياسته على جميع مراحل التعليم، فأنشأ سنة ١٨٠٨ جامعة تخضع لإشراف الدولة فى العلوم والثقافات وما زالت هذه الجامعة قائمة حتى يومنا هذا ولكى يضمن نابليون تطبيق سياسته ونشر أفكاره فقد أسس (المدرسة العليا للأساتذة) دار المعلمين العالية لتكوين أطر تدريسية للمدارس الفرنسية عامة وشجع تدريس اللغة الفرنسية على حساب اللاتينية[9].

وفى أوائل سنة ١٨٠٠ أصدر نابليون تنظيمًا إداريًا جديدًا للبلاد واعتمد على التقسيم الإدارى الذى كانت الجمعية الوطنية قد أصدرته عند قيام الثورة. والجديد فى هذا التنظيم أن نابليون جعل حكام الأقاليم يعينون من قبل القنصل

الأول بدلاً من انتخابهم من قبل سكان الأقاليم وأقام محاكم إدارية لتؤمن حقوق المواطنين في حالة تجاوز الإدارة الحكومية عليها. ويمكن القول بأن نابليون أقام حكمًا مركزيًا مرتبطًا به مع توفير نوع من الضمانات الديمقراطية المحلية. وفي مجال الأمور المالية أنشا نابليون مجلسًا استشاريًا يهتم بالشئون المالية إلى جانب كل حاكم إقليم، ونظم الضرائب فزاد من واردات الدولة، وطهر الجهاز المالى من المرتشين. والذين أساءوا استعمال الصلاحيات المالية. ويرجع له الفضل في تأسيس (مصرف فرنسا) سنة ١٨٠٠ الذى اعتبر من المؤسسات المالية القوية في العالم(١٠).

أما الإصلاحات العامة، فإنه قام بفتح طرق المواصلات واستصلاح الأراضي وبتجفيف المستنقعات وبنى الجسور وفتح قنوات الرى، وشيد القصور الضخمة فأصبحت باريس بل عموم فرنسا وجهًا جديدًا أغتسل بمياه عذبة متخلصًا من دماء القتل والإرهاب التي عاشتها فرنسا في بعض عهود الثورة لذلك منحته الأمة الفرنسية ثقتها عندما انتخب سنة ١٨٠٠ قنصلاً أول لمدة عشر سنوات، ثم في عام ١٨٠٢ قنصلاً مدى الحياة وفى سنة ١٨٠٤ إمبراطورًا. لقد منحته الأمة الفرنسية هذه الثقة من أجل السلام لكنه خيب آمالها بتطلعاته الحربية نحو التوسع، وكانت هذه نقطة الضعف فى حكم نابليون وربما كان الهدف الذى سعى إليه نابليون منذ البداية، فكان صلح أميان والإصلاحات وسيلة لتعزيز الجبهة الداخلية كمرحلة للفتح والتوسيع.

أما بالنسبة للمجالس الخاصة بالهيئة التشريعية بمقتضى هذا الدستور أربعة(١١).

١- مجلس الدولة: ويختص بوضع القوانين وصياغتها.

٢- مجلس التريبيون: ويختص بدارسة القوانين ومناقشتها.

٣- المجلس التشريعى: ويختص بالنظر فى القوانين للموافقة عليها أو رفضها.

٤- مجلس السناتو: وهو صاحب الحق فى إلقاء النظرة الأخيرة فى القوانين ليوافق عليها أو يرفضها.

١- **مجلس الدولة**: الذى بنى تشكليه بمقتضى المادتين ٥٣، ٥٤ من الدستور، فقد أخذ صورته الأخيرة بقرار من القناصل الثلاثة فى ٢٦ ديسمبر، فأصبح بذلك صاحب الحق فى اقتراح القوانين للعرض على مجلس التربيون، وكان تعيين أعضائه بما فيهم رئيسه من حق القنصل الأول الذى اتخذ لنفسه منصب الرئاسة.

٢- **مجلس التربيون**: ويضم مائة عضو، لا يقل سن كل منهم عن ٢٥ عامًا. ويسقط عشرين منهم كل عام. وكان مقره البالية رويالPalais Royal . ومهمته هى دراسة مشاريع القوانين المرسلة من قبل مجلس الدولة، دون أن يكون له حق رفضها أو قبولها.

٣- **المجلس التشريعى**: وكان عدد أعضائه ثلاثمائة لا يقل سن الواحد منهم عن ثلاثين عامًا. وكان له الحق في التصويت على قبول القوانين أو رفضها دون مناقشتها، وذلك بعد أن يعرضها على أعضاء ثلاثة من مجلس الدولة، ومجلس التربيون. ويتجدد خمس أعضاء هذا المجلس سنويًا مثله فى ذلك مثل مجلس التربيون وكان يعقد جلساته فى "باليه بوربون" Palais Bouribon .

٤- **مجلس السناتو**: كان عدد أعضائه ثمانين. لا يقل سن الواحد منهم عن أربعين عامًا، ويعينون لمدى الحياة وكان اختصاصه ينصب على تعيين القناصل كل عشر سنوات، وكذلك أعضاء مجلس التربيون والتشريعى، وكان له حق رفض أى قانون يقدمه مجلس التربيون إذا رأى أنه غير دستورى. وقد كان كل من سييز وديكو القنصلان السابقان عضوين فى هذا المجلس بل أصبح "سييز" رئيسًا له، وهو مركز مغمور فى الحكومة الجديدة بالنسبة لكفاءته. فالرجل رأى أن يبتعد عن المناصب الرئيسية فى الدولة عندما تبين له أن نابليون لا يحترم المبادئ الجمهورية والديمقراطية. ولكنه شارك "ديكو" والقنصلين الآخرين فى تعيين أعضاء هذا المجلس الذى كان يجتمع فى قصر لكسمبرج Palais Luxambourg .

وكان هذا المجلس أهم المجالس جمعيًا. كما كان هو ومجلس الدولة وحدها موضع ثقة القنصلية. وكان أعضاء مجلس التربيون لهم وحدهم حق المناقشة والانتقاد العلنى، وكانوا يضمنون فيه حمايتهم ممن يكرهون المعارضة.

أما السلطة التنفيذية، فقد نص الدستور الجديد على وضع السلطة التنفيذية العليا بين ثلاثة قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ مدة عشر سنوات، أصبح نابليون بموجب هذا الدستور قنصلاً أول يتمتع بكافة الصلاحيات التى تعطى عادة لرؤساء الجمهوريات أو الملوك، بل تجاوزها أكثر من ذلك، فهو الذى يعيِّن الوزراء وكبار الموظفين ويعلن الحرب ويبرم المعاهدات ويصادق على إصدار القوانين. يضاف إلى هذا إدارته للجيش والحكومة والشئون الخارجية. أما القنصلان الآخران فكانا يساعدانه فى هذه المهام وهما لوبران وكاوبا سيرسى الذين اختارهما نابليون لثقته الشديدة بهما[١٢].

ثانيًا: نابليون والسياسة الخارجية فى عهد القنصلية.

أما جلب السلام إلى ربوع أوروبا، فكان عملاً أكثر مشقة وأبعد منالاً، فإنه رغم انسحاب بول قيصر روسيا من التحالف، وغدوة بعد قليل شديد الإعجاب ببونابرت، ظلت النمسا وإنجلترا تنازلانه، فى ميادين القتال وأغمضتا عيونهما عن رؤية تلويعات القنصل الأول بالصلح.

ولهذا السبب أختار نابليون النمسا هدفًا أول للهجوم باعتبارها أضعف العدوين مركزًا. فقد تمكن من إيقاع الهزيمة بها فى سهولة تبعث على الدهشة عند مقارنتها بحربها مع فرنسا فى العام السابق — فإن نصر مارنجو Marengo الفريد (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) الذى أثار فى فرنسا أشد ضروب التهليل والحماس، والذى كان باكورة الانتصارات التى أحرزتها القنصلية، كان كافيًا لإضاعة التفوق الذى كسبه النمساويون لأنفسهم، بمعونة روسيا لهم إبان غياب نابليون فى القطر المصرى[١٣].

ولم يعر أحد التفاته إلى أن نابليون قصر فى إنجاد مسينا في جنوة، إذ أن رجعة ديزيه Desaix الفجائية من الغرب هى وحدها التى خلصت نابليون من هزيمة منكرة في مارنجو، بل كفى الباريسيين أنه كهانيبال، وعبر جبال الألب وقذف بنفسه فى جسارة وإقدام على مواصلات العدو، وبخمسة عشر مدفعًا مقابل مائتين عند العدو، ظفر ساحق وفى الثالث من ديسمبر من العام نفسه اكتمل نصر فرنسا فى معركة هوهنلندن Hohenlinden ولم يكن النمساويين بالموفقين فى قوادهم. فقد اختير ملاس Melas الهرم ليقف أمام نابليون واختير دوق فى الثامنة عشر من عمره لينازل مورو Moreau .

وقد أدت هذه الانكسارات بإمبراطور النمسا، بطلب وقف القتال وفى صلح لينفيل Luneville (٩ فبراير سنة ١٨٠١) وافق على خريطة لأوروبا وصلت فيها الحدود الفرنسية إلى ضفاف الراين، وإعترف بالجمهوريات الأربع التى أقامتها فرنسا: وهى جمهوريات باتافيا، وهلفاتيا والألب الشمالية والبجوريا – هذه الجمهوريات التى أنشئت لأغراض الدعاية والتأثير فى الخارج. أما وزارة بت Pitt فلم تقبل على الإطلاق الموافقة على تأليف أوروبا على هذا الوضع[١٤].

وكانت هذه الأمور تثير اهتمام بريطانيا ودول أوروبا على حد سواء، ولكن ثمة حوادث معينة كانت تمس بريطانيا مسًا مباشرًا بل وتزعجها لما تحمله من دلالة على أن فرنسا وحاكم فرنسا لم يسقطا من حسابهما بعد فكرة تحدى سلطان بريطانيا على المستعمرات والبحار.

وبدأ نابليون يفكر فى كسب حلفاء جدد لفرنسا فاستطاع بالعقل أن يستميل جودا صديق الملكة فى أسبانيا وصاحب النفوذ فيها. كما استمال إلى جانبه بول الأول قيصر روسيا، الذى بدأ يظهر إعجابه بنابليون، أما نجاحه فى أسبانيا فانتهى به إلى عقد معاهدة تحالف عرفت باسم معاهدة "سان الدفنسو SanIldefonso " فى عام ١٨٠٠، وبمقتضاها حصل على إقليم لويزيانا العظيم. وعن طريق هذه المعاهدة قرر أن يضرب البرتغال حليفة إنجلترا

التقليدية، وقد زاده وثوقًا من أهمية هذه المعاهدة فى صراعه مع إنجلترا موقف الروسيا منه فى تلك الآونة. فقد أظهر قيصر الروسيا ميلاً للتفاهم مع نابليون. وزاد من أسباب ذلك ما كان ينطوى عليه قيصر روسيا من الغضب على إنجلترا بسبب رفضها تسليم مالطة لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا تحت حماية القيصر. ونجح نابليون نجاحًا جديدًا فى توثيق أواصر الود بينه وبين القيصر حينما أعاد إليه عشرة آلاف من الأسرى أعادهم إليه فى حالة طيبة ومظهر لا يشير إلى أنهم كانوا فى حالة أسر، وأخيرًا قبل نابليون وساطة الروس فى الإبقاء على مملكة نابولى[١٥].

ومن ثم ففى ديسمبر سنة ١٨٠٠ كوّن القيصر تحت لوائه الدانمارك والسويد وبروسيا "عصبة الحياد المسلح" League of Armed Neutrality لحماية حقوق المحايدين، وللإضرار ببريطانيا بنوع خاص وقد كانت نقطة من نقط الضعف فى درع بريطانيا أن أسطولها كثيرًا ما سبب خسائر ومتاعب لأصحاب سفن المحايدين أثناء تفتيشها فى بحثه عن بضائع الأعداء أو البضائع المحرمة.

غير أن كيفية ممارسة حق التفتيش هذا، والضوابط والتأمينات التى تحول دون إساءة استعماله، والمجاملات والتعويضات التى تقدم عند مباشرته، كانت ولا تزال معضلة شائكة من معضلات القانون الدولى. وكانت كاترين الثانية قيصرة روسيا قد أعلنت عام ١٧٨٠ مبدأ "حرية البحار" القاضى بأن السفن المحايدة الماخرة عباب البحار فى أعمال مشروعة يجب ألا تتعرض لأى مضايقة من الأساطيل المحاربة. فجاء بول وبعث هذا المبدأ إلى الحياة سنة ١٨٠٠ وهذا مبدأ ما برح إلى يومنا هذا قضية حيّة للخلاف تنقسم بصددها الآراء. برغم أن الأسطول الأمريكى ضرب عرض الحائط فى الطور الأخير من الحرب العالمية الأولى[١٦].

وكان نجاح بول الأول فى الحصول على تأييد الدول الأوروبية الشمالية للدفاع عن مبادئ الحياد المسلح — توفيقًا سعيدًا لنابليون الذى أسرع فى الإفادة

منه. غير أنه في اللحظة التي شرع فيها هذا المشروع يتخذ شكلاً خطرًا على إنجلترا، حينما زحف البروسيون على هانوفر – التابعة للإنجليز وقتئذ – وأخذت الكتائب الدانماركية تحتل همبرج وليبك – في تلك اللحظة إنهار المشروع إنهيارًا تامًا. ذلك أن القيصر اغتيل خنقًا في فتنة نشبت في القصر الإمبراطوري في مارس سنة ١٨٠١، وفي أبريل من العام نفسه حطم نلسون الأسطول الدانماركي في كوبنهاجن، وقد مهدت هذه الحوادث إلى عقد صلح أميان **Amiens** مارس ١٨٠٢ ويغلب على الكتاب أن يقولوا أن أدنجتن **Addington** رئيس الوزراء الجديد، الذي لم يكن بالصلب، سلّم بأكثر مما تطلبه الموقف ولكن الكتاب الفرنسيين يرون عكس ذلك. فقد احتفظت إنجلترا بتفوقها البحري على الأقل دون أن يمس بسوء، ومن بين فتوحاتها العديدة عبر البحار أبقت في يدها ترينداد التي قد انتزعتها من الأسبان، وسيلان التي كانت قد اغتصبتها من الهولنديين.

وإذا كان صحيحًا أن الفرنسيين لم يكن في مقدرتهم على الإطلاق في ذلك الحين أن يلزموا إنجلترا بالتخلي عن الفتوح التي كانت مستعدة أن تتنازل عنها، فإنه صحيح أيضًا أن هذه الممتلكات وراء المحيطات كان من السهل إعادة فتحها بحرية متفوقة إذا ما أستؤنفت الحرب.

ولكن أسوأ نذير كان يهدد سلام المستقبل، هو عدم إبرام فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية فيما بينهما، فإنه طالما بقي التجار الإنجليز يعاملون في فرنسا كأعداء غرباء، تعذر الوصول إلى تفاهم حقيقي بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية[١٧].

ثالثًا: عهد الإمبراطورية ١٨٠٤ – ١٨١٤.

الواقع أن نابليون طوال عهد القنصلية كان إمبراطورًا في سلطانه لا ينقصه إلا احتفال بإعلان اللقب بعد التتويج وقد ساعدت الظروف في الخارج والداخل على التعجيل بإعلان اللقب ففي مايو سنة ١٨٠٣ نقض صلح أميان، فاندلعت نيران الحرب من جديد بين فرنسا وبريطانيا أولاً ثم بين فرنسا وأعضاء الحلف الأوروبي الثالث. فأصبح طبيعيًا أن تلجأ فرنسا إلى مثل هذا القائد العظيم الذى لم تعرف البلاد له نظيرًا في الحرب أو السياسة قبل أيامه.

وقد اشتد اندفاع الناس إليه واللجوء إلى ساحته عندما كشفت الأيام عن مؤامرة خطيرة يديرها "جورج كادودال" **Georges Cadodoual** من إقليم لافنديه. وكان ملكى النزعة ومن حوله آخرون كان من أهمهم وأعلامهم شهرة في عالم الحروب بيشجرو **Pichegeru** ومورو **Moreau** من كبار القواد. وأخطر ما ظهر في هذه المؤامرة عزم القائمين بها على الانقلاب الذى لا يتم أمره إلا باغتيال نابليون وظهر أن بريطانيا كانت على علم بذلك التدبير. واستطاع بونابرت ببعد نظره وقوة عزيمته وسرعة حسمه أن يطفئ نار تلك المؤامرة قبل اشتعالها[١٨] فاعدم "كادودال" ونفى "مورو" وألقى "بيشجرو" في ظلمات السجن حيث لقى حتفه وأدى القضاء على هذه المؤامرة إلى قتل دوق "دانجان" **Duke d'Enghien** ، وكان أميرًا من أسرة كونديه، هاجر مع من هاجروا من فرنسا أو عهد الثورة، وكان مقيمًا في "أيتنهايم **Ethenheim** " في بادن **"Baden"** على مقربة من فرنسا حيث قبض عليه رجال بونابرت، وأعدموه رميًا بالرصاص "فانسين" **Vincennes** بالقرب من باريس وظهر بعد ذلك أنه كان بريئًا من الاشتراك في المؤامرة. واستاءت من ذلك بعض النفوس، وعدت القضاء عليه من أخطاء نابليون الجسيمة.

ولم يبد غريبًا – بعد ذلك من تفاصيل تلك المؤامرة وخطرها على الفرنسيين في الداخل والخارج بصفة خاصة وخطر الحروب المحتمل شنها

علـى فرنـسا بعد نقض معاهدة أميان من أن يرى الفرنسيون فى المناداة بنابليون إمـبراطورًا علـيهم درءًا لـتلك الأخطـار وتعـبيرًا عـن ولائهم له فلم يلبث مجلس الـشيوخ (الـسناتو) حتـى تقـدم بالـموافقة على مرسوم أصدره بمنح نابليون لقب إمـبراطور. وكانـت علاقـات البابا بفرنسا يومئذ لا تشوبها شائبة من خلافات، فانـتقل الـبابا من كرسيه بروما إلى باريس ليتوج نابليون وزوجته "جوزفين" فى كنيـسة "نوتـردام" وكـان ذلك فى عام ١٨٠٤ وهكذا حققت الأيام حلم بونابرت العظيم.

إن الأيـام قـد أظهـرت أن صـلح أمـيان كـان مجرد هدنة مؤقتة، فهذه إنجلـترا تـبين لها أن فرنسا غدت إمبراطورية تتسع أملاكها فى إطراد مستمر، فأصـبحت تضم هولندا وتعمل على استرجاع مستعمرة رأس الرجاء الصالح، كما أصبحت جمهوريتا الألب الشمالية والهلفينية تابعتين تبعية مطلقة لها. وتزداد مطامـع فرنـسا، فتـبعث بحملة لاسترداد جزيرة "سان دومنجو" فى جزر الهند الغربية. وتبين لإنجلترا كذلك أن فرنسا ما زالت تبذل الجهود لاسترجاع مصر، وترسـم مـشروعاتها استعدادًا للتوسع فى الهند، وتبعث بحملة يقودها الجنرال "ديكان" **Decan** لهذا الغرض.

ويـشتد ذعـر أوروبـا مـن سـلوك نابليون الذى أخذ ينقض وعوده، فبدأ يـنقض عهده لبروسيا فى شأن المحافظة على حياد شمال ألمانيا، فاستولى على هانوفر. ولم يكن فى مقدور بروسيا يومئذ أن توقفه عن المضى فيما عزم عليه[١٩].

ولم تـر إنجلـترا بدًا من تخليص نفسها من عهدها الذى اشترطه "صلح أميان" فى عام ١٨٠٢ بشأن تخليها عن جزيرة مالطة، ذلك لأنها كانت تتوقع اسـتئناف الحـرب بيـنها وبـين فرنسا، وأيديها فيما رأت يومئذ كل من روسيا والدولـة العثمانـية، كانـتا تخشيان نتائج توسع بونابرت فى الشرق، وكان أمر التوسع سببًا فى قطع العلاقات بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٨٠٣[٢٠].

وخـلال عامـى ١٨٠٣ و ١٨٠٤ اقتصرت الحرب على احتلال الجيوش الفرنـسية لـبعض المرافئ فـى هولـندا وإيطالـيا وسـواحل الهانوفر. وكانت هذه

المرافئ ذات أهمية كبيرة للتجارة الإنجليزية وساد فى إنجلترا خوف مرعب أن يروا ذات صباح جيوش الثورة الفرنسية ترفع العلم المثلث الألوان على البر البريطانى، ألم يكن نابليون يصرح بصورة مستمرة بأنه يحتاج فقط لست ساعات يسطر فيها على بحر المانش وينتهى كل شئ بالنسبة لبريطانيا؟ وكان الفرنسيون يرفقون تهديداتهم هذه باستعدادات واسعة للغاية فصارت ترسانات السفن الفرنسية تعمل بهمة ونشاط على بناء قوارب وصنادل لنقل الجنود عبر البحر، وأخذ الفرنسيون يتجمعون على شواطئ المانش ويتدربون يوميًا على فنون الحرب البرمائية. ومن كل المناطق الموالية لفرنسا جاءت جيوش حليفة إيطالية وألمانية وبلجيكية وهولندية لتساهم فى إذلال إنجلترا. وكان نابليون يأتى بنفسه للإشراف على هذه الاستعدادات ولإثارة الحماس فى نفوس جنوده. ولتمويل هذه الحملة لم يتردد بونابرت فى عقد صفقة مع الولايات المتحدة الأمريكية تنازل فيها عن مقاطعة لويزيانا مقابل أموال وفيرة[٢١].

عندما بلغت الاستعدادات الحربية مداها وتجمع لدى الفرنسيين جيش يضم حوالى ١٢٠ ألف جندى من خيرة الجنود المدربين ومن أفضل ما يمكن لأوروبا آنذاك أن تقدمه، ساد اعتقاد شامل بأن نهاية الغطرسة الإنجليزية باتت وشيكة. كما أن أكثر المشككين بقدرة الفرنسيين على تحقيق حلمهم باتوا ميالين للاقتناع بأن النصر سيكون لنابليون. وضع نابليون خطة محكمة، فأوعز للأسطول الفرنسى وحليفه الأسبانى بالإبحار إلى جزر الأنتيل ومحاصرتها مما يجعل الأسطول الإنجليزى يلحق بهما هناك لضربهما. فى نفس الوقت يخلو المانش من خط دفاعه الأول أى الأسطول، وينفذ بسرعة كبيرة عملية إنزال جنوده على الشواطئ الإنجليزية إلا أن تنفيذ خطة كهذه تحتاج لذكاء نادر وخيال واسع ومرونة لا حد لها وهى أمور كان يفتقر إليها أميرال الأسطول الفرنسى فيلينوف فتردد وأبطأ فى تنفيذ الخطة مما سمح للأميرال نلسون بأن يفاجئ أسطول فرنسا عند الطرف الأغر أمام الشاطئ الأسبانى وينزل به هزيمة قاطعة ويحطم أكثر سفنه. تم ذلك فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥. بذا انهارت آمال

نابليون كلها وعادت للأسطول البريطانى سيادته المطلقة على البحار وللرعايا الإنجليز طمأنتهم فى جزرهم وثقتهم ببحارتهم[٢٢].

وقد حتمت معركة الطرف الأغر على نابليون بأن يغير مخططاته كلها كانت إنجلترا منذ شهر أغسطس ١٨٠٥ قد وفقت لإقامة تحالف دولى جديد ضد فرنسا يعرف باسم "التحالف الدولى الثالث" يضم إنجلترا وبروسيا والنمسا والسويد إذ كان لكل واحدة من هذه الدول مآخذ على السياسة الفرنسية وعلى تصرفات نابليون. الحكومة البروسية لم تكن راضية عن تدخل نابليون المتزايد فى الشؤون الألمانية. والنمسا كانت تنتظر منذ أمد طويل الفرصة المناسبة للعودة إلى الحرب والثأر لكرامتها التى جرحها الفرنسيون أكثر من مرة. وقد أثار النمسا بصورة خاصة إعلان نابليون الأخير نفسه ملكًا على إيطاليا وضم أراضى جنوى وبارم وبيامون إلى الإمبراطورية الفرنسية. والسويد أيضًا كانت ناقمة على فرنسا غير راضية عن محاولاتها على شئون غرب أوروبا بكامله. وقد عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل مواطن الضعف عند هذه الدول وجرتها فى صيف سنة ١٨٠٥ للتعاون معها وإعلان الحرب على فرنسا.

حين شعر نابليون بما كان يدبر ضده فى أوروبا سيَّر بعض جيوشه التى كانت مرابطة فى شمال فرنسا استعدادًا لغزو إنجلترا ثم أراضى الإمبراطورية النمساوية وذلك بضرب جيوشها قبل أن تكتمل استعدادتها وقبل أن تصلها النجدات العسكرية من حليفتها روسيا. على أن يعود بعد ذلك بسرعة لتنفيذ خطته والنزول فى إنجلترا وقد وصلت الجيوش الفرنسية إلى مدينة أولم **Ulm** على نهر الدانوب حيث كانت تتمركز الجيوش النمساوية. وهناك جرت فى ٢٠ أكتوبر ١٨٠٥ معركة فاصلة هزم فيها النمساويون وفروا مخلفين وراءهم خمسين ألف جندى أسير بيد الفرنسيين، أما بقية الجيوش النمساوية فاتجهت نحو الشرق للاتصال بالجيش الروسى القادم وإعادة الهجوم ضد الفرنسيين. بادر نابليون للإجهاز على الجيش الهارب قبل التقائه بحلفائه.

ولما كان الطريق الأقرب إلى مواقع أعدائه يقع فى أراضى دولة بروسيا المحايدة، التى لم يكن يحمل لها ولمليكها كبير احترام وتقدير، فإنه لم يتردد فى اجتياز حدودها وخرق حيادها مما أغضب عاهلها وجعله يميل لدخول الحرب ضد فرنسا. وجرت بالفعل اتصالات بين الملك المذكور والقيصر الروسى للاتفاق على هذا الأمر[٢٣].

وفى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ جرت أعظم معركة فى تاريخ الإمبراطورية الفرنسية على هضبة أوسترليتز **Austerlitz** فى النمسا. هناك نازلت الجيوش الفرنسية جيوش الدولتين الكبيرتين النمسا وبروسيا وأنزلت بهما هزيمة ساحقة وسريعة قصد منها نابليون إلى حد كبير إرهاب بروسيا فلا تعود تفكر بدخول الحرب. وقد فرّت جيوش الأعداء تحمل عار الهزيمة مخلّفة وراءها ستة وعشرين ألف قتيل.

وكان من أبرز نتائج هذين الانتصارين أن إمبراطور النمسا بادر فى اليوم التالى لمعركة أوسترليتز إلى مقابلة نابليون وأجرى معه مفاوضات للصلح. وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقد تم صلح برسبورج **Presbourg** الشهير الذى أذل النمساويين إلى حد كبير وأطلق يد فرنسا فى إيطاليا وجنوب ألمانيا. أما روسيا فقد انسحبت من الحرب علمياً دون أن توقع معاهدة صلح كما فعلت فى المرة السابقة.

بالنسبة لبروسيا فقد استاء نابليون كثيرًا من تمردها عليه أثناء الحرب ومحاولتها الالتحاق بركب أعدائه ودخول التحالف الدولى الثالث. لذا بادر عقب انتصاراته وفرض عليها معاهدة شائنة حطت كثيرًا من كرامتها تعرف باسم معاهدة شونبرون **Schoenburunn** أخذ منها أراضى كليف **Cleves** ونيوشاتيل **Neufchate** على نهر الراين وجعلها إمارات مستقلة تحت النفوذ الفرنسي وسلخ عنها مقاطعة انسياخ وأعطاها لبارفاريا وبالمقابل أعطى بروسيا مقاطعة الهانوفر الهامة الغنية فأوجد بذلك سببا دائمًا للخصام والنزاع مع الإنجليز لأن المقاطعة المذكورة طالما كانت محط اهتمامهم باعتبارها موطن العائلة المالكة الإنجليزية القديم وجرى توقيع المعاهدة المذكورة فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٥[٢٤].

ولم يكتف نابليون بكل هذا بل أنه بعد عودته إلى باريس، مجللاً بأكاليل النصر والفخار محطمًا التحالف الدولى الثالث مرجعًا الإنجليز والروس إلى عزلتهما السياسية، انشأ اتحاد للدويلات الألمانية اسماه اتحاد الراين وجعله مواليًا لفرنسا يتعهد بأن يقدم لها زمن الحرب سبعين ألف مقاتل[٢٥].

اتصلت بروسيا بالروس بعد اختراق نابليون أراضيها للتنسيق معهم، إلا أنها لم تستمر بسبب انتصار نابليون فى استرليتز ولأملها بأراضى هانوفر التى وعدوا بها لكن البروس شعروا بضرورة قتال نابليون بعد أن علموا أنه يفاوض البريطانيين سرًا لإعادة هذه الأراضى إليهم. فاتجهت إلى روسيا وإنجلترا والسويد لإقامة التحالف الأوروبى الرابع، .وابتدأت بروسيا التحرش بنابليون بأن طلبت منه الانسحاب إلى ما وراء الضفة الغربية للراين، فهاجمها نابليون وانتصر عليها فى معركة بيينا سنة ١٨٠٦ وتقدم فى الأراضى البروسية ودخل برلين ظافرًا. وعندما تراجعت القوات البروسية إلى حدودها مع روسيا بقيادة القيصر فردريك وليم الثالث (١٧٩٧ — ١٨٤٠) لكى تلتقى مع الجيوش الروسية التى تقدمت لنجدتها، خاض نابليون مع الدولتين معركة فريدلاند فى فبراير سنة ١٨٠٧ وحقق فيها انتصارًا جديدًا كان خاتمة لمعارك أوروبا فى هذه الفترة من الحرب[٢٦].

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ عقد اجتماع بين نابليون وقيصر روسيا بعد أن طلبت بروسيا الصلح وتوصل القائدان إلى عقد معاهدة صلح تلست وقعت فى ٥ يوليو من العام نفسه وفيها فرض نابليون عقوبات شديدة على بروسيا سواء فى التصرف بأراضيها أو فى فرض تعويضات حربية باهظة عليها وتحديد قواتها المسلحة وإقامة جيش احتلال دائم فى أراضيها أما روسيا فقد خرج نابليون وقيصرها من الاجتماع صديقين جديدين اتفقا على عدم خسارة روسيا لأى جزء من أراضيها ومساعدتها من قبل فرنسا لتحقيق مصالحها فى فنلندة والدولة العثمانية مقابل اعتراف القيصر الروسى بكل التغييرات التى أجراها والتى سيجريها فى الأراضى الألمانية بموجب معاهدة الصلح مع بروسيا وتعهد

القيصر أيضًا بالانضمام إلى فرنسا فى تنفيذ الحصار القارى ضد بريطانيا. أما السويد فقد هاجمتها حملة فرنسية من الدانمارك وأخرى روسية من فنلندا أجبرتها على عقد الصلح وقطع علاقاتها التجارية مع بريطانيا.

وهكذا انتهى التحالف الإوروبى ولم يبق أمام فرنسا سوى بريطانيا وقبل أن نترك هذا الموضوع لابد من الإجابة على سؤال مهم وهو لماذا انهزمت الجيوش الأوروبية أمام قوات نابليون الأقل منها عددًا وعدة. والحقيقة أن هناك أسبابا واضحة يمكن إجمالها بالنقاط الآتية(٢٧):-

١- التكتل الأوروبى ضعيف من الداخل تتعامل أطرافه فيما بينهما بانتهازية قائمة على الرغبة فى التوسع على حساب الدول الأخرى.

٢- عدم وجود قيادة عسكرية واحدة للجيوش المتحالفة التى كانت أعدادها تصل إلى أكثر من ضعف جيوش نابليون.

٣- كانت جيوش نابليون متناسقة تعتمد على قيادة حازمة ومحبوبة آمن الجنود والضباط لها وكانوا يؤمنون بأنهم يحملون رسالة سامية إلى أوروبا. أى أنهم كانوا أصحاب عقيدة فى القتال لم تكن تتوفر لدى أعدائهم.

٤- قوة البناء الداخلى لفرنسا حيث كانت الجبهة الداخلية تشكل سندا قويًا للقوات المقاتلة، كيف لا وقد خلق منهم نابليون شعبًا عسكريًا مقاتلاً مؤمنًا بدور فرنسا فى نشر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.

٥- كان التجهيز فى القتال والإشراف على سير المعارك وإدارة التموين فى مستوى عالى جدًا يفوق كثيرًا مستوى أية قيادة فى جيوش التحالف الرابع.

٦- إن قيادة نابليون الذكية وشعبيته الواسعة وخططه البارعة وحزمه العسكرى وتعاطفه مع جنوده وضباطه لعب ذلك كله دورًا كبيرًا فى أن تجعل منه قائدًا فذًا فى نظر الفرنسيين، والمهيب الجانب الذى يصعب قهره فى نظر أعدائه.

رابعًا: سياسة الحصار القارى ضد بريطانيا

وقد اتخذ الصراع مع إنجلترا طابعًا جديدًا كان له أثر عميق فى تعديل مجرى الحوادث فى أوروبا حتى سقوط نابليون. فقد يئس نابليون من اقتحام استحكامات بريطانيا البحرية. ولم يجد ثمة ما يشجعه على استئناف السياسة التى فشلت فشلاً ذريعًا فى الطرف الأغر ولكن هل يعقل أن يقف سيد أوروبا الأعلى عاجزا أمام أمة من التجار وأصحاب الصناعات والحوانيت؛ لقد كان يؤمن بأن قوة إنجلترا إنما تكمن فى صادراتها، وبأن الدول الأوروبية هى سوقها الرئيسية ألا يستطيع إذن الحاكم الذى بسط سلطانه على أوروبا إقصاء السفن البريطانية عن جميع موانئ أوروبا فيقضى بذلك على بريطانيا العظمى موتًا وجوعًا لقد كانت تلك سياسية فرنسية تقليدية نوعا ما، ولقد أقرتها الثورة فى أولى مراحل الحرب، ولكنها لم تكن ذاك فى مركز يسمح بتطبيقها[٢٨].

وقد جاء إعلان السياسة الجديدة من برلين فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ولم يكن ثمة ما هو أبلغ دلالة على قوة مركز نابليون من إصداره مراسيمه من عاصمة فردريك الأكبر المهزومة. وقد نددت مراسيم برلين ببريطانيا لخرقها القانون الدولى ولأنانيتها فى سياستها التجارية، وقررت الرد عليها بنفس أسلحتها، فأعلنت حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه. فلم يعد مسموحًا للسفن البريطانية بدخول موانئ فرنسا أو حلفائها، وأصبحت السفن التى تدخل على الرغم من ذلك الأمر عرضة للمصادرة.

وردت الحكومة البريطانية على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة فى يناير ونوفمبر سنة ١٨٠٧. وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وأعلنت أنه ما دام الاتجار مع أوروبا محرمًا على بريطانيًا فليكن محرمًا على الدول المحايدة كذلك. وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى الفرنسية. وهكذا أقصى نابليون بقوته الحربية بريطانيا عن التجارة مع أوروبا، فعزلت بريطانيا

ببحريتها أوروبا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم. ولم تكن هذه السياسة الجديدة فكرة عابرة أو تهديدًا أجوف. فقد تمسك بها نابليون باعتبارها الوسيلة القاطعة لإنزال الخراب ببريطانيا، وأرغم جميع الأمم الداخلة فى نفوذه على انتهاجها. وكانت رغبته فى توسيع مداها سببًا فى حروب أخرى. ولما كفل صلح تلست فى نوفمبر وديسمبر ١٨٠٧ تأييد روسيا وأصبحت جيوشه تقف بلا منازع، عاد يدعم ويؤكد من جديد فى مراسيم ميلانو إعلانه السابق بحظر كافة أنواع التجارة بين أوروبا وبريطانيا[٢٩].

ولاريب فى أن بريطانيا قد قاست من هذا الحظر الذى سمى بالنظام القارى، فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الإفلاس واشتد عناء الناس من سوء الحالة التجارية الناشئ عنه، غير أنه وإن كانت للأسواق الأوروبية أهمية قصوى بالنسبة لبريطانيا، فإن باقى العالم ظل مفتوحًا أمامها. ثم إن الآلات والأساليب الجديدة التى أدخلتها الثورة الصناعية فى إنجلترا قد منحتها تفوقًا كبيرًا فى الإنتاج، فقاست البلاد حقًا ولكن مكابدتها قوت من عزمها على مواصلة الكفاح بدلاً من أن تثبط ذلك العزم.

أما سكان فرنسا نفسها فكانوا يتمتعون فى تلك السنوات بالرخاء من عدة أوجه فقد فتحت غزوات نابليون لتجارتهم مناطق جديدة واسعة، وشوهدت ثمار تشريعات الثورة الاجتماعية فى ازدهار أحوال الزراعة. ولما بدأت فرنسا تقاسى من انقطاع ورود حاصلات المستعمرات نتيجة لسياسة بريطانيا، تمكن العلم الفرنسى، بمؤازرة الدولة وتوجيهها من تقديم بعض الحلول، فقد ارتفعت أسعار السكر ارتفاعًا خياليًا، ولكن العلماء الفرنسيين تمكنوا من استخراج السكر من البنجر وأصبحت هذه الصناعة الجديدة منذ ذلك التاريخ موردًا دائمًا من موارد الثورة الفرنسية، كما صنعوا النيلة أو بمعنى آخر حصلوا على بديل. وعلى الرغم من ذلك كانت هناك بعض الصناعات لم تجد من يقبلها من عثرتها، ولكن أسوأ نتائج نظام نابليون القارى لم تكن تشاهد فى فرنسا نفسها وإنما فى الدول الأوروبية الواقعة تحت سيطرتها، وقد تجلى هذا

بصورة أقوى عندما عمد نابليون إلى فرض رسم جمركى عال – وصل غالبًا إلى نصف القيمة – على جميع حاصلات المستعمرات إيمانًا منه بأن كل ما يصل منها إلى أوروبا إنما هو من تهريب البريطانيين[٣٠].

وقد تأثرت هولندا التى كان يحكمها لويس أخو نابليون تأثيرًا سيئًا بسياسة الحصار القارى، ولم تلق شكواها آذانًا صاغية رغم عطف لويس على أهلها. ولم يجد لويس أمامه غير أن يتنازل عن عرشه المزعزع. ومع ذلك فإن حالة هولندا لم تتحسن، وضمت إلى فرنسا فى يوليو سنة ١٨١٠. وقد دفعت نابليون عوامل مماثلة لكى يضم الساحل الشمالى الغربى لألمانيا إلى فرنسا. وبرر نابليون هذه السياسة بأن التجارة الإنجليزية ستجد لها منفذًا إلى القارة الأوروبية، وفى الواقع أن نابليون قد أضر بنفسه وبمركزه فى الدول التى كان مسيطرًا عليها. فمن الواضح أنه لو كان هناك أى احتمال لبقاء هذه الممالك تحت سيطرته، فإن تطبيق سياسة الحصار القارى عليها كانت كفيلة بالقضاء على هذا الاحتمال؛ لأن هذه السياسة قد أساءت اقتصاديا إلى هذه الأقاليم إساءة بالغة، فجعلها تنسى ما أدخله نابليون من إصلاحات اجتماعية وإدارية.

كما أن سياسة الحصار القارى قد سببت لنابليون كثيرًا من المتاعب بل كانت سببًا فى المصائب التى نزلت به، وكانت فى النهاية العامل الأساسى فى سقوطه. ولكن نابليون لم يكن يرى بيده سلاحا لمحاربة أعدائه وفى مقدمتهم إنجلترا سوى هذا السلاح، ونعنى تطبيق سياسة الحصار القارى واقتضاه ذلك أن يبسط نفوذه السياسى على كل من إيطاليا وأسبانيا حتى يجعل من ذلك سلاحًا ماضيًا. وقد أدى ذلك إلى إثارة الشعور الدينى والقومى فى آن واحد[٣١].

أما الصعوبة الكبرى فكانت أدبية، فإن تنفيذ الحصار الإيطالى تنفيذًا مشددًا كان ينطوى على إثارة نابليون النزاع مع البابا. ولذا كان خللاً خارقًا للعادة حسن تقدير رجل عبقرى مثله للأمور، رجل يدرك إدراكًا كاملاً أهمية احترام عواطف الكاثوليك فى إمبراطورية مترامية الأطراف، فإنه بدلاً من حيدة

الفاتيكان، نفى البابا فى مايو سنة ١٨٠٩ من ولاياته، وألقاه فى السجن، وضم أملاكه، وربطها بالنظام الإدارى للإمبراطورية الفرنسية.

ومع أن الإيطاليين هم على الأرجح أقل شعوب البحر المتوسط تدينًا، إلا أن البابوية كانت فى نظرهم تمثل مجدًا من أمجاد وطنهم التاريخية ولذا استنكروا هوانها، واستثارهم تحقيرها. والحق أنه من بين أخطاءٍ نابليون الخطيرة، لم يكن ثمة غلطة قدر لها أن تهز من الأعماق أسس سلطانه، لا فى إيطاليا وحدها، بل فى جميع أنحاء العالم الكاثوليكى، أشد من هذه الإهانة التى وجهها بلا مسوغ وبلا ضرورة للكرسى البابوى، وللتقاليد الرومانية[٣٢].

كانت تلك نتائج سياسته فى إيطاليا أما فى أسبانيا فقد أثار الشعور القومى، فأسبانيا مع ما اتصفت به من ضعف إدارتها لم ترض الخضوع لحكم أجنبى كما كان الحال بالنسبة لإيطاليا، الأمر الذى سهل على نابليون غزوها، إذ اعتبره أهلها منقذا لهم من الحكم الأجنبى. لذلك أصيبت القوات الفرنسية بأول ضربة وهزيمة برية. ولو رزق نابليون يومئذ شيئًا من الحكمة والتروى لاكتفى بغزو البرتغال، ولما أقحم نفسه فى غزو أسبانيا. ولكن إصراره على تنفيذ سياسة الحصار القارى هى التى دفعته لذلك.

أما عن البرتغال فقد فشلت كل جهود بونابرت لإقناع البرتغاليين بمقاطعة إنجلترا لما بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وثيقة. ونظرًا لكون مرافئ البرتغال قد تحولت إلى مراكز لتهريب البضائع الإنجليزية إلى القارة عزم نابليون على احتلال هذه البلاد. وعقد لذلك مع رئيس الوزارة الأسبانية جودا الوصولى المفتقر إلى أبسط مبادئ الأخلاق والضمير والمكروه لدرجة لا توصف من شعبه، اتفاقا يقضى بالسماح لجنوده بالعبور إلى البرتغال عبر أراضى أسبانيا على أن يتقاسم البلدين الغنيمة فيما بعد.

ولم يجد الجيش الذى أرسل عبر أسبانيا بقيادة الجنرال جينو **Junot**، أية صعوبة فى احتلال البرتغال. ذلك العرش البرتغالى. نظرًا لما كان لفرنسا آنذاك من سيطرة ومهابة ولم يفكر حتى بالمقاومة، وفرت العائلة المالكة إلى

البرازيل تاركة القائد الفرنسى يتم احتلاله للبلاد دون مقاومة فعلية. وكان ذلك فى عام ١٨٠٧[٣٣].

عقب احتلال البرتغال ظلت بعض القوات الفرنسية مرابطة فى أسبانيا بحجة أن ذلك ضرورى لتأمين الدفاع عن شواطئ البرتغال. إلا أنه فى الواقع وأمام السهولة التى تم بها احتلال البرتغال فكر نابليون بضم أسبانيا إلى أملاكه متجاهلاً أنها بلد حليف وصديق لفرنسا، وأن جيوش فرنسا دخلت أراضيها صلحًا وبموافقة حكامها على أن تغادرها فور تحقيق الحملة الفرنسية لأغراضها فى البرتغال. وهناك أمر آخر ربما أغراه بالبقاء وهو أن الفرنسيين اكتشفوا أن الكثير من المدن والقرى والسواحل الأسبانية كانت تتاجر بصورة سرية ناشطة مع الإنجليز وتتولى تهريب بضائعهم إلى أسواق أوروبا متجاهلة قوانين الحصار. ثم أن حكومة مدريد كانت أضعف من أن تفرض سيطرتها ورقابتها على كل البلاد لتقضى على أعمال التهريب.

وتحقيقًا لفكرته الطارئة عيّن نابليون مورا **Murat** قائدًا عامًا للجيوش الفرنسية فى أسبانيا وكلفه مهمة احتلال كل أراضيها تدريجيًا. أرتكب نابليون بتصرفه هذا خطأً لا يقل فداحة عن احتلاله لأراضى البابا. فالأسبان هم أكثر شعوب أوروبا تمسكًا بالدين وأقلهم تأثرًا بالمبادئ المتحررة الشائعة فى فرنسا؛ كانوا إجمالاً متخلفين سياسيًا وثقافيًا وفكريًا. فهم رغم استبداد ملوكهم وفسادهم وبطانتهم السيئة، وتردى أوضاع بلادهم، ما كانوا يشعرون أنهم فى وضع سيئ، وأن شيئًا مهمًا اسمه الحريات ينقصهم، وبالتالى فإن منجزات الثورة فى فرنسا لم تكن تثير عندهم أى رد فعل إيجابى. ثم أن أسبانيا بلد متماسك قوميًا لدرجة كبيرة اكتسب شعورًا قويا بالوطنية والوحدة منذ أيام صراعه مع المسلمين. والبلدان التى حاربها نابليون حتى ذلك الوقت وانتصر عليها كألمانيا وإيطاليا والنمسا والروسيا لم تكن تعرف الوحدة القومية المتماسكة ولا كانت مترابطة ولا كانت مترابطة الأجزاء. أما فى أسبانيا فكان عليه أن يواجه بلدًا موحدًا منذ قرون عديدة. وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية[٣٤].

وقف الأسبان منذ البداية من المحتل الفرنسى موقف العداء الشديد. وبدأت المقاومة فى الأوساط الشعبية وبين الفلاحين فى الأرياف تخلق المصاعب للمحتلين، وفى نفس الوقت كانت جيوش الاحتلال فى تزايد مستمر لتصبح قادرة على احتلال الأراضى الأسبانية. وعندما شعر الملك الأسبانى بنوايا الفرنسيين حاول مع أعوانه وعائلته أن يترك العاصمة ويستقر فى المرفأ الأسبانى الشهير قادش حيث يمكنه إذا أشتد الخطر أن يسافر إلى أمريكا الجنوبية. استاء الشعب كثيرًا فى العاصمة من هذا التصرف الذى يفتقر للشجاعة والعزة القومية فثار وأجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه فرديناند السابع. تذرع ميرا بهذه الاضطرابات وأمر جيوشه بدخول العاصمة الأسبانية للقضاء على مقاومى الاحتلال الفرنسى ولفرض النظام والأمن فيها. ولما لم يتمكن من التوفيق بين الملك القديم المخلوع، وكان قد أقنعه بالبقاء فى العاصمة وعدم الهرب، وبين الملك الجديد الحائز على ثقة جماهير الأسبان وعطفهم، أرسل ميرا، العائلة المالكة كلها إلى بايون Bayonne فى فرنسا، حيث استعمل نابليون كل ما عنده من أسباب الحيلة والدهاء وجعل الاثنان يتنازلان عن العرش الأسبانى وعهد بتاج مدريد إلى شقيقه جوزيف الذى كان ملكًا على نابولى وأعطى عرش هذا الأخير لميرا قائد الحملة الأسبانية؛ لم يفهم الأسبان الأحداث الجديدة، وظلوا متمسكين بملكهم الأسبانى المخلوع وبولائهم لعائلتهم الملكة، وبضرورة إعادة فرديناند إلى عرشه باعتباره الوريث الشرعى الوحيد للعرش. أما الملك الجديد جوزيف بونابرت فلم يروا فيه إلا وجه أجنبى مغتصب مستعمر(٣٥).

ولما كان رجال الدين الأسبان يرون فى بونابرت واحدًا من أبناء الثورة الفرنسية الملحدة التى اضطهدت الدين ورجاله وحطمت عظمة الكنيسة الفرنسية وقوتها، فقد حملوا بقوة وشجاعة لواء التصدى للاحتلال الفرنسى وأخذوا يثيرون الأمة والولاء للكنيسة بعاطفة وطنية جامحة جعلتهم دومًا فى طليعة رجال المقاومة ضد المحتلين الملحدين. كما أنهم عملوا على إفهام الأشراف

الأسبان وكبار الملاك الأراضي حقيقة المبادئ التي يمكن أن تزرعها الثورة الفرنسية بواسطة جنود نابليون في قلوب الفلاحين الأسبان. مما قد يؤدى لانهيار امتيازاتهم. وراح رجال الدين بعد ذلك يوقظون في عامة الأسبان العاطفة الدينية الراسخة طالبين منهم محاربة أعداء المسيح والمسيحية. ولما لم تكن أصلا فلسفة الثورة الفرنسية ومبادئ الحرية قد لاقت هوى عند جماهير الأسبان فإن صيحات رجال الدين لاقت آذانًا صاغية وهبت أسبانيا بأسرها لمقاومة الجيوش المحتلة التي تضم مائة وستين ألف جندي من جنسيات وقوميات متعددة[٣٦]. ولن يكون عجيبًا بعد ذلك أن تهزم القوات الفرنسية تحت قيادة "دوبون" في واقعة بايلن Beylen في جنوب أسبانيا في يوليو سنة ١٨٠٨ وكانت هزيمة منكرة أخذ فيها القائد أسيرا ومعه حوالى ٢٣,٠٠٠ أسيرًا. وقد أثارت هذه الهزيمة دهشة أوروبا، كما شحذت الهمم على مقاومة نابليون فكانت هذه فاتحة أبواب الشر على حياة ذلك القائد الذى أرعب الدنيا حتى باتت تخشاه وبات حكامها يهابون لقاءه والاصطدام به. ولا أدل على حرج موقف الفرنسيين في أسبانيا عقب هذه الهزيمة من أن يهتز نابليون نفسه، فيغادر فرنسا ليظاهر جيشه المنهزم في أسبانيا ويشجعه ويعيد الثقة إلى جنده[٣٧].

خامسًا: عوامل انهيار إمبراطورية نابليون.

أفاقت أوربا من غشيتها وحاولت القضاء على السيطرة الفرنسية واستخدمت نفس الوسائل التي تغلبت بها جيوش فرنسا على أوروبا. ويبدو أن الثورة الفرنسية حملت معها جراثيم هدمها، فلقد دخلت الجيوش الفرنسية البلاد المفتوحة بمبادئ الثورة وهي الحرية والإخاء والمساواة وحكم الشعوب نفسها بنفسها. لذا سنجد أن هذه الشعوب ستعمل على تطبيق تلك المبادئ والاحتفاظ بحقوقها. فالشعب الفرنسي كان يحارب حكومات لا قوميات. وبينما كان الشعب الفرنسي ممثلاً في الجيش كانت الجيوش الأوربية جيوش مرتزقة لا

تمثل الشعوب. ولقد وجدت شعوب أوروبا أن الحكم الفرنسى ليس فى صالحها دائمًا وأن نابليون يعمل على أن يقوم كل شعب بدفع نفقات النصر الذى أحرزه وأعباء جيش الاحتلال، وقد وجد كل شعب من الشعوب الأوروبية. أن نابليون وفرنسا من ورائه لا يعمل إلا لمصلحة فرنسا وحدها. ولم يكن حكم نابليون لها حكمًا ديمقراطيًا. بل كان حكمًا قائمًا على الاستبداد. فكأن هذه الشعوب قد استبدلت حكمًا استبداديًا بآخر من نوعه. وستجد أن هذه الشعوب التى أيقظتها صيحات الحرية ستعمل على إدخال النظم والأساليب الحربية الفرنسية حتى تحارب فرنسا بنفس سلاحها. هذه بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية من جراء حصار إنجلترا لأوربا وحصار نابليون للجزر البريطانية. فأصبحت أوروبا مملوءة بالجنود لا تحترم إلا مصلحة فرنسا ومصلحة نابليون.

كما كانت أوروبا تشعر شعورا واحدًا إزاء فرنسا. وهو الشعور بالعداوة بعد أوسترلتز وبيينا وفريدلاند. فالعلاقات تحسنت نوعًا ما بعد تلست بين فرنسا وبروسيا ولكنها كانت ثقة مؤقتة والنمسا ولو أنها سلمت لنابليون فى صلح برسبرج إلا أنها سلمت مرغمة، وستنتهز الفرصة للقضاء على نابليون. وسنجد الدول الأخرى مثل أسبانيا تتألب على فرنسا، وهذه الدول فى مجموعها أقوى من فرنسا من الناحية الحربية ومن ناحية الثروة، وكانت هذه الشعوب تدفع ثمن هذه الحروب عن طريق الضرائب المنتظمة وتقديم زهرة شبابها لخدمة نابليون، فإذا كانت هذه الدول تستطيع تقديم محاربين لنابليون لتثبيت دعائم حكمه الاستبدادى فى أنحاء أوروبا كان بوسعها أن تستخدم هؤلاء الشبان فى القضاء على النفوذ الفرنسى وحكم نابليون[٣٨].

كما ساهمت الحملة الفاشلة على روسيا ومعركة الأمم[٣٩] فى انهيار إمبراطورية نابليون، فلم يسترح نابليون بعد حربه مع النمسا فقد بدأت العلاقات تتدهور بينه وبين قيصر الروسيا لأسباب عديدة أهمها أن نابليون لم يف بوعوده إلى القيصر الروسى فى تحقيق مطامعه فى السيطرة على الآستانة

ومضيقى الدردنيل والبوسفور قلب الدولة العثمانية وحلم روسيا الأزلى في الوصول إلى المياه الدفيئة.

من جانب آخر فإن الحصار القارى قد أضر بروسيا البلد الزراعى وهى بحاجة إلى المنتوجات الصناعية، إذ كانت تجارتها تعتمد على تصدير المواد الزراعية واستيراد المواد الصناعية فتأثرت التجارة الروسية وتدهور مصالح التجار والزراع مما شكل ضغطاً على القيصر اضطره سنة ١٨١١ إلى السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى بلاده فاعتبر نابليون هذا العمل خروجًا على صلح تلست وعملاً عدائيًا. وقد زاد من حدة العداء من جانب روسيا زواج نابليون من ابنه إمبراطور النمسا التى عارضت والدتها الروسية زواج إحدى أميرات آل رومانوف من رجل وضيع المنبت مهما كان مركزه السياسى، يضاف إلى هذا أن الأميرة أرثوذكسية ونابليون محسوب على الكاثوليك رغم أنه لم يكن متدينا، لذلك تردد الروس فى إرسال موافقتهم لنابليون وتأخروا فى الرد عليه فى ذلك فبادر نابليون إلى طلب يد الأميرة مما اعتبر إهانة كبرى بحق روسيا وعائلتها المالكة. ولا شك أن رغبة القيصر فى أن يلعب دورًا رئيسيًا فى السياسة الأوروبية قد دفعه إلى التخلى عن تحالفه مع نابليون تحرضه وتدعمه فى ذلك الطبقة الأرستقراطية الروسية الشديدة العداء لنابليون صاحب أفكار التحرر والثورة[٤٠].

فى ١٢ إبريل سنة ١٨١٢ كان القيصر الروسى قد أنجز استعداداته، وجه إنذارا إلى نابليون يطلب فيه إليه أن يتخلى عن تنظيماته فى ألمانيا وأن يأمر بجلاء جيوشه عن بروسيا. ولما كان نابليون يستعد منذ أمد بعيد لمثل هذا اليوم، ولم يكن من القادة الذين ينصاعون لأمر ويقبلون إنذار فقد غادر فرنسا على رأس جيش ضخم يتألف من سبعمائة ألف مقاتل من قوميات عديدة. كان هناك جنود فرنسيون وألمان وبولونيون وطليان وإسبان وسويسريون وبرتغاليون. ولعل فى تعدد جنسيات هذا الجيش نقطة ضعف كبيرة إذ جعلته عديم الانسجام يصعب التفاهم بين فرقه المختلفة بسبب اختلاف اللغات والقوميات

وطرق الحياة. وكان جيش أعدائه الروس يتألف من ربع مليون جندى تجمعهم رغبة واحدة هى الدفاع عن أرضهم وبلدهم.

وقد استفاد الروس كثيرًا من تجارب الأسبان فحاولوا ألا يخوضوا معركة رئيسية قد تكون فاصلة ضد نابليون. فأخذوا يتراجعون نحو المشرق تاركين الفرنسيين يبتعدون عن طرق مواصلاتهم الأساسية ليستنفذوا أكبر قدر ممكن من مئونتهم ومن طاقات جنودهم. وفى أغسطس وقع أول صدام بين الفريقين عند مدينة سمولنسك **Smolensk** فى منتصف الطريق بين الحدود والعاصمة موسكو. انتصر الفرنسيون وأحتلوا المدينة غير أن الجيش الروسى انسحب نحو الداخل دون أن يترك لعدوه فرصة القضاء عليه. أخذ نابليون يتقدم نحو الشرق ودخل العاصمة موسكو فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ فوجدها خالية من سكانها الذين غادروها قبل وصول الفرنسيين. وفى مساء ذلك اليوم أشعلت النيران فى المدينة بأمر حاكمها. ارتد نابليون خارج المدينة وبقى هناك مدة شهر كامل ينتظر أن يعرض عليه القيصر الصلح إلا أن هذا رفض كل صلح أو مفاوضة مع الفرنسيين. وفى أكتوبر أمر جيشه بالعودة إلى فرنسا إذ كان يخشى قيام ثورة داخلية هناك وانضمام الدول الأوربية إلى روسيا. ذلك أنه خلال غيابه عن البلاد كثرت هناك الدسائس والمؤامرت ضد حكمه الذى جرَّ على فرنسا الويلات والكوارث[٤١].

فى طريق العودة مات عشرات الألوف من الجنود الفرنسيين بردًا وجوعًا وفى نفس الوقت كانت فلول الجيوش المنسحبة تتعرض لهجمات وحشية من الجيوش الروسية ومن فرسان القوازق من كل جانب. ولم يصل إلى الحدود البروسية من ذلك الجيش الضخم سوى مائة ألف جندى تقريبا[٤٢]. فلما بلغ أوروبا كانت شعوبها عامة قد تحولت إلى حلف يعاديه ويستعد للقضاء عليه، وكان شعب بروسيا خاصة أكثر الشعوب الأوروبية استعدادًا لمحاربته انتقامًا لكرامته. فأحاط بمليكه يستحثه على التحالف مع روسيا، فعقد معها معاهدة "كاليش" **Kalish** فى فبراير ١٨١٣، اتفق الطرفان على ألا ينفرد

أحدهما بعقد صلح مع فرنسا، وتعهد القيصر بأن يعيد لبروسيا ما فقدته من أملاك ثم أن يرد على ألمانيا كلها حريتها، وأراد أن يستوثق من استعداد الشعب الألماني في قبول هذا العرض، فأعلن على أمرائه أن من يتخلف منهم عن مشاركته فى محاربة نابليون سوف يفقد فى النهاية أملاكه[٤٣].

وتبدأ هذه الحرب بأن يهاجم جيش الحليفين روسيا وبروسيا القوات الفرنسية التى يقودها نابليون فتضطرها إلى التقهقر غربا. فتظفر باحتلال همبورج Hamburg عند مدخل نهر الألب ثم درسدن فى سكسونيا، ولكنها مع ذلك لم تظفر بقهر نابليون الذى لم يلبث أن انتصر على غريميه المتحالفين: فأوقع بهما هزيمتين أحدهما فى لوتزن Lutzen فى اتحاد الراين والثانية فى بوتزين Butzen بسيلزيا. ولكن انتصار نابليون فى هاتين المعركتين لم يرق بقيمته إلى المستوى الذى حققته له الظروف بعد معركتى "استرلتز" فخسائره بالرغم من الانتصار فى المعركتين الأخيرتين كانت فادحة. وأحس أن روح الجند من حوله قد تغيرت ولم يصبح كما كان بالقائد المطاع[٤٤].

وترتب على ذلك أن تحرير ألمانيا لم يكن ليتم من غير مساعدة فعلية من الإمبراطورية النمساوية. ولكن هذه الإمبراطورية وقتئذ فى جملتها دولة غير جرمانية، وقد قللت بإطراد تعهداتها فى الغرب، فتخلف عن البلجيك وحدود الراين وتنازلت عن ممتلكاتها القديمة فى سوابيا Swabia وشاهدت اختفاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى شئ من الارتياح. وكانت تهتم بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا، ومن ثم على الفاتيكان، أكثر من اهتمامها باستئناف هذه العمل المحفوف بالمخاطر والجحود، وهو حماية ألمانيا من الاعتداء الفرنسى فى الغرب. فيما كان الزعيمان السياسيان يرومان أن يطردا نابليون من ألمانيا بالطعان والنزال، ومن ثم يخلقان دولة ألمانية متحدة، كان مترينخ Metternich (١٧٧٣ – ١٨٥٩) يرغب فى فرص توسطه مع الفرق المتناحرة، ويدعو إلى مؤتمر للصلح. فوافق نابليون على هذا الاقتراح[٤٥].

علـى أيـة حال لم تكن النية خالصة من جميع الأطراف للصلح وانتهى ذلـك بقـيام الحـرب بـين الطرفين انتهت بهزيمة نابليون خمس مرات متتالية. ولم ينـته الأمـر علـى ذلك. فالتقى نابليون بخصومه جمعيًا من روس وبروسيين وألمـان وسويدين وإيطاليين في لينزبج لمواجهته، فتقع بينهم وبينه فيها معركة الشعوب، خسر فيها نابليون خمسين ألف من جنده، وفر الباقين من رجاله إلى الـراين. فـبلغه فـى ديـسمبر بعـد ان فتكت الأمراض بأكثرهم، وهنا قضى على سـلطانه في شرق الراين وتتابعت المصائب تلاحق نابليون، فتنسحب قواته من أسـبانيا حتـى تـبلغها الجـيوش البريطانية بقيادة ولنجتنن **Wellington** الذى عـزم علـى غـزو فرنـسا قاصدًا إليها من الجنوب وانتهى ذلك بأن طلبت فرنسا الصلح وسقط نابليون.

(١) فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٥٨.

(٢) نفسه، ص٥٧، ٥٨.

(٣) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص١٩٦، ١٩٧.

(٤) نفسه، ص١٩٧.

(٥) عبد العزيز نوار، عبد المجيد النعنعى: التاريخ المعاصر، ص٩١، ٩٢.

(٦) نفسه، ص٩٢.

(٧) نفسه، ص٩٢.

(٨) جرانت، تمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين ١٩، ٢٠، ج٢، ص١٩٠.

(٩) محمد مظفر الأدهمى، أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٤.

(١٠) نفسه، ص٣٦.

(١١) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٠٠.

(١٢) محمد مظفر الأدهمى، المرجع السابق، ص٣٤، ٣٥.

(١٣) فشر، المرجع السابق، ص٥٩.

(١٤) نفسه، ص٥٩، ٦٠.

(١٥) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٠٤.

(١٦) فشر: المرجع السابق، ص٦٣.

(١٧) نفسه، ص٦٤.

(١٨) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢١٣.

(١٩) نفسه، ص٢١٤، ٢١٥.

(٢٠) نفسه، ص٢١٥.

(٢١) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى: المرجع السابق، ص١٠٢.

(٢٢) نفسه، ص١٠٣.

(٢٣) نفسه، ص١٠٤.

(٢٤) نفسه، ص١٠٥.

(٢٥) نفسه، ص١٠٦.

(٢٦) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٤٣.

(٢٧) نفسه، ص٤٤.

(٢٨) جرانت، تمبرلي: المرجع السابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٢٩) نفسه، جـ٢، ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٣٠) نفسه، جـ٢، ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٣١) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٣٢) فشر: المرجع السابق، ص٨٥.

(٣٣) عبد العزيز نوار، عبد المجيد تعنعي: المرجع السابق، ص١١١، ١١٢.

(٣٤) نفسه، ص١١٢.

(٣٥) نفسه، ص١١٣.

(٣٦) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص١١٥.

(٣٧) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢١٩.

(٣٨) محمد محمود السروجي: تاريخ أوربا السياسي والاقتصادى فى القرن ١٩، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص٧٦.

(٣٩) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٥٠.

(٤٠) نفسه، ص٥٠، ٥١.

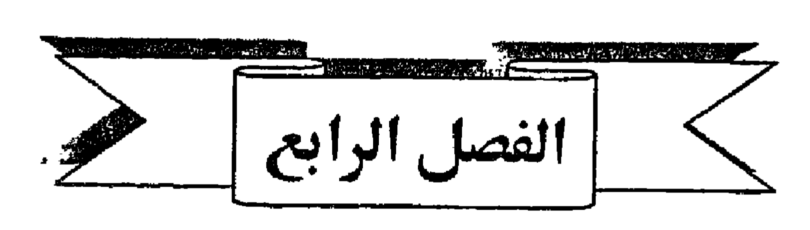
(٤١) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص١٢٤، ١٢٥.

(٤٢) نفسه، ص١٢٥.

(٤٣) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٣٨.

(٤٤) نفسه، ص٢٣٨.

(٤٥) فشر: المرجع السابق، ص١٠٤- ١٠٥.



﴿مؤتمر فيينا (١٨١٤ – ١٨١٥) ونظام المؤتمرات﴾

أولاً : الوضع قبل عقد مؤتمر فيينا

ثانياً : التمهيد لعقد مؤتمر فيينا

ثالثاً : الأسس التى قامت عليها تسوية فيينا ونتائجها

رابعاً : نظام المؤتمرات

مؤتمر فيينا [١٨١٤ - ١٨١٥]
ونظام المؤتمرات

أولاً: الوضع قبل عقد مؤتمر فيينا

اقتضت الظروف السياسية بعد هزيمة نابليون ونفيه إلى جزيرة إلبا Elba حلفاء دول أوروبا الكبرى على الاتفاق على تسوية أمور أوروبا، وفي مقدمتها النظر فيما ينبغي أن يكون عليه مستقبل فرنسا. فكان قرارهم في تنفيذ ما نصت عليه معاهدة باريس الأولى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤، وتميزت باعتدال سياسي، فلم تطالب تلك الدولة بدفع غرامة أو تعويض حربي، ولم يصر أعداؤها على احتلال أرضها، بل لم يكن هنالك حتى هذا الشرط، وهو أن الكنوز الفنية التي نهبتها فرنسا من متاحف أوروبا، يجب أن تعاد إلى أصحابها الشرعيين. حقًا أن فتوح نابليون الأجنبية سلخت منها؛ ما في ذلك شك. ولكن مما هو جدير بالملاحظة أنه برغم انتصار الحلفاء الكامل، وبرغم طول الحرب ومرارة القتال، فقد أعطى لويس الثامن عشر رقعة من الأرض أكبر قليلاً من تلك التي كان أخوه لويس السادس عشر يملكها قبل اندلاع الثورة. ذلك أن تطبيق أبسط قواعد الحكم السليم كان كافيًا لأن يظهر للحلفاء بان حليفهم لويس الثامن عشر لن يستطيع الاحتفاظ بعرشه المزعزع تحت ظلال صلح مرهق مذل[1] وأعلنت المادة الثانية أن حدود فرنسا لابد وأن تظل كما كانت عليه في ١ يناير ١٧٩٢، واقتضى ذلك أن يضاف إليها بعض البقاع عند حدودها الشمالية والشرقية، بشرط أن تتعهد فرنسا بأن تكتفي بذلك، وألا تطمع في السيطرة أو الإشراف على أي بقاع أخرى فيما وراء حدودها الجديدة. وكان ربح فرنسا من وراء هذه المعاهدة مساحة قدرها ١٥٠ ميلاً، ويسكنها ٤٥٠,٠٠٠ نسمة، وذلك على الرغم من أنها أفقدتها السيطرة على هولندا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وجزيرة مالطة.

وتقرر فى نفس المعاهدة أن تضم من مستعمرات فرنسا جزيرتا توباجو Tobago وسانت لوتشيا Santa Lucia إلى إنجلترا، وأن تسترد أسبانيا نصيبها من فرنسا من جزيرة سان دومنجو "San Domingo"[٢] واحتفظت فرنسا بأفنيون Avinon (فى الجنوب على نهر الرون) ومونتبليار MontebelLiard وملهوسن Mihausen (فى الشرق فى إقليم الراين الأعلى) وشامبرى Chambery وأننسى Annecy وكانت فرنسا قد استولت على هذه الأقاليم قبل ١٧٩٢. وكذلك احتفظت بحقوقها القديمة فى الصين وفى نيوفوندلاند والجزيرة الإنجليزية فى أمريكا الشمالية[٣] وظاهر مما تقدم أن تصرف الحلفاء لم يكن الباعث عليه شئ من العواطف بل كانت النظرة فيه تهدف إلى تهدئة الحال وإقرار السلام حتى تهدأ خواطر الفرنسيين. ولا أدل على ذلك من أنهم تركوا للفرنسيين بعض الأراضى الألمانية التى كانت تسيطر عليها فرنسا عند مطلع أحداث الثورة تجنبًا لحقد الفرنسيين على الحلفاء بسبب القرارات القاسية خشية أن يتكتل فريق من الذين يؤيدون نابليون ويقضون على حركة من يريدون مساندة ملكية البوربون التى أعادها الحلفاء إلى فرنسا ممثلة فى شخص لويس الثامن عشر (١٨١٤ - ١٨٢٤) الذى تعهد لقاء ذلك الموافقة على قرارات عند صدورها[٤].

ويذكر عمر عبدالعزيز أنه بعقد الصلح مع فرنسا فى معاهدة باريس الأولى انتهت الحروب التى بدأت فى أوروبا فى عهد الثورة الفرنسية، ثم استمرت فى عهد الإمبراطورية النابليونية وأصبح من الضرورى عقد مؤتمر للتباحث فى شؤون أوروبا العامة وتسوية المشكلات التى نجمت من هذه الحروب الطويلة. ووقع الاختيار على فيينا لتكون مقرًا لهذا المؤتمر لأنها مدينة أوروبية عظيمة، وعاصمة لدولة من الدول الكبرى التى انتصرت فى الحرب، ولأن حكومتها حكومة الإمبراطورية النمساوية - كانت تمثل كل ما ينطوى عليه معنى المحافظة على التقاليد والقانون والنظام فى أوروبا وقتئذ. وهكذا

فالمؤتمر لم ينعقد لإبرام الصلح لأن الحرب كانت منتهية فعلا وقانونًا بين فرنسا وبين الدول المتحالفة. وفى استطاعة فرنسا كذلك عند انعقاد المؤتمرات أن تطلب الانضمام إلى الأسرة الدولية. ولم يكن الغرض من عقد المؤتمر إعادة تنظيم شئون أوروبا على قواعد جديدة، باعتبار أن النظام الأوروبى قد إنهار فعلاً من أساسه نتيجة لحروب الثورة ونابليون خلال العشرين سنة الماضية. ولكن الذى حدث أن السياسيين الذين اجتمعوا فى هذا المؤتمر اعتقدوا على العكس من ذلك أن النظام القديم بالصورة التى عرفها القرن الثامن عشر، أى احترام السلطات الحكومية وتمجيد التقاليد أو المحافظة على التوازن الدولى، هو خير نظام وجد لبعض الشعوب حرياتها، وليحقق سيادة القانون. وكان الأصل فى نشأة هذا المؤتمر أنه جاء فى معاهدة باريس الأولى، فى مادتها الثانية والثلاثين، أن تتعهد الدول المشتركة وقتئذ فى الحرب من كلا الطرفين بإرسال مندوبيها فى خلال شهرين إلى فيينا للاجتماع فى مؤتمر عام لوضع التسوية التى تضمنتها نصوص هذه المعاهدة على أنه لما كان يحق لفرنسا بحكم هذه المادة، ولأنها كانت فى حالة سلم مع الدول بفضل إبرام معاهدة الصلح هذه، وأن تشترك فى وضع التسوية المزمعة، فقد أراد الحلفاء أن يحرموها هذا الحق، فأضافوا مادة سرية، اضطرت فرنسا إلى الموافقة عليها، نصت على أن يكون للحلفاء فيما بينهم هم وحدهم فقط الحق فى وضع المبادئ والقواعد التى تجرى عليها تسوية الصلح النهائية[٥].

ثانياً: التمهيد لعقد مؤتمر فيينا.

كان الحلفاء قد اتفقوا فى معاهدة باريس الأولى على النظر فى إعادة تنظيم أوروبا. ولما أثير الحديث بينهم على مكان انعقاد المؤتمر اختلفت الآراء. ولكنهم انتهوا إلى اختيار فيينا مقرًا لانعقاده. ولعل الموافقة على اختيار فيينا كان مبعثه إرضاء النمسا بعد الذى أصابها من أضرار وما نزل بها من محن على يد نابليون. وإذا كانت دول أوروبا التى أرهقها نابليون بحروبه قد دعيت كلها

إلى المشاركة في هذا المؤتمر، فإن دعوتها كانت الواقع شكلية لأن الذين قاموا فعلا بأعمال المؤتمر كانوا ممثلى الدول الأربع الكبرى الروسيا وإنجلترا والنمسا وبروسيا.

ولم يجتمع المؤتمر فى الموعد الذى حدد له بادئ الأمر وهو أول أغسطس عام ١٨١٤، وإنما تأجل إلى ١٦ سبتمبر لأسباب منها انشغال كاسلريه لحضور جلسات البرلمان فى إنجلترا وانتظار عودة كل من قيصر الروسيا وملك بروسيا من رحلتهما إلى إنجلترا ومنذ منتصف سبتمبر بدأ أعضاء المؤتمر يتوافدون على فيينا ومنهم "كاسلرية" **Castelereagh** وهارد نبرج **Hardenberg** ونسلرود **Nesselordes** ومترنيخ **Metternich** الذى كان يستشفى فى بادن كما وصل حكام أوروبا[٦].

وكان يستقبلهم إمبراطور النمسا فرانسيس الأول باعتباره مضيفًا، واقتضاه ذلك كثيرًا من الإنفاق فى وقت كانت بلاده أحوج ما تكون إلى المال ولعل اشتراكه فى هذا المؤتمر قد وقف عند حد الضيافة فهو لم يكن على حظ من السياسة تبيح له المشاركة الفعالة. فبرزت عن النمسا شخصية "مترنيخ"، وإنما كان أبرز الحكام الذين شاركوا فى المؤتمر قيصر "الروسيا" إسكندر أول، وصاحب الكلمة الأولى فى التسوية التى انتهى إليها هذا المؤتمر، وكان يعتمد فى كل ذلك على القدر الذى أسهمت به بلاده فى القضاء على نابليون، والسلطان العظيم الذى كان يتمتع فى بلاده، وجيشه القوى الذى لم يسرح وإنما ظل قائمًا على أتم الاستعداد للحرب فى سبيل تحقيق مطامع القيصر. وحالفه الحظ فى انعقاد المؤتمر وإن كان قد ضاق كثيرًا بمكانه مترنيخ، كما حسد إنجلترا على نصيبها من قرارات المؤتمر وإن كانت قد بذلت فى سبيله كثيرًا من الجهود والتضحيات فى مقاومة نابليون[٧].

واقتصر اجتماع المؤتمر فى أول الأمر على أربع دول فقط هى بريطانيا وروسيا، والنمسا وبروسيا، تتألف منها ما يعرف باسم لجنة الأربعة ولقد نجح

تاليران عند اجتماع المؤتمر بفضل مهارته السياسية فى أن يجعل الدول توافق على انضمام فرنسا إلى هذه اللجنة التى تحولت إلى لجنة خماسية وكانت لجنة الخمسة هذه هى المؤتمر فعلاً، فاستأثرت وحدها ببحث المشكلات والمسائل المهمة. وباتخاذ القرارات الحاسمة بشأنها. وعندما انتهى مؤتمر فيينا من أعماله انضمت ثلاث دول أخرى هى السويد وأسبانيا والبرتغال، إلى الدول الخمس الأولى فى التوقيع على وثيقة أو قرار المؤتمر النهائى فى ٩ يونيو ١٨١٥ . وأما ممثلو سائر الدول والإمارات الذين بلغ عددهم فى فيينا المائة تقريبًا. فقد اشترك قليلون منهم فى أعمال اللجان الأخرى الفنية ولم يعقد المؤتمر جلسة واحدة رسمية تضم جميع أعضائه سواء عند البدء أو عند الانتهاء منه[٨].

أما عن أعمال المؤتمر ومقرراته كان لابد من وضع خطة عمل لإنجاز أعمال المؤتمر. والواقع أن أعمال المؤتمر كانت فى الغالب عبارة عن مفاوضات سرية تجرى خلف الكواليس بين الدول الكبرى، أما الدول الصغرى فقد كانت مجرد متفرج ولعل من أبرز القضايا التى أثارت النزاع وطفت على السطح بشكل واضح هى الخلاف الذى نشب بين الدول الكبرى حول مصير بولونيا وسكسونيا. فلقد كانت روسيا تشتهى امتلاك بولونيا، وكانت بروسيا تشتهى امتلاك سكسونيا ولو أن كلتا الدولتين تركتا تحلان بأنفسهما حسب مشيئتهما، لاختفت بولونيا وسكسونيا من خريطة أوروبا. بيد أن حلاً كهذا لم يكن تستسيغه قط النمسا وفرنسا، فلم تكن الأولى تطيق أن ترى مزاحمتها بروسيا تكبر إلى هذا الحد. وكانت الأخرى تؤمل حيزًا كبيرًا فى قيام دولة بولونية محررة. ولقد أوصلت هذه المشكلة المؤتمر إلى شفا الحرب. وأخيرًا وصل المفاوضون إلى تسوية تنال بروسيا وفقها نحو ثلثى سكسونيا ومقاطعات الراين، وأقيمت فى بولونيا ملكية دستورية تحت حكم قيصر روسيا[٩].

وكانت قاعدة "الحقوق الشرعية" التى نادى بها تاليران هى قوام تسوية مؤتمر فيينا وروحها. فالحقوق المشروعة هى التى أعادت آل بوربون إلى

فرنسا، وهي التي ثبتت سلطان البيت المالك في سردينيا. ولم يقم أي اعتبار للقومية أو لرغائب السكان. ولهذا السبب كان السواس الذين وضعوا معالم التسوية في فيينا على نقيض تام، أهدافًا ومبادئ مع مبدعي أوروبا التي تقوم اليوم[10] وكانت جميع الأمور قد سويت في الواقع عندما فوجئ العالم بأنباء هروب نابليون من أسره في ألبا، وفرار لويس الثامن عشر، واستقبال فرنسا من جديد للإمبراطور الذي حكمت بسقوطه بقية أوروبا. ولذلك انزعج المندوبون انزعاجا كبيرا وبادروا يعملون بكل سرعة لإنجاز القرار النهائي الذي وقع بالفعل قبل معركة وترلو بتسعة أيام فقط. وقد تضمن القرار النهائي التسوية التي وضعها السياسيون للمسائل التسع المتفق عليها في المؤتمر[11].

ثالثاً: الأسس التي قامت عليها تسوية فيينا ونتائجها.

قامت تسوية فيينا على أساسين هما: توازن القوى **Balance of Power** والتعويضات **Compesation** قاعدتا الدبلوماسية الأوروبية في القرن الثامن عشر. فأعاد السياسيون فرنسا إلى ما كانت عليه قبل حروبها الأخيرة كي يعيدوا التوازن الدولي في أوروبا، ثم أنهم اتبعوا خطة تعويض الدول التي أخذت منها أراضيها إعطائها إلى دولة أخرى، كذلك صار إرجاع الأسر القديمة إلى الحكم في الدول التي نحى نابليون أصحابها عن عروشهم وضمها إلى فرنسا، ولكن هذا المبدأ الشرعي لم يتبع أيضا حذافيره فلم يشأ المؤتمر عودة الأسر الحاكمة التي كان يسوءه رجوعها أو التي أراد توزيع أملاكها في شكل "تعويضات" تعطى للدول التي تولى المؤتمر التصرف في أملاكها[12].

أما عن الممالك الألمانية التي أقامها نابليون لم تعد إلى أصلها. وإنما اختصر عددها في ٣٨ دولة ضمت في اتحاد ألماني لضمان سلامة استقلالها وحدودها، بعد أن كانت حوالي ثلاثمائة، ينتظم حكمها تحت إمرة الدايت الألماني، فيظرها على مسرح السياسة في ثوب أمة متحدة.

ويأتي دور الحديث عن النمسا التي توجهت لضمان مكاسب في إيطاليا بإعادة نفوذها القديم فيها فنالت ولاية البندقية وساحل دلماش الأدرياتي مقابل خسارتها بلجيكا، وأعيد الأمراء القدماء الإيطاليون الذى أبعدهم نابليون إلى إماراتهم ما عدا تلك التي أعطيت إلى النمسا أو سردينيا، وهذه الأخيرة حصلت على نيس وسافوى. كما أعيدت الولايات البابوية إلى الوجود. وأنشئت مملكة نابولى من جديد تحت حكم ملك من سلالة آل بوربون الذى وعد مترنيخ بمعاهدة سرية بعدم منح بلاده دستورًا دون الحصول على موافقة النمسا، وعموما فإن الولايات الإيطالية قد أصبحت توابع تسير في فلك النمسا(١٣).

وتحققت بذلك أغراض النمسا، فلم تعد إيطاليا إلا تعبيرًا جغرافيًا، وأصبح على الإيطاليين. في سبيل تحقيق هدفهم الأسمى في الوحدة، أن يعملوا على القضاء على نفوذ النمسا من شبه الجزيرة؛ وكان يشملها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. كما أعيدت للنمسا ما فقدته من أملاك اضطرت إلى التنازل عنها لبافار في معاهدة "برسبورج" **Pressburg** .

وهكذا خرجت النمسا من تسوية فيينا ظافرة بأكبر قدر من الغنيمة فزاد عدد سكانها نحو أربعة ملايين ونصف، كما أن سواحلها على بحر الأدرياتيك جعلها دولة بحرية تتمتع بأهمية عظمى(١٤).

أما بريطانيا فقد خرجت من الحروب النابليونية بنظام صناعي جديد وإمبراطورية جديدة، وظفرت بمالطة ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيرتي مورتيوس وسيلان، ودافعت عن كندا دفاعًا ناجحًا في حرب ضد الولايات المتحدة نشبت سنة ١٨١٢، بسبب النزاع معها على حق تفتيش السفن في عرض البحار. وشرعت تنمي تجارة عظيمة نامية مع المستعمرات الأسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية — هذه المستعمرات التي انتهزت فرصة حرب شبه جزيرة إيبريا، فخرجت على الدولتين المستعمرتين لها. وقد اختلف أيضًا

مركـز بـريطانيا عـن مركـز حلفائها في القارة في وجود مصالح كبيرة نامية لها خارج أوروبا، وأن نابليون لم يغز قط أرضها[١٥].

ومـن نـتائج التـسوية أن استعادت كـل من أسبانيا والبرتغال حدودها القديمة، وأعيد إلى كل منها حاكمها السابق، كما ردت لها مستعمراتها.

واحـتفظت سويـسرا، باسـتقلالها علـى أساس الدستور الذى وضعه لها نابلـيون. وأصبح اتحادها يتكون من ٣٣ ولاية، ولا تزال سويسرا إلى اليوم دولة اتحاديـة. أمـا فـى شـبه جزيـرة اسـكندينـاوه فتقرر فصل النرويج عن الدانمارك وضـمها للـسويد تعويـضًا للأخـيرة عن "بوميرانا" التى ضمت إلى بروسيا، ووفاء بالـوعد الـذى بـذل "لبرنادوت" لقاء مساهمته الفعالة فى القضاء على نابليون، وعقابًا للنرويج على صداقتها للأخير[١٦].

أما القسم الثانى من تسوية فيينا فهو الخاص بإحاطة فرنسا بدول قوية تمنعها من الاعتداء على غيرها.

فتقـرر ضم بلجيكا إلى هولندا، وكان هذا الإجراء إنما يعمل على تحقيق هـدف سـعى إليه الساسة المجتمعون فى فيينا، وهو خاص بإحاطة فرنسا على حـدودها الـشرقية بمجمـوعة مـن الـدول والولايات الحاجزة يقصد حماية وسط أوروبا وشرقها من الخطر الذى يحتمل أن ينشأ فى المستقبل بسبب قيام ثورات فـى فرنسا. وتعمد الحلفاء تقوية هولندا، فأعادت إنجلترا إلى تلك الدولة جزيرة "جـاوة". وكانـت إحـدى مـستعمرات هولندا، وعلى جانب عظيم من الخيرات والثـروة. وسـاعدتها إنجلـترا بقـرض قـدره مليونان من الجنيهات للانفاق على تقـوية حـدودها وحمايـتها مـن فرنسا. وقد وصفت هذه السياسـة بأنها حكيمة، بـرغم عـدم نجاحهـا فقـد كانـت سياسـة فاشـلة لأن البلجيكيين كانوا يكرهون الهولنديين فلم يلبث أن ثاروا عليهم عام ١٨٣٠، وانتهى الأمر بانفصالهم عنهم واستقلال بلجيكا فى عام ١٨٣٩م[١٧].

وتحقيقًا لهذا المبدأ كذلك أعيدت مملكة "بيدمنت" أو سردينيا إلى الأسرة التى كانت تحكمها من قبل وهى "أسرة سافوا" وتعمد الحلفاء تقويتها بضم جمهورية جنوة إليها، وكذلك دوقية سافوى بقصد حماية شمال إيطاليا من عدوان فرنسا والمؤثرات الثورية التى قد تنشأ فيها[١٨].

ومن التسويات المهمة التى تمت بمقتضى هذه المعاهدة وضع تنظيم دولى لاستغلال الأنهار الدولية، حتى لا يؤدى تضارب المصالح بين بعض الدول حول الاستفادة من هذه الأنهار إلى قيام نزاع دولى قد يؤدى إلى نشوب حرب كذلك أعلنت الدول الموقعة على إلغاء تجارة العبيد التى اعتبرت منافية للمبادئ المدنية والأخلاق العامة، وقدمت الدول جميعها وعدا بإيقاف تلك التجارة. كما أقر المؤتمر بعض الأمور الخاصة بالتمثيل الدبلوماسي[١٩].

ورغم عيوب تسوية فيينا، فقد نجحت فى تحقيق الغرض المباشر الذى هدفت إليه والتى وقعت على معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤، وكانت تريد وقتئذ إقامة نظام حقيقى ودائم للتوازن الدولى فى أوروبا. حقيقة طرأ على النظام شئ من التعديل بانفصال بلجيكا عن هولندا عام ١٨٣١، أو حينما خطت إيطاليا خطوة كبيرة نحو وحدتها فى عامى ١٨٥٩، ١٨٦٠، ولكن هذا النظام لم يتصدع وعلى العكس فقد استطاعت تلك التسوية أن أوروبا حربًا أخرى لمدة أربعين عاما وحتى هذه الحرب (حرب القرم ١٨٥٣ — ١٨٥٦) وقعت فى ميادين بعيدة. ولكن التوازن الدولى الذى أوجدته تسوية فيينا قد تصدع فعلاً فى عام ١٨٧٠ عندما قامت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا، واستولت الأولى على الألزاس واللورين من فرنسا. وعلى أية حال خضعت التسويات التى أقرها مؤتمر فيينا بمرور الوقت لضغط شعبى أوتوقراطى وهو أمر لم يكن من المحتمل التنبؤ به أو منعه فى حينه[٢٠].

وبعد ذلك فى ٧ يوليو سنة ١٨١٥ دخل الحلفاء مدينة باريس للمرة الثانية ومعهم الملك لويس الثامن عشر، وفى ٢٠ نوفمبر وقعوا مع فرنسا معاهدة

باريس الثانية التى أتت شروطها أشد وأقسى مت سابقتها. لقد فرضت المعاهدة الجديدة على فرنسا أن تدفع غرامة حربية تبلغ سبعمائة مليون فرنك ذهب وتعويضات تقدر بأكثر من ثلاثمائة مليون فرنك. ونصت المعاهدة أيضًا على أن تقبل فرنسا ولمدة خمس سنوات فى بعض مقاطعاتها جيوش احتلال تبلغ ١٥٠ ألف جندى تتولى الخزينة الفرنسية دفع نفقاتهم. وأعيدت فرنسا إلى حدودها زمن لويس السادس عشر، ولم يسمح لها بأن يحتفظ من الأراضى التى استولت عليها زمن الثورة إلا بمدينة نيس وبقسم من أراضى السافواى.

وقد بدا على هذه المعاهدة أيضًا شئ من الاعتدال بالنسبة لما كان يجيش فى صدور أعدائها، وبصورة خاصة البروسيين والنمساويين من حقد ورغبة فى إذلال فرنسا وتقطيع أوصالها فإن الفضل فى ذلك يعود لحكومة لندن التى قاومت هذه الرغبات لكى لا تجرح الشعب الفرنسى فيتمرد على ملكة ويعود للثورة والحرب[٢١].

بعدها تعهدت روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا باستمرار العمل فى إقصاء بيت بونابرت عن فرنسا فكونوا التحالف الرباعى فى ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ الذى نص على وجوب اجتماع ممثلى الدول المتعاقدة وفى فترات يتفق عليها للبحث فى مصالحها المشتركة، وفى الشؤون التى تمس سلام أوروبا وأمنها[٢٢]. وقد ترتب على هذا النص وتطبيقه قيام الاتحاد الأوبى **The Concert of Europe** الذى أخذ يعالج المشاكل التى ظهرت فى أوروبا فى الفترة التالية.

ولم يكن فى الاستطاعة وقتئذ ابتكار أداة خير من هذا التضافر المؤلف من دول أربع عظمى مرتبطة معًا بعهود العمل على صيانة قضية السلام الأوربى. بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى أضحى جليًا أن اتحاد تلك الدول كان اسمًا أكثر منه حقيقة. فعلى حين كان مترنيخ يبغى جعل التحالف الرباعى أداة فعالة لقمع الحركات الحرة فى جميع أرجاء أوروبا. كان كاسلرية

يرى أنه ليس جزءًا من واجب الدول الأربع أن تتدخل فى الحكم الداخلى للدول.

ولقد كان كاسلريه محافظًا، وكان فى أعين الأحرار المثل المتجسد لاستبداد المحافظين، وآلة في يد التحالف المقدس — رغم رفضه الانضمام إليه — وعدو المبادئ الحرة في مشارق الأرض ومغاربها. غير أنه في الواقع، بينما كان يبغى تقوية ألمانيا كى تصبح سدًا فى وجه كل من فرنسا وروسية ويعرف قيمة التحالف مع النمسا، كدعامة من دعائم المبادئ المحافظة الأوروبية. فإنه لم تكن له رغبة في مشاهدة إنجلترا تجر إلى التدخل فى المشاحنات الداخلية لدول القارة. إذ مع تمسكه الشديد بالمبادئ المحافظة، كان يعرف جيدًا أن مواطنيه لن يسمحوا لأنفسهم بالاشتراك في سياسة مترنيخ المنطوبة على الشدة والقمع، قد ازداد باطراد الخلاف بين وجهة نظر السياسة الإنجليزية التى كانت فى صميمها حرة، ووجهة النظر النمساوية التى كانت محافظة غاية التحفظ، إلى أن اخترمت المنون حياة كاسلرية فى أغسطس سنة ١٨٢٢، واستلم كاننج زمام الأمور مكانه، وحيئذ ظهر الخلاف بين الدولتين جليًا وسافرًا[٢٣].

ومن وجهة نظر الوضعية الإقليمية فإن الارتباط الوحيد الذى ارتبطت به الدولة الأربع حيال بعضها كان معارضة كل محاولة يمكن لفرنسا أن تقوم بها من أجل تعديل حدودها. ولكن هذا الارتباط كان يهدف مجرد "مجموعة" ولا يعنى تحالفًا حقيقيًا؛ فبسبب الارتباط لم يعرف بوضوح، ولم تحدد القوات الحربية أو البحرية التى كان على كل الدول أن تقدمها، أما بالنسبة لحدود الدول العظمى الأخرى فلم تكن لأى ضمان جماعى. ولا شك أن التحالف المقدس (٢٦ سبتمبر ١٨١٥) كان يعنى من جانب النمسا والروسيا وبروسيا، الحراك المتبادل لهذه الحدود، ولكنه لم يكن إلا مجرد إعلان نيات، وغير مصحوب بأى وعد محدد فرغم الرغبة فى المحافظة على السلم، وبالتالى فى

احترام الوضع الإقليمى القائم فإنها لم تشتمل هى الأخرى على أى نص لضمانه[٢٤].

والواقع أن هذا الحلف قد بنى على آمال وخيالات لا يمكن أن تتحقق فقد ظهر بالفعل أن قيصر الروسيا — وهو أول من نادى به — قد أصدره عن هوى فى نفسه وقدم له بمظاهره الدينية ومزاعمه التصوفية، وتلك أمور تعد فى مقدمه ما تخدع به الجماهير. ولعل مترنيخ كان أشد الساسة إدراكًا لأغراض هذا الحلف حين قال أن القيصر أراد أن يطبق المبادئ المسيحية على ما يجرى فى أوروبا من أمور السياسة، وأعلن أن هذا الحلف لم يكن الغرض منه كبت شعور الجماهير ونشر السلطان المطلق على حياتهم. كما صدق كاسلرية "وزير خارجية بريطانيا حين وصفه بأنه مظهر من المظاهر الزائفة التى يكسوها لباس التصوف البراق، أى أنها فى النهاية أشبه شئ بالطبل الأجوف، وإن كان القيصر صاحب هذه الفكرة قد زعم إنما قصد بها إلى خلق الضمير السياسى بين حكم أوروبا، راجيًا أن يصبحوا أخوة فى اتصالاتهم وآباء لشعوبهم. ولم يكشف هذا الحلف إلا عن شئ واحد، وهو أن إنجلترا ترمى إلى هدف معين، ووضح ذلك فى المؤتمر الرباعى، بينما كان للقيصر ومن معه من دول شرق أوروبا ووسطها، كانوا جميعًا أصحاب شعارات براقة، وقد خلت خططهم من الجديدة والواقعية[٢٥].

وبقدر ما كان هناك اختلاف بين الأسس التى قام عليها كل من التحالف المقدس والتحالف الرباعى، فقد كان هناك اختلاف بين وزير خارجية النمسا ووزير خارجية بريطانيا فى تفسير الأهداف والالتزامات الخاصة بالتحالف الرباعى. فقد كان رأى كاسلرية أن بريطانيا ملزمة، وفقًا لهذا التحالف وبنوده، بحماية الحدود السياسة التى وضعت فى مؤتمر فيينا لمدة عشرين سنة. وهى ملزمة أيضًا بالاجتماع مع حلفائها فى مؤتمرات دورية، ولكنها غير ملزمة بالتدخل فى حالة قيام الثورة الداخلية فى أى بلد، عدا

محـاولات إرجاع نابليون، أما مترنيخ فقد فهم التحالف الرباعى على أنه إلزام لأعـضاء التحالف بالتدخل المسلح لقمع أية ثورة داخلية وفى أى بلد. وقد كان لهذا الاختلاف أثره فى انسحاب بريطانيا من مؤتمرات المتابعة فيما بعد. ولابد من الإشارة إلى أن طبيعة النظام البريطانى هى التى فرضت هذا الموقف، بل إن انـضمام بـريطانيا إلى التحالف الرباعى قد لقى معارضة شديدة فى أوساط الرأى العـام البريطانـى بـسبب الخـوف مـن أن تجـر أراء مترنـيخ وأفكـاره الـرجعية بـريطانيا إلى الـتدخل فـى شـؤون قـارة أوروبـا الداخلـية وهـو مـا لا يريده عام البريطانيين.

رابعاً: نظام المؤتمرات

ويأتـى بعـد ذلـك مؤتمـرات المـتابعة، فقـد جاء فى المادة السادسة من معاهـدة الـتحالف الرباعـى أن "الأطـراف الـسامية المـتعاقدة قـد اتفقـت علـى استئناف اجـتماعاتها فـى فـترات محـدودة سواء بتشريف العواهل أنفسهم أو بحـضور وزرائهـم بغـية التشاور فى المصالح المشتركة والبحث فى أفضل السبل لـتوفير طمأنيـنة الأمـم ورخائهـا والمحافظـة علـى السبل فى أوروبا" ولقد دفع استقرار الأحوال فى فرنسا وقيام انتقاضات وثورات فى الدول الأوروبية المتضررة مـن قـرارات مؤتمـر فيينـا إلى عقـد سلـسلة مـن المؤتمـرات لمـتابعة تطبـيق تلك القرارات.

١- مؤتمر إكس لاشابيل ١٨١٨.

كانـت الغاية الأساسية من عقد هذا المؤتمر بحث مسألة جلاء الجيوش الأجنبية عـن فرنسا والتى كانت موجودة فيها بموجب نصوص معاهدة باريس الثانـية. نـصت المعاهدة المذكورة عند توقيعها على ضرورة عقد مثل هذا المؤتمر. وقـد حـضره عـن النمـسا إمبراطورها يرافقه وزير خارجيته مترنيخ ومن الروسيا قيـصرها، أمـا بروسـيا الدولـة المـضيفة فقد مثلها ملكها فردريك غليوم الثالث. ومـثل إنجلـترا وزير خارجيـتها كاسـلريه، ودون ولنجـتون، وحضر عن فرنسا

رئيس وزرائها ريشيليو الصديق الشخصى للقيصر الروسى. وبالنظر لما أظهرته فرنسا من تقيد بمقررات مؤتمر فيينا ومن ميول سلمية ورغبة فى حفظ التوازن الدولى ولما أبدته أكثر من مرة من تمسك بالنظم التقليدية الملكية فقد وافق مندوبوا إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا على الجلاء عن الأراضى الفرنسية قبل نهاية شهر نوفمبر سنة ١٨١٨. وبالمقابل تتعهد فرنسا بدفع جميع ما تبقى من تعويضات وغرامات بموجب معاهدة باريس الثانية مرة واحدة. ويعزى الفضل فى اتخاذ هذا القرار، رغم تردد إنجلترا تخوفها من القيصر الروسى الذى كان شديد الحماس لمساعدة فرنسا من جهة لأنه كان يرغب فى تحريرها وإدخالها مع الدول على قدم المساواة أملاً منه فى أن تكون فرنسا حليفًا وعونًا فى غرب أوروبا، ومن جهة ثانية بسبب صداقته المتينة مع ريشيليو رئيس الوزراء الفرنسى، ولابد من الإشارة هنا أنه بسبب مخاوف إنجلترا من تجدد أخطار الثورة الفرنسية وقعت الدول البكرى على بروتوكول سرى أدت فيه تمسكها بمبادئ التحالف الرباعى ومقررات مؤتمر فيينا[٢٦].

والواقع أنه كان هناك سبب أساسى جعل الدول الكبرى كلها تتساهل ليس فقط بالقبول بمبدأ الجلاء الباكر عن فرنسا، وإنما أيضًا بالموافقة على اقتراح القيصر الروسى وقبول فرنسا كدولة مشاركة على قدم المساواة مع الدول الكبرى فى المؤتمرات الدورية المقبلة التى صارت بعد ذلك تعرف بالمؤتمرات الخماسية. هذا السبب يتعلق بالوضع الداخلى فى فرنسا. فالملك لويس الثامن عشر كان يواجه عن يمينه معارضة قوية من عناصر الملكيين المتطرفين وعن يساره حفظًا شديدًا من العامة والعمال والمثقفين الذين ظلوا شديدى التعلق بمبادئ الثورة الفرنسية أوفياء لذكرى بونابرت الحافلة بالأمجاد والانتصارات. وكان على الدول الكبرى للمحافظة على الوضع القائم فى فرنسا ولتقوية العناصر المعتدلة القابضة على زمام السلطة بزعامة ريشيلو أن تقدم للملك ولنظامه كل عون ممكن وكل مساعده مفيدة.

وفـى جلـسات المؤتمـر أثـار القيـصر الروسـى مـسألة دعـوات التعـبير الدسـتورى التـى تظهر هنا وهناك، والأفكار الثورية التى تطلق تارة فى إيطاليا وطـورًا آخـر فـى ألمانـيا أو أسبانيا، ورغب فى أن يجر المؤتمرين إلى إقرار مبدأ الـتدخل فـى شـؤون البلدان الأخرى الداخلية كلما بدأ ذلك ضروريًا. وكان أشد المتحمـسين للاقـتراح المذكـور مترنـيخ الذى وجد فيه صورة حية لآرائه وأفكاره الـسياسية، ثـم لكـون إقرار مثل هذا المبدأ يطلق يده بصورة نهائية للقضاء على معارضة قد ترتفع بوجه العرش النمساوى فى إيطاليا وفى ألمانيا[٢٧].

عـارض الإنجليز بشدة مثل هذا الاقتراح لأنهم وجدوا فيه دعوة لا مبرر لهـا للـتدخل فـى شـؤون الـدول الصغرى وهو أمر قد يجر من جهة إلى مشاكل دولـية شـديدة التعقـيد فى شئون الدول الصغرى لا تريد إنجلترا أن تتورط فيها ومـن جهـة أخـرى قـد يهـدد الـتوازن الدولى فى القارة وهو المبدأ الذى اعتبرته إنجلترا منذ توقيع مؤتمر فيينا حجر الرحى فى سياستها الخارجية. وقد عرفنا مـنذ الـبداية أن وزيـر الخارجـية البريطانى كاسلريه قد وقع التحالف الرباعى وسـط معارضـة شـديدة مـن الـرأى العام البريطانى ومن أوساط المثقفين الإنجليز الـذين كانوا يأخذون على التحالف المذكور رجعيته وعدائه للحرية والديمقراطية التـى يحترمـونها ويجلـونها فـى بلـدهم، كمـا فـى بلدان الآخرين. وبقى المبرر الوحـيد الـذى جعـل الحكـومة الإنجليزية توافق بعد تردد على قبول التحالف الرباعـى وتوقـيعه هو الخوف من تجدد الثورة الفرنسية وإبعاث الروح التوسعية فـيها. فالإنجليـز كانـوا يـرون فـى المؤتمـرات أداة رئيـسية لكـبح جماح فرنسا ولجعلـها تقـبل بحدودها الجديدة إلى أبعد وقت ممكن، أما بالنسبة لأوروبا فلم يكـن الإنجليـز يـبغون سـوى المحافظـة على الحدود الدولية، كما أقرها مؤتمر فيينا، فى خطوطها الرئيسية.

وقـد ظهـر واضـحًا فى مؤتمر إكس لاشابيل الاختلاف الكبير بين نظرة كـل مـن الـروس والنمـساويين من ناحية والإنجليز من ناحية أخرى إلى أهداف

التحالف الرباعى وأبعاده. ولعل مما كان يزيد فى معارضة الإنجليز لمبدأ التدخل فى شؤون الدول الأخرى معرفتهم ما يضمره الروس من نوايا توسعية واستعمارية تجاه البلقان والبحر الأسود والمضايق، وكذلك ما يتمناه النمساويون من تشديد قبضتهم وزيادة نفوذهم فى كل من إيطاليا وألمانيا[٢٨].

انتصرت وجهة النظر الإنجليزية وصدر عن المؤتمرين فى نهاية الاجتماعات بيان حددت فيه الحالات التى تستطيع فيه دول التحالف الرباعى الذى صار منذ ذلك الوقت خماسيا التدخل فى شئون الدول الأخرى. لقد اشترط البيان المذكور لاجتماع الدول الكبرى من أجل بحث قضية دولة أخرى أن تطلب هذه الدولة وبصورة رسيمة وشرعية عقد مثل هذا الاجتماع وأن ترسل ممثلين عنها يشاركون فى أعمال المؤتمر. لقد جاء هذا التحديد لحق التدخل مطابقًا لوجهة النظر البريطانية إلى حد كبير، ولقدرة ورغبة الروس والنمساويين على التدخل فى شئون أوروبا الداخلية[٢٩].

٢- مؤتمر كارلسباد ١٨١٩

كان القصد من الاتحاد الألمانى الذى أنشأته الدول الكبرى فى سنة ١٨١٥ هو تسليم ألمانيا للنمسا وبروسيا تنفذان فيها مشيئتها وسرعان ما أمسك مترنيخ بزمام القيادة فى يديه. كانت أهدافه واقعية فى بساطة وقوة. وإن أخفاها بكثير من الحذق تحت ستار من العبارات الطنانة. وقد اعتقد أن أول ما ينبغى عمله سحق الروح التحررية والدستورية والبرلمانية فى ألمانيا. أما بروسيا فكانت على كل حال دولة عسكرية. فحتم على بروسيا إذن أن تسير فى ركاب النمسا طالما انتهجت الأخيرة هذه السياسة الرجعية. ومن هنا جاءت ثقة مترنيخ فى أنه سيكسب امتنانها وتأييدها وبالغت النمسا فى عضد التجارب الدستورية الراهنة التى أقام بها حكام بافاريا وفرتمبرج وساكس – فايمر ... الخ. وقد أثبتت الأيام أن نجاحه فى ذلك كان كاملاً[٣٠].

لقد أسفر اجتماع الدول الألمانية في كارلسباد سنة ١٨١٩، عن التصديق علـى مراسـيم مترنـيخ، فـرفض بالإجمـاع على التعليمات الخاصة بالتحكم في الـصحافة وإرهـاب الجامعات وكبت حرية الرأى في شتى أنحاء ألمانيا. وبذلك أصـبح مترنـيخ يملـك إدارة بوليـسية قوية يستخدمها دون رحمة أو هوادة. وقد وفـق تمامًـا لفـترة مـن الزمن، فإن الثورات التى نشبت فى أنحاء أوروبا خلال عامـى ١٨٢٠ – ١٨٢١ لم تمـس ألمانـيا حيث طفقت يد مترنيخ الحديدية تبث الـرعب فـى قلـوب الأحرار. وقد نشأت بعض القلاقل فى بعض الدول الألمانية علـى أثـر الموجة الثورية التى قامت فى أوروبا فى سنة ١٨٣٠. غير أنه لا شك فـى أن هـذه المـوجة كانت ستزيد من القلاقل لولا مترنيخ. على أن سلطانه بدأ يـنكمش مـنذ ذلـك الـتاريخ، لم يكـن لديـه مـا يقدمـه لألمانيا الفتية سوى قمع الإرهاب والحكم البوليسى[٣١].

٣- مؤتمر تروباو ١٨٢٠.

كـان القيـصر علـى اسـتعداد لاتخاذ إجراءات العنف إزاء ثورة أسبانيا سنة ١٨٢٠، فاقترح أن يعقد مؤتمر فى باريس لمناقشة الحالة، وأعلن استعداده لإرسال جيش باسم أوروبا لقمع هذه الثورة. كما اقترح إعادة تشكيل لجنة وزراء الـدول المـتحالفة فى باريس لمراقبة الأمور التى تجرى فى فرنسا. وقاوم كل من كاسلرية ومترنيخ الاقتراح الأخير بشدة، إذ أن ذلك يعتبر خرقًا للتعهدات التى قدمـتها الدول لفرنسا فى إكس لاشابل منذ عامين، كما أنه يثير نفوس الشعب الفرنـسى. ولم يوافـق كاسـلريه ومترنيخ على عقد المؤتمر فى باريس. أما النمسا فلم تتأثر كثيرًا بالاضطرابات الواقعة فى أسبانيا. وإن موافقة الدول على اقتراح القيـصر بـشأن مرور جيش روسى بأراضيهم لقمع الثورة فى أسبانيا فيه تعريض لأمن بلادهم للخطر.

لم تلـبث فـى يولـيه مـن نفس العام أن وقعت ثورة عسكرية أخرى فى نابولى، واضطر ملكها فرديناند إلى قبول الدسـتور الأسبانى الذى صدر عام ١٨١٢.

وكـان لهـذا الحادث أهمية عظمى وخطورة كبرى بالنسبة لنظام مترنيخ فأتخير مـوقفًا جديـدًا، وسـاعدته هذه الثورة على أن تنفرد النمسا بتقرير سياسة الدول المتحالفة والعمـل على توجهيها. ففى رأيه أن مسألة أسبانيا ليست ملحة مثل مـسألة نابـولى يـستند إلى أسـاس واضـح، أوضح بكثير من حق أى دولة أخرى للتدخل في أسبانيا. وقد وافقت الحكومة البريطانية على مبدأ أحقية النمسا فى الـتدخل بمقتضى المعاهدة المبرمة بين النمسا ونابولى لأن التغيير فى حكم نابولى يعتـبر خطـرًا محققـا علـى نفوذ النمسا فى إيطاليا. كان موقف الروسيا مشكوكًا فـيه، إذا أعلـن أحـرار نابـولى أنهـم قد حصلوا على التأييد الأوروبى من قيصر الروسـيا، ومـن ثـم كـان يتحـتم علـى النمـسا أن تقضى على اعتقاد الإيطاليين الأحرار بأن استطاعتهم أن يعتمدوا على تأييد الروسيا وحمايتها[٣٢].

وعندما طلب إمبراطور النمسا مقابلة القيصر للنظر فى هذه المسألة رفض الأخـير أن يكون جانبًا فى مثل هذا الاتفاق المنفصل، إذ لم يكن من رأيه النظر فى اضطرابات نابولى قبل النظر فى اضطرابات أسبانيا، وأعلن على لسان ممثله فـى النمسا أن الروسيا لن تعترف بشئ إلا فى مؤتمر يضم الدول المتحالفة، أى أن القيـصر لـن يرضى إلا بمؤتمر على نمط إكس لاشابل فى عام ١٨١٨. وكتب دوق ريـشيليو من فرنسا مؤيدًا رأى القيصر، مؤكدًا أن الاضطرابات التى ظهرت فـى أسـبانيا وإيطالـيا لـن تلـبث عـدواها أن تـسرى إلى بقاع أخرى من أوروبا. وكانت فرنسا تخفى حقيقة أطماعها، وتود أن تنجح فى السعى إلى دول أوروبا لتـشارك معها فى المؤتمر المقترح إنشاؤه لمعالجة مشاكل أسبانيا ونابولى، وسعى مترنـيخ متفـردًا فـى تجـنب عقـد مؤتمر فى هذا الشأن خشية أن ينجح أعضاء المؤتمـر فـى الاقتناع بالنظر فى مشاكل أسبانيا أولاً؛ واجتهد فى الحصول على تأييد الدول للبدء فى حل مشكلة نابولى، واقتضاه هذا المسعى أن يطلب إلى تلك الـدول رفـض الاعتراف بالحكومة الثورية فى نابولى، واعتبار جميع ما أصدرت

من أحكام ونظم لاغية لا أثر لها، وتبليغ ممثليهم فى نابولى بأن النمسا صاحبة حق هذا التدخل[٣٣].

وقد رفض كاسلريه الموافقة على ذلك. وأعلن أن بلاده لن تدخل فى مسألة نابولى الداخلية، كما أنها لن تساعد الآخرين على هذا التدخل. ولكنها على استعداد لأن تقف جانبًا وتترك النمسا تعمل إذا كانت تشعر بأنها فى خطر. وهناك تبين للنمسا أن عقد مؤتمر من الدول المتحالفة يفتح لها باب العمل ويسندها فى محاولة إرجاع الأوضاع إلى أصلها فى نابولى، لأن اجتماع المؤتمر مظهر من مظاهر تأييدها فيما تريد أن تعمل. واقترح مترنيخ اجتماع المؤتمر فى ترباو **Troppou** فى سيلزيا بألمانيا لتوضيح المبادئ التى على أساسها يحق للدول المتحالفة أن تتدخل فى مسألة نابولى، ثم تتقدم النمسا بعد ذلك لتطبيقها. بدأ مترنيخ بتفسير الثورات فذكر "أن الثورة تكون شرعية إذا كانت السلطة الحاكمة أى العليا هى التى قامت بها، ولكنها لن تكون كذلك عندما يقوم بها الشعب". وفى الحالة لا يحق أن تتدخل، أما فى الحالة الثانية فيقضى الأمر فيها تدخلاً عاجلاً". وكان رد كاسلريه على رأى مترنيخ على جانب عظيم من الأهمية موضحًا السياسة التى ينبغى أن تسلكها إنجلترا من مؤتمر "ترباو" إلى مؤتمر عقد فيما بعد فى فيرونا **Verona** إزاء تلك المشاكل التى ترى النمسا حلها. فبين أن توسيع نطاق المحالفة وجعلها تنصب على أعمال الحاضر والمستقبل فيه تغيير لطابعها وخصائصها، وذلك أمر يمنع إنجلترا من المشاركة فيها. وكان ذلك الرأى صدمة لمترنيخ الذى كان يعتمد على تأييد إنجلترا بقدر ما كان يخشى اتجاهات الروسيا[٣٤].

فوجئ مترنيخ بما لم يكن يتوقع وهو أن القيصر قد تغير تمامًا، فأصبح يرى ما يطمئنه بعد تخلى إنجلترا عن معونته، وزاد من سروره بهذه المفاجئة ما سمع من القيصر الذى اعترف بندمه على سلوك سياسة تبين له عدم جدواها، فهو يرى الآن أن مترنيخ كان أبعد نظرًا مما قدر له، وزاد القيصر فى إكرامه

حينما وعده بمعاونته فى كل ما يقدم عليه من عمله، وزاد اطمئنانًا أن بروسيا تقف هى الأخرى بجانبه. والتقى الحلفاء الثلاثة النمسا والروسيا وبروسيا فى "تروباو" دون انتظار حضور ممثلى إنجلترا وفرنسا.

وفى هذا اللقاء استطاع ثلاثتهم فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٢٠ الاتفاق على ما يأتى "الدول التى تغير نظام حكمها نتيجة الثورة، وبات نظامها الجديد مهددا لغيرها يجب عليها أن تنسحب من التحالف الأوروبى، وتظل بعيدة عنه إلى أن تقدم بضمانات تكفل الحرص على الهدوء واستقرار الأمور بها. وتعهدوا بإعادة النظام فى الدول التى أصابها خطر غيرها من الدول الخارجية التى تغير فيها نظام الحكم بسبب ثورى، ووعدوا باستخدام السلاح فى تنفيذ ما يرونه إذا لم ينجحوا بالطرق السلمية حتى يعيدوا الدول الخارجية إلى حظيرة الحلف الأوروبى، وبدأ التصدع فى التحالف يظهر بوضوح فى هذا المؤتمر عندما لم توافق الدولتان الأخريان فرنسا وإنجلترا على ذلك الاتفاق. وانتهى هذا المؤتمر دون أن يصل إلى أى حل أو قرار فيما يتعلق بالمسألة الإيطالية وأعلن كاسلريه فى البرلمان الإنجليزى أن اتفاق (بروتوكول تروباو) يعوزه الإدراك السليم[٣٥].

٤- مؤتمر ليباخ ١٨٢١.

تأجل مؤتمر تروباو من غير الوصول إلى قرار بشأن المسألة الإيطالية على أن يجتمع فى يناير عام ١٨٢١ فى مدينة ليباخ، على أن يدعو لحضوره فرديناند الأول ملك نابولى لأن الدول الثلاث رفضت المفاوضة مع حكومة ثورية. وانعقد المؤتمر فيما بين ٨ يناير و ١٢ مارس وحضره إمبراطور النمسا وقيصر روسيا ومترنيخ وفرديناند الأول ملك نابولى. وقرر المؤتمر أو بمعنى أصلح أعضاء الحلف المقدس (النمسا وروسيا وبروسيا) إلغاء دستور نابولى، ثم عهد ثلاثتهم إلى النمسا بمهمة تنفيذ هذا الإلغاء بالقوة العسكرية. ولذلك أرسلت النمسا جيشًا إلى نابولى أخمد الثورة الدستورية وأعاد إلى فرديناند سلطاته الاستبدادية وقبل أن يختتم المؤتمر أعماله استنجد به ملك سردينيا ضد رعاياه الثائرين فأرسلت

النمسا الجيش الذى جمعته فى لمبادريا لهذه الغاية دائمًا لإخماد الثورة فى بيدمنت، وأعيد بفضل هذا الجيش النظام القديم فى سردينيا.

وفى مايو انفض المؤتمر بعد أن أعد منشورًا جاء فيه أن الهدف من التحالف الأوروبى إنما هو تأييد المعاهدات القائمة والمحافظة على السلام العام وتحقيق سعادة الأمم وأن التغييرات النافعة والضرورية من الناحيتين التشريعية والإدارية، والتى تحدث داخل الدولة يجب أن تأتى من جانب أولئك الذين أعطاهم "الله" مسؤولية الحكم فى هذه الدول، وهكذا فإن المؤتمر لم يقنع بتأييد مبدأ التدخل الذى أسفر عنه مؤتمر تروباو، بل عمل على إرجاع النظام القديم بحذافيره، مع أساس الاعتراف من جديد بالحق الإلهى المقدس للملوك فى الحكم. وقد أدت القرارات إلى اتساع شقة الخلاف بين دول الحلف المقدس (روسيا والنمسا وبروسيا) وبين إنجلترا بالذات مما عجل فى نهاية الأمر بفشل نظام الاتحاد الأوروبى. فلقد أعلنت الحكومة الإنجليزية استنكارها لما حدث وعدم واعترافها به وتنصلها من تبعاته بما سبق أن أعلنته من قبل[٣٦].

وأثناء انعقاد المؤتمر فى ليباخ قامت اليونان بالثورة ضد الحكم العثمانى، وكانت روسيا ترغب فى نجاح الثورة اليونانية. ولم يكن للدوافع الاقتصادية. إلا دورًا ثانويًا فى توجيه هذه السياسة. ولكن كان من الضرورى من ناحية أخرى، أن يكون هذا الحل مطابقًا للمصالح السياسية للإمبراطورية الروسية، كان انتصار اليونانيين يخدم هذه المصالح، ما دامت روسيا ستصبح المستفيد الرئيسى من تفكك الإمبراطورية العثمانية[٣٧].

وكانت الإمكانيات خطيرة بالنسبة للنمسا، التى لم تكن تقدر على التخلى على البلقان للنفوذ الروسى. وكانت متعلقة كذلك بالنسبة لبريطانيا العظمى، التى خشيت أن يتزعزع سريعا تفوقها فى البحر المتوسط والتى كانت تخشى من تغلغل روسى فى مناطق الشرق الأدنى، وبالتالى من تهديد .أمن الهند. ومع ذلك فقد كان فى وسع بريطانيا العظمى أن تتعود على إضعاف

الإمبراطورية العثمانية، إذا ما تمكنت من أن تضمن نفوذًا مسيطرًا على اليونان المستقلة. ولذلك فإن المصالح الإنجليزية لم تكن تتفق في كل النقط مع مصالح النمسا[٣٨] يضاف إلى هذا أن الثوار في أسبانيا استطاعوا أن ينزعوا من الملك فرديناند السابع دستورًا أقيمت بفضله الحكومة الدستورية في مدريد، وهذا بينما كانت الثورة مشتعلة في مستعمرات أسبانيا في أمريكا الجنوبية، فأعلنت الأرجنتين استقلالها منذ ٩ يوليو ١٨١٦، وأعلنت ديكتاتورية أخرى في فنزويلا على يد سيمون بوليفار منذ ١٨١٣، وبعد ذلك بعامين تحررت بيرو وفي مايو ١٨٢٢ أعلنت المكسيك استقلالها. وفي هذا الشهر أيضًا أعلن بدرو **Pedro** نفسه إمبراطورًا مستقلاً في البرازيل. وإزاء انتشار الثورة في العالمين القديم والجديد والتفكير في التدخل العسكري من أجل إخماد الثورة بها، انعقد مؤتمر فيرونا في منتصف أكتوبر عام ١٨٢٢م[٣٩].

مؤتمر فيرونا ١٨٢٢:

لما قامت الثورة في اليونان ضد الحكم العثماني، وتضاربت المصالح والأهواء، فقد اجتمع مترنيخ وكاسلريه في هانوفر قبيل نهاية ١٨٢١ وسويا خلافاتهما واتفقا على دعوة مؤتمر آخر كانا يأملان أن يحولا بوساطته دون اتخاذ إسكندر قيصر الروسيا أي إجراء ضد الدولة العثمانية.

وقد حدد خريف ١٨٢٢ موعدًا للمؤتمر. ولكن حادثين وقعا قبل أن يلتئم شمله. أولهما أن القلاقل في أسبانيا بلغت في يوليو درجة من الخطورة حفزت فرنسا إلى الحديث عن التدخل هناك، وثانيهما أن كاسلريه قد انتحر في أغسطس بعد اختلال قواه العقلية. وإن كان قد بدا في سنواته الأخيرة بعض الاعتراضات على نظام المؤتمرات نفسه. فقد خلفه كاننج.

وسرعان ما شغل المؤتمر الذي انعقد في فيرونا بأمر أسبانيا بدلاً من اليونان. فقد سألت فرنسا الحلفاء في بداية المؤتمر عما إذا كانوا سيؤيدونها في غزو أسبانيا. فارسل كاننج، الذي كان ينظر إلى تلك المؤتمرات نظرة ملؤها

الشك والريبة، وأصدر تعليماته بألا تشترك إنجلترا فى أى مشروع للتدخل بالقوة أو بالتهديد مهما تكن العاقية وأفضى ولنجتون بهذه التعليمات إلى المؤتمر فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢٣، فكان لها دوى القنبلة، وحالت دون تدخل الحلف ككل، تدخلاً عسكريًا فى أسبانيا، وإن تدخلت فرنسا بصورة مفردة[٤٠].

لقد أضر موقف كاننج فى ١٨٢٢ بـ" التضامن المعنوى" لأوروبا وبنظام المؤتمرات. ولكن هذا النظام لم يختف من الوجود على التو ففى ديسمبر سنة ١٨٢٣ دعا ملك أسبانيا الذى أعيد إلى عرشه الحلفاء إلى عقد مؤتمر لبحث شئون أمريكا الأسبانية. وكم كانت دهشة أوروبا حين منع كاننج ببساطة من إرسال مندوب عن حكومته (٣٠ يناير ١٨٢٤) فكانت النتيجة أن فشل المؤتمر. وقد حاول إسكندر بعد ذلك أن يدعو فى غضون ١٨٢٤ مؤتمرًا لبحث موضوع الدولة العثمانية واليونان. ولكن كاننج رفض فى النهاية حضور هذا المؤتمر نيابة عن إنجلترا فى نوفمبر ١٨٢٤. فاجتمعت الدول الأربع العظمى الأخرى رغم ذلك بسان بطرسبرج فى يناير ١٨٢٥، وإن يكن مؤتمرها قد انفض فى مايو دون الاتفاق على شئ بعد أن دب بينهما الخلاف وسوء التفاهم فكانت تلك، فى الحقيقة والواقع نهاية نظام المؤتمرات.

وكانت اعتراضات كاننج على ذلك النظام الذى كان يرمى إلى إقامة حكومة دولية. قال إن عقد المؤتمرات شئ مناسب جدًا لوضع معاهدة. فالشعب الإنجليزى أولا: لا يروق له أن يرى مندوبه الذى يمثل دولة برلمانية، يتفاوض سرًا مع دول استبدادية، ثم إن لإنجلترا صوتًا واحدًا، وقد يتغلب عليها الآخرون بأصواتهم. ونظام المؤتمرات ثانيا: يتجه إلى إقامة نظام للتدخل العام بالقوة فى الشئون الداخلية لمختلف البلاد، ومثل هذا النظام لابد أن تعارضه إنجلترا تمشيًا مع طبيعة حكومتها. وثالثًا: أن الدول الصغرى ليست ممثلة فى هذه المؤتمرات فحقوقها عرضة لإغفال أو الضياع ولم يكن كاننج ليمانع فى عقد مؤتمر يقتصر على سياسة "التضامن المعنوى" ويضع رغبات الدول الصغرى

موضع الاعتبار وينبذ استخدام القوة. ولكن نظام المؤتمرات على الصورة التى تطور بها حتى عام ١٨٢٢، كان بعيدًا عن ذلك كل البعد فرأى كاننج من الأفضل أن تعارضه إنجلترا كلية، وقد وفق فى هذه المعارضة توفيقًا تامًا. إذ لم يعد لنظام المؤتمرات أى اعتبار من ١٨٢٥ فصاعدا. وحدد كاننج السياسة التى تنتهجها أوروبا بالآتى "**كل أمة ترعى مصلحتها والله يرعانا جمعيا**"[٤١].

أما دراسة مبدأ مونرو؛ فيتطلب العودة إلى حركات الاستقلال فى قارة أمريكا الجنوبية، ويرجع ذلك إلى أيام احتلال نابليون لأسبانيا حينما أعلنت المستعمرات الأسبانية فى أمريكا الجنوبية تمسكها بولائها للملك الشرعى فرديناند السابع، ورفضها الخضوع لحكومة مدريد التى أقامها الحكم العسكرى الفرنسى، لذلك قامت فى الأرجنتين وشيلى وبيرو وكولومبيا وفنزويلا حكومات محلية مارست السلطة باسم الملك الأسبانى المعزول نيابة عنه، ثم أخذت مستعمرة تلو الأخرى ترفع عن عنقها نير سيدتها الأوروبية، فحرر كشرين بيرو ثم البرازيل. وأعلن بوليفار استقلال كولومبيا، وأعلن إتربيد استقلال المكسيك. وأضحى جليًا واضحًا قيام إمبراطورية تجارية جديدة تقدم فرصًا للمغامرين البريطانيين. فرفع تجار مدينة لندن نداء يطالبون فيه الحكومة البريطانية بوجوب تنظيم هذه التجارة النامية وتأمينها بالاعتراف رسميا بالمستعمرات الثائرة.

وكان السياسى الإنجليزى الذى قُسم له أن يعالج هذه المشكلة هو جورج كاننج (١٧٧٠ – ١٨٢٧)، فمع أنه كان وزيرًا فى حكومة إنجليزية محافظة. وخصمًا لايلين للإصلاح البرلمانى، إلا أنه كان فى السياسة الخارجية رائدًا من رواد ذلك اللون الجديد من الدبلوماسية الحرة الشعبية التى واصل اتباعها بعده بالمرستون Palmerstone أحد تلاميذه العظام الإعجاب به. وصارت تلك الدبلوماسية مدى قرابة نصف قرن شوكة فى جنب ملوك أوروبا وحكامها الأوتوقراطيين[٤٢].

ولم يكـن مـن سياسـة كانـنج أن تـؤيد نظامًـا جماعيًا لإقرار النظام في الأقطـار الأجنبية فمع أن النمسا بموافقة روسيا وبروسيا، أثرت أن تخمد الفتن والـثورات التي نشبت في نابلي، فقد كان هذا في نظره هو شأنها الخاص بها وحـدها. ومـع أن فرنـسا أنفـذت جيـشًا إلى أسـبانيا للقضاء على فتنة عسكرية أجـبرت ملكًـا مـستبدًا خاضـعًا لـنفوذ الأكلـيروس علـى منح دستور لب:ده سنة ١٨٢٣، فهـذا أيـضًا لم يكـن فـي رأيـه بالأمر الـذى يـتطلب مـوافقة إنجلـترا وتأيـيدها. بـل على النقيض من ذلك، نظرت لندن إلى الغزو الفرنسي نظرة قلق شـديد. فمـاذا تفعـل لو أن الجيش الفرنسي بعد قمعه هذه الفتنة، ظل معسكرًا في أسبانيا، وما العمل إذا غزا البرتغال، حليفة إنجلترا وما العمل أيضًا لو أنه أعـان أسـبانيا علـى استرجاع جزر الهند الغربية، غير أن كاننج عزم على منع احـتمالات مـزعجة كهذه. ولهذا السبب اعترف بالثوار الأمريكيين الجنوبيين، رغم استياء عواهل أوروبا الأوتوقراطيين واستنكارهم الشديد.

ومـع عظـم الـضجة والدهـشة اللـتين نجمـتا عن هذا الاعتراف الخطير الـشأن، فـإن الـضجة والدهـشة كانـتا تغـدوان أعظـم، لـو أنـه اعـترف بمركـز المـستعمرات الأمـريكية الجنوبـية بإصـدار إعـلان مـشترك من لندن وواشنطن، كمـا اقـترح كانـنج، بـيد أن الـولايات المـتحدة بمـشورة جـون كوينـسى أدمـز John Quiency Adams وزيـر خارجيـتها صـممت علـى أن تـصدر تـصريحًا خاصًـا. فـأعلن الرئيس مونرو Monoro في رسالة شهيرة إلى الكونجرس مبدأه الـشهير الخـاص بـأن أمريكا للأمريكيين، وأذاع إنذارا خطيرًا إلى العالم القدين بـأن الـولايات المـتحدة لـن تطـيق اسـتعمارا أوروبـيا جديـدًا لأية بقعة من بقاع أمـريكا. ولقـد سبق مـبدأ مونـرو تـصريح كانـنج. ولكـن الذى وقى قارة أمريكا الجنوبية إبان الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر من أى هجوم أوروبى عليها، هـو سـطوة أسـطول ملـك بـريطانيا وقـوته، أكثـر مـن الأمنـية الجلـيلة لـرئيس الجمهورية الأمريكية[٤٣].

(١) فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص١٠٩.

(٢) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٢٤٥.

(٣) عمر بن العزيز عمر: أوروبا (١٨١٥-١٩١٩)، الإسكندرية ١٩٩١، ص٣٧.

(٤) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٥) عمر عبدالعزيز: المرجع السابق، ص٣٨، ٣٩.

(٦) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٤٦- ٢٤٧.

(٧) نفسه، ص٢٤٧.

(٨) عمر عبدالعزيز: المرجع السابق، ص٤٠.

(٩) فشر: المرجع السابق، ص١١١.

(١٠) نفسه، ص١١١.

(١١) عمر عبدالعزيز: المرجع السابق، ص٤٢.

(١٢) نفسه، ص٤٢، ٤٣.

(١٣) محمد الأدهمى: أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٦٨.

(١٤) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٥٢.

(١٥) فشر: المرجع السابق، ص١١٧.

(١٦) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٥٣.

(١٧) نفسه، ص٢٥٤.

(١٨) نفسه، ص٢٥٤.

(١٩) محمد الأدهمى: المرجع السابق، ص٦٩.

(٢٠) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠.

(٢١) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعى: التاريخ المعاصر، ص١٣١، ١٣٢.

(٢٢) فشر: المرجع السابق، ص١١٨.

(٢٣) نفسه، ص١١٨، ١١٩.

(٢٤) بيير رونوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ - ١٩١٩)، ترجمة جلال يحيى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٥٨، ٥٩

(٢٥) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٦١.

(٢٦) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعي: المرجع السابق، ص١٥٧، ١٥٨.

(٢٧) نفسه، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢٨) نفسه، ص١٥٩.

(٢٩) نفسه، ص١٥٩.

(٣٠) جرانت، تمبرلي: تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، جـ١، ص٢٩٧.

(٣١) نفسه، ص٢٩٨.

(٣٢) زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٣٣) نفسه، ص٢٧٠.

(٣٤) نفسه، ص٢٧٠.

(٣٥) نفسه، ص٢٧٠- ٢٧١.

(٣٦) عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق، ص٧٧، ٧٨.

(٣٧) بييررونوفان: المرجع السابق، ص١١٤، ١١٥.

(٣٨) نفسه، ص١٥٥.

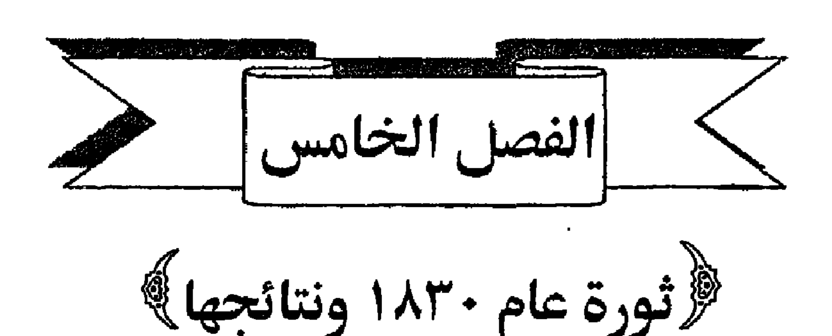
(٣٩) عمر عبد العزيز: المرجع السابق، ص٧٩.

(٤٠) جرانت، تمبرلي: المرجع السابق، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٤١) نفسه، ص٢٩٤.

(٤٢) فشر: المرجع السابق، ص١٢٣، ١٢٤.

(٤٣) نفسه، ص١٢٣، ١٢٤.



الفصل الخامس

ثورة عام ١٨٣٠ ونتائجها

أولاً : الانقلاب الصناعى

ثانياً : عودة البربون إلى الحكم فى فرنسا (١٨١٥ – ١٨٣٠).

ثالثاً : ثورة بلجيكا واستقلالها.

رابعاً : الثورة فى بولندا

خامساً : الثورات فى إيطاليا.

سادساً : الوضع فى سويسرا

ثورة عام ١٨٣٠ ونتائجها

أولاً: الإنقلاب الصناعى

بعد موقعة ووترلو بخمس سنين، كتب هجل Hegel أحد جهابذة الفلسفة الألمان عن الإنجليز يقول "إن حياة الإنجليز المادية تقوم على التجارة والصناعة. وقد أخذ الإنجليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة إلى العالم. فإن روحهم التجارية تحفزهم على الطواف فى كل بحر، والتنقل فى كل مكان، وإنشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة، وخلق الحاجات وإنعاش بولاب الأعمال، وتهيئة الأحوال الضرورية فيما بينهم — أولاً وقبل كل شئ — لقيام التجارة. وهذه الأحوال هى نبذ حياة العنف غير المشروع، واحترام الملكية، واتباع آداب اللياقة والسلوك مع الغرباء".

فلم يبد الإنجليز إذن أمام الأجانب كأسياد إمبراطورية، كما أنهم لم ينظروا إلى أنفسهم بهذه العين، بل ظهروا بالأحرى بمظهر تجار عالميين، يبيعون السلع التى أنتجتها لهم حديثًا التحسينات الميكانيكية ووفرة المنابع المعدنية وفرة واسعة النطاق فى بلادهم، ويجلبون بدلاً منها منتجات كل قطر من أقطار البسيطة. فمع أن استراليا كانت قد كشفت؛ ومع أن كندا كان قد دوفع عنها بنجاح فى حرب قصيرة مع الولايات المتحدة، ومع أن سيلان ورأس الرجاء الصالح ومالطة قد أضيفت إلى ممتلكات الملك جورج وراء البحار، ومع أن النظام الاستعمارى العتيق القاضى يمنح أفضلية للتجارة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها، قد عمّر بعد ثورة المستعمرات الأمريكية الناجحة، إلا أنه لم يكن ثمة ما هو أبعد إلى أفكار الإنجليز فى ذلك الحين من حصر تجارتهم مع الممتلكات البريطانية. فقد كانت أسواق أوروبا الغنية قريبة من بلادهم، وقدمت أمريكا الجنوبية بعد تحريرها من ربقة أسبانيا والبرتغال فرصًا واسعة المدى للتجارة الإنجليزية. وكان فحم وحديد ومنسوجات إنجلترا لازمة

لسد حوائج القارة الأوروبية. كما أنه من مبادلة السلع المصنوعة الإنجليزية بالمواد الخام التى تنتجها أقطار قاصية، نشأ منها تطور للتجارة الدولية لم يشاهد التاريخ قط مثيلا له من قبل.

وكانت إحدى خصائص القرن التاسع عشر، أنه شاعت أثناءه فى ربوع أوروبا والعالم الخارجى، تلك الاختراعات الآلية وذلك اللون من الحضارة الصناعية التى طلعت وتطورت أولاً عند الدول الإنجلو سكسونية. ففى عام ١٨١٩ عبرت أول سفينة بخارية المحيط الأطلنطى، وشاهد العقد التالى افتتاح السكك الحديدية فى البلجيك وفرنسا وألمانيا، وفى سنى الأربعين عم التلغراف أوروبا طولاً وعرضًا، نتيجة لاختراع مورس Morse المخترع الأمريكى. وجاءت سنو الخمسين بالتلغراف الممتدة أسلاكه تحت سطح الماء. وتقدم فى سنى الستين مد خطوطه عبر الأوقيانوسات. ورأت سنو السبعين تكوين اتحاد البريد الدولى، وتطور تجارة الحبوب الدولية، هذا التطور الذى جعل محصولات العالم الجديد فى متناول سكان العالم القديم.

وامتازت العقود الختامية للقرن التاسع عشر، بنماء حجم المدن فى جميع أنحاء أوروبا الغربية. وبدت هذه الظاهرة على الأخص فى ألمانيا، تلك البلاد التى يمكن وصفها حتى سنة ١٨٧١ حين أسست الإمبراطورية بأنها قطر تتألف غالبية أهله من فلاحين أحرار مالكين لأرضهم، وسادة من ملاك الأرض ذوى حول وطول، ومن مدن عظيمة قليلة العدد، ومن نسبة غير كبيرة من سكان المدن. ولكن نظرًا للتأثير المشترك لانتشار السكك الحديدية ونمو التجارة الخارجية، وظهور الاختراعات فى صناعتى الفولاذ والكهرباء، ونتيجة للنشاط الكبير الحجم المترتب على انتصار ألمانيا فى حرب السبعين، زاد سكان الحضر أربعة أمثال، فى مدى الستين عاما التى تخللت سنتى ١٨٤٩، ١٩١٠[٤٤].

وكان تقدم الصناعات — الذى سار بخطوات حثيثة فى بريطانيا — بطئ الخطى فى قارة أوروبا، اللهم إلا فى ذلك الشطر الصغير الرقعة من

البلجيك الذى عرف منذ القرن الثالث عشر بازدحام مدنه بالسكان، وحياته الصناعية الموفورة النشاط، وعلى هذا فلم تكن الحركات الثورية التى قامت فى أصقاع مختلفة من أوروبا أعوام ١٨٢٠، ١٩٣٠، ١٨٤٨ هى نتيجة لتذمر عمال المصانع الكبيرة سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا. وبذكر البعض، أنه لم فى فرنسا بين سنتى ١٨١٥، ١٨٤٤، سوى مدينتين فقط هما سنت اتيين St Eteinne وروبيه Roubaix فقد نمتا نموًا سريعًا، وأن ثلاثة أخماس الحديد الخام الذى أنتجته تلك المملكة أخرج من مئات الأفران الصغيرة المنشورة فى الأقاليم ذات الغابات، ولم يكن الحال فى ألمانيا مغايرًا لهذا. كما كان للألمان مزايا عديدة على منافسيهم الإنجليز فقد كانت طبقتهم الوسطى أفضل تعليمًا، وكانوا يتفوقون عليهم فى فنون الرسم والمستحدثات، وكانوا أكثر منهم دراية بالكيمياء، وكان فى إمكانهم أن يعلنوا أن صناعة قطع المائدة المعدنية فى سولنجن Solingen ذات سوق أوسع وشهرة أطيب، من مثيلاتها فى أوروبا. كما أنه لم يكن لألمانيا بين أوروبا جمعاء شبيه فى خبرتها الموروثة فى صناعات التعدين.

ومن هذا فإن العقل الألمانى كان قليل الانشغال بالأشكال والمعايير الجديدة للتطور الاقتصادى. وكانت الصناعات الألمانية حتى الصناعات المشتغلة باستغلال منابع البلاد المعدنية الغنية، متأخرة تأخرًا عظيما. إذ نقصتها المعدات العلمية ورأس المال والمغامرة، حتى أنه لم يشرع إلا حوالى سنة ١٨٤٠ فى العمل بمناجم الفحم العظيمة فى سيلزيا التى كانت مبعث خلاف شديد بين بولندا وألمانيا فى السنين الأخيرة[٤٥].

ثانيًا: عودة البربون إلى الحكم فى فرنسا ١٨١٥ – ١٨٣٠.

لقد خلف نابليون لمن جاء بعده فى فرنسا مشكلة التوفيق بين تحقيق غرضين متناقضين. وهو تكوين نوع من الحكم يرضى الفرنسيين كما يرضى فى الوقت نفسه الساسة الأوروبيين. وقد ظلت هذه المشكلة هى المسألة المهمة التى

استنفذت جهود ساسة فرنسا على نقض تسوية فيينا عام ١٨١٥، تلك التسوية التى اقترنت باقتطاع أملاك كثيرة من فرنسا، وبالقضاء على العزة القومية للفرنسيين على حين كانت دول تعمل جاهدة للمحافظة على هذا التسوية بكل جزيئاتها. وقد قامت فى فرنسا محاولات ثلاث للتوفيق بين هذين الفرضين، ولكنها فشلت جميعًا، فالفرنسيون لم يسترحوا لعودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا. وقد أظهروا منذ البداية عدم رغبتهم فيها لأنها كانت تعتمد فى بقائها فى فرنسا على الدول الأوروبية فكان واضحًا أنها لن تعمّر طويلاً. وسلكت الحكومة أيام أسرة أورليان سياسة خارجية تتعارض مع رغبات الأمة، غير أن تأييد الطبقة الوسطى لهذه الأسرة قد أخر سقوطها وإن كان لم يستطع حمايتها من ذلك. ولما كانت أيام نابليون الثالث نجح هذا الحاكم فى استمالة الفرنسيين نحوه، إلا أن نجاحه هذا فى بادئ الأمر كان عرضه لعداء دول أوروبا التى رأت فى نشاطه ومجهوداته محاولة لإرجاع عظمة فرنسا فى عهد الإمبراطورية الأولى. وانتهى الأمر بسقوطه كما سقط أسلافه(٤٦).

لم تكن مهمة الساسة الفرنسيين بعد عودة الملكية فى عام ١٨١٤ يسيرة وإنما كانت شاقه ومعقدة إلى أبعد الحدود؛ ففى عهد لويس الثامن (١٨١٤ – ١٨٢٤) عشر ظهر بوضوح عداء القيصر إسكندر لفرنسا وكان موقفه من تاليران منذ أيام تسوية فيينا معروفًا. ولم يكن هناك بد من أن يبعد تاليران، فلم يشارك فى المفاوضات التى وقعت بين الدول العظمى وانتهت باحتلال أجنبى لثلاثة أرباع فرنسا.

وكانت الأحوال الداخلية فى فرنسا معقدة، وليس ذلك بالأمر الغريب، فعودة نابليون إلى الحكم لمدة مائة يوم بعد فراره من ألبا "فقد كان لها أثرها فى ازدياد التنافس بين الأحزاب فى خلق جو من الكراهية والبغضاء بين طبقات الشعب الفرنسى فالملكيون المتطرفون يعتقدون أن هناك مؤامرة تدبر ضدهم للانتقام منهم، بينما ظل الأحرار المتطرفون يرفضون الاعتراف بملكية لويس

الثامن عشر بعض الوقت وإن كانوا قد اضطروا إلى قبول الأمر الواقع. وحكم أسرة البربون قد بدأ والبلاد منقسمة إلى حزبين متخاصمين، واستمر الخصام بينهما قائمًا مدة خمسة عشر عامًا، فحزب الملكيين المتطرفين كان معروفًا بعدائه للثورة الفرنسية، يحارب جهد طاقته كل نزعة إلى الحرية للانطلاق من قيود الحكم الملكى، ويواصل سعيه إلى إرجاع فرنسا إلى ما كانت عليه فى العهد القديم. وكان أكثر أعضاء هذا الحزب من الذين اضطروا أيام قيام الثورة إلى الهجرة، ثم عادوا بعد ذلك إلى فرنسا، وباتوا يعملون على الرجوع بها إلى ماضيها طمعًا فى استرداد سلطانهم مهما كان فى ذلك من هضم لحقوق الطبقات الأخرى ولو كان فى ذلك انتقاص من سلطة الملكية. ومن الوسائل التى اتخذوها لتحقيق هذا الغرض العمل على إعادة الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عظمتها وقوتها. وكان من رأيهم أن الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة من شأنه أن يزيل العقبات التى تعترض سبيل تحقيق السياسية الجديدة، فرأوا أن تعود إلى الكنيسة أملاكها التى كانت لها قبل الثورة، وأن يكون الإشراف على أمور التعليم والثقافة من حق رجال الدين فهذا أحد الأساقفة يعين مديرًا للجامعة فى عام ١٨٢٢ فيهيمن على شئون التعليم العالى والثقافة، وفتحت أبواب فرنسا لجماعة الجزويت، فعادوا إليها ليستأنفوا نشاطهم المعروف فى مجال التعليم. وكان الحزب الملكى المتطرف يؤمن بأن العودة بفرنسا إلى الرجعية لن يكون نجاحه مؤكدًا إلا تحت ستار التعليم الدينى، ورأوا لضمان النجاح فى الوصول إلى غرضهم أن تفرض الرقابة الشديدة على الرأى العام ووسائل النشر عنه فى الصحف والمؤلفات والمنشورات[٤٧].

ولم ينجح ذلك الحزب رغم كل ذلك فى سياسته لأن أثر الثورة وما بذرته فى عقول الشعب وقلوبهم من مبادئ الحرية وقيمتها لم يكن قد زال تمامًا. ولأن أعضاء الحزب قد بالغوا فى أطماعهم، فطالبوا بما كان لهم من

امتيازات حتى قبل أيام عهد الثورة بعهد طويل ونعنى ابتداء من عهد الوزراء العظام أى عند مطلع القرن السابع عشر[٤٨].

وكان يقاوم حزب الملكيين المتطرفين حزب من عشاق الثورة الذين آمنوا بمبادئها وما أحدثته من تغيير في الأوضاع. وكانت خطتهم تنحصر فى الدفاع عن الثورة والاستمرار فى التمتع بنتائجها دون الالتجاء إلى العنف والروح الثورية المتطرفة. وكانوا يمدون آمالهم إلى الوصول إلى هدف بعينه وهو التوفيق بين الحيازة المنظمة والحرية التى نادت بها الثورة وتمتع بها الشعب دهرًا. والواقع أن هذا الحزب لم يخاصم الحكم الملكى وإن كان قد فرض على فريق فرضًا. وتعهد بتأييد الملك والولاء له ما دام لا يتعرض للحريات بسوء، ويحترم الشروط التى أخذها على نفسه عندما آلت إليه ملك فرنسا. وكان الحزب يعتمد فى ذلك على ما ضم "الميثاق" أو "العهد" من شروط؛ غير أن ذلك العهد كان ينقصه الإيضاح والتحديد فى بعض مواده، فمن ذلك مثلاً أنه لم يجدد فى المادة الخاصة بتشكيل الوزارة الحزب الذى تختار منه الوزارة وسنتعرض لذكر "الميثاق" فى تفصيل ببعض مواده فيما يلى[٤٩]:

صدر هذا الميثاق بإرادة لويس الثامن عشر، واستقبله الشعب بالرضا على الرغم من أنه لم يوسع فى باب الحرية بالقدر الذى تضمنه دستور عام ١٧٩١ الذى أصدره لويس السادس عشر عند مطلع أحداث الثورة الفرنسية[٥٠].

نص الميثاق على وجوب تشكيل هيئة تشريعية تمثل الشعب الفرنسى. وهو بذلك قد أتاح له ما لم يتح له أيام نابليون. فكانت الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين؛ مجلس الشيوخ وللملك حق تغيير أعضائه وكانت عضويتهم مدى الحياة، وقد تكون وراثية، والمجلس التشريعى وكانت عضويته عن طريق الانتخاب، إلا أن الانتخاب كان معتمدًا بنصاب الملكية، فلم يكن الناخب يستطيع أن يدلى بصوته الانتخابى إلا إذا أثبت للدولة أنه يدفع ضريبة سنوية مباشرة قدرها ١٣ فرنكًا. فأما المرشح لعضوية المجلس فلم يكن يسمح له

بالترشيح إلا إذا اثبت أنه يدفع للدولة ضريبة مباشرة لا تقل عن أربعين فرنكًا. فترتب على هذه الشروط أن عدد الناخبين لم يزد على حوالى مائة ألف يمثلون شعبًا تعداده وقتئذ ثمانية وعشرون مليونًا. وعلى الرغم من هذه القيود التى فرضها الميثاق على عملية الانتخاب فقد كان للمجلس التشريعى من الحقوق ما لم يتوافر لآى هيئة تشريعية منذ أول عهد القنصلية. وبحسب تلك الحقوق قبول ورفض ما يشاء، ومن ذلك رفض فرض الضرائب حين يقتنع بضرورة ذلك.واعترف "الميثاق" بطبقة النبلاء التى نشأت أيام نابليون، فحلت محل طبقة النبلاء القديمة على أنه لم يكن لها ما كان لسابقتها سوى الاسم والمظهر[٥١]. ونص "الميثاق" على ضمان حق أصحاب الأملاك التى اشتروها فى أول عهد الثورة، كما ابقى على الاعتراف بالحرية الدينية وفرض المساواة أمام القانون وحق لشغل وظائف الدولة للمؤهلين من مختلف طبقات الشعب. كل ذلك كان من حقوق الشعب التى منح إياها فى عهد الجمهورية والإمبراطورية. وأصبحت كل هذه المبادئ التى تضمنها "الميثاق" جزءا مهمًا من القانون العام فى فرنسا. كما نصت مواد "الميثاق" إلى جانب ما تقدم على حرية الصحافة.

وظاهر من استعراض مواد الميثاق أنه لم يسمح باستعلاء طبقة من طبقات الشعب على أخرى ... ومع ذلك فقد رأى النبلاء وعلى رأسهم أخو الملك "كونت دارتوا Conted, Artois أن يعوضوا عما تغاضى عنه "الميثاق" فى شأن حقهم فى شغل وظائف الحكم والإدارة؛ فاتجهت آمالهم نحو الوظائف العسكرية. وكانت المؤسسة العسكرية يومئذ أعظم المؤسسات حظًا من الديمقراطية والقومية. وقد اقتضت الظروف الاقتصادية حينئذ أن تسرح الحكومة حوالى أربعة عشر ألف من رجال الجيش، فأصبحوا لا يتقاضون إلا ما كان لهم من مرتبات. فلم يلبث أن حل محل المسرحين من الجيش عدد كبير من المحاربين المهاجرين من الذين حاربوا ضد الجمهورية داخل "فرنسا" أثناء حرب لافنديه" وخارجها من صفوف أعدائها. وأعيد إلى خدمة الجيش فى

قـواته البحـرية مـن كانـوا قـد اضـطروا إلى تـركه من قبل، أعيدوا برتبهم التى بلغـوها فـى بحـرية العدو. وعين "دوبون" Dupont وزيرا للحربية، وكان قائدًا لقـوات فرنـسا التـى هـزمت لأول مـرة أيام نابليون فى أسبانيا فى واقعة بايلن Beylen عـام ١٨٠٨ وحـل علم ملكية البوربون الأبيض محل علم الثورة المثلث الألوان.

والواقـع أن ما حققه النبلاء لأنفسهم لم تعد مظاهر تافهة وإن كانت قد أثـارت فـى نفـوس الشعب كثيرًا من الاستياء؛ فالشعب يرى أن رجال الجيش مـن أيـام نابليون وإيطاليا الثورة المجيدة قد أهمل حالهم وحال أسرهم وأصاب الاضـطهاد بعـضهم، وتقـول زينب راشد لم يقتصر الأمر على إثارة النفوس على الحكـم الملكـى بـل اشتد غضب الشعب من زيادة سلطان الكنيسة نتيجة لموقف الملك منها، فهو قد غمر الكنيسة بما لها من سلطان، وأعلن أساقفتها، أن وضع الدولـة كلها تحت حماية العذراء (أى تحت حماية الكنيسة). وبالغ فى تكريم الكنيـسة واحـترام أعيادها فقرر تحريم البيع والشراء أيام الآحاد والأعياد. وإذا كـان مـثل ذلـك الإجراء لم يهز كبار رجال التجارة، فإنه من غير شك قد أوغر صدور الطبقة الصغيرة من العاملين فى التجارة[٣٥].

وإذا كـان ينـسب إلى النبلاء ورجـال الـدين مـن سـلوكهم إزاء طبقات الـشعب والاسـتعلاء علـيها فإنـه كان من الأمور التافهة إذا قيس بما وقع لهذا الـشعب الفرنـسى أيـام بونابـرت، إلا أن مظاهـر الـبطولة والمجد فى عهد هذا الإمـبراطور العبقـرى قـد كان كفيلاً بأن ينسى الشعب كل ما أصابه من متاعب الدنـيا وأهوالها. فقد استيقظ فى خواطر الشعب ما كان مطويًا من مساوئ العهد الملكـى الـذى قـضت علـيه الثورة وبطلها نابليون ولا عجب فهذه طبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان.

والواقـع أن لـويس الـثامن عشر كان رجلاً سيئ الحظ، فهو على الرغم مـن مظاهر مقاصده الطيبة نحو شعبه ومحاولته التوفيق بين طبقاته لم يوفق فى

ذلك كل التوفيق لأن الحزبين المتنافسين في أيامه قد حالا بسلوكهما نحو تحقيق الأغراض المتباينة دون الوصول إلى استقرار سياسى، ذلك مع أنه بادر بوضع "الميثاق" دون أن يتأثر بآراء الملكيين المتطرفين. ومع ذلك لم يصل بنياته الطيبة وما صدر عنها من أراء تضمنها الميثاق إلى ما يرجو من نجاح وإن كان سلوكه قد أخر قيام الثورة فلم تقع فى أيامه(٥٣).

ويكفى للتدليل على حسن نيته ونفاذ بصيرته وسرعة إدراكه أن يبادر بالعمل على التخلص من المجلس التشريعى الذى كان قائمًا أول عهده. وكان أكثر أعضائه من الملكيين المتطرفين الذين لم يرضوا بالتعاون مع حكومة يرأسها ريشيليو **Armand Emmanuel Richelieu** . وكانت معروفة بالاعتدال فى سلوكها السياسى. وبذلك استطاع لويس الثامن عشر أن يستبعد نفوذ الحزب الملكى المتطرف ولو إلى حين، وترتب على ذلك أن ساد الوئام بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية مما أدى إلى تحسين أحوال فرنسا الاقتصادية. فاستقامت الأمور فيها وخاصة أمورها المالية مما أعانها على دفع ما كان عليها من غرامات حربية، بحيث أصابت شيئًا من رضا الحلفاء، فلما اجتمعوا فى مؤتمر "إكس لاشابل" قرروا فى عام ١٨١٨ تحريرها من جيش الاحتلال. وعد ذلك نصرًا لسياسة ريشيليو وإن كان زوال نفوذ بعض الأحرار فى المجلس التشريعى قد اضطر ريشيليو إلى الاستقالة، وخلفه "ديكاز" **Decazes** (فى رئاسة الوزارة) الذى كان يعتمد فى سلوكه على تأييد الأحرار. وكان أول عمل بادر إلى القيام به تحرير الصحافة من سلطان الرقابة والترحيب باستقبال الأحرار فى المجلس التشريعى، وفى مقدمتهم "لافاييت".

وظلت الأمور تجرى فى فرنسا فى هدوء إلى أن وقع حادث غيرٌ من سيرتها، وهو حادث اغتيال "دوق دى برى" **Duke de Berri** ابن أخى الملك فى عام ١٨٢٠. فأثار ذلك شعور الملكيين وأدى إلى ضعف مركز الوزارة، فاضطر الملك إلى حل الوزارة التى يرأسها وزيرة المحبوب "ديكاز" وترتب على ذلك

تغيير في مجرى الأمور في فرنسا وأثبتت الأحداث أن سقوط الوزارة المذكورة كان بداية لعهد رجعي جديد. أخذ نفوذه يقوى فأصبح أساسًا في قيام ثورة جديدة في يوليو ١٨٣٠[٥٤].

وبوفاة لويس الثامن عشر سنة ١٨٢٤ دون أن يخلف ابنًا يرث عرشه. أصبح التاج الفرنسي من حق كونت دارتوا وهو آخر من تبقى على قيد الحياة من هذا الفرع لعائلة بوربون الكبيرة. فارتقى العرش تحت اسم شارل العاشر، وبذا باتت سيطرة الملكيين المتطرفين كاملة على أجهزة الحكم والدولة باعتبار أن الملك الجديد كان منذ أمد طويل زعيمهم وموجههم وصاحب الرأى الأول فيهم. فبدأت الحكومة الفرنسية في عهده مرحلة التحول الفعلي للعودة بل المؤسسات والنظم الفرنسية إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩. أعادت للأشراف ما لم يكونوا قد استعادوا بعد من امتيازاتهم القديمة واستصدرت قانون يعرف باسم "المليار" يعطيهم تعويضًا عما صادراته منهم الثورة الفرنسية. كذلك سمحت للآباء اليسوعيين (الجزويت) بالعودة إلى البلاد ووضعت الجامعة ومؤسسات التعليم تحت رئاسة أكليريكي[٥٥].

هذه السياسة المتطرفة أثارت موجة عارمة من المعارضة في جميع أنحاء البلاد وتخوف الناس من أن يقدم الملك على مزيد من الخطوات الرجعية كأن يلغي الدستور ويعيد الملكية المطلقة بأشمل مظاهرها. ولم يكن هذا بالمستبعد عليه إذ سبق له أن صرح أكثر من مرة قائلاً "الخير لى أن أكون حطابًا من أن أملك على شاكلة ملك إنجلترا" وتوزعت المعارضة في جبهات ثلاث فإلى اليسار كانت هناك فئات المثقفين والكتاب والصحفيين الشديدى التعلق بالجمهورية وبمبادئ الثورة وهؤلاء هالتهم تصرفات الحكومة وبصورة خاصة إلغاء الحرس الأهلى وهو آخر ما تبقى من مؤسسات الثورة الفرنسية وكذلك طرد بقايا ضباط نابليون من الجيش. وفي الوسط كانت تعارض جماعات الملكيين الدستوريين المؤلفة من فئات من المثقفين وكبار التجار والصناع، وفي أقصى اليمين أنشقت

فئة من الملكيين المتطرفين بزعامة شاتو بريان بسبب إبعادهم عن مراكز الحكم والسلطان.

وأمام رفض البرلمان الفرنسى، رغم موالاته للعرش، لقانون يفرض مزيدًا من الرقابة على الصحف ولقانون آخر يعطى حق وراثة الملكيات الكبيرة للابن البكر أقدم الملك على حل البرلمان والدعوة لإجراء انتخابات جديدة، وفى الانتخابات التى جرت فى سنة ١٨٢٨ فاز تحالف الملكيين الدستوريين وبعض الأحرار والجمهوريين المعتدلين بأغلبية مقاعد البرلمان وبات الملك ملزمًا بانتهاج سياسة معتدلة استدعى لتنفيذها أحد قدامى السياسيين مارتينياك **Martignac** وعينه رئيسًا للوزارة. إلا أن الرئيس الجديد فشل فى إرضاء أى من أحزاب المجلس واضطر للاستقالة سنة ١٨٢٩ وهو الأمر الذى كان يتمناه ويبتغيه شارل العاشر.

عندئذ استدعى بولينياك **Poliganc** سفير فرنسا فى لندن والمعروف بعدائه الشديد للنظم المتحررة وعينه رئيسًا لوزرائه. حكم هذا الرجل سبعة أشهر دون أن يجمع البرلمان ووجه معارضه عنيفة للغاية كانت عن مواقفها بصورة جريئة للغاية منذ يناير سنة ١٨٣٠، صحيفة ناسيونال **Le National** التى يشرف على إصدارها سياسى شاب اسمه تيير ـ**Thiers** ويمولها أحد كبار أصحاب المصارف الفرنسيين كانت الصحيفة المذكورة تجاهر علنًا بضرورة أحداث تغيير فى نظام الحكم للمحافظة على الدستور وعلى الحريات العامة[٥٦].

وفى الجلسة الأولى التى عقدها النواب فى شهر مارس سنة ١٨٣٠ طالب المجلس بالمشاركة فى الحكم والمسئولية ونزع الثقة من الحكومة. غضب الملك وحل البرلمان. إلا أن الانتخابات الجديدة التى جرت بعد ذلك أعطت الأحرار نصرًا قويًا وزاد عدد نوابهم إلى خمسين نائبًا. فى هذه الفترة بالذات جرت عملية غزو بلاد الجزائر مما وضع حجر الأساس فى بناء إمبراطورية

فرنسا الواسعة فى بلاد المغرب العربى وعمر خزينة شارل العاشر التى كانت تشكو فراغًا مزمنًا بكميات ضخمة بلغت حوالى خمسين مليون فرنك ذهبى أخذت عنوة من أموال الشعب العربى هناك. نجاح هذه العملية الاستعمارية زادت ثقة الملك بنفسه وبقوته وجعلته يقدم على خطوة متهورة يتحدى بها قوة المعارضة المتزايدة، فأصدر أربعة مراسيم قضت بحل المجلس الجديد وتقييد حرية الصحافة وتعديل قانون الانتخابات بحيث يصبح أكبر الناخبين من فئات ملاكى الأرض وكان ذلك فى ٢٥ يوليو سنة ١٨٣٠.

وفى ٢٧ يوليو تم التفاهم بين الجمهوريين والجمعيات العمالية على ضرورة اللجوء إلى العصيان المسلح وفعلاً نزل العمال والطلاب إلى الشوارع وأقاموا المتاريس كما أغلقت المصانع أبوابها وجرى توزيع الأسلحة على الناس من قبل الصنّاع. وفى اليوم التالى احتل الثوار قصر الملك فى باريس (التويلرى) وسيطروا على العاصمة كلها. وقد حاول الملك الذى كان يصطاد آنذاك فى ضاحية سان كلو استرضاء الجماهير بالعودة عن مراسيمه الأربعة إلا أن رجال الثورة أصروا على خلعه فهرب شارل العاشر إلى الخارج[٥٧].

واتجهت الأنظار فورًا نحو دوق أورليان زعيم عائلة أورليان العريقة إحدى فروع آل بوربون وابن فيليب قريب لويس السادس عشر والمناصر والمؤيد للثورة منذ يومها الأول حتى أنه صوّت على قرار إعدام الملك الفرنسى قبل أن يفقد هو نفسه رأسه على مقصلة عهد الإرهاب. وبقى طيلة غياب الملكية عن فرنسا ابنه دوق أورليان، بعيدًا عن أوساط المهاجرين لم يتآمر ولم يعاد شعب فرنسا وحكم الإمبراطورية. وبعد سقوط نابليون حافظ على علاقات ممتازة مع الأوساط التقدمية والمتحررة فى البلاد.

دعى البرلمان الفرنسى دوق أورليان ليكون ملكًا على الفرنسيين وليس ملكًا لفرنسا كما كان جميع أسلافه. وهذا يعنى بالطبع أن الأمة قد اختارته

بمحض إرادتها وبموجب مالها من حق السيادة ليكون ملكًا عليها كما فرضت عليه أن يحكم في ظل علم الثورة المثلث الذى يحبه الفرنسيون.

والواقع أن المتعقلين من الفرنسيين استبعدوا النظام الجمهورى لعلمهم بأن أوروبا وخاصة النمسا وروسيا ما كانتا لتوافقا على ذلك بحال من الأحوال. وبذلك يكون الجمهوريون بقايا الثوريين الفرنسيين هم الذين غرسوا نبتة ثورة سنة ١٨٣٠ وهم الذين تعهدوها ورعوها إلى أن أينعت وحان قطافها فجناها الملكيون الدستوريون دون كبير عناء لأن الظروف الدولية فى أوروبا ما كانت تسمح بغير ذلك[٥٨].

وانتشرت على جناح السرعة شرارات من أتون باريس إلى الكتل الخشبية الواهية الدعائم التى أقامها مؤتمر فيينا. فخرج البلجيكيون على الهولنديين والبولنديين على الروس. وجمعيات الكاربوناري على الحكم الأكليركى فى الولايات البابوية. ورنت فى باريس صيحة عالية بإشهار حرب تحريرية على النحو الثورى القديم العظيم، لإنقاذ شعوب أوروبا المعذبة. فاندلعت فى فرنسا فتنة خطيرة، وبقيت حكومة باريس الجديدة مدى عام كامل، وهى فى كفة القدر، إلى أن هدأت العاصفة فى النهاية. فقد كشف لويس عن أولئك المجانيين الذين كانوا يبغون اشتباك فرنسا فى حرب مع إنجلترا بخصوص البلجيك، ومع روسيا بخصوص بولندا ومع الإمبراطورية النمساوية بخصوص الانتصار لقضية القومية الإيطالية، ولقد أبان بهذا العمل عن حسن تقديره للأمور، وبمعرفته بدقائق السياسة. إذ أنه بحفاظه على السلم مع الدول العظمى أتاح لبلاده ثمانية عشر عامًا من التقدم الاقتصادى وقسطًا من الرخاء المادى المتزايد[٥٩].

ثالثًا: ثورة بلجيكا واستقلالها.

أما الثورة التى فصمت عرى مملكة الأراضى المنخفضة السيئة التكوين، فقد بدأت بشغب اندلع فى بروكسل ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠، فقد تململ

البلجيكيون وتذمروا طويلاً من حكم أسيادهم الهولنديين الصارم. وكانوا يمقتون المذهب البروتستانتي، وروح التسامح الهولندى. واستئثار الهولنديين بكل طيب فى الدولة. ورأوا أنفسهم أكثر منهم عددًا وأفصح لسانًا، واعتقدوا أنهم أعلى ثقافة وألطف معشرًا. فلهذا جعلوا اللغة الهولندية اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة، وتم إبعاد السكان الوالينين **Walloons** عن الحياة العامة، وإعطاء جميع الوظائف المهمة تقريبًا، مدنية أو عسكرية للهولنديين. عدت هذه الأمور مظالم لا تحتمل. وكان شعور التفوق والامتياز الذى بدا على وجوه الهولنديين يستفز صدور مواطني روبنز **Rubins** المصور الذائع الصيت، كما أذكى لظى غضبهم مثال باريس. فعقدوا العزم على خلع نير الأجنبى من أعناقهم.

ويذكر فشر أنه شُيد عمود تذكارى مقام فى ميدان الشهداء فى بروكسيل إلى اللحد الذى يضم رفات ستمائة متطوع بلجيكي استشهدوا فى قتال نشب فى سبتمبر سنة ١٨٣٠ في شوارع المدينة مع الجند الهولندية النظامية. فلفت هذا الاستشهاد الذى حرك يومئذ شعور الناس، الأنظار إلى قضية استقلال بلجيكا، ولكنه لم يتحقق، لأن مملكة البلجيك الحديثة لم تقم على بسالة البلجيكيين الحربية، بل قامت نتيجة لمفاوضات دبلوماسية طويلة بين إنجلترا وفرنسا، مع معونة يسيرة قدمها الجيش الفرنسي، وقد ساهم فى استقلالهم بالمرستون (١٧٨٤ — ١٨٦٥) الذى كان قد عين حديثًا وزيرًا للخارجية في وزارة اللورد جراى الحرة، وتاليران سفير فرنسا يومئذ فى لندن الذى أحسن اختياره لهذا المنصب. فإن حب بالمرستون للحرية، مقرونًا بتصميم لويس فيليب وتاليران على ألا يفتحا أبدا من جديد النزاع القديم مع إنجلترا، بعدها تمكنتا الدولتين من حسم الخلاف بينهما، دون اللجوء للحرب وذلك على أساس منح البلجيك استقلالها. ولو أن بالمرستون انحاز إلى جانب الهولنديين، وأيد حكمهم الأوتوقراطي، ولو أن لويس قبل التاج البلجيكي الذى عرض على

ثانـي أولاده، لاستمر الـشجار القديم بين فرنسا وإنجلترا مرة ثانية، جارًا في ذيوله عواقب، ربما كانت قد قضت على آمال البلجيكيين لنيل استقلالهم[٦٠].

ولكـن تعـاون الدولـتين حـصر موضـوع الخـلاف، وحل المشكلة فعرض التاج البلجيكي على ليوبولد أمير ساكس كوبرج **Leopold de Saxe Cobourg** (١٨٩٠ – ١٨٦٥) خـال الملكة فكتوريا البعيد النظر الواسع الإطلاع، ا لذى كان قد اقترن قبلاً بابنه جورج الرابع. ثم أظهر الآن الاستعداد للاقتران بابنه لويس فيليب، كعلامة لعدم تحيزه.

ولقـد أظهـر المـستقبل أن البلجـيك أجـادبت انتقاء هذا الأمير. فقد ذلل ليوبولد جميع المصاعب والعقبات التي واجهته. فتغلب على الغزو الهولندى المحفـوف بالخطـر علـى بلاده، الذى شُن فى أواخر يوليو سنة ١٨٣٠ وتغلب على مشكلة لا تقل عن هذه الخطورة، وهي تخلصه من جيش فرنسي جاء لطرد الهولنديين. وتغلب على سخط الشعب البلجيكي الشديد وتذمره العميق لفقدانه شـطرًا من لكسمبرج – هذا الفقدان الذى فرضته الدول العظمى فى مؤتمر لندن، وأبدته معاهدة لندن المبرمة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٣٠.

أمـا النـصر الحقيقـي فكـان النـصر الذى كسبته سياسة بالمرستون. فقد تخلـصت البلجـيك حقًا من حكم هولندا، ولكنها أنقذت من خطر انضمامها إلى منطقة الـنفوذ الفرنـسي الحربـي والـتجارى. فعـرض علـيها نظـام مـن الحياد المـستديم. فبمقتـضى معاهـدة ١٨٣٩ الـشهيرة، التـى وضـعت بعد ذلك بخمسة وسبعين عامًا بأنها قصاصة ورق، ضمن حياد البلجيك بواسطة خمس من الدول الكـبرى، كان من بينها بروسيا وفرنسا، علاوة على إنجلترا التى حصلت بهذا الـتدبير علـى ضـمان أولى مصالحها السياسية، تلك المصلحة التي دافعت عنها قرونًا عديدة بدماء أبنائها[٦١].

رابعًا: الثورة في بولندا.

أما بولندا فقد منحها إسكندر وقت حصوله على الجزء الأكبر منها عام ١٨١٥ دستورًا وأعلن عن عزمه حكمها كمملكة لها كيانها القومي وكان صادق فأيده لفترة من الزمن كثيرون من الوطنيين البولنديين ومن أشهرهم النبيل زار توريسكي ولكن الروس والبولنديين كانوا أشبه بالزيت والخل لا يمتزجان فالبولنديين وهم العنصر المغلوب على أمره كانوا يشعرون بالتفوق في كل شئ عدا القوة إذ كانت لهم ثقافة لاتينية مقابل ثقافة الروس شبه اليونانية وتاريخ مجيد مقابل صحائف الروس الحافلة بإراقة الدماء ولم يتبدل من الأمر شيئًا أن إسكندر منحهم دستورًا تحرريًا تقدميًا فإن أية عملية يقدمها حاكم روسي مهما يكن عطوفًا لابد وأن تكون موضعًا للريبة في نفوس معظم البولنديين الوطنيين، ثم إن إسكندر على ما يبدو من لطفه ووداعته عين أخاه الدوق الأعظم قسطنطين قائدًا عامًا عليهم وكان هذا طاغية أحمق راح الدوق الأعظم يفرض سيطرته على نائب الملك الضعيف وقد افتتح الدايت الأول في ١٨١٨، ولكن الرقابة المشددة فرضت على الصحف في ١٨١٩ ومع أن الدايت انعقد مرة أخرى سنة ١٨٢٠ فإن إسكندر لم يلبث أن حله وامتنع طوال خمس سنوات عن دعوة المجلس الجديد للاجتماع[٦٢].

وقد أخذت الجمعيات السرية تنمو وتقوى ولما افتتح إسكندر الدايت الثالث في سنة ١٨٢٥ حد من سلطانه جدًا وجعل الدستور من الوجهة العلمية معطلاً فهو كما قال بايرون لم يكن له اعتراض على الحرية الحقة سوى أنها تجعل الأمم حرة" ولما مات إسكندر في أواخر سنة ١٨٣٥ قامت مؤامرة ضد خلفه إشترك فيها بولنديون وكان القيصر الشاب نيقولا أوترقراطياً بطبيعته، وقد أثار موقف بولنده حفيظته إلى أبعد حد ورغم أن تصميمه على إخماد الحريات الضئيلة التي بقيت لبولنده يرجع على الأرجح إلى ذلك التاريخ فقد أخفى عزمه بضعة أعوام ودعا الدايت الرابع كما سيظهر إلى الانعقاد بعد خمس سنوات

فاجتمع دورة قصيرة تجلى فيها الشك من الجانبين وقد أثارت الثورة الفرنسية التى هبت فى يوليو ١٨٣٠ انفعالاً كبيرًا فى نفوس البولنديين وأخذت الجمعيات السرية تتفشى حتى فى صفوف ضباط الجيش، وأخيرًا أدت الاستعدادات التى راح نيقولا يتخذها لإخماد الثورة فى فرنسا وبلجيكا إلى نشوب حركة تمرد فى البلاد؛ ففى ٢٩ نوفمبر حدث عصيان فى وارسو وفقد الدوق الأعظم قسطنطين رباطة جأشه، فسحب القوات الروسية من العاصمة وغادر المملكة فألفت قبل نهاية العام حكومة مؤقتة مناهضة للروس وللشعور القومى.

وقد أظهر البولنديون ترددًا كبيرًا فرغم أن جيشهم كان يربو على ٥٠٠٠٠ رجل، ورغم أنهم قد أخذوا القيصر على حين غرة فقد راحوا يضيعّوا الوقت فى مفاوضات عقيمة على أنه بخلعهم القيصر فى يناير ١٨٣١ قد جعلوا الصراع أمرًا محتومًا فكان أن دخل الروس المملكة فى فبراير فى أعداد ساحقة إلا أن المعارك الأولى لم تكن حاسمة فصمد البولنديين حتى مايو ولكنهم لم يستطيعوا تأخير النهاية إلا إلى سبتمبر ففى ذلك الشهر دخل الروس وارسو وأطاحوا فى ضربة واحدة بالملكية الدستورية والحريات العامة فقدر لبولندا أن ترضخ مدى ربع قرن لحكم حديدى فقدت فيه حياتها العضوية المستقلة وساسها فيه السيف الروسى وحده[٦٣].

ومما يجدر بالذكر أن ما أبداه البولنديون من الفروسية واندفاعهم الثورى ومقاومتهم الباهرة قد أقلق روسيا فحاولت إقامة نوع من الحكم الدستورى فى بولندا وأن فشل تلك المحاولة يرجع – جزئيًا – إلى بولندا نفسها إلا أن الشعور القومى كان أقوى من أن يسمح بالتعاون مع روسيا بل أقوى من أن تخضعه تدابير القمع الوحشية التى استخدمتها روسيا فلإن باتت بولندا بلا حول ولا قوة فإن روحها ظلت صلبة لا تقهر وقد بقيت رغم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء متمسكة بمثلها الأعلى فى الوحدة القومية فظلت، كما كتب

ميتلاند "ثلاث كسر لا تقوى على هضمها ثلاث معدات "وقد أتيحت للبولنديين الخاضعين للحكم النمساوى بل وأحيانًا الخاضعين للحكم الروسى نفسه بعض الفرص للتغبير عن قوميتهم وأثبتت الأيام أن ضم كراكاو للنمسا فى ١٨٤٦ كان من العوامل التى ساعدت فعلا على بعث بولندا فقد سمحت النمسا للبولنديين فى جاليسيا بشئ يشبه "الحكم الذاتى" وفى ظل سيطرتها المعتدلة نما الشعور القومى وأصبحت كراكاو مركزا للثقافة البولندية والفن والأدب البولندى والدعوة الوطنية ولسوف تكبر قوات القومية التى نبتت هناك فتشمل بولنده كلها فى النهاية[٦٤]. وكانت إحدى نتائج هذه الحركة هجرة كثير من الفنانين والكتاب البولنديين إلى باريس، التى غدت على مدى أجيال عديدة عاصمة الأمة البولندية الثقافية.

ويقول فيشر أنه لهذا السبب فإن ثورة بولندا عام ١٨٣٠، لم تكن من غير جدوى، ولو أن نتيجتها بدت فشلاً ساحقًا ذريعًا. فقد ذكرت أوروبا بوجود جماعة تشيع فى صدورها العواطف القومية: جماعة مازالت قوية، وإن كانت مرهقة بمظالم ما برحت تئن من ثقلها، وجماعة تغمر قلوب أبنائها شجاعة تقرب من التهور. ولم ينس الفرنسيون أن العصيان البولندى كان نتيجة لثورتهم الداخلية. فتكونت بين فرنسا وبولندا رابطة قوية وثيقة، مازالت عاملاً فى مجرى السياسة الأوروبية[٦٥].

خامساً: الثورات فى إيطاليا:

بعد التدخل النمساوى عقب مؤتمر ليباخ هدأت بعض الشئ الحركات الثورية فى إيطاليا واستكان الإيطاليون فى الظاهر على الأقل إلى واقع سياسى أدركوا استحالة تغييره فى المستقبل القريب إلاّ أن بعض الجمعيات السرية وخاصة جمعية الفحامين (الكاربونارى) التى تضم بعض العناصر من الثوريين المتطرفين ومن بقايا ضباط نابليون ظلت تعمل بهمة ونشاط ولكن بمنتهى الحذر على مقاومة الوجود النمساوى بالبلاد. وفى سنة ١٨٣١ قام بعض أعضاء هذه

الجمعيات متأثرين بثورة يوليو الفرنسية تحدوهم رغبة رومانطقية مثالية لا تستند إلى أى أساس واقعى أو عسكرى، وبحركات تمرد فى بعض المقاطعات الإيطالية، فى مودينا وبارم وبعض المقاطعات البابوية أيضًا. وفى أكثر هذه الحالات كان هدف هذه الثورات مقاومة استبداد الأمراء ولم تهدف إطلاقًا إلى أبعد من ذلك، رغم رومانطقية القائمين عليها وبعدها عن الواقعية، وذلك ليأسهم من إمكانية الحصول على أى دعم خارجى.

ولم يتردد النمساويون منذ البداية فى مواجهة هذه الأحداث بشدة وحزم مخافة أن تتطور وتنتشر فى كل البلدان الإيطالية، فأمر مترنيخ باحتلال المقاطعات المتمردة وقضى على الثائرين فيها وخنق حركات تمرد سنة ١٨٣١ فى مهدها[٦٦].

أما فى بريطانيا فقد أدى نجاح ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ فى باريس إلى قيام مظاهرات وحركات شعبية طالبت بتعديل القوانين الانتخابية القديمة التى أصبحت لا تتناسب مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية التى أحدثتها الثورة الصناعية فى بريطانيا. حيث بقيت بعض القرى ترسل أكثر من نائب إلى مجلس العموم بينما كانت بعض المدن الصناعية الجديدة ترسل أقل بكثير مما يحق لها إرسالها قياسا بعدد نفوس سكانها، وكان بعضها لا يرسل نوابًا على الإطلاق، ويعود ذلك إلى قانون الانتخابات الذى قد صدر عن تلك التحولات أى أنه كان يخضع لقواعد وضعت فى القرن الرابع عشر، حيث كان يشارك فى الانتخابات ملاك الأرض وأعضاء البلديات فى المدن. لقد كانت الحكومة بأيدى المحافظين التى لم تحاول القيام بإصلاحات رغم المطالب التى تقدم بها الشعب، بل إنها أصدرت سنة ١٨١٩ قوانين قيدت فيها حرية الرأى والنشر مناهضة لأنصار التغيير لكن رياح ثورات ١٨٣٠ كان له أثره فى تأجيج التظاهرات والاحتجاجات فى بريطانيا. وكانت نتيجة التظاهرات سقوط حكومة ولينجتون تحت ضغط الشارع ومجلس العموم وتشكيل اللورد جراى حكومة جديدة قامت بالإصلاحات الدستورية المطلوبة ووسعت حق الانتخاب[٦٧].

سادساً: الوضع فى سويسرا:

أما بالنسبة لسويسرا، فإنها تأثرت أيضا بثورة يوليو الفرنسية، حيث أنها كانت تتألف من ٢٢ مقاطعة مستقلة تجمع بينها "دايات" للاهتمام بالسياسة الخارجية. وكانت السلطة في أكثر المقاطعات بين أيدى طبقة تجار المدن أصحاب الميول الرجعية المحافظة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادى. وكان من نتائج ثورة يوليو الفرنسية أن نشطت المعارضة التى تضم فئات الأحرار والمثقفين من خريجى الجامعات الألمانية المعروفة في ذلك الوقت بكونها إحدى أهم مواطن الفكر الحر في أوروبا، وحصلت على مكاسب انتخابية جعلتها أكثر قدرة على مواجهة الفئات المحافظة علي تحقيق إصلاحات دستورية مهمة بالطرق السلمية، وأبرز هذه الإصلاحات: الاعتراف بمبدأ السيادة للقوميات المختلفة فى سويسرا، والمساواة بين المواطنين دون النظر إلى أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية، علاوة على إعطاء مزيد من الضمانات لاحترام حرية الرأى والصحافة[٦٨].

وإذا نظرنا نظرة عامة نجد أن الفترة ما بين ١٨١٥ إلى ١٨٤٨ بمحاولة من جانب الدبلوماسيين الأوروبيين لتمكين القوى التى أطلقتها الثورة الفرنسية ونابليون وأبرمت تسويات فيينا لتنسيق مطامع الدول الكبرى الإقليمية لا لإرضاء المطالب القومية إلا أن هذه التسوية الإقليمية كانت – إذ قصرنا نظرتنا على الدول الكبرى وحدها – ناجحة، فقد أبقت أوروبا بمنأى عن الحرب الكبيرة طوال أربعين عامًا. أما التجربة الأكثر طموحًا ونعنى بها تجربة الحكم الدولى أو الحكم بواسطة المؤتمرات التى استمرت من ١٨١٥ – ١٨٢٥ فكانت نهايتها أليمة فقد تحولت إلى "نقابة للملوك" يشترك أعضاؤها فى بوليصة تأمين متبادلة وعجزت عن أن تدخل فى اعتبارها حاجات ورغبات حكومة برلمانية تستند إلى تأييد شعبى قوى مثل حكومة إنجلترا فأسدى كاننج بإنهاء هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر خدمة جليلة لا لإنجلترا وحدها وإنما لأوروبا كلها[٦٩].

وكانت سياسة مترنيخ فى النمسا وفى ألمانيا تمثل محاولة مماثلة فشلت لأسباب مماثلة فقد عمد مترنيخ إلى نظام موحد للقمع على مجموعة من الشعوب والدول لم تكن لترضى بإنكار رغباتها القومية وأمانيها فى الحرية فهبت شعوب النمسا والمجر ودول ألمانيا تكافح ضد القيود التى أثقلها بها مترنيخ حتى حطمتها أوروبا فى سنة ١٨٤٨ وسجلت ثورتها نجاحًا دائمًا هذه المرة فلم يبق بعد انتفاضات ١٨٤٨ أثر لا لألمانيا ولا النمسا كما عرفهما مترنيخ.

أما فى بروسيا فقد سبق الثورة والاتجاهات التحررية مجموعة من الرجال الأكفاء بانتهاجهم سياسة حكيمة فى التعليم والإصلاح وبفرضهم على الدولة نظامًا عسكريًا صارمًا أثبت أنه خير ضمان لسيادة القانون وقد جاء هذا النظام ملائمًا للشعب البروسى الذى يقدر الذكاء والحكم القوى حق قدرهم ويدرك عدم كفايته فكان أن كسرت أمواج ١٨٤٨ التى حولت قصور مترنيخ إلى أكوام من الرمال بعنف ولكن دون طائل على صخرة الدولة البروسية الراسخة.

وقد انتهجت إنجلترا فى كل من كاننج وبالمرستون سياسة قوامها الانتهازية البارعة والعطف على الأمانى القومية والمناصرة الصريحة للحكم البرلمانى والدستورى وقد وفق الرجلان فى عمل شئ ما للبرتغال وأسبانيا وفى تحرير اليونان استقلال وبلجيكا[٧٠].

ومهما يكن من أمر فإذا نظرنا إلى النتائج الفعلية أمكننا القول بأن الحكم الفردى والثورة قد فشلتا فى تلك الحقبة وأن الحكم الدستورى قد نجح، وإن الدول الأوتوقراطية قد أدت بمحاولتها إلى كبت القوة الدافعة للأفكار الجديدة بدلاً من تلطيفها أو استيعابها إلى انفجار ١٨٤٨، وعندئذ اتضحت مزايا الحكم الدستورى، ولم يكن العالم "ناضجًا للثورة" فى ١٨٤٨ لكنه كان "جُعل مكانًا مأمونًا" للملكية المقيدة، فجاءت نتائج تلك الانتفاضة فى صالح الملكية الدستورية والاتجاهات التحريرية 'البالمرستونية" فى كل مكان عدا فرنسا[٧١].

(١) فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) نفسه، ص١٣٤، ١٣٥.

(٣) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٧٩.

(٤) نفسه، ص٢٨٠، ٢٨١.

(٥) نفسه، ص٢٨١.

(٦) نفسه، ص٢٨١.

(٧) نفسه، ص٢٨١- ٢٨٢.

(٨) نفسه، ص٢٨٢.

(٩) نفسه، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(١٠) نفسه، ص٤٨٤.

(١١) نفسه، ص٤٨٥.

(١٢) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر، ص١٨.

(١٣) نفسه، ص١٨١، ١٨٢.

(١٤) نفسه، ص١٨٢.

(١٥) نفسه، ص١٨٢، ١٨٣.

(١٦) فشر: المرجع السابق، ص١٤٢، ١٤٣.

(١٧) نفسه، ص١٤٣، ١٤٤.

(١٨) نفسه، ص١٤٤، ١٤٥.

(١٩) جرانتب، تمبرلي: تاريخ أوروبا في القرنين ١٩، ٢٠، ص٣١٩.

(٢٠) نفسه، ص٣٢٠، ٣٢١.

(٢١) نفسه. ص٣٢١.

(٢٢) فشر: المرجع السابق، ص١٤٦.

(٢٣) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص١٩١.

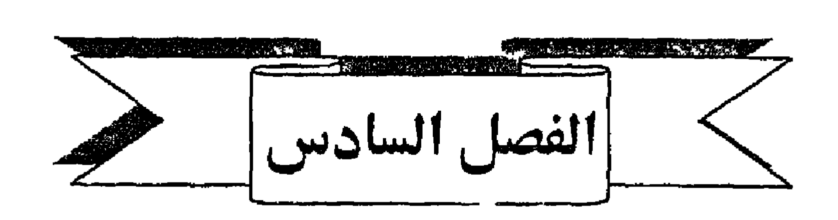
(٢٤) محمد مظفر الأدهمي: أوروبا في القرن التاسع عشر، ص١٨٩.

(٢٥) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى: المرجع السابق، ص١٩٣.

(٢٦) جرانت، تمبرلى: المرجع السابق، ج١، ص٣٢٦- ٣٢٧.

(٢٧) نفسه، ج١، ص٣٢٧.

(٢٨) نفسه، ج١، ص٣٢٨، ٣٢٩.



﴿المسألة الشرقية وحرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦﴾

أولاً: طبيعة المسألة الشرقية.

ثانيًا: أطراف المشكلة وأهدافهم.

(١)إمبراطورية النمسا والمجر

(٢)روسيا القيصرية

(٣)بريطانيا العظمى

(٤)فرنسا

ثالثًا: حرب القرم

رابعًا: العمليات الحربية

خامسًا: معاهدة باريس

المسألة الشرقية وحرب القرم
١٨٥٣ – ١٨٥٦

أولاً: طبيعة المسألة الشرقية.

هي المشكلة التى ظهرت على أثر ضعف الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر، وتجسدت بشكل واضح وخطير في القرن التاسع عشر نتيجة عوامل متعددة يأتي في مقدمتها التنافس الذى وقع بين النمسا وروسيا وفرنسا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى وصفها القيصر الروسى بالرجل المريض كان هذا التنافس يشكل جزءًا من ظاهرة الصراع الاستعمارى بين الدول الأوروبية الكبرى للسيطرة على أكبر قدر ممكن من المستعمرات فى آسيا وإفريقيا خلال القرن التاسع عشر، أما العامل الثانى فهو الحركات القومية التى ظهرت فى بلاد البلقان للتخلص من حكم الدولة العثمانية والتى تمثلت في شكل ثورات تنافست الدول الأوروبية الطامعة بأراضى الدولة العثمانية لنجدتها تحت ستار المسيحية، وقد زاد من تعقيد القضية أن شعوب البلقان لم تكن تدين لمذهب مسيحي واحد، فالسلاف كانوا أرثوذكس بينما كانت مناطق الأفلاق والبغدان كاثوليكية، وكان لهذا الأمر انعكاسه على ذلك التنافس فقد إدعت روسيا الحق فى حماية الأرثوذكس الموجودين فى الدولة العثمانية بينما ادعت فرنسا لنفسها حماية الكاثوليك هناك. ومهما يكن من أمر فإن الأمانى القومية كانت المحرك الأساسى لشعوب البلقان إضافة إلى تشجيع الروس لهم، لهذا تحرك العنصر السلافى مطالبًا بالاستقلال والوحدة، وثار الصرب فى بلغراد خلال الفترة ١٨٠٤ – ١٨١٢. وفى سنة ١٨٣٠ اضطر العثمانيون الأتراك إلى إعطاء صربيا استقلالاً ذاتيًا شريطة دفع الجزية للسلطان العثمانى، ثم تابع الصربيون كفاحهم حتى جلا الأتراك العثمانيين عن بلادهم عام ١٨٦٧.

واستقلت اليونان عن الدولة العثمانية سنة ١٨٣٢ بعد قيام ثورتها الكبرى وتدخل الدول الأوروبية لصالحها. ولا شك أن ضعف الدولة العثمانية عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا قد حفز هذه القوميات على الثورة كما شجع الدول الأوروبية الكبرى على التدخل في شؤونها الداخلية فبعد وفاة السلطان سليم الثالث وقعت عدة ثورات وانقلابات داخل القصر السلطاني خلال الفترة ١٨٠٦ – ١٨٠٩ وأصبحت بعض الولايات العثمانية مستقلة عمليًا عن السلطة المركزية في استنبول مثل مصر زمن محمد علي والوهابيين في الجزيرة العربية وباشوية عكا وباشوية بغداد[١].

إن دخول الفرنسيين كطرف رئيسي في هذه القضية قد جعلهم يطلقون عليها اصطلاحًا قريبًا من التسمية المتعارف عليها وهو (مسألة الشرق الأدنى) ويقصد الفرنسيون بالشرق الأدنى منطقة شرق البحر المتوسط، أي الدولة العثمانية وممتلكاتها في الوطن العربي وشبه جزيرة البلقان ودويلات الدانوب وجزيرتا قبرص وكريت واستعمل المؤرخون الفرنسيون اصطلاح (المسألة الشرقية) أو الشرق الأدنى أثناء كتاباتهم عن الدولة العثمانية – وعنوانًا لمسألة الشرق الأدنى مسألة الدولة العثمانية أو المسألة الشرقية التي هي واقعها مسألة (غربية) أكثر من كونها مسألة (شرقية) لأنها تمثل جانبًا من الصراع الاستعماري بين الأوروبيين[٢].

ثانيًا: أطراف المشكلة وأهدافهم.

ترتبط المسألة الشرقية بأطراف متعددة تنازعت فيما بينها من أجل اقتسام ممتلكات وأراضي الدولة العثمانية التي يحكمها العثمانيون والتي كانت منطقة البلقان ومعظم أجزاء الوطن العربي تحت سيطرتها. ويعود هذا النزاع إلى تضارب مصالح الدول الأوربية الاستعمارية في تلك المناطق وهي إمبراطورية النمسا والمجر وروسيا القيصرية والإمبراطورية البريطانية وفرنسا. ويمكن فهم هذه المصالح من خلال دراسة أهداف كل طرف من هذه الأطراف[٣].

١- إمبراطورية النمسا والمجر.

لا تعود تطلعات النمسا والمجر فى الدولة العثمانية إلى سنوات قريبة من القرن التاسع عشر، بل ترجع إلى رغبة فى الانتقام منذ أن وصلت الجيوش العثمانية أبواب فيينا فى بداية القرن السادس عشر بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث فتح ذلك بوابة جنوب شرقى أوروبا بوجه القوات العثمانية. وقد أتيحت الفرصة لتوجيه النمساويين عنايتهم بالأراضى البلقانية بهدف استرجاعها بعد اندحارهم فى معركة سادوا أمام بروسيا سنة ١٨٠٤، حيث كرسوا جهودهم لإيجاد منطقة نفوذ قوية فى البحر المتوسط والقضاء على أى منافس لهم فيه؛ بعد أن خسروا ألمانيا. وبذلك أصبح ظهور أية تطورات فى البلقان العثمانى يشكل حساسية كبيرة للنمساويين والمجريين[٤].

ولعل ما كانت تخشاه النمسا هو انهيار الإمبراطورية العثمانية وتفككها، معنى ذلك انتصار لمبدأ القوميات. وقد أدركت كل من فرنسا وإنجلترا ضعف السياسة النمساوية وأخذت تستغلانه وتستدرجان النمسا تدريجيًا نحو الانحياز إلى صفها رغم أنها قد أعلنت منذ بداية النزاع حيادها التام وذلك بعد أن فشلت محاولتها لعقد مؤتمر فى فيينا يجد حلاً سليمًا للمشكلة ويحول دون اتساع النزاع[٥].

٢- روسيا القيصرية.

تزعمت روسيا الحركة السلافية فى البلقان وسعت إلى رعايتها وتشجيع الحركات القومية فيها لتحقيق استقلالها ووحدتها مما أدى إلى اصطدامها بالعثمانيين وكذلك بإمبراطورية النمسا والمجر، لأن هذه الأخيرة كانت تخشى أن يؤدى هذا التوجيه الروسى إلى إثارة الشعوب السلافية الواقعة تحت سيطرتها فتكون النتيجة إضعاف جديد لإمبراطورية النمسا والمجر وتقوية النفوذ الروسى فى البلقان حيث ستصبح الشعوب اسلافية رأس حربة للسياسة الروسية فى المنطقة ومن هنا يمكن أن نفهم أن روسيا والنمسا كانتا تتسابقان من أجل وراثة الدولة العثمانية فى البلقان[٦].

لم تكن قضية البلقان هي وحدها التي تشكل قضية أساسية بالنسبة لروسيا القيصرية بل كانت هناك القضية الأكبر والأهم والتي تعتبر البلقان جزءا منها وهي الهدف الروسي المزمن في الوصول إلى المياه الدفيئة في الخليج العربي والبحر المتوسط ولما كان العراق يقع على الخليج العربي والدول العربية الأخرى تطل على البحر المتوسط، وهي بمعظمها تابعة للدولة العثمانية، فإن الوصول إلى هذه المناطق أو السيطرة عليها أو إيجاد نفوذ روسي فيها هو عمل مكمل ومتناسق مع الأهداف الروسية في البلقان بما فيها السيطرة على البحر الأسود ومضايق البوسفور والدردنيل. وبذلك فإن الصدام مع الدولة العثمانية كان حتميًا والذي سيؤدي بالتأكيد إلى صدام مع الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى ذات المصالح في المنطقة والتي لا تسمح للروس بالتوسع فيها. ولهذا كانت هناك مقاومة بريطانية نمساوية فرنسية للنفوذ الروسي وتوسعه على حساب الدولة العثمانية مما أدى إلى تأخير تصفيتها إلا أن ذلك لم يمنع الروس من الحصول على امتيازات في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بواسطة معاهدة كوتشك قينازجي التي عقدت سنة ١٧٧٤. وتعود ظروف عقد هذه المعاهدة إلى الحرب الطويلة التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية والتي استمرت من سنة ١٧٦٨ إلى ١٧٧٢ على أيام كاترين الثانية حيث انتصرت فيها روسيا على الدولة العثمانية. وفي الواقع فإنه كان بإمكان قيصرة روسيا أن تفرض شروطًا قاسية على السلطان العثماني بعد أن سيطرت جيوشها على خانات القرم وأصبحت قواتها النازلة من شمال البلقان صوب قلبه متجهة إلى استانبول، إلا أن التوازن الدولي لعب دوره في الموضع والمقصود به أطماع الدول الأوروبية الأخرى في الدولة العثمانية. ذلك أن الإمبراطورية النمساوية أخذت تنظر بقلق شديد إلى هذا التوسع الروسي الكبير في البلقان، وكادت الأزمة التي نتجت عن هذا الأمر أن تتحول إلى حرب بين الطرفين لولا أن بروسيا لم تكن تريد لهذه الحرب أن تقع لأنها ستجد نفسها متورطة فيها إن

تفجرت؛ وهى التى كانت قد خرجت قبل سنوات قليلة من حرب السنوات السبع (١٧٥٧ — ١٧٦٢) ولهذا سعت بروسيا لإيقاف التصادم بين النمسا وروسيا وتحقيق مكاسب للجميع تبقى على التوازن الدولى ولا تخل به، فجاءت معاهدة كوتشك قينارجى لتعيد إلى الدولة العثمانية معظم ما فقدته فى البلقان من روسيا مقابل اشتراك هذه الأخيرة فى اقتسام بولنده. مع كل من النمسا وبروسيا. وقد نصت معاهدة كوتشك قينارجى على أن تصبح مدينة آزوف وما حولها من البقاع تحت السيطرة الروسية ويعنى هذا حصول روسيا على الأقسام الشمالية فى البحر الأسود. وكذلك يكون لروسيا حق التمثيل الدبلوماسى بدرجة سفير فى الدولة العثمانية، كما أن لها الحق فى إرسال القناصل إلى حيث تشاء فى البلاد العثمانية لغايات تجارية، كما يمنح التتر فى شبه جزيرة القرم استقلالاً ذاتيًا من قبل الدولة العثمانية على أن يكون السلطان العثمانى خليفة للمسلمين فيها بصفته المرجع الدينى الأعلى للمسلمين كافة. كما يحق لروسيا حماية الرعايا الأرثوذكس فى الدولة العثمانية على أن تعاد جميع الولايات الدانوبية إلى السلطان العثمانى شريطة أن يدخل الإصلاحات الضرورية لإدارتها[٧].

ومع أن معاهدة كوتشك قينارجى قد سلبت بريق انتصار الروس إلا إنهم استمروا يتطلعون للسيطرة على البلقان، فأصبحت فكرة الوحدة السلافية القومية جزءًا من ميدان السياسة الروسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أيام اسكندر الثانى، وغدت هذه الحركة قوة فعالة ومؤثرة بفعل المساندة الروسية التى استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى وانسحاب من الحرب بعد قيام الثورية البلشيفية فيها سنة ١٩١٧.

ويعتبر المؤرخون معاهدة كوتشك قينارجى بداية الضعف الحقيقى للدولة العثمانية، بينما يرى البعض الآخر أن صعف الدولة العثمانية قد بدأ منذ توقف الأتراك العثمانية عن التوسع حين عقدوا مع النمسا سيتفاتورك سنة

١٦٠٦. ثم انكشف ضعفهم بعقد معاهدة كارلوفيتز مع النمسا سنة ١٦٩٩ أثر الحرب التى شنتها روسيا والنمسا ضد الدولة العثمانية حيث بدأت الدول الأوروبية تتوسع على حساب العثمانيين منذ هذا التاريخ وتتنافس على اقتسام إمبراطوريتهم[٨].

٣- بريطانيا العظمى.

ارتبطت قضية تأمين الطرق البحرية والبرية والنهرية إلى الهند بالسياسة البريطانية ومواقفها من الصراع الدائر بين الروس والنمساويين حول الدولة العثمانية، ولهذا قال دزرائيلى إن الاستانة هى مفتاح الطريق إلى الهند واتجه إلى شراء اسهم الخديو إسماعيل من شركة قناة السويس عام ١٨٧٥ تمهيدًا للسيطرة البريطانية على القناة. وعمل في الوقت نفسه على الوقوف فى وجه أى تفوق أو توسع روسى على حساب الدولة العثمانية وخصوصًا فى مضيقى البوسفور والدردنيل. أما عن منطقة الخليج العربى التى تقع على الطريق إلى الهند فقد بدأ النفوذ البريطانى يركز أقدامه فيها منذ منتصف القرن السابع عشر، فى حين كان النفوذ العثمانى معدومًا فى هذه المنطقة لأن الدولة العثمانية كانت دولة برية من الناحية العسكرية توقفت عند حدود العراق الجنوبية فى عهد السلطان سليمان القانونى وسليم الثانى ولم تدخل الصراع القائم فى الخليج العربى بين الدول الأوروبية. ولكن ذلك لم يمنع من أن تصبح أراضى الدولة العثمانية فى العراق وبلاد الشام طريقًا مهمًا إلى الهند بالنسبة للبريطانيين فقبل قناة السويس بفترة طويلة قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بفتح ما عرف ببريد الصحراء بين أوروبا والهند عبر حلب والكويت وبغداد فى أواخر القرن الثامن عشر بثلاثين يومًا وثمانين يومًا بين الكويت وحلب واستخدام نهرى دجلة والفرات لأغراض الملاحة النهرية. وقد تمكن البريطانيون من الحصول على سلسلة من الامتيازات فى العراق وسوريا من الدولة العثمانية، وبدأوا يفكرون فى إنشاء سكة حديد بين الإسكندرية والكويت

عبر ديار بكر والموصل وبغداد، وقد تمكنت تحت اسم "شركة سكك حديد دجلة والفرات" من الحصول على امتيازات هذا المشروع من الحكومة العثمانية سنة ١٨٥٦ وفي الواقع فإن البريطانيين قد اعتبروا منطقة الهلال الخصيب بأجمعها والتى كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية طريقًا استراتيجيًا مهمًا إلى الهند(٩).

ومن جانب آخر، كانت بريطانيا تخشى قيام الدول الأوروبية المنافسة لها وخاصة روسيا القيصرية وفرنسا بالاستيلاء على الهند، فالروس كانوا يهددون أفغانستان وحدود الهند الشمالية الغربية بهدف الوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندى والخليج العربى، بينما كان نابليون يحلم بإعادة سيطرته على مصر والوصول إلى الهند، واتصل ببعض حكام فارس وأمراء الهند لمساعدته فى تنفيذ خطة عسكرية لاحتلال الهند، وقد تبلورت تلك الخطة فى معاهدة تلست سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول إلا أن انهيار حكم نابليون وسقوطه بعد الحملة على روسيا ومعركة وترلو قد جعل البريطانيين يتنفسون الصعداء، لكن ذلك الارتياح لم يدم طويلاً بسبب ظهور محمد على الكبير فى مصر الذى زحف إلى سوريا والجزيرة العربية مما كان يشكل تهديدًا خطيرًا للمصالح البريطانية في المنطقة كان على البريطانيين الوقوف بوجهه. وعمومًا فإن السياسة البريطانية كانت فى البداية تهدف إلى المحافظة على كيان الدولة العثمانية يوجه أى توسع أوروبى، وفى الوقت نفسه تقوية الوجود والنفوذ البريطانى فيها، وكانت مستعدة أيضًا لخوض حرب مع روسيا القيصرية إذا حاولت الأخيرة تقويض الدولة العثمانية، ولكن السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية أخذت تتحول بمرور الزمن من سياسة المحافظة إلى سياسة الاحتلال واقتسام الدولة العثمانية بعد أن بدأت هذه الأخيرة تعانى من الأزمات المالية والتنظيمي والاضطرابات التى اجتاحت سوريا ولبنان سنة ١٨٦٠(١٠).

٤- فرنسا

امتازت العلاقات العثمانية الفرنسية بالصداقة بين البلدين منذ القرن السادس عشر عندما عقدت بين السلطان سليمان القانونى وفرانسوا الأول سنة ١٥٣٥ معاهدة التحالف والصداقة التى وضعت الحجر الأساسى للامتيازات والمصالح الفرنسية فى الدولة العثمانية. وقد نصت تلك المعاهدة على تسهيل الملاحة للسفن الفرنسية فى المياه العثمانية. ومنح الحرية الدينية التامة للفرنسيين فى البلاد العثمانية وعدم محاكمتهم أمام المحاكم العثمانية ولذلك نجد أن فرنسا قد وقفت موقفًا وديًا من صراع النمسا وروسيا ضد الدولة العثمانية فلم تناصرهما أو تحاول الوقوف معهما. إلا أن المواقف تغيرت منذ احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ إذ أصبحت الصداقة مهزوزة بين البلدين لتنضم فرنسا إلى ركب الدول الأوروبية الأخرى المتحفزة للقضاء على الرجل المريض ومع ذلك كانت علاقة فرنسا بالدولة العثمانية جيدة فى كثير من الأحيان[١١].

ثالثًا: حرب القرم.

كان للتراجعات والانحدارات التى أصابت الدولة العثمانية ولتدخل الدول فى شؤونها أثرها فى حكامها الأتراك العثمانيين الذين حاولوا القيام ببعض الإصلاحات لجعل الدولة العثمانية عصرية فى نظمها العسكرية وتشريعاتها الإدارية والاجتماعية، وقد نجح السلطان محمود الثانى فى إدخال الإصلاحات بتشجيع من الصدر الأعظم رشيد باشا الذى كان سفيرًا فى لندن وتأثر بالحياة الدستورية والاجتماعية هناك، فشتت جيش الانكشارية الذى أصبح عالة على الدولة بعد توقف حروبها التوسعية وأنشأ جيشًا نظاميًا على أسس حديثة، وحذا حذوه من بعده السلطان عبدالمجيد الذى اشتهر بإصداره لائحة إصلاحات (خطى شريف كلخانة) سنة ١٨٣٩ وإعلانها أمام الممثلين والدبلوماسيين الأوروبيين، وقد نصت هذه اللائحة على إعطاء الحقوق الكاملة

للأفراد فى الحرية والمساواة فى الضرائب وحق التملك وإصلاح الجيش والقضاء. إلا أن اللائحة لقيت معارضة داخلية شديدة من كثير من العناصر الرجعية والمتضررة مما أعاق تطبيقها كما أنها أثارت مشكلة بين الرعايا المسيحيين حول أحقية حراسة الأماكن المقدسة فى بيت المقدس بفلسطين، ذلك أن اللائحة قد أعطتهم الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية، ومع أن القضية تبدو بسيطة إلا أنها فى واقعها صراعًا بين روسيا القيصرية التى كانت تدعى بتمثيلها للأرثوذكس فى العالم وبين فرنسا التى تعتبر نفسها حامية الكاثوليك وتلك كانت المسألة الأساسية التى أثارت حرب القرم فيما بعد، وهى تمثل أيضًا مظهر آخر من مظاهر ضعف الدولة العثمانية وتدخل الدول الكبرى فى شؤونها فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ففى سنة ١٨٥٣ طلب نابليون الثالث من السلطان العثمانى أن يعيد لفرنسا باسم الصداقة القائمة بينهما، الامتيازات الفرنسية القديمة فى الأماكن المقدسة، وقد وافق السلطان العثمانى بعد تردد على المطالب الفرنسية، وأعيدت للرهبان الكاثوليك حقوقهم القديمة وتسلموا ثلاثة مفاتيح لكنيسة بيت لحم مما أغاظ القيصر الروسى كثيرًا الذى كان يهمه أن يتبقى صاحب الكلمة المسموعة عند الأتراك العثمانيين، والذى خشى من تزايد النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية الذى يدعم النزعات التحررية[١٢].

أراد القيصر الروسى نيقولا الأول معالجة الموضوع بشكل جذرى فعرض سنة ١٨٥٤ على السفير البريطانى فى روسيا مشروعًا لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بأن يصبح مضيق البوسفور والاستانة تحت الاحتلال الروسى، وتتوحد الولايات العثمانية الأوروبية فى دولة مستقلة. وتكون حصة بريطانيا مصر وردوس وقبرص. إلا أن بريطانيا رفضت المشروع لتناقضه مع سياستها فى إبعاد الروس عن البحر المتوسط والحفاظ على الدولة العثمانية وعليه قرر القيصر الروسى الاتصال بالعثمانيين الأتراك مباشرة. ولكى يأخذ هذه الاتصال طابعًا

جديًا وضاغطًا من الجانب الروسى على الجانب العثمانى، فقد أمر القيصر بتعبئة جيش روسى وإرساله إلى نهر بروث الذى يؤدى عبوره إلى احتلال مقاطعتى الأفلاق والبغدان العثمانيتين ومع تجمع القوات الروسية على نهر بروث أوفد القيصر الروسى بعثة برئاسة الأمير منشيكوف فى أواخر شهر فبراير ١٨٥٣ إلى استانبول لتتقدم بمشروع معاهدة تعقد بين روسيا والعثمانيين وتتكون من ثلاثة بنود وهى[١٣]:

١- سحب جميع الامتيازات الممنوحة لرجال الدين الكاثوليك فى فلسطين وإعطائها لرجال الدين الأرثوذكس.

٢- الاعتراف بحق روسيا فى حماية الرعايا العثمانيين الأرثوذكس.

٣- عقد تحالف عسكرى دفاعي بين البلدين.

لم يستجب السلطان العثمانى لهذه المطالب التى وصفها بعض المؤرخين أنها تفوق فى مدى إرهاقها للعثمانيين جميع المطالب الروسية السابقة. وتذكر المصادر أن السفير البريطانى في استانبول (ستراد تفورد دى ردكلف) قد أشار على السلطان العثمانى قبول البند الأول فقط من المشروع المقترح لأن البريطانيين كانوا إلى حد هذا الوقت يريدون الحفاظ على سلام الإمبراطورية العثمانية. وقد أدى ذلك إلى فشل مهمة منشيكوف واجتياز القوات الروسية لنهر بروث واحتلالها الإفلاق والبغدان، ومن ثم قيام الحرب بين البلدين فى أواخر سنة ١٨٥٣ مما دفع البريطانيين والفرنسيين إلى إرسال أسطولهما إلى البحر الأسود لكبح جماح الروس، لكن ذلك التدخل قد أدى فيما بعد إلى إعلان الدولتين الحرب على روسيا فى ٢٨ مارس ١٨٥٤. وقد كان إغراق الروس للأسطول العثمانى فى البحر الأسود السبب المباشر لدخول بريطانيا وفرنسا الحرب ضد روسيا، إذ اعتبرناه عملاً عدوانيًا ضدهما.

بالنسبة لبريطانيا كان الرأى العام البريطانى متعاطفًا مع العثمانيين منذ رفضهم تسليم اللاجئين المجريين إلى النمسا أو الروسيا، أولئك اللاجئين الثوار

الذين قد أخضعت النمسا ثورتهم، وقد أدت أخبار إغراق الروس للأسطول العثمانى إلى إثارة موجه شديدة من الحنق فى بريطانيا ضد روسيا، إن موقف الرأى العام البريطانى هذا قد تناغم مع السياسة البريطانية التقليدية فى الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ضد التوسع الروسى الذى يهدد المصالح البريطانية فى الهند والخليج العربى والبحر المتوسط. وتذكر المصادر أن الموقف الصلب الذى وقفه العثمانيون أمام الضغوط الروسية الدبلوماسية قد جاء نتيجة للإسناد البريطانى المتمثل فى شخص سفيرها فى الآستانة الذى احبط مذكرة تقدمت بها بريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا فى ١٢ ديسمبر ١٨٥٣ إلى روسيا تحثها على التخلى عن مطالبها المتطرفة. ومن الملاحظ أن النقاط التي جاءت بها المذكرة قد أرضت القيصر الروسى والسفير العثمانى فى النمسا، لكن السفير البريطانى دفع القيصر على رفضها[١٤].

أما فرنسا فكانت ترى ضرورة الوقوف فى وجه روسيا فى محاولاتها تحويل السلطة الدينية فى الأماكن المقدسة من الكاثوليك إلى الأرثوذكس، فإن نابليون الثالث كان يريد تعديل مقررات مؤتمر فيينا ومبادئه وأن يقدم العون لإيطاليا ويتجنب الأخطاء التى أدت سقوط سلفه نابليون الأول ولما كانت بريطانيا سيدة البحار فقد تحالف معها ضد روسيا التى كان رجال الدين الفرنسيين يمقتونها، كما أن الجمهوريين الفرنسيين كانوا يكرهونها بسبب نظام الحكم الاستبدادى القائم فيها ولذ فقد كانت هذه الحرب بالنسبة للفرنسيين وسيلة لاستعادة نفوذهم القديم[١٥].

أما عن النمسا كانت حليف تقليدى لروسيا، وتدين للقيصر بالخدمة التى قدمها لها بإرساله حوالى مائة وخمسين ألف جندى سنة ١٨٤٩ للقضاء على الثورة المجرية والحفاظ على سلامة أراضيها. ومع ذلك فقد كانت النمسا قلقة جدًا من ازدياد النفوذ الروسى فى البلقان، ولم تكن راضية على احتلال روسيا للإفلاق والبغدان الملاصقتين لأراضيها. بل إنها كانت تخشى كثيرًا من

انهيار الدولة العثمانية على أساس مبدأ القوميات والمطالبة بحقوقها لأن ذلك سيؤدى إلى انتقال القضية والمبدأ القومى لها لتصبح الرجل المريض الثانى بعد العثمانيين.

ولهذا بذل الفرنسيون والبريطانيون كل جهودهم لإدخال النمسا إلى جانبهم فى الحرب، وبذلت النمسا كل جهودها للتوسط فى إنهائها(١٦).

رابعًا: العمليات الحربية.

استمرت معارك حرب القرم خلال سنتى ١٨٥٤ — ١٨٥٥ وقد تركزت المعارك فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود بعد أن انسحبت روسيا من مقاطعتى الإفلاق والبغدان فى شهر أغسطس ١٨٥٤ بناء على طلب النمسا التى احتلتها حالاً ريثما يتم التوصل إلى اتفاق. وقد جاءت موافقة الروس إثر هزيمتهم فى حصار مدينة سيليستريا الواقعة على نهر الدانوب بعد أن طال الحصار وتفشت الكوليرا بين الجنود الروس، ولم يحقق الجانبان فى معارك القرم بعد ذلك أية نتائج حماسة رغم دخول سردينيا كافور ضد روسيا طمعًا فى كسب عطف البريطانيين والفرنسيين لمساعدة الإيطاليين فى القضاء على مقاومة النمسا لمساعيهم فى الوحدة القومية ثم جاءت الوساطة النمساوية فى أواخر سنة ١٨٥٤، ولكنها لم تؤد إلى نتائج بسبب عدم موافقة القيصر الروسى على قبول بنود الوساطة دون قيد أو شرط وهو ما طلبته فرنسا وبريطانيا. ولكن تبدل الظروف سنة ١٨٥٥ أدى إلى إنهاء حرب القرم، فقد توفى القيصر الروسى نيقولا الأول وخلفه إسكندر الثانى فى الثانى من مارس، والذى كان ميالاً إلى السلم والاهتمام بالشؤون الداخلية لروسيا أكثر من ميله إلى التوسع أو التدخل فى الشؤون الأوروبية. كما أن الأزمة المالية لروسيا وخسائر الأسطول الروسى وسقوط مرفأ سباستبول الاستراتيجى قد دفعت القيصر إلى قبول الإنذار النمساوى الذى أرسل إلى روسيا فى أوائل سنة ١٨٥٦ والقاضى بقبول روسيا شروط إنهاء الحرب التى عرضتها النمسا سابقًا أو دخول النمسا الحرب ضدها(١٧).

خامساً: معاهدة باريس ٣٠ مارس ١٨٥٦.

لقد أدى قبول روسيا لشروط السلام والقاضية بوضع نظام جديد للافلاق والبغدان بضمانه أوروبية وحرية الملاحة فى الدانوب وتنازل روسيا عن مطالبها فى حماية المسيحيين فى الدولة العثمانية وإعادة النظر فى معاهدة المضايق الموقعة سنة ١٨٤١ إلى عقد مؤتمر سلام فى مدينة باريس انتهى بتوقيع معاهدة للصلح عرفت باسم معاهدة باريس ٣٠ مارس ١٨٥٦. وقد جاءت بنودها بالأتى[١٨]:-

١- إعلان حرية الملاحة فى نهر الدانوب وتأليف لجنة دولية للإشراف على ذلك.

٢- حرم على روسيا إبقاء سفن حربية فى البحر الأسود أو إنشاء معامل حربية أو حصون علية.

٣- تتمتع ولايتى الإفلاق والبغدان بالاستقلال الذاتى تحت سيادة الدولة العثمانية.

٤- يتعهد السلطان العثمانى بالقيام بالإصلاحات التى وعد بها رعاياه المسيحيين وجميع المذاهب الكبرى والأديان الأخرى على ألا تتدخل الدول الكبرى فى شئونه الداخلية.

٥- ضمنت الدول الكبرى جميع الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها صربيا بسبب حيادها فى الحرب مع بقائها خاضعة للسيادة العثمانية، وأكرهت روسيا على إرجاع قارص فى أرمينيا إلى الدولة العثمانية والتى احتلتها بعد سقوط سباستبول وأعيد جنوب بسارابيا إلى ملدافيا، وأصبحت هذه الأخيرة ذات استقلال داخلى تحت السيادة العثمانية.

كانت معاهدة باريس هذه علامة ضعف جديدة فى الدولة العثمانية رغم أنها قد أطالت فى عمرها، ذلك أن تمهيد بقائها على الحياة قد جاء بفضل الدول الأوروبية الحليفة لها وليس نتيجة لانتصارات حققتها بنفسها وبمفردها.

ولـذلك نجـد أن المعاهـدة فرضـت علـى الـسلطان العثمانـى القـيام بإصـلاحات وضـمنت الاسـتقلال الذاتـى للإفـلاق والـبغدان وصـربيا ومـناطق أخـرى، وهى علامات تدخل فى شؤون الدولة العثمانية مع أنها كانت منتصرة(١٩).

وكـان بـين الجالسين فى مؤتمر باريس الكونت كافور الذى صار رئيس وزراء بيدمنت سنة ١٨٥٣. ولقد استطاع هذا السياسى الكبير البعيد النظر، بعد خوضه معركة من أعنف المعارك البرلمانية قامر فيها بكل ما يملك كما يفعل فى الغالـب أقطـاب السياسة لكى يفوزوا بأكثر الأرباح – استطاع هذا السياسى أن يحمـل برلمان بلاده في يناير سنة ١٨٥٥ على المَوافقة على إنفاذ فرقه سردينية إلى القرم.

والتوفيق يلازم الجسور عادة. وهذا ما تم لكافور فقد دفع ثمنًا تافها هو خسارة ثمانية وعشرين قتيلاً فقدتهم كتيبة بلاده فى معركة تشرنايا وإصابة عدة آلاف مـن رجالها بالكوليرا، فإنه كسب الحق فى أن يرفع ظلمات إيطاليا أمام ممثلـى ممالـك أوروبـا على مائدة الصلح عندما وضعت الحرب أوزارها ويضاهى عمله إقدامًا وجسارة وقوة عزيمة (٢٠).

(١) محمد مظفر الأدهمي: أوروبا في القرن التاسع عشر، ص٢٦٣.

(٢) نفسه، ص٢٦٤.

(٣) نفسه، ص٢٦٤.

(٤) نفسه، ص٢٦٥.

(٥) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر، ص٢٣٦– ٢٣٧.

(٦) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٢٦٥– ٢٦٦.

(٧) نفسه، ص٢٦٧.

(٨) نفسه، ص٢٦٧.

(٩) نفسه، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(١٠) نفسه، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(١١) نفسه، ص٢٧٠.

(١٢) نفسه، ص٢٧٨، ٢٧٩.

(١٣) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٢٣٥.

(١٤) فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص٢٣٥.

(١٥) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٢٣٦؛ محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٢٨٢.

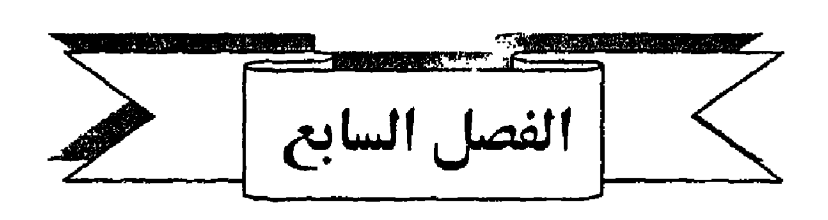
(١٦) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٢٨٢.

(١٧) فشر: المرجع السابق، ص٢٢٢.

(١٨) محمد مظفر الأدهمي: المرجع السابق، ص٢٨٤.

(١٩) نفسه، ص٢٨٤.

(٢٠) فشر: المرجع السابق، ص٢٢٦، ٢٢٧.



﴿الوحدة الإيطالية﴾

أولاً : ماتزينى والوحدة الإيطالية

ثانياً : مملكة سردينيا وفكرة الوحدة الإيطالية

ثالثاً : كافور والوحدة الإيطالية.

رابعاً : فرنسا والوحدة الإيطالية والحرب ضد النمسا

خامساً: تحقيق الوحدة الإيطالية

الوحدة الإيطالية

سبقت فرنسا إلى تلك الساحة الشهيرة من ساحات القتال ألا وهى شمال إيطاليا، وهذه الحرب الجديدة تختلف من عدة أوجه اختلافًا بينًا عن حرب القرم فقد حسمتها معركتان هامتان، ولم تسبب نزاعًا طويلاً كالذى سببته حرب الخنادق الطويلة حول سباستبول وهى فوق هذا كله أو، حرب تدور بصراحة حول مبدأ القومية، الذى أصبح الطابع الجديد المميز للمشكلات الدولية فى القرن التاسع عشر. فالقومية هى الكلمة التى باتت توقد الحماسة فى النفوس والتى تعلق بها العصر تعلقًا كاد يصل إلى حد الخرافة، وهى تعد من ناحية استمرار وتكملة للعملية التى كانت تسرى منذ عصر الإصلاح الدينى فقد تراجعت كافة المؤسسات التى تمثلت فيها الوحدة الإنسانية إلى الوراء سقطت وغدت الدولة هى الوحدة التنظيمية التى لها كل الأهمية ولم تعد تعترف بأية سيادة أو تقر بأى حد لسلطانها على أنه بازدياد أهمية الدولة وسلطانها تجلت أهمية النظر فى الأساس الذى يرتكز عليه هذا السلطان. كانت الحركة الدستورية التى تزعمتها إنجلترا قد بلغت من العمر ما يربو على مائتى عام وأحرزت انتصارات كبرى، فقد انتشرت الدعوة إلى تحقيق الوحدة بين الدولة والشعب وقيام مشاركة إيجابية بين الحكومة والأهالى ونالت هذه الدعوة الاعتراف والتأييد فى أحوال كثيرة فنشأت عن ذلك قضية جديدة، ما هى الصفات التى ينبغى توافرها فى الشعب كى يؤلف دولة؟ وهل تعد أية مجموعة من الأفراد مهيأة لحياة الدولة؟.

لقد فاق الناس على وعى وإحساس جديد بمعنى القومية وتجلى هذا الوعى والإحساس الجديد أقوى ما تجلى لا بين تلك الأمم التى فازت من قبل بقدر موفور من الاستقلال القومى والوحدة مثل الفرنسيين أو الإنجليز أو الأسبان وإنما بين تلك الأمم التى لم تسفر بعد دولة قومية والتى ألفت نفسها نتيجة للتطور التاريخى مختلطة باسم قوميات أخرى بنفس الدولة[٢١].

أولاً: ماتزيني والوحدة الإيطالية.

أثبت الشعور القومي قوته في شبه جزيرة البلقان على غموضه العادي في كثير من الحالات. وبلغ هذا الشعور مبلغ العاطفة الدينية لدى أعداد هائلة من البولنديين وكان لهم شأن كبير في إخفاق الوحدة بين هولنده وبلجيكا على أن البلدين اللذين أسفرا فيها هذا الشعور عن النتائج السياسية والعسكرية هما ألمانيا وإيطاليا. كانت ألمانيا قد جزئت منذ العصور الوسطى. ولم يكن تكوينها الغامض الذي يضم التشيكيين وبعض البولنديين وعناصر أخرى غير ألمانية بالذي يرضي الرغبة القومية في الوحدة أما إيطاليا فكانت حالتها أسوأ من ذلك وأدهى. إذ كانت قد فازت بقدر موفور من الوحدة القومية في ظل نابليون فلم تنس تلك التجربة ولكنها أصبحت توصف اعتبارًا من ١٨١٥ "بأنها مجرد إصطلاح جغرافي" وآلت السيطرة عليها من جديد إلى الأباطرة النمساويين. ولقد شاهدنا كيف انتهت إلى الفشل، أو الفشل الظاهري على الأقل، والمحاولات التي بذلتها في ١٨٤٨ ولكن هذا الفشل لم يؤد إلى إخماد الإحساس القومي بل لعله قد عززه وأحياه. وكانت هناك حقًا فروق ضخمة بين سكان شبه الجزيرة من حيث العنصر والطباع فسمة فرق شاسع من اللغة والشعور التاريخي بين اللومباردي والصقلي إلا أن القومية — الأمر الذي أصبح لنا الآن — هي مسألة شعور أكثر منها مسألة حقيقة موضوعية وهنا يجدر بنا أن نشير إلى عظمة الشعب الإيطالي وعلى الذكريات التي تعود لأيام الإمبراطورية الرومانية وأشعار دانتي وفنون عصر النهضة وعلومه بوصفها جميعًا من الأشياء التي ساعدت على بقاء ما من شأنه إثارة كبرياء الإيطاليين الوطني قد ساعدهم وساهم في تعزيز رغبتهم في أن تكون لهم دولتهم الخاصة بهم. ولكن تأثير ماتزيني يفوق في أهميته كل تأثير آخر على العقل الإيطالي. فالدعوة إلى القومية الإيطالية لم تكن عنده وعند أتباعه مسألة نابعة من التحليل والمنطق وإنما من الإيمان الدافن الذي يبلغ العقيدة الدينية. ولقد كان قيام إيطاليا المتحدة الحرة الديمقراطية

الجمهورية هو الهدف الأوحد الذى طغى على كل ما عداه فى نفسه والمثل الأعلى الذى برح ينادى طوال حياته بضرورة السعى إليه مهما كان الثمن.

وقد تمسك بكل نقطة من نقاط برنامجه هذا، فلم يكن إرساء دعائم الديمقراطية فى إيطاليا وإقامة الجمهورية في ربوعها أقل أهمية فى نظره من تحقيق وحدتها وحريتها. ولم يكن ليستطيع أن يروض نفسه على قبول هبة الوحدة والحرية على يد الإمبراطور وملك سردينيا، ولا يفوتنا أن نضيف إلى ذلك أنه قد استطاع أن يمتد بصره إلى ما وراء القومية ليحلم باتحاد إيطاليا[٢٢].

وقد بدت أحلامه هذه فى قيام الوحدة الإيطالية أبعد ما تكون عن التحقيق فى منتصف القرن. فقد عادت النمسا تحكم من جديد بعناد وحماقة بل وفى كثير من الأحوال بقوة مبعثها الخوف. ولم يقتصر حكمها على أملاكها الخاصة فى سهل لومبارديا. فدوقيات الوسط باتت خاضعة هى الأخرى لنفوذها كما أن أحد يتطلع إليها بحثًا عن العطف الصادق بدلاً من فرنسا، أم ملك نابولى فقد أظهر من قبل مدى اعتماده على فيينا. وإذا كان استرضاؤه للنمسا قد أساء للأهالى، وقد حدث أن سيطر الأشراف على لومبارديا فى ١٨٥٧ وانضموا إلى "مكسمليان" شقيق الإمبراطور فرنسيس الأصغر، الذى سيلعب دورًا مفجعًا للغاية فى المكسيك فيما بعد وكان مكسمليان يعطف حقيقية على الأفكار المتحررة فقام بمحاولة صادقة لإصلاح الإدارة، ولكن فيينا لم تلبث أن تبرأت من أعماله وشددت القضية ماليًا وعسكريًا على البنادقة وأهالى ميلانو أكثر من ذى قبل[٢٣].

ثانيًا: مملكة سردينيا وفكرة الوحدة الإيطالية

أما سردينيا فلم تكن إيطالية الهوى والشعور لأن حاكمها "شارل البرت" Charles Albert كان متأثرا بالثقافة الفرنسية يفضلها على اللغة الإيطالية. وعلى الرغم من أن شعب سردينيا كان متأثرًا ببلاط حاكمه شارل البرت، فإنه كان ذا نزعة حربية، كما كان لأسرة الملك نفسه مطامع سياسية

ونشاط يدفعها إلى تحقيق تلك المطامع. وقد أعلن أمله فى أن تتفق إيطاليا على طرد الأجنبى منها. وكان الرجل برغم تردده لا يخلو من الشجاعة. ويرجع تردده فى الغالب إلى تفانيه فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية ثم اعتقاده بأن تحرير إيطاليا وسيادة الأفكار الحرة الديمقراطية فيها سيعوق الوحدة الإيطالية. ولا شك فى أن موقف الرجل يدل على أنه كان صادق الرغبة فى تخليص إيطاليا من الحكم الأجنبى، ولكنه كان يكره أن تحرر من حكم قوى لا يستند إلى الاستبداد. فكان يرغب فى تخليص إيطاليا من العدو الأجنبى ويعنى النمسا. ولم يكن من السهل إقناعه بأن الحرية السياسية كانت خطوة أساسية للتحرر من الحكم الأجنبى(٢٤).

اتجهت أنظار الإيطاليين نحو هذا العاهل الذى صرح بآماله فى توحيد إيطاليا. حيث تمتعت الصحافة بحرية لم تتمتع بها فى سائر أنحاء إيطاليا. واسهم كافور بجهد عظيم فيما كانت تنشره الصحف، فقد كان محرر جريدة البعث. وكان يدين بالمبادئ الديمقراطية بل حث المواطنين على المطالبة بالدستور. واضطر شارل البرت إلى أن يمنح شعبه ذلك الدستور الذى قاده إلى الحرب ودفعه إلى الخراب والمنفى، ثم الموت، ولكنه جعل من ابنه ملكًا على عرش إيطاليا الموحدة. حقق هذا الدستور لملكة سردينيا حكمًا ملكيًا مقيدًا على غرار النظام الإنجليزى وقد عم هذا الدستور فيما بعد مملكة إيطاليا المتحدة، وظل قائمًا إلى أن ظهر موسولينى **Moussolini** فأدخلت عليه بعض التعديلات(٢٥).

ثالثًا: كافور والوحدة الإيطالية.

فشلت حركات عام ١٨٤٨ الثورية فى إيطاليا فى تحقيق الوحدة وتطبيق المبادئ الديمقراطية ويرجع ذلك إلى عدم اتحاد الأغراض وانعدام وجود قيادة منظمة تجمع بين الإيطاليين جميعًا كما أن إيطاليا لم تلق أية معونة

خارجية. وكان كافور يشك فى مقدرة إيطاليا على تحقيق الوحدة ويرى وجوب الاستعانة بفرنسا لطرد النمسا من إيطاليا.

وكانت هذه هى النقطة الأساسية فى سياسته فى سبيل وحدة إيطاليا. ومن الآثار المهمة لحركات ١٨٤٨ الثورية فى إيطاليا أنها أبرزت عظمة مملكة سردينيا، ولم يكن لها ذكر هذه الأحداث، فبدأت فى وضع أسس عظمتها المستقبلية عندما انضمت إلى ميلان فى حركة مقاومتها للنمسا. وقد أظهر فيكتور عمانويل عزمًا أكيدًا على تحرير إيطاليا. وعداءً صريحاً إزاء النمسا. ولا شك فى أن اسمه سيظل خالدًا ومعه اسم كافور الذى بدأ وزارته العظيمة فى عام ١٨٥٣. وكان ابنًا لأحد النبلاء من بيدمنت المتشبعين بالروح الحربية والآراء المتطرفة فى الحكم. وقد نشأ نشأة عسكرية. ولكنه منذ صغره اعتنق مبادئ الحرية، وترك الجيش، وقام برحلات عديدة درس أثناءها الحياة السياسية فى فرنسا وإنجلترا بوجه خاص. وأظهر دراية تامة بالسياسة الأوروبية عندما كان عضوًا فى برلمان سردينيا. وتأثر بإقامته فى إنجلترا فأخذ بمبادئها الحرة وأراد أن ينشرها فى مملكة سردينيا ثم إيطاليا كلها إذا ما أعانته الظروف بعد ذلك فى خلال حكمه الطويل (١٨٥٣ – ١٨٥٩)، (١٨٦٠ – ١٨٦١) وضع بذور الحكم الديمقراطى الذى تأصل بعد ذلك فى إيطاليا[٢٦].

عمل كافور منذ بداية عهده فى رئاسة الوزراء لجمع شمل تلك المملكة التى عهد إليها بإدارة شئونها، ويشيد فيها دولة قوية تمتاز بممارستها للنظم البرلمانية لتستطيع أن تقبض على زمام الحركة الإيطالية، وتحتفظ بقيادتها وتتولى توجيهها. وساعده فى تحقيق خططه أمور منها :–[٢٧]

١– الدستور الذى ورثته بيدمنت من عهد الملك السابق.

٢– الشعب الذى عرف بنشاطه الجم.

٣– وجود ملك عظيم الهمة شديد الحماسة لتحقيق أهداف إيطاليا القومية.

٤– الجيش الذى كان يومئذ يتميز عن بقية الجيوش الإيطالية بدقة تنظيمه وحسن تدريبه.

انتهى نضال كافور ضد الكنيسة إلى نتائج محمودة. فطعن في قانون السيكاردى Siccardi الذى صدر فى بداية عام ١٨٥٠م على ما كان للمحاكم الأكليرلية من حقوق وما كان للاكليروس من مركز مميز أمام القانون. ونجح فى تخفيض إيرادات الأوقاف للكنيسة والدخل الوفير لكبار رجال الكنيسة بإغلاق ما يزيد على ثلثمائة دير. وأقر برلمان تورين التشريع الخاص بالزواج المدنى رغم مقاومة الفاتيكان الشديدة. ودعمت الإصلاحات التى جعلت من بيدمنت دولة عصرية متحررة بوضع ميزانية متعادلة للدولة وإبرام سلسلة من المعاهدات التجارية، واهتمام الحكومة المتصل بمد خطوط السكك الحديدية وتحسين طرق الزراعة، وتطوير أساليب الصناعة، والعناية بإنشاء جيش قوى وتدريبه على أحدث النظم، لتتخذ منه مملكة سردينيا فى الوقت المناسب أداة لطرد النمساويين إلى ما وراء جبال الألب.

اشتهر كافور بآرائه الديمقراطية وإخلاصه لقضية إيطاليا الكبرى من أجل تحقيق الوحدة وكان هو وماتزينى يتفقان على شئ واحد وهو تحرير إيطاليا وتوحيدها وإن كان قد امتاز عن ماتزينى بواقعيته فى تخطيط مشروعه، وكذلك فى إدراكه للمشاكل التى تعترض سبيله فى تحقيق ذلك الغرض. وكان يرى أن إيطاليا لن تستطع وحدها أن تصل إلى ما تسعى إليه من هدف، فالحماسة وحدها ليست كفيلة بتحقيق ذلك، ولذلك أخذ يبحث عن حلفاء، وبذل فى سبيل ذلك أقصى ما يملك من جهود[٢٨].

وعلى الرغم من اتفاقهما فى الغرض إلا أنهما اختلفا فى كثير من الأمور ونظرة سريعة فى حياة الاثنين تطلعنا على ما كان بينهما من فروق، فكافور كان ارستقراطى النشأة، كما كان واقعيًا، لا يفتأ بجهد نفسه فى التفكير والتدبير قبل أن يقدم على العمل حتى لا يتعرض للفشل. وكان ماتزينى غزير العلم واسع الثقافة. ومع ذلك فقد كان كافور أقدر منه على ممارسة الأساليب السياسية التى شاءت الأقدار أن تكون عاملاً من عوامل النجاح فى سبيل

تحقيق الأغراض السامية، والكثير يرى أن سياسة كافور العلمية كانت أجدى على إيطاليا وأرشد، فهي خير من مثالية ماتزيني وأساليبه الروحية، ومع ذلك فليس في الاستطاعة أن ننكر على ماتزيني فضله في خدمته لقضية الإيطاليين كانوا بحاجة إلى الغذاء الروحي الذي كانت تمتلئ به آراء ماتزيني. وقد اتهم كافور ماتزيني بأنه مدبر حادث الاعتداء على حياة نابليون الثالث، وذكر في البرلمان السرديني أن صوبة المعتدي التالية ستصوب نحو الملك فيكتور عمانويل[٢٩].

وقد هيأت حرب القرم لكافور ليضرب ضربة من ضرباته الدبلوماسية الموفقة ولم يكن لإيطاليا حقًا أية مصلحة في النزاع القائم بين روسيا والحلفاء ولكن أعداء روسيا كانوا في مسيس الحاجة إلى العون والتأييد، فإذا دخلت سردينيا الحرب إلى جانبهم ظهرت بمظهر الدولة الأوربية المهمة وأصبح لها حق الجلوس في المؤتمر الذي يتولى وضع شروط الصلح وربما إعادة رسم خريطة أوربا كلها وعلى ذلك توجه الجنود السردينيون إلى القرم، وحاربوا بنجاح مرموق في معركة شريانا مثبتين بذلك أن الهزيمة التي منى بها الإيطاليون في معركة نوفار لم يكن مؤدها إلى تميز في طبيعتهم عن القتال وقد قال أحد العسكريين البيدمونتيين يومذاك[٣٠]: "إن إيطاليا سوف تصنع من هذا الطين" (طين خنادق سباستبول) وهذه الكلمات تعبر أفصح التعبير عن هدف كافور الأساسي، وقد أتاح مؤتمر باريس لكافور بالفعل الفرصة التي كان يتمناها للمجاهرة بشكاوى إيطاليا.

وقد نال تأييدًا حارًا من كلارندون وزير الخارجية الإنجليزية واستمع المؤتمر لبيان رسمي عن سوء الحكم في إيطاليا جنوبًا وشمالاً وعن الأخطار الدولية الناتجة عن ذلك؛ وهكذا أصبحت سردينيا جزءًا معترفًا له في نسيج أوربا الدبلوماسي؛ ولقد كانت المهمة التي كرس لها كافور حياته ووقف عليها دهاءه هي إعاد تشكيل ذلك النسيج بحيث تدخله إيطاليا الحرة المتحدة.

ولم يكن كافور يعتد كثيرًا بعبارة (أن إيطاليا ستتولى أمرها بنفسها) التي تباهى بها البعض في فترة سابقة، فجعل شغله الشاغل كسب محالفة فرنسا لإيطاليا في كفاحها وكان نابليون الثالث قد عرف في شبابه طرفًا من الحركة الثورية في إيطاليا وقد اجتذبه إلى صف كافور عطفه الصادق على مبدأ القومية الذي ما برح يدعو له في إخلاص ولكن الأمر اقتضى كل دهاء كافور وحنكته لتحويل هذا العطف المهم إلى عمل محدود والحيلولة دون تراجع نابليون عندما تجلت أخطار المهمة.

وفي يناير ١٨٥٨ وقع اعتداء ألقيت فيه القنابل على نابليون والإمبراطورة، بينما كانا في طريقهما إلى دار الأوبرا وقد نجوا من الحادث، ولكنه أسفر عن قتل وإصابة كثيرين واعتقل على أثره عدد من الإيطاليين، وثبت من التحقيق أن هذه المؤامرة من تدبير إيطالي يدعى أورسيني ورغم أنه كان على صلة وثيقة بماتزيني في يوم من الأيام فقد تعذر إثبات تأييد ماتزيني لمحاولة الاغتيال. وقد أعلن أورسيني أنه أقدم على فعلته لاعتقاده أن نابليون قد خان قضية إيطاليا، وكتب من سجنه رسالتين إلى الإمبراطور يناشده فيهما بتحرير إيطاليا، وكانت صيحته الأخيرة من فوق خشبة المقصلة "لتحيا إيطاليا" وبدلا من أن تؤدي تلك الأحداث إلى إبعاد نابليون عن قضية إيطاليا تراها قد أدت – على ما في ذلك من غرابة – إلى زيادة قربة منها، وما لبث أن اتخذ في يونيو ١٨٥٨ الخطوة التي تعد حاسمة بمعنى الكلمة[٣١].

وكان نابليون ميالاً إلى إلقاء دفة الشئون الخارجية في يديه والتصرف في بعض الأحيان دون علم وزرائه المسئولين. فبعث برسالة إلى كافور عن طريق مصدر من مصادره الخاصة يبلغه فيها أنه يزمع قضاء الصيف في بلومبير وأنه يسره أن يراه هناك، فأدرك كافور لتوه ما يمكن وراء هذه الدعوة البسيطة المظهر من أمور جليلة وكتب إلى أحد أصدقائه "إن الدراما تقترب من ذروتها" وتم اجتماعه بالإمبراطور يومي ٢١، ٢٢ من يوليو حيث أجريا محادثات طويلة في

قصر نابليون أولاً ثم في نزهة طويلة حول المدينة قاد فيها نابليون العربة بنفسه، كانت الحرب هي هدف المتآمرين (فقد كانا في الحقيقة متآمرين مهما يكن من مثالية أهدافهما). وقد وعدت فرنسا بتأييد سردينيا في حربها ضد النمسا على شرط أن يتولى كافور إيجاد الذريعة التي تبرر مسلك فرنسا في نظر أوربا، وفي هذه الحرب يتم طرد النمساويين من شبه الجزيرة الإيطالية فيؤلف الشمال مملكة إيطاليا برئاسة فيكتور عمانويل ثم ترتبط البلاد كلها بعد ذلك برباط اتحادي يرأسه البابا.

كان كافور يعلم تمام العلم أنه لن يتمكن من بلوغ هذه النتيجة دون سيف فرنسا، ونابليون فماذا عساه أن يكون الثمن؟ لا مراء في أن نابليون سيرحب بخدمة قضية يؤمن بها إيمانًا صادقًا، وفي نفس الوقت سيفوز بمكانة عظيمة تدعم عرشه وذلك أمر له أهميته الباغة، ولكن هل تراه يكتفي بذلك؟ لقد طلب مقابلاً وهو التنازل لفرنسا عن سافوى ونيس (سافوى مهد البيت المالك والدولة السردينية ونيس مسقط رأس غاريبالدى) وموافقة فيكتور عمانويل على تزويج ابنته البالغة من العمر ستة عشر ربيعًا إلى ابن عمه الأمير نابليون ولم يلبث المستقبل أن يثبت مدى ما في إصراره على هذه الشروط أو أي شروط أخرى من مجافاة للحكمة والسداد. فلربما كان بوسعه أن يتحاشي كارثة كبرى في تحقيق حريتهم سنة ١٨٧٠ لو لم يكن يسيئ إلى مشاعر الإيطاليين الذين ساهم مساهمة كبرى في تحقيق حريتهم. ولكن علينا أن نذكر أنه كان مضطرًا لتبرير مسلكه أمام الفرنسيين لا أمام الإيطاليين وحدهم.

لقد فاز كافور إذن بالوعد الذى كان يصبوا إليه بدخول فرنسا الحرب إلى جانبه وبقي عليه أن يشغل تلك الحرب على نحو تبدو معه كأنها عمل عدواني من جانب النمسا، وقد توافرت لديه مرارًا أثناء سعيه لتحقيق تلك الغاية أسباب للشكوى من الإمبراطور شريكه في المؤامرة، ذلك أن الفتور كان يعقب نوبات الحماسة دائمًا عند نابليون، وقد سارت الأمور على ما يرام حتى

نهاية ١٨٥٨ فقد وقعت في ديسمبر من تلك السنة معاهدة سرية بين فرنسا وسردينيا سميت حلفًا دفاعيًا وتقرر فيه أن تقدم فرنسا لحليفتها في حالة الحرب ٢٠٠٠٠٠ رجل وأن تعمل على إجلاء النمسا عن إيطاليا. فأحس كافور بالثقة والطمأنينة وكتب يقول: "لقد وضعنا النمسا في مأزق لن تستطيع الإفلات منه دون إطلاق المدافع، وعم الانفعال شمال إيطاليا وراح الناس يهتفون لفيكتور عمانويل ومملكة إيطاليا" وينادون "فلتحيا إيطاليا".

رابعًا: فرنسا والوحدة الإيطالية والحرب ضد النمسا

على حين أن ماتزيني لم ير سبيلاً إلى غايته إلا عن طريق المؤامرات، فإن كافور رأى في النمسا العدو الأكبر للوحدة الإيطالية، وقد هداه تفكيره، أن هدفه لن يتحقق إلا بمحاربتهما في ساحة الوغى على يد جيش فرنسا وبيدمنت المتحدين، ففي تورين كان الجميع يتأهبون للقتال والحرب، أما في باريس فكانت زوايا التويلرى الخفية – حيث كان يجتمع المتآمرون الطليان – كانت تزخر بالآمال والدسائس[٣٢].

وخطا نابليون الثالث – الذى كان في خبايا نفسه "كاربوناريا" ولكن الأحداث والسياسات المتضاربة أخذت تنازعه بعد قبضته زمام الأمور في فرنسا – خطا خطوة مهمة حاسمة في يوليو سنة ١٨٥٨، بدعوته في الخفاء ودون أن يطلع وزراءه أو يستشيرهم كافور لمقابلته في بلومبير بإقليم الفوج. وهناك أوضح للسياسي الإيطالي في مقابلتين خططه الخاصة بتنظيم إيطاليا بعد تطهيرها من النمساويين.

وقد رسم في هذه الخطط إنشاء مملكة إيطالية في الشمال، تمتد من الألب حتى البحر الأدرياتي، ومملكة أخرى تجمع من هنا وهناك وسط إيطاليا ودولة بابوية. لأن الرأى الأكليركي في فرنسا كان يطالب بوجوب بقاء البابا في روما، ويربط هذه الدويلات بعضها ببعض شكل ما من أشكال الاتحادات التعاهدية تحت رئاسة البابا. وقرر الرجلان أنه لا مفر من الدخول في حرب

مع النمسا. ولكنهما اتفقا على أن تكون حربًا يبررها عذر يستهوى أفئدة الفرنسيين: حربًا تظهر فيها النمسا كالمعتدى الجبار، وبيدمنت كالدولة الضعيفة البريئة التى تناضل فى سبيل حياتها وكيانها. وفى هذه الحالة يمكن لكافور أن يعتمد على عون فرنسا له، بشرط أن تعطى بعض التعويضات جزاء تضحياتها، كأن تعطى سافوى ونيس. وسافوى هى الوطن الأصلى للبيت المالك فى بيدمنت، ونيس كانت من سوء الحظ مسقط رأى غاريبالدى الزعيم الإيطالى الكبير، على أن تتوّج هذه المعاهدة السياسية بقران ملكى، فتتقدم يد الأميرة كلوتلدة ابنة فيكتور وكانت طفلة فى الخامسة عشر من عمرها — إلى الأمير جيروم ابن عم الإمبراطور وهو رجل مستبيح فاسق يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، فلقد جال بذهن نابليون أن المقادير قد تخط لهذين الزوجين المختلفين كل الاختلاف أحدهما عن الآخر، أن يجلسا على سرير الملك فى فلورنسا يومًا من الأيام. إذ كانت أحيانًا تمر فى ذهن الإمبراطور أخيلة عابرة واضحة المعالم باحتمال تأسيس بيت بونابرت أسرات مالكة فى إيطاليا، فيجلس أمير بونابرتى على عرش تسكانيا وأمير من سلالة ميرا على عرش نابلى.

وفى الاستقبال الرسمى الذى عقده نابليون بمناسبة رأس السنة الجديدة عام ١٨٥٩، ذكر عرضًا للسفير النمساوى أنه يأسف لأن علاقاته مع النمسا ليست من الود بمثل ما كانت عليه أولاً. فطارت هذه الكلمة المبهمة على أجنحة السرعة فى مشارق أوروبا ومغاربها، وعدّت نذيرًا بحرب وشيكة. ولكن بلغ من تفكير الإمبراطور المتزن واعتقاده بفائدة عقد المؤتمرات الدولية، أنه خيّل له أن الحرب قد لا تنشب مطلقًا[٣٣].

ولكن فى اللحظة التى لاحت فيها الأمور سوداء قاتمة فى نظر كافور، إذ بدا أن آماله فى نشوب الحرب أصبحت صعبة، جاءت إليه النمسا بالنجدة، فإن تلك البلاد التى كان فى المقدور على الدوام بأن تقع فريسه فى حبائل لخصومها بلغت بها الحماقة أن تبعث فى ١٢ إبريل سنة ١٨٥٩ إنذارًا

نهائيًا إلى حكومة تورين تطلب منها فيه تجريدها من السلاح. فقدمت بذلك الذريعة التى كان ينشدها اجتماع بلومبير لإعلان الحرب. فقد ظهرت النمسا بمظهر المعتدى. وسرعان ما خفف مقاتلو فرنسا المغاوير تحت علم بونابرتى مرة ثانية. عندما أعلنت الحرب رسميًا فى ٢٦ إبريل ١٨٥٩ .

ويقول فشر أن أكبر ما يذكره دارسو التاريخ الحربى عن هذه الحملة الإيطالية هو أنها كانت ثبتًا طويلاً من الأغلاط الحربية. فلقد كان يظن أن النمساويين بعد أن أنذروا باقتراب الحرب منهم، سيعمدون إلى توجيه بعض العناية إلى تحسين خطوط سككهم الحديدية. وعليه فإن الحكومات المتنافسة وقواد الجيوش لم تعر اهتمامًا بالسكك الحديدية وفرص الانتفاع بها إلا الشئ الضئيل. فلم يكن يربط فيينا بتريستا سوى خط حديدى فردى واحد. ولم يكن هناك أى خط حديدى بين البندقية وتريستا، مع أن المسافة بينهما سبعون ميلاً. وبلغت غلبة الطرق العتيقة البطيئة التى ظلت سائدة فى تسيير الحروب أن النمساويين برغم أنهم هم الذين أشهروا الحرب، وحشدوا جيوشهم على حدود بيدمنت، فإنهم لم يبذلوا أى جهد للقضاء على البيدمنتيين أولاً، ثم يركزون بعد ذلك قواتهم ضد الفرنسيين. وبدرجة من العجز والتقصير تكاد لا تصدق زحف جيولى Giulay القائد النمساوى داخل حدود بيدمنت، ولكنه انسحب منها، ثم سلّم فى استكانة زمام الأمر لخصمه[٣٤].

بيد أنه برغم تألق الاسم الذى يحمله الإمبراطور الفرنسى، والمجد الذى حف به، فإنه لم يكن قائدًا، فقد رسمت خطة للحرب أغفلت فيها السكك الحديدية، لأن راسمها كان قائدًا من قواد نابليون القدامى — بدلاً من تطبيق الخطط التى يقضى بها العقل والزمن. ولهذا فإن نابليون الثالث الذى اضطلع بالقيادة العليا، والذى اتبع قواعد يومينى Jomini — السويسرى الأصلى — اتباعًا أعمى — كان سيعرض جيشه وهو يزحف به صوب الشمال، لهجمات خطيرة كثيرة لو أن خصمه كان يقظًا ساهرًا. ولكن القيادة النمساوية

كانت فى حال أسوأ مما كانت عليه قيادة الجيش الفرنسى. ولهذا أفلح الجيش الغازى فى جميع حركاته، وبلغ جميع أهدافه، فقد أفلح فى زحفه إلى الشمال، وفى تقدمه شرقًا صوب ميلان التى احتلها فى ٧ يوليو بين تهليل السكان وترحيبهم البالغ، وأفلح فى الظفر بعدوه فى الملحمتين العتيقتين اللتين يلوح أن كل شئ فيهما لم يسر طبق الخطة الموضوعة وهما ماجنتا **Mengeuta** (فى ٤ يونيو) وسلفرينو **Selferino** (فى ٢٤ يونيو) وما حل شهر يوليو حتى كان الملكان المتحالفان يسيطران على لمبارديا[٣٥].

وإذا كانت النمسا قد منيت فى سولفرينو بهزيمة فادحة فإن الضربة التى تلقتها لم تكن تعد من الشدة بحيث تحسم القتال. ومع ذلك فإن القتال قد توقف بالفعل عن هذا الحد نتيجة لمسلك نابليون الثالث فما هى دوافعه؟.

كانت الحرب نصرًا عظيمًا له، وعام ١٨٦٠ شاهد ذروة قوته وسمعته فى أوربا. فقد وصفه الكثيرون بالبراعة الدبلوماسية الخارقة، وخيل إليه أنه سيبنى لنفسه سلطانًا فى أوربا لا يقل عن سلطان نابليون الأول، فهو قد تمكن فى حرب القرم من صد سلطان روسيا وتثبيت أقدام الدولة العثمانية من جديد وها هو ذا يسحق النمسا ويدعو إيطاليا الحرة إلى الخروج إلى حيز الوجود، وقد استقبل عند دخوله ميلانو بعد معركة ماجنتا بآيات التمجيد ومظاهر الترحيب التى لم يحظ بمثلها إلا فاتحون قلائل فلقبته الجماهير المتحمسة "محررنا ومخلصنا وراعينا" ونثرت نساء ميلانو الزهور فى طريقه، وقد ضاعف كلماته من تلك الحماسة، إذ قال أنه لن يفعل شيئًا لفرض مشيئته على شعب إيطاليا، وأهاب الإيطاليين أن يغتنموا الفرصة السعيدة السانحة أمامهم أن حلمهم بالاستقلال يوشك أن يتحقق إذا برهنوا على جدارتهم، واتحدوا لتحرير بلادهم. على أن حماسة الإيطاليين لم تلبث أن تبدلت – وسرعان ما انفلت امتنانهم نفورًا ولقد كان نابليون دائمًا مغامرًا تعوزه القدرة على تمييز الممكن من غير الممكن تلك القدرة التى تعد من لوازم السياسى المحنك، فكان خياله يصور

لـه مـشاهد رائعـة وانتـصارات مجـيدة وإن لم يرشـده قـط إلى طـريق الـسوى لتحقيقها[٣٦].

وقـد توافـرت لديـه وسط أمجاد الحملة الإيطالية أسباب كثيرة إذ كان للمجد ثمن لابد أن يدفعه، وقد تركت المجزرة التي شاهدتها ساحة القتال في سولفرينو انطباعًا عميقًا فى مخيلته، ثم أنه قد تبين أن قيادة الإيطاليين ليست بالـسهولة التـى كـان يتـصورها فقـد انهـارت كـل الخطط التى رسمها لمستقبل توسكانا إزاء إصرار التوسكانيين على أن يكونوا سادة مصيرهم. وهو لم يكن فوق هـذا كلـه جـنديًا قديـرًا رغـم الاسم الذى يحمله، وإنما كانت ملكاته تكمن فى اتجـاه فـى اتجـاه آخـر فى قدرته على تكوين إئتلافات دبلوماسية غير متوقعة وفـى قـوة تـأثيره على عقول الرجال لقد كانت لديه إذن أسباب وجيهة للرغبة فى إنهاء الحرب. ولكن خوفه من العاصفة التى توشك أن تهب عليه من ألمانيا كان سببًا أقوى من كل ما تقدم.

فـرغم أن بروسيا كانـت علـى خـصومة مريرة مع النمسا فإنها لم تكن لتـستطيع أن تنظـر بعـين الرضـا إلى إذلال دولـة ألمانية على يد فرنسا وإيطاليا وكـان جيـشها قد وضع من قبل على أهبة الاستعداد للحرب فسارعت الآن إلى تعبـئة جمـيع قـواتها والمطالـبة بمـنحها قـيادة الجيش الألماني ودعت بريطانيا وروسـيا للانـضمام إلـيها فـى عـرض الوسـاطة علـى المـتحاربين فـبدا جلـيًا أن الجـيوش الفرنـسية قـد يـتم إلـزامها قـبل مـضى وقـت طـولب لحمايـة حـدود الراين[٣٧].

بعـد ذلـك عـزم نابليون على إنهاء الحرب وراح يتصرف فى سعيه إلى تحقـيق تلك الغاية – كعادته – تصرفًا أقرب إلى تصرف المتآمر منه إلى تصرف رجـل الدولـة فبيـنما كان الجميع يتوقعون تجدد القتال، أوفد نابليون الجنرال فلـيرى لعقـد هدنـة تمهـيدًا للـصلح مـع العاهـل النمـسوى استعدادًا طيبًا لتلقى عروضه وذلك لأن الخسائر التى تكبدها جيشه كانت فادحة، ولكن هذا لم يكن

هو السبب الوحيد، بل كان هناك خوفًا من تدخل بروسيا السبب الوحيد. وعلى هذا اجتمع الإمبراطور النمساوى بنابليون فى فيلا فرانكا وسرعان ما وضعت مقدمات الصلح وقد تم الاتفاق على تسليم لومبارديا إلى نابليون ليتولى تسليمها بدوره إلى فيكتور عمانويل وعلى تأييد فرنسا والنمسا بعد ذلك لقيام اتحاد إيطالى برئاسة البابا الاسمية واستمرار تبعية البندقية للنمسا مع اشتراكها فى الاتحاد الإيطالى وعودة حكام مودينا وبارما وتوسكانا إلى مناصبهم وحث البابا على إدخال الإصلاحات فى الأراضى التابعة له وعقد اجتماع يضم ممثلى جميع الدول المعنية لإقرار هذه المقترحات وتطويرها.

ونحن نعلم أن ذلك كان بداية لاستقلال إيطاليا ووحدتها وأن البناء لم يلبث أن اكتمل بسرعة فائقة، ولكن الأمر بدأ فى نظر الكثيرين من الإيطاليين إذ ذاك وكافور خيانة لقضيتهم وقضاء على آمالهم وإنكارا لحريتهم ووحدتهم وغلب اليأس على كافور، واستقال من رئاسة الوزارة ولكن سرعان ما لاح الأمل من جديد إذ وقعت فى وسط إيطاليا أحداث مدهشة. فلم يكن الأهالى فى توسكانا ومودينا ورومانا على استعداد للسماح للإمبراطوريين بتسليمهم إلى حماتهم القدماء من جديد وقد كان بينهم نفر من القادة الوطنين الذين أبلوا بلاء حسنًا فى خدمة القضية وإن طغت شهرة كافور وغاريبالدى وماتزينى على شهرتهم فقد رفع ماتزينى صديق كافور الحميم راية القومية عاليًا فى مودينا وبارما ولعب ريكازول فى توسكانا دورًا أهم وأبرز فكان أن أصدرت الجمعية النيابية فى فلورنسه بيان بإجماع الأصوات أعلنت فيه "رغبة توسكانا فى أن تصبح جزءًا من دولة إيطالية قوية تحت الحكم الدستورى لفيكتور عمانويل فأبدى الأخير عطفه على هذه الرغبة وأشاد بالمثل الرائع الذى ضربته توسكانا فى الاعتدال والوحدة قائلاً أنه سيعرض مطالبها فى المؤتمر القادم وبنفس القوة طالبت بارما ومودينا وبولونا بالاتحاد مع مملكة فيكتور عمانويل فلم يسعه فى

البداية إلا الإعراب عن عطفه ليس إلا وقد أحبطت معارضة نابليون الاقتراح الداعي إلى تحسين وتعيين أمير من بيت سافوى على أراضي إيطاليا الوسطى.

وما لبثت الأيام أن أكدت صعوبة تحقيق المشروعات التى تضمنتها مقدمات الصلح الموقعة فى فيلا فرانكا. فلقد اجتمع ممثلى فرنسا والنمسا وسردينيا فى زيورخ وألحقت لومبارديا بسردينيا ولكن البابا لم يبد أقل استعداد للقيام بالدور المرسوم له فى تشكيل الاتحاد الإيطالى واستمرت القلاقل فى ولايات إيطاليا الوسطى تنذر بالخطر فاتجهت النية التى أحالت تسوية هذه المسائل إلى مؤتمر آخر يعقد فى باريس ويضم الموقعين على صلح فيينا ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد قط. فقد رفض البابا الاشتراك فيه بأى حال من الأحوال بعد أن صدر فى فرنسا بموافقة الإمبراطور كتب يعلن وجوب إنقاص أراضيه إلى أقل حد ممكن وأبدت النمسا معارضة لا تقل عن معارضته فلم يعد ثمة مفر من التخلى عن فكرة عقد المؤتمر[٣٨].

خامساً: تحقيق الوحدة الإيطالية.

لم يلبث كافور خارج الحكم طويلاً إذ عاد إلى رئاسة الوزارة فى يناير سنة ١٨٦٠ وقد مارس قبل عودته نفوذًا كبيرًا على مجريات الأمور. وقد راح يسعى إلى تسوية مسألة إيطاليا وسعى عن طريق المفاوضات السرية مع نابليون، وكان قد طلب بادئ الأمر بسافوى ونيس ثمنًا لتحالفه مع سردينيا ولكنه لم يعمد إلى المطالبة بسداد هذه الثمن لأنه لم يف بنصيبه من الصفقة. فإذا آلت دوقيات الوسط إلى فيكتور عمانويل حق له أن يفعل ذلك ورغم أن التنازل عن سافوى ونيس يعد ضربة مروعة لمشاعر الإيطاليين فقد استقر رأى كافور على ضرورة إتمامه وتم الاتفاق على اتباع طريقة نابليون المفضلة وذلك بإجراء استفتاءات فى كل من إيطاليا وفرنسا.

وقد فازت الوحدة مع مملكة فيكتور عمانويل بأغلبية هائلة فى تسكانيا وبما يشبه الإجماع فى سائر الجهات ورغم أن اسم المملكة الرسمى كان لا يزال

"سردينا" فقد باتت تعرف باسم "إيطاليا" وأظهرت تصميمًا على إثبات جدارتها بهذا الاسم ثم جاء دور التصويت في سافوى ونيس. ففاز مبدأ الانضمام إلى فرنسا فوزًا كاملاً إلى حد يبعث على الريبة، إذ أعلنت سافوى بأغلبية ١٣٠,٥٣٨ صوتًا ضد ٢٣٥ فقط ونيس بأغلبية ٢٤,٤٤٨ ضد ١٦٠ فقط ورغبتها في الانضمام للإمبراطورية النمساوية الفرنسية فبدا انتصار نابليون في تلك اللحظة أعظم من انتصار كافور، ولكنه فقد في الواقع امتنان الإيطاليين الذين باتوا يشعرون أنه تقاضى الثمن، ويا له من ثمن جزاء الخدمات التي أداها. وقد اتسم تنفيذ حركة اندماج أقاليم إيطاليا الوسطى في إيطاليا المتحدة بالهدوء وضبط النفس والوقار رغم الحماسة في كل مكان فبدا أن الطبع السياسي للجمهورية الرومانية القديمة قد عادت في إيطاليا الجديدة التي أنشأها فيكتور عمانويل وكافور.

فقد فازت هذه السلسلة العجيبة من الأحداث لإيطاليا المتحدة بقاعدة راسخة في شمال شبه الجزيرة ووسطها ولكن هذه القاعدة لم تكن تمثل إلا ما يزيد قليلاً على نصف شبه الجزيرة كلها وبقى أن تضم كل من البندقية وروما ومملكة نابولى إلى أراضى إيطاليا الحرة حتى يتم تحقيق حلم الوحدة القومية المنشودة. كان البابا بيوس التاسع قد تخلى عن كل أثر من آثار ميوله التحررية السابقة وبات يطلق الآن على الاتجاهات التحررية القومية والديمقراطية كلمة "الثورة" ويعتبرها خطرًا على الكاثوليكية كخطر الإسلام في العصور الوسطى ولكن أهالى الولايات البابوية كانوا متزمتين، وقد أبدى جانب كبير منهم عطفهم على الآراء التى انتصرت في الشمال. أما في نابولى فقد ارتقى العرش فرنسيس الثانى في سنة ١٨٥٩ ولم يكن طاغية قاسيًا مجردًا من كل عطف على الآراء الجديدة، ولكنه ورث مهمة تستعصى في أغلب الظن على أى حاكم مهما تكن مقدرته ومن العسير علينا بصفة خاصة أن نتفهم ظروف مملكة نابولى وصقلية، فثمة فوارق كبرى في الطباع بين الأهالى هناك وأقرانهم في شمال

أوروبا. فجمهرة الشعب فى الجنوب كانوا من الأميين غير المتعلمين الذين لم يبدوا إلا أقل الاهتمام بالثورة السياسية التى تجتاح البلاد – وسلطان الكنيسة على النفوس كان عظيمًا جدًا، فكان الأهالى متعلقين برسومها وعقائدها تعلقًا صادقًا وإن لم يكن هناك وعى، وكذا الجمعيات السرية ولاسيما جمعية كامورا الشهيرة – كانت مصدر خطر دائم يعرقل إقامة مجتمع يحترم القانون وكان أحد وزراء الملك الرئيسيين على اتصال وثيق بتلك الجمعية فجاء انحيازه إلى صف الغزاة عاملاً حاسمًا فى الصراع – على أن قطاع من السكان كان لا يقل فى حماسته للحرية الإيطالية عن سكان لومبارديا وتوسكانا ومهما يكن من أمر فإن تفسير الصقليين للحرية والوحدة ظل ردحًا من الزمن أمرًا بعيدًا عن الوضوح كل البعد فلم يكن مؤكدًا حال إنهم سيرضون بضياع استقلال نابولى وصقلية واندماجها فى مملكة سردينيا، حتى لو اتخذت الأخيرة لنفسها اسم إيطاليا فقد كان ثمة حزب قوى يرغب فى قيام شكل من أشكال الاستقلال الذاتى. وقد أصبح التآمر والتمرد سمتين ثابتتين من سمات الموقف فى تلك المملكة الجنوبية، وقد شجعهما أيما تشجيع نجاح الوطنيين فى الشمال. وكان الملك فرنسيس مدركًا للخطر المحدق به، فراح يفكر فى إمكان إجراء إصلاحات ترضى المشاعر القومية لشعبه، ولكن غاريبالدى سبق بالهبوط فى صقلية قبل أن يتخذ فرنسيس أية خطوة جديدة فى هذا السبيل.

وبهبوطه بدأت أعظم وأنجح مغامرة شاهدتها أوربا فى القرن التاسع عشر. وقد استحوذ غاريبالدى على أنظار أوروبا كلها ومازال يستأثر باهتمام كل من يقر النظامية وحماسته النبيلة لقضية إيطاليا وببساطة طبعه وسمو خلقه كل هذه انطبع على أحداث تلك السنوات بنفس الوضوح الذى انطبع به قصوره السياسى وجهله بالكثير من القوى التى كانت تهيمن على العالم الأوروبى فى ذلك الزمان وكان على صلة ضعيفة بماتزينى الذى رأى فى هذه الحركات الجنوبية فرصة لإقامة إيطاليا الحره المتحدة على أساس مختلف ذلك الأساس

الملكـى الدستورى الذى انتصر فى الشمال فقد كان ماتزينى يأمل فى رؤية "الله والشعب" ترتفع فى مواجهة راية إيطاليا وفيكتور عمانويل، ويحلم بإنشاء نظام جمهـورى أو علـى الأقـل بداية لـذلك الـنظام فـى الجـنوب. ولما تحقق النصر للـوحدة الإيطالـية جـاءت فى صورة بعيدة كل البعد عن تلك التى كان ينشدها ماتزينـى حتى أنه أعلن أن عينه لن تقر بعد اليوم فى إيطاليا، "فقد قتلت تلك البلاد روحى بإزدارتها لكل المثل العليا" ولقد اجتذب سيف غاريبالدى المسقول أنظـار جمـيعًا فلـم يكـن أحـد يذكر فى تلك الآونة الأهمية البالغة للملك كافور وحكومة مملكة سردينيا (كان هذا لا يزال اسمها الرسمى) على أن انضمام نابولى وصـقلية جـاء ثمـرة لجهـود كافـور مـثلما جاء ثمرة لجهود غاريبالدى. فقد علم كافـور بأمـره قبل وقوعه وذكر لغاريبالدى أنه "عندما يكن الأمر مشروط من هذا القبـيل فـإن أحـدًا لن يسبق الكونت كافور إليها مهما تكن جسارتها" ولم يكن غاريـبالدى يـرتاح قـط إلى العمـل مـن كافـور، بل كان يبغضه ويرتاب فيه كل الـريبة ولكـن ضـرورة الحـصول على تأييده قد توصلت فى كل فصل من فصول الـرواية المجـيدة وقـد مـنحه كافور هذا التأييد بشجاعة دون أن يشعر فى ذلك بـأى حـرج لم يعـرف عـن الدبلوماسية أنها استخدمت الألفاظ المزدوجة المعانى وأنـصاف الحقائـق بل الأكاذيب الصريحة بصورة أبرع من تلك التى استخدمها كافـور. إن وحـدة إيطالـيا التى طلما حلم بها دانتى قد تحققت ولكنها أنجزت ولا سيما فى طورها الأخير بروح ميكافيللى.

وفى ٥ مايو سنة ١٨٦٠ غادر غاريبالدى ميناء جنوه بسفينتين و ١١٣٦ متطوعًا وزعت عليهم أثناء الرحلة القمصان الحمراء التى قدر لها بطريق الصدفة أن تنال كل تلك الشهرة الذائعة فى أوروبا وفى ١١ مايو نزل مع رجاله إلى البر فـى ماسـينا. ولم تكـن هـذه العـصبة الـصغيرة على كفاءة بطبيعة الحال لمنازلة الحامـيات الملكـية فـى صـقلية، فأضحى كل شئ متوقفًا على نوع التأثير الذى يحدثـه غاريـبالدى علـى مخـيلة الـصلقيين ولهـذا لم يعـد ثمـة جدوى للتبصر

والحذر وإنما أصبحت الشجاعة المتهورة لأسمى مراتب الحكمة، تلك الشجاعة المتهورة التى كان غاريبالدى يتمتع منها بأوفر نصيب شرع على الفور بالزحف على بالرمو، التى كانت المقر الرئيسى لحكومة نابولى، ولعل فى النصر العجيب الذى أحرزه خارج بالرمو واستيلائه بعد ذلك على الميناء نفسه، إنما يرجع إلى براعة قيادته وشجاعة رجاله وتأييد كل الصقليين، كما يرجع إلى شئ من حسن الحظ والتوفيق العجيب. وقد حدد هذا النصر الأول مصير القتال فى صقلية وسرعان ما لقى الملك فرنسيس نفسه بلا أعوان خارج حصن مسينا ولكن غاريبالدى لم يلبث أن وطد العزم على تسديد ضربة أجرأ وأشد جسارة، وذلك أن أحداث صقلية أثارت حركات مشابهة فى نابولى وراحوا هناك يناشدون غاريبالدى العون.

أما فيكتور عمانويل فقد نهاه عن اجتياز المضيق وإن أوحى له فى الوقت نفسه بالعبارات التى يستخدمها، لرفض أوامره نزل غاريبالدى فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ومن هناك زحف على نابولى مارا بمناطق مهيأة بطبيعتها للمقاومة دون أن يصادف فيها أدنى مقاومة، لقد خان فرنسيس الكثير من وزرائه وجنوده ولم يبق على الولاء الصادق له أحد تقريبًا. فما كان منه إلا أن غادر نابولى قاصدًا جليتا فى ٦ سبتمبر فدخلها غاريبالدى فى اليوم التالى وبلغت حماسة الشعب حد الهوس إذ كان انتصار المحرر ذى القميص الأحمر خارقًا حقًا. وقد تقبله في تواضع جم وبساطة عظيمة. أما نهاية القصة فتختلف اختلافًا بينًا عن بدايتها فقد حل الدبلوماسى محل الجندى مما يمنعنا من مواصلة سردها على انها ملحمة من ملاحم البطولة تنول كل تلك الشهرة الذائعة فى أوروبا وفى ١١ مايو نزل مع رجاله إلى البر فى ماسينا. ولم تكن هذه العصبة الصغيرة على كفاءة بطبيعة الحال لمنازلة الحاميات الملكية فى صقلية، فأضحى كل شئ متوقفًا على نوع التأثير الذى يحدثه غاريبالدى على مخيلة الصقليين ولهذا لم يعد ثمة جدوى للتبصر والحذر وإنما أصبحت

الشجاعة المتهورة لأسمى مراتب الحكمة، تلك الشجاعة المتهورة التى كان غاريبالدى يتمتع منها

لقد تتبع كافور ما حدث فى صقلية ونابولى بمزيد من الغبطة والقلق فلذلك كان سقوط عرش الملك البوربونى قد أدخل السرور إلى قلبه فإنه كان حريصا كل الحرص على تباين الوضع الجديد الذى سيحل محل ذلك العرش حقًا إن غاريبالدى ما برح يعلن أنه إنما يعمل باسم إيطاليا وفيكتور عمانويل ولكن تفسيره العلمى لهذا الشعار لم يكن قطعًا بحال فقد رفض أن يعلن على الفور انضمام صقلية إلى مملكة سردينيا ولعله كان ثمة اعتبارات عسكرية بررت ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن المستقبل لم يكن قد اتضح بعد وبصورة مؤكدة فماتزينى وأتباعه كانوا يعملون من أجل إقناعه من أجل إقامة جمهورية. وثمة حزب قوى كان يرغب فى منح نابولى وصقلية مركزًا مستقلاً نوعًا من داخل إيطاليا الحرة المتحدة وقد ظل هناك بعض الاحتمال فى أن يسترد أنصار الملكية البربونية قواهم، وقد ظل الملك فرنسيس صامدًا فى جليقا وأخذت خيبة الأمل التى لم يكن ثمة مفر من أن تأتى فى أعقاب الحرية تمده ببعض التأييد ولم يكن كافور يثق بقدرة غاريبالدى الذهنية على معالجة الموقف، فبدا له أن أن الأوان قد أن لكى يأخذ دورًا صريحًا فى الرواية التى ما برح يمارس بها نفوذًا بالغ الأهمية وأن يكن مستترا. كما رأى أن الفرصة ليست متاحة فقط لإنجاز تسوية مستقبل نابولى وإنما ليصيف أيضًا إلى أراضى إيطاليا جانبًا على الأقل من الأراضى البابوية التى طالما تعطلت إليه الأبصار.

وقد أحس بيوس التاسع بالخطر الداهم، إذ أن بوادر الثورة كانت قد بدأت فى آل "مارس" وفى اومبريا وكانت الحكومة البابوية قد أخفقت تمامًا فى كسب تأييد الأهالى منذ أحداث ١٨٤٩، إلا أن الجيش البابوى كان قد زيد عددا وأدخلت عليه تحسينات كبيرة وكان يتألف من رجال جاءوا من بلاد

مختلفة ولا سيما فرنسا وإيرلنده وبلجيكا وكان يقودهم الجنرال موريسير الذى كان قد أبلى بلاء حسنًا فى خدمة الجيش الفرنسى.

ثم أن الحكومة البابوية كانت تحظى بالاعتراف العام بوصفها جزءًا من النظام الدولى فى أوروبا فكان من العسير إيجاد مبرر مقبول لمهاجمتها. ومهما يكن من أمر فقد أعلن كافور فى رسالة وجهها إلى بيوس التاسع إن ملك سردينيا يجد لزامًا عليه "من أجل الإنسانية أن يمنع قوات البابوية من إخماد الحركات الشعبية فى أوروبا بالقوة".

وبهذه الزريعة دَخَل الجيش الإيطالى الولايات البابوية حيث دمر الجيش البابوى في كاستلفيداردو بعد قتال مشرف لقوات الجنرال لامورسير. ثم واصلت قوات فيكتور عمانويل الزحف إلى أراضى نابولى حيث آلت إليها السلطة التي ظل يمارسها حتى ذلك الحين غاريبالدى بوصفه ديكتاتور على البلاد، وقد أعلن غاريبالدى الأمر أنه لا يثق بكافور وأنه يعلن الانضمام إلى مملكة فيكتور عمانويل حتى ضم "روما" وبدا ثمة خاسر وقوع صدام بين القمصان الحمر والقوات النظامية. ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تبدد وقد أرغم الملك فرنسيس على التخلى عن جامبتا والانسحاب إلى روما وقابل غاريبالدى فيكتور عمانويل فشكره الأخير بحرارة على كل ما فعله بدي أنه رفض كل جزاء مظهرًا بذلك نكرانا للذات يكان أن يكون منقطع النظير وأثر الأنزواء فى بيته بجزيرة كابريرا ثم أجرى الاستفتاء في نابولى وصقلية والأراضى البابوى التى ضمنت مؤخرًا، فأعلن الأهالى بالأغلبيات الساحقة المألوفة رغبتهم فى الانضمام فورًا إلى مملكة فيكتور عمانويل الدستورية.

وأجتمع أول برلمان إيطالى فى تورينو فى فبراير سنة ١٨٦١ وفى مارس صدر مرسوم دستورى جديد يتألف من مادة واحدة:-

"يتخذ فيكتور عمانويل الثانى لنفسه ولخلفائه من بعده لقب ملك إيطاليا".

(١) جرانت،تمبرلى: أوروبا فى القرن التاسع عشر والعشرين،ج١، ص٤٤٣-٤٤٤.

(٢) نفسه، ج١، ص٤٤٥.

(٣) نفسه، ج١، ص٤٤٥- ٤٤٦.

(٤) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٤٣- ٣٤٤.

(٥) نفسه، ص٣٤٤.

(٦) نفسه، ص٢٤٧.

(٧) نفسه، ص٣٤٨.

(٨) نفسه، ص٢٤٨.

(٩) نفسه، ص٣٤٨- ٣٤٩.

(١٠) جرانت ، تمبرلى: المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٤٨، ٤٤٩.

(١١) نفسه، جـ١ ، ص٤٥٠، ٤٥١.

(١٢) فشر: تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص٢٣٣.

(١٣) نفسه، ص٢٣٤.

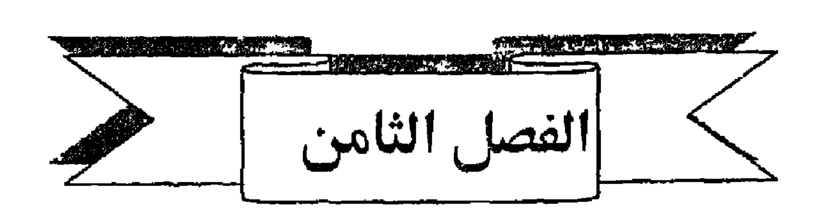
(١٤) نفسه، ص٢٣٤، ٢٣٥.

(١٥) نفسه، ص٢٣٥، ٢٣٦.

(١٦) جرانت، تمبرلى: المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٥٦.

(١٧) نفسه، جـ١ ، ص٤٥٦، ٤٥٧.

(١٨) جرانت، تمبرلى: المرجع السابق، ص٤٥٦- ٤٥٨.



﴿الوحدة الألمانية﴾

أولاً : طبيعة الوحدة الألمانية

ثانياً : ظهور بسمارك وأهدافه

ثالثاً : قضية شلزويج وهلشتاين

رابعاً : الحرب النمساوية البروسية

خامساً : الحرب الفرنسية البروسية

سادساً : معاهدة فرانكفورت

الوحدة الألمانية

أولاً: طبيعة الوحدة الألمانية

قلنا حين تحدثنا عن الوحدة الإيطالية إن مؤتمر فيينا قد سادته روح مترنيخ الاستبدادية الرجعية وبنفس هذه الروح عالج المشكلة الألمانية وبشكل أبعد ما يكون عن روح العدالة والحرية. إذ فرض هذا المؤتمر حين عرضت أمامه هذه المشكلة إنشاء اتحاد جرمانى تشترك فيه جميع الدول الألمانية أو المقاطعات الألمانية الخاضعة لحكومات غير جرمانية. وقد ضم هذا الاتحاد الإمبراطورية النمساوية أيضًا وتم ذلك بفضل مساعى مترنيخ الذى شاء أن يضع الاتحاد الجديد تحت سيطرة النمسا ليقضى على كل محاولة لجعل بروسيا تتزعم الاتحاد الألمانى. وإعترف مؤتمر فيينا بأن رئيس الاتحاد الدائم هو إمبراطور النمسا. أما أهم دول الاتحاد فكانت النمسا ثم بروسيا وبافاريا، وسكسونيا وورتسبرج وقد تم الاتفاق على أن ينشأ مجلس للاتحاد تمثل فيه جميع الدول ويدعى (دايت) وكان مركزه الدائم فى مدينة فرانكفورت. أما مهمة هذا المجلس فكانت البت فى الخلافات التى قد تنشأ بين دول الاتحاد وتقرير الأمور التى تهم الجميع[1].

ولكن الواقع أن هذا الاتحاد كان عديم الفعالية ضعيف النفوذ. ذلك أن إحدى مواد دستوره كانت تفرض الإجماع لتقرير الأمور المهمة. وبذا يمكن اعتباره عاجزًا عن القيام بأى عمل مهما كان، إذ ليس من المعقول أن يحصل إجماع بين ٣٧ دولة على أمر ما بالنظر لما بينها من تباين فى النزعات والميول والمصالح؛ يضاف إلى ذلك قرارات الاتحاد لم يكن لها مفعول تنفيذى إذ أنها كانت تصدر بشكل توصيات لعدم وجود قوة منفذه. أما فى الواقع فإن القرارات كانت تتخذ صفة الإلزام إذا كانت النمسا وبروسيا تريدان ذلك نظرًا لما للدولتين من قوة ونفوذ لدى بقية الدول الألمانية. ولكن قلما حصل اتفاق بين الدولتين

المذكورتين على أمر من الأمور. إذ أن النظرة الأساسية لكل منهما إلى الاتحاد كانت مختلفة.

فالنمسا كانت تريد المحافظة على الاتحاد بأى ثمن لأسباب كثيرة فهو أولاً يؤمن لها السيطرة والزعامة على العالم الجرمانى. ثم أن بقاء الاتحاد يلزم بروسيا ولو بصورة ضئيلة وشكلية بتغيير سياستها، ويضاف إلى ذلك أن النمسا كانت ترى فى بقاء الاتحاد بشكله الحاضر حاجزًا أمام تزعم بروسيا للعالم الجرمانى وتفردها بتحقيق الوحدة الألمانية التى كانت أشد ما تخشاه النمسا، أما فيما يتعلق ببروسيا فإنها كانت ترغب فى تحطيم ذلك القيد الذى طوقها به مؤتمر فيينا والانطلاق فى سياسة قومية مستقلة. كما كانت ترى بقاء الاتحاد للسيطرة النمساوية على الوطن الألمانى وبالتالى بقاء بروسيا رغم قوتها[٢].

يضاف إلى هذه الأمور التى تفرق بين بروسيا والنمسا قضية أساسية مهمة. وهى أن بروسيا كانت ترى نفسها أكبر وأقوى دول ألمانيا ولذا فإنها كانت تشعر بالتزامات تجاه القضية الألمانية إذ كانت تشعر بأن عليها وحدها يقع عبء تحقيق الوحدة. أما النمسا فإنها بالعكس من ذلك كانت تعى أن قيام الوحدة الألمانية يهدد الإمبراطورية النمساوية بشكل جذرى. ذلك أن الوحدة تعنى قيام دولة ألمانية تضم تحت لوائها ٢٠٪ من سكان النمسا ذوى الأصل الجرمانى. وهذا يعنى إثارة بقية الشعوب النمساوية التى كانت تطالب بسيادتها واستقلالها.

لكل هذه الأسباب السالفة الذكر مع خطر زوال الزعامة النمساوية فى أوروبا الوسطى إذا ما قامت فيها دولة ألمانية فتية قوية جعل النمسا لا تريد سماع فكرة الوحدة الألمانية وكان من المنتظر نجاح المساعى النمساوية لولا أن الظروف أوجدت فى ذلك الوقت فى بروسيا رجلاً قويا يعرف ما يريد ويعرف كيف يصل إلى ما يريد وأعنى به بسمارك هذا الرجل الذى جعل الذى جعل

المساعى الرجعية النمساوية تبؤ بالفشل وسار بالشعب الألمانى بقوة وثبات نحو الوحدة التامة[٣].

ثانيًا: ظهور بسمارك وأهدافه.

ولد فى سنة ١٨١٥ فى براند بورج البروسية وكان ينتمى إلى عائلة بروسية عريقة فى أرستوقراطيتها، محافظة على التقاليد العسكرية وعى ولائها للعرش البروسى (تلقى دروسه فى برلين) ثم دخل العدلية وعمل فيها فترة وجيزة، عاد بعدها إلى بلده ليمارس العمل فى أراضى عائلته الواسعة. وبقى كذلك حتى سنة ١٨٤٩ حين انتخبه سكان المقاطعة ممثلاً لهم فى المجلس النيابى حيث قام بواجبه خير قيام لما أوتى من موهبة خطابية وحجة قوية بليغة. ثم عين بعد ذلك ممثلاً لبلاده فى فرانكفورت أى فى مجلس الاتحاد. وكان صاحب شخصية قوية استبدادية لدرجة تجعله يكره الشعب ولا يؤمن بحقه فى الاشتراك بالحكم. هذه الصفات جعلت الملك يعينه بعد ذلك سفيرًا فى روسيا ثم فى باريس وقد بقى فى فرنسا حتى سنة ١٨٦٢ حين ترأس الوزارة البروسية.

ففى هذه السنة نشب خلاف بين الملك والبرلمان سببه رفض النواب الموافقة على اعتمادات عسكرية كبيرة طلبها العرش. وقد تأزمت الحال لدرجة أن الملك وضع كتاب استقالته. ولكن بسمارك حال دون ذلك وأخذ على عاتقه تحقيق رغباته. وقد تمكن من تجاوز معارضة المجلس وأخذ بعد ذلك ينظم الجيش والإدارة بما يكفل له تنفيذ أهدافه وغاياته[٤].

وقد جاء بسمارك إلى الحكم وهو يحمل برنامجاً واسعًا يسعى لتحقيقه بطريقة مدروسة علمية. كان يرى أن هدف كل حكومة بروسية يجب أن يكون تحقيق الوحدة الألمانية إذا أنه كان يعتقد كما سبق القول أن زعامة بروسيا فى ألمانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة. وإذا لم تقم بروسيا بذلك فإن هذا يعنى أن الوحدة لن تتحقق، وكان بسمارك يرى أنه يوجد هنالك خصمان للوحدة

يجب قهرهما هما النمسا وفرنسا. ولذا فإنه أخذ يعد بروسيا لخوض حربين متتابعين ضد النمسا والثانية ضد فرنسا[٥].

ثالثًا: قضية شلزويج وهلشتاين

مات فردريك السابع، ملك الدانمارك في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٣، وترك من ورائه عرش دوقيتي شلزويج وهلشتين تحيط به المشاكل من كل ناحية، وتهدده الأخطار السياسية التي يمكن أن تتمخض عن حرب يتسع مجالها. كانت مساحة الدانمارك عقب تسوية فيينا في ١٨١٥ واسعة تمتد حتى ضواحي همبورج **Hamburg** ويكفي أن نعرف أن مدينة "التونا **Altona**" إحدى مدن تلك الضواحي — كانت دانماركية، وبذلك كان سلطان ملك الدانمارك يغطي ثلاثة أقاليم مختلفة :–

١– الجزء الشمالي من شبه جزيرة "جتلند **Jutland** (الدانمارك) وسكانه من الدنماركيين.

٢– الجزء الجنوبي الأقصى من جتلند الممتد من نهر الألب إلى جدول "إيدر **Eider**" وتقع فيه هلشتين وسكانها من الألمان، وبها ثغر من أهم ثغور بحر البلطيق وهو ثغر "كييل **Kiel** ".

٣– دوقية "شلزويج" ويتوسط موقعها بين الإقليمين السابقين وسكانها خليط من الألمان والدانماركيين.

كانت إحدى الدوقتين وهي هلشتين عضوًا في الاتحاد الألماني، وبذلك أصبح ملك الدانمارك عضوًا في هذا الاتحاد، بينما كانت دوقية شلزويج خارج هذا الاتحاد. وعلى الرغم من هذا كان مواطني الدوقيتين يعتبرونها في وحدة تامة. وكانت قوانين الوراثة في الجزء الشمالي (الدانمارك) تختلف عما كان يناظرها في الدوقتين، ففي الدانمارك كان للنساء الحق في تولي العرش على حين لم يكن ذلك ممكنًا في الدوقتين. ومن هنا تبدأ المشاكل ففردريك السابع ملك الدانمارك لم يترك من السلف من يخلفه على العرش، وبات عرشه وعرش

الدوقيتين مصدرًا للمشاكل. وبات الألمان يتطلعون إلى استقلالهما بالانفصال عن الدانمارك، وتولية "دوق" اجستنبرج على عرش الدوقيتين. وقد ثار الألمان فى الدوقتين عام ١٨٤٨ على الحكم الدانماركى، وأيدهم فى ذلك متطوعون من الألمان كما أيدهم ملك بروسيا بعض الوقت. وتولى دوق "اجستنبرج" عرش الدوقيتين غير أنه لم يلبث فى الحكم طويلاً، بل اضطر إلى التنازل عن العرش والفرار منهما حين تخلى عنه تأييد ملك بروسيا[٦].

وهنا تتدخل دول أوروبا التى يهمها الأمر ويلتقى ممثلوها فى لندن ويقررون بقاء الدوقيتين مع الدانمارك في وحدة حكومية تامة، ويقر الاتفاق كل من النمسا وبروسيا. ويمتنع الاتحاد الألمانى عن التوقيع عليها. ويسعى دوق اجستنبرج إلى ملك الدانمارك فيتعهد له بانسحابه من الأمر وعدم التدخل فى شئون الدوقيتين. ولم يلتفت بسمارك إلى رغبة الألمان فى الدوقيتين حين أرادوا التخلص من الدانمارك والحصول على الاستقلال التام، ذلك لأنه كان مشغولاً بتوسيع رقعة بروسيا فطمع فى ضم الدوقيتين إليها، ولم يكن ذلك مشروعًا أو ممكنًا إلا عن طريق الحرب. وقد سنحت هذه الفرصة عند موت ملك الدانمارك فردريك السابع فى عام ١٨٦٣[٧].

ويظهر فى الأفق السياسى شبح جديد وهو ابن دوق اجستنبرج فيطالب بعرش الدوقيتين، ويتهلل لذلك سكان الدوقيتين ويرحبون بتوليه دوق اجستنبرج عليهما. ولم يكن يجول بخاطره يومئذ أن يضمهما إلى أملاكه على حين كان بسمارك يخفى عنه رغبته فى ضمهما. ولا غرابة فى ذلك، فهكذا كان بسمارك يرى دائمًا من المصلحة أن يخفى نواياه السياسية، وخاصة عندما يرى أن كشفها قد يعرقل تحقيق أمانيه. وقد قصد من كتم نواياه نحو الدوقيتين المذكورتين خشية أن يعلن ذلك ولى عهد بروسيا الذى كان صديقًا للمطالب بعرشهما، ونعنى دوق اجستنبرج[٨].

وتقول زينب راشد ولو استطعنا أن نكشف الغطاء عما كان يقف فى سبيل ضم هاتين الدوقيتين لبروسيا لتبين لنا مقدار ما كان لبسمارك من مواهب سياسية وعزيمة جبارة تتضاءل أمامها الصعاب والعقبات، فإنجلترا كانت شديدة الحرص على مصالحها فى بحر البطليق، وكانت من أجل ذلك تقف إلى جانب الدانمارك، وكان رئيس وزرائها بالمرستون شديد الحرص على معاهدة لندن فى عام ١٨٥٢، فأخذ رئيس وزرائها يحاول إشراك الإمبراطور نابليون الثالث فى المحافظة على معاهدة لندن ولكن أمر ذلك لم يكن بالهين اليسير، فنابليون الثالث لم يكن قد نسى بعد موقف إنجلترا منه حين دعا إلى مؤتمر للاتفاق على تأييد ثورة البولنديين فى عام ١٨٦٣. كما أن نابليون كان يعتبر نفسه من أنصار الحرية، وحماة الديمقراطية. وكان يرى من أجل ذلك أن يضم شلزويج إلى الدانمارك نظرًا لأن غالبية سكانها من الدانماركيين، وأن تترك هلشتين للألمان, وكان بسمارك قد أوهمه برغبته فى ضم شمال شلزويج للدانمارك[٩].

ومن العقبات التى كانت تقوم فى سبيله يومئذ الدايت الألمانى الذى كان يرى أن الواجب يقتضى احتلال دوقية هلشتين عسكريًا بعد أن يقر اجستنبرج على عرشها. وخشى بسمارك عواقب ذلك فأخذ يفكر فى القضاء عليه قبل أن يولد؛ ورأى أن أمر ذلك لن يتم له دون الاستعانة بالنمسا، ففعل وهنا أخطأت النمسا فى قبول من عرض عليها، فهو فى الواقع قد قرر بها حين أوهمه برغبته فى فصل الدوقيتين عن الدانمارك وتوحيدها تحت إمارة دوق اوجستنبرج. وهكذا تم له ما أرد من إحباط مشروع الدايت الألمانى.

وينجح بسمارك فى خديعة النمسا والتغرير بها فتشاركه بجيوشها فى الهجوم على الدانمارك وتتقدم جيوش الدولتين بروسيا والنمسا. فتعبر حدود شلزويج ويقاوم الدانماركيون بعد أن خدعهم بسمارك فأشاع بين صفوفهم أن إنجلترا ستعاونهم تنفيذًا لقرارات معاهدة لندن عام ١٨٥٣، وكان بسمارك يريد

أن يظهر المهتمين بالأمر على أنه لم يأخذ هذه الأقاليم إلا بجهود الجيوش المشتركة النمساوية البروسية وعندما ارتفع صوت إنجلترا احتجاجًا بمذكرة معاهدة لندن سنة ١٨٥٣ ووجوب احترامها، طالبت الدولتان المحاربتان بانفصال الدوقيتين عن الدانمارك وتوحيدهما تحت إدارة دوق أوجستنبرج ولم يكن بسمارك مخلصًا في مطالبه هذه وإنما اقتضاه الموقف أن يشارك النمسا في هذه الرغبة[١٠].

ولما كانت إنجلترا غير مستعدة للحرب فإنها لم تجرؤ على التدخل؛ فنظر ملك الدانمارك فلم يجد إلى جانبه أحد فاسقط في يده، ولم ير أمامه غير التنازل عن الدوقيتين لإمبراطور النمسا وملك بروسيا. رضيت الدولتان بذلك على أن يكون حكم الدوقيتين شركة بينهما. ولكن ظهر أن النمسا لم تكن راغبة في الحكم المباشر فاقترحت على بروسيا أن يترك الحكم لدوق اوجستنبرج. ولم يقبل بسمارك ما عرضته النمسا فتحرج الموقف بين الدولتين وازداد تحرجًا بعد أن احتل بسمارك ثغر كييل Kiel وجعله من ثغور بروسيا. وأعلن فون رون على أعضاء البرلمان البروسي أن بروسيا لن تتنازل عن هذا الثغر بحال من الأحوال. وطلب إلى النمسا أن توافق على ما يراه حرمان دوق اجستنبرج من حكم الدوقيتين فلما رفضت اشتد لومه عليها متهما إياها بمخالفة ما اتفقا عليه.

ويتأزم الموقف بين النمسا وبروسيا، فتتوالى المساعي، وتستمر المفاوضات، ثم تنتهي بعقد اتفاقية "جاشتين" Gastein في ٤ أغسطس من عام ١٨٦٥، وبمقتضاها ينتهي أمر الحكم المشترك، فيؤول حكم هلشتين للنمسا وحكم شلزويج لبروسيا، وابتاع ملك بروسيا من إمبراطورية النمسا الدوقية الصغيرة المعروفة بلونبرج كما تم الاتفاق بين الدولتين على أن تتولى بروسيا الإشراف على قلاع "كييل"، وقوبلت هذه الاتفاقية بسخط من إنجلترا والولايات الألمانية إذ وجدت في ذلك خرقًا لمعاهدة لندن التي كانت تقضي بعدم الفصل بين الدوقيتين.

بـدأ بسمارك يمهد لتحقيق مطامعه بالاتصال بفرنسا ليضمن حيادها إذا ما اشتعلت الحرب بينه وبين النمسا، فأفهم القائم بالأعمال الفرنسى فى برلين "لوفيفر" أن بروسيا لا تستطيع تحقيق مآربها من النمسا إلا إذا وقفت فرنسا إلى جانـبها ووعـده أن تم ذلـك أن يـضمن لفرنـسا الـسيطرة على البقاع التى يتكلم أهلها اللغة الفرنسية وفى مقدمتها بلجيكا التى كان نابليون يتطلع إليها ويطمع فى السيطرة عليها. وزاد على ذلك أن الإمبراطور يستطيع أن يوسع أملاكه على حساب بعض الولايات الألمانية[11].

ولم يكن نابليون الثالث يومئذ يرى مانعًا من أن تضم بروسيا الدوقيتين إلى أملاكهـا، بل كان من رأيه أن تلك القضية عادلة، ويرى أن خلق اتحاد من ولايات ألمانيا الشمالية تحت زعامة بروسيا من شأنه أن يجعل اعتماد الولايات الجنوبـية فـى ألمانـيا علـيه أمـرًا يكـاد يكون محتومًا؛ فتمكن بذلك من توسيع الـنفوذ الفرنـسى فـى هـذه المنطقة. وخـال نابليون كذلك أن وقوع الحرب بين النمـسا وبروسـيا قـد يمكـنه مـن توسـيع أملاكه على حدود فرنسا الشرقية كما وسعها بضم نيس وسافوى فى عام ١٨٦٠. وتوقع نابليون كذلك — إذا ما وقعت الحرب وانتصرت فيها بروسيا — أن ترد البندقية إلى إيطاليا.

ولـما اطمأن نابليون إلى وعود بسمارك خطر له أن يستجيب فى لقاء يتم بيـنهما. وتـم ذلـك فـى بيارتـز **Biartiz** فـى نـهايـة سـبتمبر عام ١٨٦٥. وكان الغرض من هذا اللقاء أن يؤكد الإمبراطور لبسمارك وعده فى الحياد إذا ما قامت الحـرب بـين بروسـيا والنمـسا. وقـد وجـد بسمارك فى هذا اللقاء استعدادًا من جانـب الإمـبراطور الـذى كان مركزه قد تحرّج فى فرنسا من فشل الحملة على المكسيك ورأى بسمارك أن يرضيه بوعد شفوى مؤداه المعاونة على توسيع رقعة فرنسا[12].

واصـل بـسمارك مـساعيه فـيعلن فى مجلس الوزراء البروسى تاريخ ٢٨ فبرايـر ١٨٦٦ أن الحـرب بـين بروسيا والنمسا واقعة لا محالة وأن بروسيا فى

حاجـة إلى محالفـة إيطاليا. ونجح بسمارك فى توقيع المحالفة فى ٨ أبريل من نفـس العـام؛ وفـيها تعهدت إيطاليا بأن تنضم إلى بروسيا إذا ما وقعت الحرب بيـنها وبـين النمـسا بـشرط ألا تتأخـر بروسـيا فى إعلان الحرب بل عليها أن تعلنها فى مدى لا يجاوز ثلاثة أشهر واشترطت إيطاليا إذا ما تم انتصار بروسيا علـى النمـسا أن تحـصل علـى البندقـية. ونجح بسمارك باتفاقه مع إيطاليا أنه سوف يشغل النمسا إذا ما قامت الحرب فى جبهتين، إحداهما فى الشمال أمام بروسـيا والأخـرى فـى الجنوب أمام إيطاليا - واستطاع بذلك وبعد نجاحه فى محالفـة كـل من فرنسا وإيطاليا - أن يفرغ للاستعداد للحرب فأتم مد الخطوط الحديدية فى بروسيا وأتم إعداد الجيش البروسى للحرب[١٣].

أمـا روسـيا فـنجد مـنذ أن تـسلم بـسمارك زمـام الأمور فى بروسيا بنى سياسـته الخارجية على أساس قيام محور بروسيا - روسيا إذ أنه اعتبر روسيا دائمًـا حليفـته الطبيعـية وذلـك لأسـباب مهمة جدًا، إذ أن روسيا ليس لها أى مطامع فى أوروبا الوسطى تتنافى ومصالح بروسيا فالمصالح الروسية موجودة فى الـبلقان والـشرق حـيث ليس لبروسيا أى مطامع. وهذا الواقع جعل قيام صداقة بروسية روسية أمرًا طبيعيًا بعد أن اتضح عدم تعارض المصالح وعلى هذا الأساس تعاونـت الدولـتان فـى أوروبـا طالمـا أن بسمارك كان يحكم فى بروسيا. وعندما عرضـت الحـرب النمـساوية البروسـية وجـدت روسـيا نفـسها مـسبوقة لتأيـيد بروسيا[١٤].

وفـى لـيل ١٤ - ١٥ يونـيو ١٨٦٦ بـدأت المعارك بين بروسيا والنمسا بعد أن أعلن وفد بروسيا اعتبار الاتحاد لاغيًا وانسحب من المجلس.

وعـندما بـدأت الحـرب أرسلت النمسا جيشًا مؤلفًا من ٢٣٠ ألفا لمقابلة الجيوش البروسية وأرسلت جيشًا مؤلفا من ١٤٠ ألفا ليرابط فى الجنوب بانتظار الجـيوش الإيطالـية. وفـى ٣ يولـيو وقعـت بـين الجيـشين النمساوى والبروسى معركة فاصلة هى معركة سادوا Sadowa سحق فيها الجيش النمساوى على يد

بروسيا وقد تم النصر قبل أن تتمكن الدول الألمانية من مساعدتها. وفى نفس الوقت كان الإيطاليون قد بدأوا زحفهم من الجنوب فوقعت بينهم وبين النمسا معركة كوستوزا Gaustozza التى هزم فيها الإيطاليون رغم تفوقهم فى العدد، وقد كان لمعركة سادوا دوى هائل فى أوروبا لأنها أثبتت فى نظر الأوروبيين عظمة الجيش البروسى وحسن تنظيمه وتدريبه كما أثبتت أن بروسيا قد أصبحت دولة كبرى يجب أن يحسب لها فى ميزان القوى فى أوروبا. وقد كان أثر هذه المعركة أقوى ما يكون فى فرنسا. فقد أدرك الجميع أن النصر البروسى تهديد مباشر للسلامة الفرنسية وأن الموقف الذى اتخذته حكومة الإمبراطورية الفرنسية قبل الحرب والذى اتسم بالحياد إن لم يكن بالتأييد الفعلى لموقف بروسيا كان بمثابة خطأ شنيع. وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا نفسها مجبرة على القيام بدور الوسيط بين الطرفين وقد قامت بدور الوساطة هذا بناء على طلب النمسا. وبصورة خاصة لكى تمنع بروسيا من قطف ثمار انتصاراتها العسكرية بشكل كامل. قبلت بروسيا ذلك على مضض ولكى يكون لهذه الوساطة فعاليتها كان يجب أن تقترن بعمل أو باستعداد عسكرى كما يريد وزير الخارجية الفرنسي. وخوف نابليون وتردده وعجزه، كل ذلك جعل الوساطة سلمية مما أفسدها وجعلها عديمة الجدوى والفعالية.

وأخيرًا تم الاتفاق فى مجلس الوزراء الفرنسى على عرض الشروط التالية :-

١- المحافظة على سلامة الأراضى النمساوية عدا البندقية.

٢- حل الاتحاد الجرمانى الذى كانت تتمسك به النمسا.

٣- الاعتراف لبروسيا بحق إنشاء اتحاد شمال الراين.

٤- الدول الواقعة جنوبى النهر تشكل اتحادًا تحت النفوذ الفرنسى.

٥- إعطاء الدوقيتين لبروسيا[١٥].

وقد قبل بسمارك بهذه الشروط لأنه كان لا يريد إذلال النمسا بينما كان الملك والعسكرين يودون تحقيق الاتحاد والتوسع على حساب المناطق النمساوية. ولكن بسمارك تمكن من إقناعهم. ذلك أن سياسة بسمارك كانت تهدف لتحقيق الوحدة الألمانية وليس إذلال النمسا والقضاء عليها. وأخيرًا تم الصلح على هذا الأساس سنة ١٨٦٧ بين النمسا وبروسيا، وفى ١٢ أغسطس عقدت إيطاليا معاهدة الصلح مع النمسا، على أساس أن تتنازل هذه لفرنسا عن البندقية وتهديها بدورها لإيطاليا.

وبموجب هذه المعاهدات تكون ألمانيا قد خطت خطوات واسعة نحو الاتحاد إذ أصبحت مقسمة إلى ثلاثة مناطق. اتحاد الراين وتتزعمه بروسيا، اتحاد جنوبى الراين حيث كان للنفوذ الفرنسى أثر لا بأس به وأخيرًا قسم تسيطر عليه النمسا. وهكذا تمكن بسمارك من أن يجعل مقاومة النمسا للوحدة عديم الجدوى كما أنه سار شوطًا بعيدًا فى طريق الوحدة بأن أزال الاتحاد الجرمانى من عالم الوجود[١٦].

أما الأثر فى فرنسا لقد شعر الفرنسيون منذ أيام معركة سادوا أن الخطر بات يهددهم بشكل قوى وأدركوا أن كل نصر تحرزه بروسيا يعتبر بحق ضربة قوية توجه إلى فرنسا، ومما زاد فى نقمة الفرنسيين أنه كان بإمكان نابليون أن يساوم عندما قام بوساطته فيحقق لفرنسا بذلك بعض الأرباح ولكنه اكتفى بأن أخذ البندقية ليهديها لإيطاليا. وتجاه ثورة الرأى العام الفرنسى رأى نابليون الثالث نفسه مجبرًا على إحراز بعض المكاسب للفرنسيين ولكنه نسى أن الوقت قد فاته وأن بروسيا التى صفت خلافاتها مع النمسا قد أصبحت فى وضع يمكنها من رفض كل مطلب جديد يتقدم به الفرنسيون[١٧].

وبالنسبة لسياسة بسمارك حيال فرنسا لاحظنا منذ البداية أن فرنسا كانت تخاف الوحدة الألمانية إلى حد كبير وأنها ترى أن وجود دولة ألمانية على حدودها الشمالية يهدد سلامة الأراضى الفرنسية. وقد كان بسمارك يدرك هذه

الحقيقة فوضع خطته على أساس قهر النمسا أولاً ثم فرنسا ثانيًا كمقدمة للوحدة الألمانية. لذا فإنه ما أن انتهى من الصراع مع النمسا حتى أخذ يستعد لمواجهة فرنسا ولكنه من جهة أخرى كان يهمه أن تكون فرنسا هى المعتدية فى كل حرب مع ألمانيا. وقد ظل بسمارك يسعى لذلك حتى تهيأت له الفرصة سنة ١٨٧٠[١٨].

وبعد انتهاء الحرب بين النمسا وبروسيا شعر نابليون الثالث بأن الفرصة قد فاتته إذ كان بإمكانه أن يفرض ما يشاء من مكاسب لمصلحة فرنسا حين قام بوساطته بين الدولتين. أراد أن يعوض عما فاته فأخذ يطالب بروسيا ببعض التعويضات الإقليمية. طلب أولاً بعض الأراضى الألمانية على الراين. ولكن بسمارك رفض ذلك بحجة أنه لا يملك حق التصرف فى الأراضى الألمانية ثم عاد نابليون وطالب ببلجيكا ولوكسمبرج. فقبل بذلك مبدئيًا ولكنه أطلع إنجلترا من طرف خفى على نوايا نابليون مما أحرج موقف فرنسا ثم عاد نابليون بطالب للمرة الثالثة بلوكسمبرج فقط ولكن بسمارك رفض ذلك أيضًا فلجأت فرنسا إلى احتلال لوكسمبرج مما جعل الوضع يتأزم فى أوروبا. عند ذلك عقد مؤتمر فى لندن سنة ١٨٦٧ تقرر فى أثنائه أن تكون هذه الدولة منطقة حياد بين بروسيا وفرنسا[١٩].

وهكذا يفشل نابليون الثالث فى جميع المحاولات التى قام بها للحصول على بعض المكاسب فى أوروبا مما جعله يحقد على بروسيا ويصمم على محاربتها. ومما زاد فى تأزم الأوضاع أن بسمارك لم يكتف بما حققه من مكاسب عقب الحرب النمساوية البروسية بل عقد سنة ١٨٦٧ معاهدات تحالف بين اتحاد ألمانيا الشمالية وبين بعض دويلات ألمانيا الجنوبية ويعد ذلك دليلاً على تصميم بسمارك على تحقيق الوحدة الألمانية رغم معارضة فرنسا لذلك[٢٠].

وهكذا أخذ يتضح شيئًا فشيئًا أن الحرب بين بروسيا وفرنسا واقعة لا محالة إذ أن بسمارك لن يتراجع عن تحقيق الوحدة وفرنسا لن تسمح بذلك

إطلاقا. ومما زاد فى حراجة الموقف أن السياسة الداخلية التى كان يتبعها نابليون الثالث أثبتت فشلها إلى حد كبير مما جعله يبحث عن انتصارات عسكرية أو سياسية يقوى بها أركان حكمة المتحرج ويشغل الفرنسيين عن الاهتمام بمشاكل فرنسا الداخلية وأوضاعها المتردية اقتصاديًا وماليًا واجتماعيًا[٢١].

أما بالنسبة للموقف الدولى حتى سنة ١٨٧٠ منذ أن شعر الفريقان فى سنة ١٨٦٧ أن الحرب واقعة لا محالة أخذ كل منهما يعمل على تهيئة وضع ملائم له فى أوروبا؛ ففرنسا أخذت تبحث عن حلفاء لها ضد بروسيا وذلك لعلمها بأن الجيش البروسى قوى وربما عجزت عن قهره بمفردها أما بروسيا فكانت واثقة من قوة جيشها وقدرته على سحق فرنسا فأخذت تسعى لعرقلة الجهود الفرنسية فى أوروبا ولضمان حياد دولها الكبرى وهنا سنعرض باختصار موقف كل من هذه الدول.

من المعلوم أنه فى سنة ١٨٦٧ كان وجه النمسا تبدل ذلك أن المجر كانت قد نالت استقلالاً ذاتيًا. وهذا يعنى أن النمسا لم تعد وحدها تقرر سياسة الدولة ومصيرها بل يشاركها فى ذلك المجريون، ثم أن النمسا بعد هزيمتها أمام بروسيا سنة ١٨٦٦ غيرت سياستها وجعلت اهتمامها ينحصر فى الشؤون البلقانية وشؤون المتوسط وبذا أصبح خصمها الرئيسى الروسيا وليس بروسيا. وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا أنه لا يمكنها الاعتماد إلى حد كبير على النمسا التى لم تعد تهتم بالشؤون الألمانية. ورغم العروض الكثيرة والمتكررة ورغم الأمانى السخية التى عرضها نابليون على النمسا مقابل عقد تحالف مع فرنسا ضد بروسيا فإن نابليون لم يحصل على أى نتيجة إيجابية من قبل الحكومة النمساوية[٢٢].

ولم تكن روسيا تشعر بأى خطر من جراء قيام الوحدة الألمانية بل على العكس كانت روسيا على استعداد دومًا لتأييد بروسيا ذلك أن روسيا كانت

تهتم بقضايا البلقان من جهة وبمراقبة الوضع فى بولونيا من جهة أخرى مخافة تجدد الثورة التى قامت سنة ١٨٦٣. وكانت روسيا تحرص على صداقة بروسيا لبقاء استقرار الوضع في بولونيا[٢٣].

وكان الحكم فى الوقت فى إنجلترا بيد الأحرار الذين كانوا منصرفين إلى معالجة شؤون الإمبراطورية الداخلية. أميركا، كندا؛ الحدود الهندية — الروسية؛ الشؤون الانتخابية، كل هذا صرف إنجلترا عما يجرى فى أوروبا ولكنها رغم ذلك ظلت تتمسك إلى حد كبير ببقاء التوازن الدولى فى أوروبا على حاله.

ولهذه الأسباب لم يحصل أن تحالف بين إنجلترا وفرنسا. وهكذا انقضت السنوات الثلاثة السابقة للحرب فى تسابق بين فرنسا وبروسيا على كسب ود الدول الكبرى وقد جاء عام ١٨٧٠ دون أن تحصل فرنسا على حليف قوى يساعدها في حربها ضد بروسيا. بينما كان بسمارك قد ضمن صداقة روسيا وحياد إنجلترا والنمسا. وعند ذلك بدأ يدفع فرنسا لكى تعلن الحرب ذلك أنه كان لا يريد أن يظهر فى أوروبا بمظهر الرجل المعتدى[٢٤].

خامساً: الحرب الفرنسية البروسية

نما إلى باريس فى ٣ يوليو سنة ١٨٧٠ أن الأمير ليوبولد من أمراء بيت هوهنزلرن سيجمارنجن Hohenzollern Sigmaringin ، وهو قريب لملك بروسيا، وابن الأمير انطونى الذى شغل من قبل منصب كبير وزراء بروسيا، وأخو الأمير شارل الذى انتخب سنة ١٨٦٦ أميرًا على رومانيا — نما إلى باريس أن هذا قبل عرش أسبانيا الشاغر. فنشأ فى الحال موقف من التوتر الدبلوماسى بالغ الخطورة. ذلك أن ترشيح الأمير الهوهنزلرني كان قد عُرض على بساط البحث بشكل سرى فى برلين سنة ١٨٦٩. وأحيط البروسيون وقتئذ علمًا باعتراض الفرنسيين على ترشيحه، فقد عده الأخيرون جزءًا من خطة تنطوى

على تهديد بلادهم بخطر عودة إمبراطورية شارل الخامس، وقلب التوازن الدولى الأوروبى فى غير مصلحتهم[٢٥].

فما الذى دعا إلى تجدد هذا الترشيح المبغوض فى يوليو سنة ١٨٧٠؟ إن الحكومة الفرنسية انتهى رأيها الفور إلى أن بسمارك يهدف إلى إذلال الأمة الفرنسية. ورأت أنه إذا لم يسحب الترشيح قبل انعقاد الكورتس الأسبانى فى ٢٠ يوليو. فإن فرنسا ستكره على إشهار الحرب على بروسيا. وأخبر الدوق دى جرامون **Duc de Grammont** وزير الخارجية الفرنسي مجلس النواب فى ٦ يوليو بأن هذه الأمر يمس شرف بلاده ومصالحها.

ولكن وسط هذا الفوران العام الفرنسى غير رسمية إلى باريس بأن الأمير أنطونى هوهنزلرن أمكن استمالته إلى أن يعلن باسم ابنه نزوله عن ترشحه للعرش الأسبانى. فكانت دهشة باريس عظيمة، وروح الفرح والغبطة فيها أعظم، وبدا كأن الخطر قد أبعد، وأن تصريحات فرنسا قد أتت ثمارها. وأعرب الإمبراطور عن ارتياحه. فلم يكن هذا ينطوى، لا على صون السلم فحسب، بل على صون السلم مع الشرف؟ وأكد جيزو الوزير السابق العجوز أنه لا يذكر نصرًا دبلوماسيًا أحرزته فرنسا أعظم من هذا النصر.

غير أن ذلك لم يدم طويلاً، فقد راح ضحية عمل دبلوماسى طائش يدل على الحمق والرعونة. فإن جرامون، وهو دبلوماسي محترف، كان أكثر الوزراء ميلاً إلى الحرب والأخذ بأساليب الشدة — فلم يكتف بأن يعلن "الأب أنطونى" تخلى ابنه عن الترشيح، بل رأى ضرورة الحصول على تأكيد صريح من ملك بروسيا بتصديقه على هذا التخلى، وتعهده بعدم تجدد هذا الترشيح قط فى المستقبل. بل إنه ذهب حتى إلى المدى البعيد، بأن يقترح على السفير البروسي بباريس أنه يجدر بمليكه أن يعرب عن أسفه على حدوث هذا الترشيح إطلاقًا.

ومن سوء الطالع، لم ينفرد جرامون بهذا الطيش وتلك الحماقة، فهناك من وقف فى مجلس النواب الفرنسى — الذى كان قد أذكيت فيه لظى حمىَ

متأججه من التحمس والهوى فى الأيام القليلة السابقة — وطالب حكومته بضرورة حصولها على تأكيدات وافية. وانتقلت هذه الصرخة من المجلس إلى القصر الإمبراطورى، فجرفت أمامها تعقل الإمبراطور واعتداله، فانفذ هو ووزير خارجيته تعليمات فى ١٢ يوليو إلى بندتى سفيره برلين، بأن يقابل الملك وليم فى مدينة إمز Ems، ويحصل منه على تأكيد بأنه يشترك مع الأمير أنطونى فى تنازل الأمير ليوبولد، وأنه لن يقر البتة أية محاولة لتجديد إجلاس أمير من آل هوهنزلرن على أريكة العرش الأسبانى[٢٦].

ومع أن هذه المشكلة الأسبانية لم تعرض قط على الوزارة البروسية، إلا أن الفرنسيين كانوا على صوب فى حدسهم بأن بسمارك كان قطب الرحى فى هذه الأحبولة. وفى الواقع لم يترك بسمارك من الوسائل إلا طرقها، لكى يحبط المحادثات النمساوية الفرنسية بشأن تقرب الدولتين، وسعى إلى عقد تحالف بين بروسيا وأسبانيا يفتح الأسواق الأسبانية فى وجه التجارة البروسية، ويكفل لبلاده فى حالة نشوب حرب دولة صديقة عبر البرانس. ولهذه حض الأمير الهوهنزلرنى على قبول الترشيح، وحض الأسبان على تجديده وحض مليكه على أن ينظر إليه بعين الرضاء، وأن يتصرف فيه كأمر سرى للغاية. وبينما كان ينكر في دهاء معرفته رسميًا بهذه المسألة، سعى كى تبحث فى اجتماع خاص لمجلس الدولة حضره الملك والأمراء وأقطاب الحرب. وقد روعيت بشأن انعقاد هذه الاجتماع أشد ضروب الكتمان والتستر. وأمل بسمارك قبل أن يدرى أحد حتى الفرنسيون بأن عرضًا كهذا قُدم، فإن الأمير الألمانى يكون قد زكى مليكًا بصفة رسمية فى مدريد، وعليه فإن بسمارك رأى حدوث إحدى نتيجتين، كانت كلتاهما ملائمة لأغراضه، وهما: إما قيام حرب بين فرنسا وبروسيا، أو ما هو أقل ملاءمة لمقاصده، قيام حرب بين فرنسا وأسبانيا. ولهذا علم فى ١٢ يوليو، وقلبه يطفح خيبة أمل برفض "الأب أنطونى" هذا العرض الكبير إذ كان معناه انتصار الدبلوماسية الفرنسية، وعجز عن الاقتصاص من الصحافة

الباريسية وهو يصف هذا الموقف فى مذكراته "أفكار وذكريات" بأنه أكبر إذلال أصاب بلاده.

بيد أن جرامون خلصه من وجومه ومرارة نفسه. فإنه لما حظى بندتى بمقابلة ملك بروسيا فى صباح ١٣ يوليو وهو يتنزه فى شوارع إمز، قابله الملك الهرم مقابلة مجاملة، ولكنها حازمة أيضًا، إذ رفض إعطاءه أى وعد. ثم رجا السفير الفرنسى مرتين تحديد موعد لمقابلة أخرى مع الملك، غير أنه رفض استجابة طلبه. وأرسل الملك إلى بسمارك برقية يقول فيها، إنه وصله إخطار رسمى من الأمير ليوبولد بتنازله عن الترشيح، وأنه موافق على هذا التصرف. وأعرب لوزيره الأول عن رأيه بأن هذا سيؤدى إلى فض المشكل[٢٧]. وأخبره أن المقابلة التى جرت بينه وبين السفير الفرنسى – وكان كلاهما يتوق إلى تجنب بلاده الحرب – كانت تسودها المجاملة البالغة والشعور الطيب.

وتسلم بسمارك فى مساء ذلك اليوم البرقية الملكية التى تروى هذه الوقائع، بينما كان يتناول العشار مع ملكته رئيس هيئة أركان الحرب وروِن وزير الحربية. فأبصر هذه الاستراتيجى الأكبر فى لمح البصر بأن خصمه قد وقع فى الفخ. ذلك أنه رأى أن يصدر بيانًا إلى الصحف يضمنه فحوى البرقية، ولكن بعد أن يعمل فى نصها تغييرًا طفيفًا بحيث تبدو كأن السفير قد أهان الملك، وأن الملك أكره على أن يرد الإهانة إضعافًا. ولما قرأ بسمارك على القائدين الشهيرين النص المعدّل للبرقية، اغتبطا اغتباطًا كبيرًا. وقال ملتكه: "إنه تحد" وقال فون رون "إنه لشئ جميل" وكان بسمارك والقائدان على محجة الصواب، فإن برقية إمز هى التى أشعلت نار الحرب بين فرنسا وألمانيا.

ففى صباح ١٤ يوليو اندفع جرامون إلى مكتب ألفييه، وبيده نسخة من جريدة "شمال ألمانيا" حاوية نص بسمارك لبرقية إمز. فصاح الفييه "تالله إنهم يرمون إقحام الحرب علينا". ولقد كان ذلك اليوم فى باريس يوم عصيبًا حافلاً بالتردد وعدم الوصول إلى قرار حاسم. فقد أخذ النقاش فى مجلس الوزراء

الفرنسى الذى عقد ذلك اليوم يشير مرة إلى غلبة السلم، ثم يتحول تحولاً عاجلاً إلى ضرورة تجريد السيف. وانتهى المجلس إلى إعلان الحرب[٢٨].

وأظهرت باريس رأيها بشكل جلى، وقال الإمبراطور حينئذ "إنه حتى إذا لم يكن ثمة باعث لنا نستطيع أن نتقدم به لخوض غمار الحرب، فإننا مضطرون إلى الامتثال لمشيئة الشعب. بيد أن الشعب دل على جهله الكبير بحقائق الموقف فى هتافاته التى ملأت الشوارع: "إلى برلين، لتحيا الحرب"، وإذا كانت باريس قد استقبلت الحرب فى تهليل وتكبير، فقد قوبل إعلانها فى تردد وأسف فى إحدى وسبعين مديرية من مديريات فرنسا السبع والثمانين، فقد كانت فى نظر هذه المديريات حربًا لا ضرورة لها ولا معنى.

غير أن كل شئ حدث فى عجلة خارقة. فبينما أوروبا ترتع فى بحبوحة من السلام والطمأنينة، إذ بها فى أكثر من أسبوعين تنزلق إلى حرب مستطيرة شعواء، وفى أوج موسم الإجازات الصيفية، حولت الأسلاك البرقية والصحافة شجارًا لم يكن قط مرتقبًا إلى نهاية وبيلة، فقذفت بأمتين من أسمى أمم العالم مدنية فى جحيم حقد وحشى وكراهية شرسة، قبل أن تتمكن عوامل التعقل وأواصر الجوار من أن تسمع أصواتها السلمية. وعلا فوقها من كلا الجانبين صليل السيوف، وهدير المدافع[٢٩].

وطاشت جميع التكهنات هباءً فإن جيش فرنسا المنظم ذائع الصيت وصاحب والانتصارات الكبيرة، بدلاً من أن ينقل ساحة القتال إلى جنوب ألمانيا، حطِّم تحطيمًا فى شهر واحد. ولم تكن هذه النتيجة بعائدة إلى نقص فى مناقب الجندى الفرنسى الحربية، بل إلى الحقيقة بأن النظم الحربية الفرنسية كانت بالغة أقصى حدود القصور وضعف الكفاية، على حين أن الجيش الألمانى كان قد أكمل استعداداته الحربية الدقيقة، وكانت الأمة الألمانية أعظم أمة شهدها العالم حتى ذلك الحين نظامًا وترتيبًا.

ومن أبلغ الدروس التى يمكن استخراجها من هذه الحرب أن الجندى الألمانى عندما دعى إلى القتال، وجد أسلحته على أكمل وجه وكان على الجندى الفرنسى أن يسافر أحيانًا بطول فرنسا، بل كان عليه أحيانًا أن يعبر البحر إلى بلاد الجزائر لكى يصل إلى مستودع مهمات فرقته. فكانت النتيجة أنه على حين تم نقل الجيش الألمانى إلى الحدود بدقة ونظام مضبوط، سادت أشد ضروب الاختلال السكك الحديدية الفرنسية، بحيث كان الألمان على الحدود بقوة متفوقة قبل أن يستعد الفرنسيون لملاقاتهم. ولما كانت فرصة نابليون الوحيدة لحمل النمسا على الدخول فى هذه الحرب إلى جانبه هى إحرازه نصرًا باهرًا مبدئيًا، فقد أسفر العجز الكبير وعدم الكفاية الهائلة لنظام التعبئة الفرنسية، عن نتائج خطيرة كبيرة القدر[٣٠].

واختص الغزاة بميزة أخرى على خصمهم، هى أنهم كانوا قد درسوا هذه الحرب التى أزمعوا خوضها بإحكام عظيم، على ضوء آخر التطورات التى تمت فى التلغراف ومدفعية الميدان. وعلى حين أن الفرنسيين لم يجل فى خاطرهم البتة الاحتمال بأنهم قد يكرهون على الذود عن وطنهم، فإن الخطة البروسية لغزو فرنسا كانت قد وضعت منذ ثلاث سنين، فرسمت الطرق على الخرائط، وقدرت المقدرة النقلية للسكك الحديدية. ولم تترك هيئة الأركان العامة البروسية فى برلين شاردة أو واردة من التفاصيل الخاصة بتنظيم الجيش الفرنسى، وتسليحه، وتوزيع وحداته، دون أن تحيط بها علمًا. وكانت تضاف باستمرار إلى المعلومات العديدة التى جمعتها هيئة أركان الحرب البروسية معلومات جديدة، بواسطة سياج متحرك من الخيالة المراقبين الذين كانوا يتقدمون بتقدم الجيوش الألمانية الثلاثة فى فرنسا.

وربما ظن الناس أن مهارة المقاتل الألمانى قد أخمدت منه روح الابتكار بين ضباطه ولكن الواقع كان غير ذلك. فقد كان مبدأ مبادئ هيئة الأركان العامة الألمانية أن تشجع صغار القواد على الاضطلاع بالمسئولية، ولهذا بينما

كانت حركات الجيوش الفرنسية تعاق بخضوع قوادها الفائق لقيادة الجيش المركزية، لم يحدث – حسبما يبدو – أن قائدًا ألمانيًا تردد فى الزحف إلى حيث تقصف المدافع، أو فى قذف جنوده فى حومة الوغى، حيث يرى الحاجة ماسة إليهم. والحق أن روح الابتداع والابتكار الرائعة التى أظهرها أصاغر القواد الألمان هى من أبرز مظاهر تلك الحرب.

وفى الحروب يتوقف كل شئ على مقدرة الإدارات المدنية وقيادة الجيش العليا على العمل معًا، على بث الثقة فى النفوس، وتوجيه الأمة والجنود إلى مرام واضحة ثابتة مذكية للعزائم، ففى جميع هذه المسائل الجزئية كانت فرنسا فى مركز متعثر فى صيف عام ١٨٧٠. فلم يكن هناك أى نظام، أو حماس، أو همه؛ لا فى القيادة الحربية العليا، ولا تنظيم المدنيين. فقد كان نابليون مريضًا مهدمًا تمزقه الآلام المبرحة، وكان لى بيف **Le boeuf** وزير الحربية وبازين **Bazaine** خلفه فى القيادة العليا، على أكبر درجات العجز وقلة الكفاية[٣١].

وخلف هؤلاء قامت فى باريس حكومة مدنية شديدة الجزع والهلع تتزعمها الإمبراطورية الحسناء المكروهة. وأخذت هذه الحكومة تواجه غمرات من التمرد الشعبى تعلو وتصخب على جناح السرعة. وفى الجهة المقابلة لهذا المشهد من القصور الحربى والفوضى المدنية، وقفت أمه متحدة، وبيت مالك عريق الأصول، وثالوث هائل جبار يتألف من بسمارك، وفون رون وملتكه، يؤازره جيش من الضباط العسكريين والموظفين المدنيين دربوا فى خير مدرسة من مدارس الخدمة العامة الموجودة يومئذ فى أوروبا.

ويمكن إضافة وجه آخر لهذه الموازنة بين الدولتين، وهو أن الألمان كانوا يسيرون وفق نظام قصير الأجل للخدمة العسكرية. أما الفرنسيون فكانت مدى الخدمة العسكرية عندهم طويلة الأمد. فبينما النظام العسكرى البروسى يحدد عامين للخدمة فى الجيش العامل، وأربعة أعوام فى الاحتياطى، وخمسة أعوام ونصف عام فى الرديف، مما كان مقدرًا له يخرج جيش ميدان يتألف من خمسمائة ألف مقاتل، ورائهم العديد من الوحدات المدبرة، كان النظام الفرنسى

الذى يفرض خمسة أعوام للخدمة العسكرية ملائمًا إلى درجة ما للحملات الاستعمارية عبر البحار. ولكنه لم يكن يجدى فتيلاً فى الحروب الكبرى. ولو أن الجيش النظامى الألمانى هلك فى المراحل الأولى للحرب، لكان من الميسور تعويضه بجنود قضوا المدة الكاملة للتدريب فى الجيش العامل، أم الجيش الفرنسى فإنه حينما أبيد أو فرق شذر مذر، أكرهت البلاد على الاعتماد على جنود كانوا إلى أكبر حد غير مدربين. ولقد أحست فرنسا بهذه النقص الفادح أشد إحساس فى النصف الثانى من الحرب[٣٢].

وكان تاريخ الشطر الأخير من صيف سنة ١٨٧٠ مأساة كبرى لفرنسا. فإن الألمان جرفوا كل شئ بقوة هائلة لا تقاوم، فدحروا ماكماهون **Macmahon** فى فرت **Worth** وهزموا فروسار **Frossard** فى اسبيشرن **Spichern** . وبهذين الانتصارين: الواحد فى الألزاس والثانى فى اللورين، واللذين أحرزا كلاهما فى ٦ أغسطس — أى بعد يومين فقط من بلوغ الجيش الغازى الحدود — بهذين الانتصارين الألمانيين هبت عاصفة عاتية من الاستنكار الشديد، وعمت موجة طاغية من التشاؤم والهلع فى طول فرنسا وعرضها، حتى اضطر الإمبراطور إلى أن يتخلى عن منصب القيادة العليا، ويعين فيه بازين، وأقصى ألفيه من مسرح السياسة الفرنسية إقصاء أبديًا وحل محله فى ١٠ أغسطس ضابط كهل من ضباط الفرسان هو الكونت دى بالكاو **De Palikao** وضعت فيه الإمبراطورة القلقة المتخوفة فى عناد وإصرار آخر آمالها.

بيد أن جميع هذه التغييرات كانت بدون جدوى، فلم يكن بازين بالرجل الذى يوقف الهجوم البروسى الجارف. وكان ارتداده بطيئًا، إلى درجة أنه مكن الألمان من أن يلتفوا حوله، ويوقفوه عند مار لاتور **Mars la Tour** ، ثم يردوه بعد فوز دموى فى غرافلت **Gravelotte** فى ١٨ أغسطس. وتراجع بازين جنوبًا كى يحتمى بتحصينات معقل متز، حيث سمح لغريمه بأن يطوقه، حيث ظل دون أن يبذل أى جهد لاختراق خطوط الجيش المحاصر، وحيث استسلم أخيرًا للعدو فى ٢٧ أكتوبر، وأطلق بعمله هذا

المنطوى على الجبن والغدر جيشًا ألمانيًا مؤلفًا من مائتى ألف جندى لكى يساهم فى إخضاع بلاده.

وكان جيش فرنسى آخر مدرب من الجند النظاميين يتجمع فى الأيام الأولى من أغسطس فى شالون **Chalons** تحت قيادة مكماهون. وغدا أمره من الأهمية بمكان عظيم إذا كان فى مقدور هذا الجيش الذى صار آخر قوة نظامية فرنسية غير محصورة أن يوجه حركاته بحيث ينتفع منه انتفاعًا كبيرًا. وأشار ماكماهون — فى حكمة كما يبدو — بأنه ينبغى أن يتجنب هذا الجيش أى اتصال مباشر بالعدو، وأن يرتد إلى الوراء، وأن تخف إلى نجدته أية قوات حربية مبعثرة تكون باقية فى البلاد، وأن يركز قوته أمام حصون باريس. لكن الإمبراطورة يوجينى ومستشاريها أصموا آذانهم عن سماع هذا الرأى القاتل بالتراجع، وحضوا على أن يهرع ماكماهون إلى نجدة بازين، وأشاروا إلى أن باريس فى حاجة إلى انتصار، وأنه إذا تراجع جيش شالون إلى الوراء، فإن الناس سيهبون لقلب العرش. فاضطر مكماهون على كره منه، وضد رأية الصائب، أن يزحف قافلاً إلى ريمس. إذ نمى إليه أن بازين ينوى شق طريقه إلى الشمال، أدار وجهته إلى الشمال الشرقى صوب الحدود البلجيكية. بيد أن ملتكه بادر إلى تعقبه وأمكنه أن يطوقه فى البندر الصغير (سيدان **Sedan**) وأن يسلط عليه حمم مدافعه، ويجبره على التسليم. وكان من بين أسلاب ذلك النصر الألمانى المبين نابليون الثالث نفسه.

وقد نشبت هذه المعركة فى الثانى من سبتمبر. وبعد يومين من وقوعها، أعلنت الجمهورية فى باريس. وبينما كان الزعيم الفرنسى جول فافر **Jules Favre** يعلن للعالم أجمع أن فرنسا لن تتنازل عن حجر واحد من قلاعها، أو شبر واحد من أرضها، كانت الإمبراطورة تلوذ بالفرار سرًا فى عربة طبيب أسنان أمريكى إلى الحرم الأمين التقليدى للمنفيين السياسيين (إنجلترا) وبذلك قضى على البونابرتية القضاء المبرم.

ولكن ما انتهت الحرب ضد الجيش الإمبراطوري الفرنسي حتى أصبح أكبر أمل لفرنسا الوصول إلى صلح ملائم كان فى الوقت الذى ما برحت متز فيه ممتنعة على العدو، وجيش بازين لم يمسسه أذى. غير أن الأهواء لا تحسب لشئ حسابًا. كما أن هناك بلا ريب برهات فى تاريخ كل أمة تكون فيها قواها النفسية مهما تكن أهواؤها عمياء جامحة – أثمن لها وأنفس من العناية بتقدير حساب المكسب والخسارة. فإن الحرب القومية التى بدأت فرنسا الآن تخوضها، وإن كانت قد جرت عليها صلحًا قاسيًا، إلا أنها عاونت بعض الشئ على إعادة الكرامة والعزة واحترام النفس إلى الأمة الفرنسية، وعملت على المحافظة على شجاعة أبنائها وتقوية عزائمهم فى.

صحيح أن الأحداث أثبتت أن هذه الحرب كانت حربًا يائسة لا رجاء فيها ولكنها كانت ملأى بالمضايقات للعدو الظافر الغازى، مفعمة بصعاب ربما كانت تلك التى واجهته فى الطور الأول من الصراع الذى تطاحن فيه الجنود المحترفون. فإن ميدان عمليات العدو الحربية صار أوسع، وطالت خطوط مواصلاته، وكثيرًا ما هدده الجنود الفلاحون الذين هبوا للذود عن أرض الوطن. وكانت الجيوش الفرنسية الجديدة التى نهضت من كل صقع للقتال، أعصى على العدو فى تقدير قواتها وكشف مواقعها. ولو أن الفرنسيين كانوا قد اتخذوا الحيطة فى إعدام نظام واف لتأليف جيش احتياطى مدرب، فلربما كان فى وسعهم أن يحولوا هذه المضايقة التى عاناها العدو إلى تهديده تهديدًا خطيرًا.

وكان قطب الرحى فى هذه الحركة الشعبية التى أطالت الحرب وليون غمبتا (١٨٣٨ – ١٨٨٢) الخطيب الجمهورى المفوه الخارج من الجنوب، الذى برز اسمه لأول مرة فى قضية شهيرة كان فيها المكافح العنيد، والمهاجم القوى المراس للإمبراطورية الثانية. ولم تكن العقبات لتثنية عن عزمه، ولا العراقيل لتحول بينه وبين بغيته. مثال ذلك أنه حينما طوق الألمان باريس، فرمنها من بالون إلى روان وبنشاطه الخارق وهمته حشد فى خلال ستة أسابيع جيشًا من

مائـة وثمـانين ألف مقاتل. وتمكن هذا الجيش الجديد من إنزال الإنكسار الأول الـذى أصاب الألمان فى هذه الحرب. وذلك فى كولمييه **Coulmier** بالقرب من أورليان

ولـو أن بـازين كـان لا يـزال ممتحـنًا فـى متـز، فلعل الجنرال داولرس **D'Aurelles** الذى أحرز نصر كولمييه كان قد استطاع بمعونة حامية باريس من فـض الحـصار عـن قصبة البلاد. ولكن استسلام بازين فى ٢٧ أكتوبر أثر تأثيرًا حاسمًا فى مجرى الحرب إذ جعل تحت تصرف الألمان جيشًا كبيرًا قويًا كانوا سـاعتئذ فـى أشد الحاجة إليه. وكانت الكتائب الفرنسية الخام النصف المدربة تقاتـل فـى كل بقعة من بقاع الحرب قوات تفوقها عددًا وقوة ومرانًا، مما أسفر عـن دحر دورى ثلاث مرات على مقربة من أورليان. وهزيمة شانزى **Chanzy** – بعـد قـتال شرس دام أيامًا ثلاثة – فى لى مان **Le Mans** فى ١٠ يناير سنة ١٨٧١، وانكـسار فيدرب **Faidherbe** – الذى كان قد ظفر ببعض الانتصارات فـى الـشمال – فـى سـان كنـتان **St. Quentin** فـى ٩ ينايـر سـنة ١٨٧١. ثم أخفقـت إخفاقًا أشـد حتى فى الاندحارات السالفة الذكر، محاولة بلغت حدًا مـن الـضخامة، قلـل مـن فـرص نجاحهـا. فقـد حـاول غمبـتا أن يحمس أهل الجـنوب الـشرقى لفرنـسا ضـد الغـزاة، وأن يـوجه غـارة على بادن يشغل بها العـدو، غـير أن جـيش بورباكى **BouBaki** المؤلف من ٨٥ ألف رجل كان سيئ العدة، دحر فى مونتبليار **Montbeliard**، وسيق وراء الحدود إلى داخل أرض سويسرة المحايدة، حيث نزع سلاحه نزعًا مزريًا فى أول فبراير سنة ١٨٧١.

وأخيرًا، بعد أن حبطت التجربة اليائسة التى أقدم عليها الباريسيون، قـبلوا فـتح المفاوضـات مـع الأعـداء. فمـنحوا هدنـة فـى ٢٨ ينايـر سنة ١٨٧١ وأجـريت انـتخابات عامـة فـى ٨ فبرايـر، والتأم عقد الجمعية الوطنية فى ١٢ فبرايـر فـى مدينة بوردو التى كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة قد اتخذتها مقرًا

لها بعد حصار باريس. وانتخبت تلك الجمعية تيير رئيسا للسلطة التنفيذية، وخولته حق التفاوض مع العدو.

سادساً: معاهدة فرانكفورت.

بدأت المفاوضات بين بسمارك مستشار ألمانيا وتيير رئيس الحكومة الفرنسية في ٢٦ فبراير إلا أن المفاوضات طالت كثيرا وتعثرت أكثر من مرة بسبب صلابة بسمارك وإصراره على فرض شروط الصلح على درجة كبيرة من الشدة والقساوة. وعلى الرغم مما أظهره الرئيس الفرنسي تيير من عناد ودبلوماسية فإنه قد فشل في تغيير موقف بسمارك بشكل جذري. وأخيرًا وافق الفرنسيون على شروط الصلح المذلة التي فرضها الألمان بقوة وعناد والتي ستكون في المستقبل وإلى حد كبير أحد أبرز أسباب الحرب العالمية الأولى، وفي ١٠ مايو ١٨٧١ تم توقيع الصلح بين الدولتين وهو المعروف بصلح فرانكفورت وأبرز شروط هذه الصلح ما يلي:

١- تحتل بروسيا مقاطعتي الإلزاس واللورين وكذلك مدينة متز.

٢- تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي خلال خمس سنوات .

٣- تحتل الجيوش الألمانية أراضي فرنسا الشمالية حتى يتم دفع الغرامة المالية، (وقد دفعها الفرنسيون كاملة خلال ثلاث سنوات ليتخلصوا من جيوش الاحتلال البغيضة) [٣٣].

(١) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعى: التاريخ المعاصر، ص٢٦٩.

(٢) نفسه، ص٢٧٠.

(٣) نفسه، ص٢٧٠، ٢٧١.

(٤) نفسه، ص٢٧١.

(٥) نفسه، ص٢٧٢.

(٦) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، ص٣٩٧.

(٧) نفسه، ص٣٩٧، ٣٩٨.

(٨) نفسه، ص٣٩٨، ٣٩٩.

(٩) نفسه، ص٣٩٨، ٣٩٩.

(١٠) نفسه، ص٣٩٩، ٤٠٠.

(١١) نفسه، ص٤٠٠، ٤٠١.

(١٢) نفسه، ص٤١٠، ٤٠٢.

(١٣) نفسه، ص٤٠٢.

(١٤) عبدالعزيز سليمان نوار، عبدالمجيد نعنعى: المرجع السابق، ص٢٧٤، ٢٧٥.

(١٥) نفسه، ص٢٧٧.

(١٦) نفسه، ص٢٧٨.

(١٧) نفسه، ص٢٧٨.

(١٨) نفسه، ص٢٧٨.

(١٩) نفسه، ص٢٧٩.

(٢٠) نفسه، ص٢٧٩.

(٢١) نفسه، ص٢٧٩.

(٢٢) نفسه، ص٢٨٠.

(٢٣) نفسه، ص٢٨٠.

(٢٤) نفسه، ص٢٨١.

(٢٥) فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ص٢٨٦.

(٢٦) نفسه، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢٧) نفسه، ص٢٨٨.

(٢٨) نفسه، ص٢٨٩.

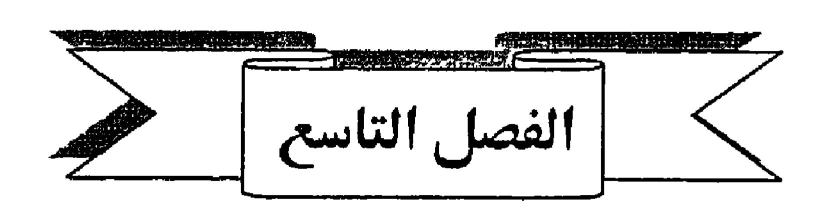
(٢٩) نفسه، ص٢٩٠.

(٣٠) نفسه، ٢٩١.

(٣١) نفسه، ص٢٩٢.

(٣٢) نفسه، ص٢٩٣.

(٣٣) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٢٨٦.



﴿المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨﴾

أولاً : طبيعة المشكلة الشرقية

ثانياً : الحرب الروسية العثمانية ومعاهدة سان إستيفانو

ثالثاً : مؤتمر برلين ١٨٧٨ ومقرراته.

المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

أولاً: طبيعة المشكلة الشرقية

فـي أعقـاب الانتـصارات الكـبرى التـي أحـرزتها بروسيا على كل من النمسا وفرنسا أصبح التوازن الدولى غير واضح الاتجاهات، فألمانيا أصبحت عملاق فـي قلب القارة الأوروبية ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها، وفرنسا مهزومة، وتعانـي مـن اضطراب سياسي شديد، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط هذا العملاق، خاصة وأن بريطانيا آثرت – بذكاء سياسي – ألا تنتهز الفرصة وتنقض على فرنسا حفاظًا على التوازن الدولى، وحتى لا تزداد الإمبراطورية الألمانية قوة على قوة. وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلى ما هو أعقد مما وصلت إليه، وبالتالى كان هناك نوع من التوزان الدولى القائم على القلق من تطورات المستقبل ومن ثم كانت الأمور الدولية فى حاجة إلى أزمة كبيرة حتى تكتشف كل دولة الطريق الذى يجب أن تسير فيه من حيث الارتباطات السياسية. خاصة وأن فرنسا كانت تبحث عن قوة تتحالف معها ضد العملاق الألمانى وكانت المشكلة الشرقية هى التي كشفت لبعض الدول الطريق الذى يجب أن تسلكه[1]، والأصول الرئيسية للمشكلة الشرقية تتركز فى الموضوعات التالية :–

١– الصراع التقليدى بين الشرق الإسلامى وأوروبا الصليبية. حقيقة أن الفكرة الصليبية التقليدية كانت قد اختفت في القرن السادس عشر – أو ما هو حول ذلك – إلا أن شعوب أوروبا بمختلف مذاهبها كانت تنتظر اليوم الذى يتلاشى فيه الإسلام والمسلمون أيًا كان عنصرهم تركيًا كان أم فارسيًا أم عربيًا. وكانت هذه المشاعر توجه النشاط الفردى الأوروبى وتوجه الساسة الأوروبيين. ولم تكن الحكومات الأوروبية تتراجع عن هذه الأهداف الصليبية الكامنة إلا إذا تعارضت مع الأطماع التوسعية أو المصالح الخاصة بها. ومن هنا كان التوسع الأوروبى على حساب الدولة

العثمانية المتدهورة أمرًا محبوبًا ومقبولاً من المجتمع الأوروبى والساسة الأوروبيين فى حدود المصالح الخاصة للدول.

٢- كان ضعف الدولة العثمانية عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا هو الذى جعل الأطماع الأوروبية فيها تكوّن "المشكلة الشرقية" فالأطماع الأوروبية فى الدولة العثمانية قديمة وعميقة الجذور، وكانت قوة الدولة العثمانية تحول دون تكتل أوروبى ناجح ضدها وتحول كذلك دون توسع أوروبى على حسابها. حتى نمت روسيا وقويت ووصلت قواتها حتى باريس فى ١٨١٤/ ١٨١٥، وحتى وصلت إلى مشارف إلى الآستانة فى ١٨٢٨/ ١٨٢٩ الأمر الذى كان يثير مخاوف الدول الأخرى، ليس فقط إمبراطورية النمسا، وإنما كذلك إمبراطورية فيما وراء البحار بريطانيا[٢].

كان هناك تسابق روسى – نمساوى على وراثة الدولة العثمانية فى البلقان، خاصة بعد حرب القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٦) وبعد سادوا (١٨٦٦) إذ لم يبعد وجه النمسا نحو ألمانيا، وإنما وجدت النمسا مجالها الحيوى فى البلقان فأصبحت أية تطورات فى البلقان العثمانى ذات حساسية شديدة لإمبراطورية النمسا – والمجر. بينما كانت روسيا قد ركزت على تزعم الحركة السلافية، وهى حركة ضارة بكل من الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا – والمجر. حيث أن هذه الحركة كانت تهدف إلى استقلال الشعوب السلافية الواقعة تحت حكم هاتين الإمبراطوريتين وإلى تقوية النفوذ الروسى فى البلقان بجعل البلقان والشعوب السلافية مخلب قط للسياسة الروسية[٣].

ومما كان يزيد المشكلة البلقانية تعقيدًا أنها تتضمن عدة مشاكل معقدة فى داخلها:-

١- مشكلة الصراع الصليبي بين الدول الإسلامية (الدولة العثمانية) والشعوب المسيحية.

٢- مشكلة نشوء ونمو الحركة القومية لدى السلاف أنفسهم من صرب وبلغار الأمر الذى كان يعّرض هذه الشعوب نفسها للاقتتال فيما بينها بسبب التعصب القومي.

٣- كانت فى داخل البلقان نفسه - إلى التعصب القومي - مشكلة التعصب المذهبى، فبينما كانت غالبية السلاف أرثوذكسية كانت الإفلاق والبغدان - نواة رومانيا الحديثة - كاثوليكية. وكانت هناك جيوب كاثوليكية في الشعوب السلافية إلى جانب الجيوب الإسلامية.

٤- كما ظهر إلى جانب التعصب القومي رغبة في فصل الكنيسة على أسس قومية، فأراد البلغار إنشاء كنيسة خاصة بهم لا يكون أكليروسها يونانى أو تتبع البطريرك اليونانى وإنما تكون كنيسة بلغارية مستقلة.

٥- كانت هناك مخاوف من أن تضع روسيا يدها على منفذ لأى من خطوط المواصلات العالمية عبر آسيا الوسطى أو عبر الشرق الأدنى إلى الهند مستغلة ضعف الدولة العثمانية والحماس الصليبي لدى مسيحى روسيا، ونمو التعصب السلافى المسيحى فى البلقان. ولا شك أن المقاومة الإنجليزية - الفرنسية - النمساوية الشديدة للنمو الروسى على حساب الدولة العثمانية كانت هى السبب فى تأخير تصفية هذه الجولة. ولكن ماذا ستسير عليه الأمور بعد أن تجلت قيمة ذلك الوفاق الروسى - البروسى الذى مكن الروس من ضرب الثورة البولندية فى ١٨٦٣، ومن تخلص الروس سنة ١٨٧٠ من بنود معاهدة باريس ١٨٥٦ التى كانت تقيد النشاط الروسى البحرى العسكرى فى البحر الأسود؟ مع ملاحظة أنه فى ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الإمبراطورية العثمانية من جبهتين: جبهة أرمينيا - إرضروم، وجبهة البلقان.

ومع ملاحظة أن حاجة بسمارك إلى روسيا بعد ١٨٧١ أصبحت أقل منها قبل ذلك، ومخاوف روسيا من ألمانيا بعد ١٨٧١ - أصبحت أكثر بكثير

عن مخاوفها من بروسيا قبل تلك السنة، كان هناك نمو متزايد للمصالح الأوروبية في الدولة العثمانية، في الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مطمئنة منذ (حرب القرم) إلى أن يدها هي العليا في توجيه السياسات الخاصة بمستقبل الشرق الأدنى. وكانت السياسة التقليدية البريطانية إزاء الدولة العثمانية والشرق الأدنى قائمة على الأسس التالية حتي السبعينات من القرن التاسع عشر:

١-المحافظة على كيان الدولة العثمانية ضد أى توسع أوروبى على حسابها.

٢-تقوية الوجود والنفوذ البريطاني في الدولة العثمانية خاصة في المواقع الاستراتيجية المهمة على خطوط المواصلات العالمية، وكان أهم ما أقدمت عليه في هذا الشأن هو:

أ- كان دزرائيلى – أبو الإمبريالية البريطانية – يرى أن الآستانة هي مفتاح الطريق إلى الهند، ولهذا نجده يشترى أسهم الخديوى إسماعيل في شركة قناة السويس في ١٨٧٥ تمهيدًا للسيطرة البريطانية على القناة، ويتصدى في نفس الوقت لأى تفوق روسي في مضايق الدردنيل.

ب- زيادة التحكم البريطاني التجارى والعسكرى في العراق خاصة بالنسبة لخطوط المواصلات البرية والنهرية في دجلة والفرات.

ج- وضع حماية على الإمارات العربية المطلة على المنافذ البحرية مثل البحرين وإمارات الخليج العربي ودولة البوسعيد في مسقط وعمان ومحميات جنوب اليمن.

د- جعل بعض الأجزاء العربية مثل عدن مستعمرة بريطانية.

وكانت بريطانيا مستعدة لخوض حرب ضد روسيا إذا حاولت الأخيرة تقويض تلك الأسس ولكن بمرور الزمن أخذت السياسة البريطانية نفسها تتحول من سياسة الحفاظ على كيان الدولة العثمانية إلى سياسة احتلال واقتسام الدولة العثمانية وذلك بعد سنوات من الاضطرابات المالية[٤] والتنظيمية اجتاحت

الدولة العثمانية ومصر وتونس، واضطرابات طائفية اجتاحت سوريا ولبنان (١٨٦٠).

ثم إن البلقان أصبح فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر منطقة لا يمكن السيطرة عليها والتحكم فى نطور الأمور بها، ومن ثم كانت هناك مخاوف فى كافة العواصم الأوروبية من أن المشاكل البلقانية قد تورط أوروبا فى حرب غير مجدية، وكان بسمارك – وقد أدرك أن مفتاح الموقف الدولى فى طريقة علاج مشكلات الشرق – يعتقد أن هذه المشكلات الخاصة بالدولة العثمانية يجب ألا تؤدى إلى صدام بين الدول الكبرى، وأن دماء الأوروبيين الزكية يجب ألا تراق بسبب هذه المسائل التى يجب أن تحل على مائدة المفاوضات وأنه إذا أرادت الدول الكبرى إعادة النظر فى التوازن فليتم هذا بتسويات ودية على حساب الدولة العثمانية.

لقد كان بسمارك يريد سلامًا أوروبيًا يجعل لألمانيا مكانتها العليا فى تصريف الأمور الدولية، لذلك كان يرغب فى رؤية السلام ينشر لواءه على العلاقات الألمانية الفرنسية البريطانية، على العكس مما كانت تردده صحافة تلك الأيام وكان لا يرغب فى حرب فرنسية بريطانية، تلك الحرب التى كانت كثير من المراجع تتوقعها بسبب توالى الأزمات بعد ١٨٧٥، بين هاتين الدولتين الاستعماريتين فى عدة أجزاء من إفريقية والبلاد العربية وآسيا.

ثانيًا: الحرب الروسية العثمانية ومعاهدة سان ستيفانو

كان الضعف الذى أصاب الدولة العثمانية وأطماع الدول الكبرى فى وراثتها ونشوء حالة من التوازن الدولى غير واضحة تمامًا بعد هزيمة فرنسا فى حرب السبعين، وتأجج الحركة الوطنية القومية التحررية فى البلقان، وتضارب هذه الحركات فيه وتصادم أهداف كل القوميات البلقانية كل هذا كان يدفع البلقان نحو أزمة كبيرة دولية.

كانت الثورة التى أدت إلى ارتباكات دولية معقدة قد نشبت فى إقليم (الهرسك)، ظهرت أولاً على هيئة صدامات مذهبية بين الأكثرية المسيحية والأقلية الإسلامية، واتسع نطاقها ودخلت الصرب والجبل الأسود الحرب وثار البلغار بينما تضاربت آراء الدول الكبرى إزاء هذه التطورات إذ كانت روسيا تريد التدخل مؤيدة للثوار وأعداء الدولة العثمانية فى البلقان بينما كانت بريطانيا تهدد بالتحرك العسكرى المضاد. وكانت روسيا مرتاحة لتطورات الحرب طالما هى ضد مصالح العثمانيين. ولكن لم تلبث القوات العثمانية أن أنزلت هزيمة شديدة بالجيش الصربى، وهددت هذه القوات العثمانية بلغراد نفسها، وهنا تدخلت روسيا وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية. وعبرت جيوشها الولايتين الرومانيتين (الإفلاق والبغدان)، ولم تلبث أن دخلتا الحرب ضد الدولة العثمانية. وبينما كانت بريطانيا تجتهد في حصر نطاق الحرب وإيقافها - لما فى ذلك من مصلحة لها - كانت الجيوش العثمانية تدافع بشجاعة - ترددت في أرجاء أوروبا - عن بلفنا Plevna .

وقد نهجت روسيا أحكم الطرق فى هذه الظروف، فوقعت صلحًا منفردًا مع الدولة العثمانية فى سان ستفانو San Sitefano فى ٣ مارس، وكانت تأمل من وراء هذا أن تحتفظ بجميع مكاسبها دون أن تسئ إلى إنجلترا، لأنها لم تدخل القسطنطينية، كما اقترحت أن تجلو عن أدرنة: أما فى آسيا فقد اقترحت روسيا ضم قارس وأردهان، أما بالنسبة لفتح أرضروم والجلاء عنها، فلم يكن مطلبًا متطرفًا، والواقع أنها بذلك تفرض سيطرتها على معظم أرمينيا. أما المكاسب المباشرة فى أوروبا فإنها تتمثل فى استعادة ذلك الجزء من إقليم بسارابيا الذى كان قد ضم إلى رومانيا ١٨٥٦، وفى تقدم روسيا إلى مصب الدانوب. وقد اقترحت روسيا تعويض رومانيا عن هذه المنطقة الخصيبة التى حرمت منها بإعطائها ثلثى إقليم دبروجا Dobruija القاحل. ولم تكن هذه معاملة كريمة لحليف مقدام فى الحرب ولكن رومانيا كانت دولة لاتينية. وكان هدف روسيا من وراء ذلك تمجيد السلاف.

وفـى سـبيل هذا الغرض واجهت روسيا متاعب لا يستهان بها. بسبب أن إسـكندر كـان قـد وعـد فرنسيس جوزيـف بـأن تحـتل النمسا والمجر بلاد البوسـنة والهرسـك[٥]، وقـد كانـت البوسـنة إقليمًا صـربيًا تحلم الصرب بضمه إلـيها. وبحـرمان إقلـيم البوسنة وإنكاره عليها تكون روسيا قد تخلت عمليًا عن الـصرب. حقًا لقـد ألحـت روسـيا فـى سان ستفانو على توسيع حدود الصرب وعلـى حـصولها علـى نيش، وما كان اسكندر ليستطيع أن يفعل شيئًا أكثر من ذلـك للـصرب، بـل لقـد أوصـى بلجـوئها إلى النمـسا والمجـر، لالتماس العون الدبلوماسـى. ويبدو أنه ظن أن الصرب لابد أن تقع تحت نفوذ النمسا والمجر. أمـا بالنـسبة للجبل الأسود فقد فعل أكثر من ذلك، فقد رأى أن هذه الإمارة قد اتـسعت رقعـتها — ولـو أنهـا لم تحـصل علـى ميناء على البحر أو على حدود ملاصقة للصرب — وأعلن فى وضوح أنه سوف يؤيد استقلالها ضد النمسا والمجر.

أمـا الورقة الرابحة فى يد روسيا فهى دولة بلغاريا الجديدة أو "بلغاريا الكـبرى" التـى وضـعت تـصميمها فـى سـان استفانو، ومـدى الجـدل لمطالـب العنصرية البلغارية إلى أبعد حد. فبلغاريا لم تشمل الرقعة الحالية فحسب، بل ضـمت إلـيها الخـط الـساحلي اليونانـى الجديد الذى يمتد غربًا من ميناء قوله Kavalla إلى قـرب ميـناء سـالونيك، ومعظـم الجـزء الذى يعرف الآن بمقدونيا الصربية. وكان يمكن على هذا النحو تقوم فى البلقان دولة جديدة من الفلاحين الـبلغار الأشداء، فإذا ما تحررت (كما كان مأمولاً) ثم سيطرت عليها روسيا فى المـستقبل أمكـنها أن تتحكم فى كل المنافذ إلى كل من سالونيك والقسطنطينية، وإذا مـا اسـتردت روسـيا قـوتها البحـرية فـى المـستقبل، أمكنها أن تعمل ضد القـسطنطينية بمـساعد الحلـيف الـبرى القوى المرابط على حدود الترك[٦]. ومن الواضح أن الخطة. وضعت لمصلحة روسيا، وبنيت على فكرة أن بلغاريا — التى تكلفـت حـريتها أرواح عدة آلاف من الروس — لابد أن تكون فى المستقبل أداة طيعة وخادمًا لقيصر روسيا. والواقع — كما أثبتت الحوادث — أن الأمر ما كان لينتهـى إلى ذلـك وقد أخطأ دزرائيلى وإسكندر الثانى كلاهما، إذا كان هذا فى

حسابهما، إن اتفاقية سان ستفانو قد ارتكبت فى الحقيقة إثما بالإغداق نوعًا ما على بلغاريا، ولم تتوخ العدل إلى حد كبير، مع الصرب، أو اليونان، أو ألبانيا، أو رومانيا. لو أن ألبانيا استقلت، وضمت أبيروس وتساليا إلى اليونان، وبقى الجزء الجنوبى من بسارابيا مع رومانيا، لو أن ذلك حدث (كما تم فيم بعد) لجاءت التسوية خيرًا مما كانت عليه حيث يمكن عند ذاك إغراء الصرب بقبول شمال غرب مقدونيا. وربما وجدت لها فى ذلك عزاء عن ضياع البوسنة.

ولم يتدخل فى تقرير وجهة النظر البريطانية أى اعتبار اللهم إلا مقاومتها لروسيا، ولقد تخلص دزرائيلى من المتخوفين فى وزارته، وعين لورد سولسبورى وزيرًا للخارجية فى آخر مارس. ولم يكن الوزير على اتفاق تام مع رئيسه، ولكنه كان على أية حال مهيأ لمعارضة خلق (بلغاريا الكبرى) التى يمكن من وجهة النظر الإنجليزية، أن تكون عتبة تخطو عليها روسيا إلى القسطنطينية. وما أن تولى سولسبورى منصب الوزارة، بعد استقالة دربى، حتى أصدر فى أول أبريل منشورًا بهذا المعنى[٧]. وبدأ يفاوض روسيا. وكانت بريطانيا والنمسا والمجر قد طلبتا بالفعل عقد مؤتمر لإعادة النظر فى شروط اتفاقية سان ستفانو. وكان سولسبورى قد وافق نهائيًا على البنود الرئيسية فيها شريطة أن تتخلى روسيا فى المؤتمر القادم عن مشروع (بلغاريا الكبرى). ومعنى هذا أن تتقلص بلغاريا الجديدة إلى ثلث الرقعة الموضوعة فى سان ستفانو، فتمتد فقط من الجنوب إلى جبال البلقان. أما مقدونيا وساحلها الجنوبى فيعادان إلى الدولة العثمانية. وهناك قسم ثالث فى جنوب الجبال مباشرة، وهذا يطلق عليه "الروماللى الشرقى" ويتمتع بالحكم الذاتى تحت سيادة الدولة العثمانية مباشرة، وكان الهدف الحقيقى من وراء هذه الترتيبات هدفًا حربيًا، وذلك لاستيلاء الدولة العثمانية على الروماللى الشرقى حتى جبال البلقان، يؤمن لها خطًا محصنًا يدافع عن أدرنة والقسطنطينية خطر تقدم الروس من جهة الدانوب. فما

أن وافقت روسيا خاصة على هذا العرض حتى رضيت بريطانيا بالاشتراك فى المؤتمر.

ويبدو أن دزرائيلى قد ظن أنه أمن الأتراك فى أوروبا بهذه المفاوضات المباشرة السابقة على المؤتمر مع روسيا، تلك المفاوضات التى لم يحط بها الدولة العثمانية علمًا. كما أمن الدولة العثمانية فى آسيا وأمن طريق بريطانيا إلى الهند بمفاوضات مباشرة سابقة على المؤتمر مع الدولة العثمانية، ولم يحط روسيا علمًا بها. وقد أعلن عند اجتماع الوزارة فى ٢٧ من مارس أن النمسا ستعمل على إيجاد تسوية للموقف بالنسبة لبلغاريا، وأن الخطر المنبعث من أرمينيا هو الذى يجب الاحتراس منه. ويجب أن يقابل اقتراح روسيا بالحصول على باطوم وأردهان وقارس باحتلال (جزيرة أو موقع على شاطئ آسيا الصغرى، يوازن وجود روسيا فى أرمينيا، وقبرص مفتاح غربى آسيا) ويمكن أن تعد لتكون مخزنًا للسلاح وميناء، وهى ملائمة كنقطة للوثوب على الإسكندرونة. وقد عقد اتفاق موجز بين إنجلترا والسلطان، فإذا ضمت روسيا قارس وباطوم وأردهان، فإن على إنجلترا أن تحتل قبرص، وتدافع بقوة السلاح عن أملاك الدولة العثمانية الباقية فى آسيا ضد روسيا. ووعد السلطان، فى مقابل ذلك بإدخال الإصلاحات لحماية المسيحيين وغيرهم من رعايا الباب العالى فى هذه الممتلكات (الآسيوية). وفى ٢٦ من مايو عرف أن السلطان سوف يقبل هذا، وفى ٤ من يونيه وقع الاتفاق الرسمى وفى ٢ من يونيه كان دزرائيلى وسولسبورى قد عينا ممثلين لبريطانيا ووافقا على حضور المؤتمر، وكان آخر الأمر أن عقدت مع النمسا والمجر اتفاقية سرية تجيزها احتلال البوسنة والهرسك. وخلاصة القول أنه كان هناك اتفاق سرى بين إنجلترا وبين كل من روسيا، والنمسا والمجر، والدولة العثمانية قبل افتتاح المؤتمر، على أن كلا من روسيا والنمسا والمجر لم تعلم شيئًا عن اتفاقية قبرص، وأن الدولة العثمانية بدورها لم تعرف شيئًا عن اتفاقية البوسنة، وعندما التقى دزرائيلى ببسمارك قبل انعقاد المؤتمر فى ١٣ من

يونيه، وحصل على وعد بالنظر فى موضوع بلغاريا. ولم يكن ثمة خوف كبير من حيث النتيجة، حيث تم بالفعل الاتفاق على الموضوع الرئيسى، وعلى غرار أعظم المؤتمرات نجاحًا، كان هذا المؤتمر ناجحًا، نتيجة للاتفاق سلفا على المسائل الرئيسية فيه.

عرض بسمارك أن تكون برلين مقرًا للمؤتمر، كما عرض أن يكون هو نفسه وسيطًا أمينًا. والحق أن وساطته كانت مثارًا للريبة، لأنه لم يدخر وسعًا فى مساعدة النمسا والمجر فى المفاوضات، وضغط فى بعض الأوقات على عدوتها القديمة روسيا. وقد غنم أندراسى مندوب النمسا والمجر أكبر غنيمة. فقد رفض بالفعل الدخول فى حلف دفاعى مع دزرائيلى: ولكن ما أنفقه من ورق ومداد كان أبلغ أثرًا وأقوى مفعولاً من أموال روسيا ودماء أبنائها، فقد سلمت البوسنة والهرسك إلى أندراسى **Andrassy** لاحتلالها سياسيًا، وسنجق نوفى بازار لاحتلاله عسكريًا. وقد فصل هذا الاحتلال بين الصرب والجبل الأسود، ولما كانت هذه الإمارة الأخيرة شديدة الميل إلى روسيا، فقد تقلصت حدودها كثيرًا عما منح فى سان ستفانو وقد وضعت الصرب علميًا فى منطقة نفوذ النمسا والمجر، وأعلن استقلال الدول الثلاث الصرب والجبل الأسود ورومانيا. أما روسيا التى كانت قد ارتضت إنقاص رقعة بلغاريا إلى الثلث. فإنها شرعت تسعى لتجريد هذا التنازل من أية فيمة له، حيث حاولت أن تمنع الأتراك من وضع حاميات لهم فى الروملى الشرقى على طول خط جبال البلقان، وكان من الطبيعى أن يرفض دزرائيلى الموافقة على ذلك ومن المحتمل أن تكون محاولة روسيا هذه كيدًا، وليست تهديدًا بتعكير السلم، وقد أذعنت روسيا. وعلى أية حال، وفى وقت مبكر من المؤتمر شطرت بلغاريا الكبرى إلى ثلاث أقسام، وفق الأسس التى اتفق عليها. واستعادت روسيا بسارابيا من رومانيا، وعوضت حليفتها القديمة عنها بثلثى إقليم دبروجا، وكان الأصح أن يكون من نصيب بلغاريا.

أما فى آسيا فقد عدلت ترتيبات سان استفانو تعديلاً جوهريًا نتيجة ضربة دزرائيلي فيما يتعلق بقبرص. وعندما أدركت روسيا عزمها على الاحتفاظ بقارس وأردهان وباطوم، كشف دزرائيلى النقاب عن اتفاقية قبرص (٧ يوليه) وأصدر الأوامر إلى الأسطول الإنجليزى بالتوجه إلى قبرص وقد أظهرت روسيا الغضب، ويبدو أنها رغم تأكيدات دزرائيلى بعكس ذلك فازت عنه بمسألة الحدود الروسية التركية فى آسيا الصغرى. والحق أن دزرائيلى كان صاحب مران وخبرة كبيرة فى موضع الطريق إلى الهند، وقام بصفة خاصة بتحريات كثيرة فى موضوع الدفاع عن العراق ضد روسيا. ولكن مشروعه للدفاع لم يكن كاملاً من الوجهة العلمية، وعلى هذا انتهى المؤتمر، وهدأت الدولة الكبرى، وقدمت الملكة فكتوريا لدزرائيلى دوقية، ومنحته هو وسولسبورى وسام ربطة الساق، وسط الحماسة التى أثارها إحكام المسرحية، ومثلتها عبارة "السلام مع الشرف" ومن الخطأ أن ننكر أن دزرائيلى أظهر شجاعة كبيرة فى هذه الأزمة، ولكن الشجاعة فى الدبلوماسية يجدر أن تقترن بالمعرفة، ومن هنا كان زاد دزرائيلى ضئيلاً، فهو لم يحاول الحصول عليها من لورد سولسبورى الذى كان أكثر منه دراية ومعرفة ويبدو أنه لم يكن يؤمن بقوة الروح القومية الناشئة فى شبه جزيرة البلقان، ولم يكن لديه أية فكرة عن مقاومة روسيا إلا بقوة السلاح. وكان فى إيمانه بفضائل السلطان عبدالحميد، وبرغبة الأتراك فى حماية الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم سواء فى أوروبا أو آسيا، مخطئًا خطأ فاحشًا. وسرعان ما انتهت سياسته فى آسيا إلى لا شئ. وقد ثبت أن ذهاب المبعوثين العسكريين البريطانيين إلى أرمينيا لترتيب الدفاع عنها ضد روسيا، كان عديم الجدوى. وفى ١٨٨٠ حين تولى جلادستون الوزارة أحل قناصل سياسيين محل هؤلاء العسكريين، فلما عاد سولسبورى إلى الوزارة ١٨٨٦ قبل هذا التغيير فى صمت، كأى رجل عاقل. ولكن هؤلاء القناصل السياسيين لم يكونوا أكثر توفيقًا فى وقف المذابح، من العسكريين فى تنظيم الدفاع: وتتويجاً لهذا كله أعلنت

روسيا في يوليه ١٨٨٦ عن عزمها على إغفال تصريحها المدون في المادة ٦٩ معاهدة برلين، والذى يعترف بأن باطوم ثغر تجارى أساسًا" وشرعت في تحصينه. فكأن كلا من روسيا والدولة العثمانية لم تقر سياسة دزرائيلى الآسيوية أو تعبأ أو تتمسك بها. ولم تصبح قبرص يومًا مخزنًا للسلاح أو قاعدة بحرية، ويمكن أن تكون أى شئ إلا أن تكون "جبل طارق" آخر في شرق البحر المتوسط. ولم يحاول السلطان قط أن يفي بوعده بالإصلاح في آسيا، بل إنه بعد فترة من الزمن شرع عمدًا في تدبير المذابح لرعاياه الأرمن، دون أن يلقى بالاً لاعتراض بريطانيا واحتجاجها. وقد أتت الكتب الزرقاء البريطانية ١٨٩٦ على ذكر القصة المروعة لهذه الفظائع. أما الكتاب الأزرق الآخر الذى صدر في ١٨٩٨ فقد عدد ضمانات والتزامات بريطانيا ومنها التزامها بالدفاع عن الدولة العثمانية في آسيا "ووعد السلطان بإدخال الإصلاحات اللازمة. لحماية رعاياه المسيحيين". وبعبارة أخرى لا يزال السلطان يطالب بضمان إنجلترا لحماية آسيا الصغرى، بل الظاهر أنه يستطيع أن يضعه موضع التنفيذ، رغم أن الكتب الزرقاء البريطانية أثبتت أنه ذبح رعاياه المسيحيين هؤلاء بطريقة أشد ما تكون وحشية، وكان قد وعد بحمايتهم في نفس الوثيقة التى ضمنت ممتلكاته ضد الغزو.

ولم تكن سياسة دزرائيلى في أوروبا — رغم إخفاقها — مستعصية على العلاج. حقًا أسلمت مقدونيا إلى حالة حرب فتاكة وعناء كبير، ولكن الخطأ الكبير في فصل بلغاريا عن الروملي قد أصبح نهائيًا. وكان جلادستون في بعض الأوقات تتجلى لبصيرته بعض الحقائق التى يرفضها دبلوماسيون أكثر احترافًا. وقد كان له شئ من ذلك قبل مؤتمر برلين بنحو عشرين عامًا، فقال "ومن المؤكد أن المقاومة التى يمكن وقوفها في وجه روسيا تتمثل في قوة وحرية الدول التى سيكون عليها أن تقاوم، فالمطلوب إقامة حاجز حى بينها وبين الدولة العثمانية وليس ثمة حاجز يعدل صدور أحرار الرجال. ومن المحقق أن

اتحاد ملدافيا وولاشيا في رومانيا كان أبلغ في مقاومة روسيا من فصلهما وبنفس الطريقة أدى توسيع بلغاريا إلى تحررها من رقبة روسيا.

وقد أعوزت الحصافة روسيا إلى حد كبير في تعاملها مع بلغاريا الجديدة، ففي أبريل ١٨٧٩ أصبح إسكندر باتنبرج أميرًا عليها، وكان ابن أخ الإسكندر الثاني قيصر روسيا. وكان قليل الخبرة في معاملة رعاياه، كان واقعًا تحت تأثير روسيا، كما أصبح أحد القواد الروس رئيسًا للوزارة، وآخر وزيرًا للحرب. وقد حاولوا اضطهاد البلاد وتهديدها مما عجل بإثارة الاستياء المرير لدى البلغار. وفي ١٨٨٠ ظهرت مؤامرة الروملّي الشرقي وطرد الثوار البلغار هناك حاكمهم العثماني، وطالبوا بوحدة قسمي بلغاريا، ودعوا الأمير اسكندر باتنبرج ليكون حاكمًا عليهم، وكانت روسيا تنظر إلى الحركة بعين العداء، ولكن ستمبلوف Stambulov زعيم بلغاريا القوى، أبلغ الأمير إسكندر أنه سوف يطرد ما لم يقبل الاتحاد، فسلم الأمير إسكندر بشروطه وقبل الاتحاد، فاستشاطت روسيا غضبًا وسحبت كل ضباطها من الجيش البلغاري، وما كان أعظم سرور البلغاريين حين رأوهم يرحلون. وتوسلت روسيا إلى الدول الأخرى لمنع اتحاد الروملي مع بلغاريا. ولم تبد النمسا والمجر اعتراضًا، يقينًا منها بأن بلغاريا القوية سوف تناصب روسيا العداء. وماذا تفعل إنجلترا، وهي التي خلقت الرومالي الشرقي، وخاطرت في ١٨٧٨ بالحرب لأنها لا توافق على انضمام الروملي إلى بلغاريا؟ لقد كان لورد سولسبوري آنذاك رئيسا للوزارة الإنجليزية وكان يمكن قطعًا أن يؤذي روسيا، ولكن كم كانت دهشة الجميع عندما لم يفعل لم يفعل ذلك. لقد تعلم سولسبوري الدرس الذي لم يتعلمه الآخرون، وفي هدوء وافق على اتحاد يوقن أنه سيساعد على إقامة سلام دائم. ومن ثم يكون "الحاجز الحي المكون من صدور أحرار الرجال قد أقيم في طريق روسيا إلى القسطنطينية.

ومهما كان أمر توحيد بلغاريا، فإنها لن تتخلص نهائيًا من غضب روسيا، ومن حقد جارتها السلافية. وقد سعت الصرب الآن للتدخل، فإن من أفدح عيوب مؤتمر برلين إغفال المطالب العادلة للصرب. والقول إن روسيا طلبت إليها أن تلتمس تأييد النمسا والمجر وأنها فى ١٨٨١ وقعت مع النمسا والمجر ميثاقًا سريًا أصبحت بمقتضاه عالة تعتمد عليها عمليًا والآن فجأة فى ١٤ من نوفمبر ١٨٨٥ أعلنت الصرب الحرب على الدولة الجديدة بلغاريا، وانتصر البلغار بعد معركة دامت ثلاثة أيام في سلفنيكا **Slivnica** ، وبدأوا يتقدمون نحو الصرب، ولكن الأمير اسكندر تلقى إنذارًا نهائيًا من النمسا والمجر ينذره بالارتداد، فالتزم جانب الطاعة، وارتد ليحكم شطرى بلغاريا ولكن سرعان ما وجد أنه لن يسود السلام حكمه. وفى أغسطس ١٨٨٦ اختطفت أنصار روسيا الأمير السئ الحظ وجاءوا به إلى الأراضى الروسية فكان لهذا رد فعل شديد فى بلغاريا لمصلحة الأمير، ولكنه تخاذل وأساء إلى نفسه فى برقية بعث بها إلى القيصر، حتى أرغمه ستمبلوف والوطنيون البلغاريون على اعتزال الحكم. وبعد ذلك فى ١٨٨٧ أصبح الأمير فرديناند دى ساكس كوبرج **Ferdinand de Saxe Coburg** حاكمًا على بلغاريا، وقد انتهج سياسة قوية معادية لروسيا.

وعلى هذا النحو تمت تصفية واحدة من أسوأ النتائج التى تمخض عنها مؤتمر برلين فى السنوات العشر التى أعقبته، ولكن بقيت مساوئ معينة تعذر استئصالها. فقد بانت أرمينيا فى شقاء وأهوال، ولكن مقدونيا كانت تعانى البؤس كما كانت مهددة بالخطر، فإن الدول العظمى رخصت للسلطان فى أن يذبح ما يشاء فى أرمينيا، ولكنها لم تكن فى نفس الوقت مستعدة لمنحه مثل هذه الرخصة فى مقدونيا. ففيها رجال يجرى فى عروقهم الدم اليونانى والبلغارى والصربى، وفيها لدسائس روسيا والنمسا والمجر فرص بغير حدود، وكان من المحقق أن هذه المساوئ التى تمخض عنها مؤتمر برلين أن تستمر إلى

الأبد ولكن عام ١٨٨٦ يميز بفترة سكون ساد الموقف، ومن ثم سنح للقوم أن يتدبروا الأمر فى سائر المشكلات الكبرى فى أوروبا.

ويقول أحد الكتاب اللامعين "إن الدلالة الحقيقة لمؤتمر برلين ١٨٧٨ تتمثل فى أن بسمارك اتخذ من أندراسى زميلاً ومن دزرائيلى أداة له، وأنه كسب النمسا والمجر وسيطر عليها دون أن يجرح شعور روسيا. ويصدق هذا القول تمامًا بالنسبة لدأب بسمارك على التأييد المطلق للنمسا والمجر، ولكنه بجانب الدقة التامة فيما يختص بروسيا فقد كان إسكندر الثانى فى شدة الضيق من موقف بسمارك فى المؤتمر، حتى أنه فى أبريل ١٨٧٠ كتب إلى وليم الأول إمبراطور ألمانيا يعبر عن شكوكه ومخاوفه فى إمكان الاحتفاظ بالسلام بين روسيا وألمانيا، وقد اشتد هذا الغضب فى ١٨٨٥/ ١٨٨٦ حين وجدت روسيا أن بسمارك لا يؤيدها فى أزمة بلغاريا، وهكذا نرى فى فى عام ١٨٧٨ الأصول البعيدة للنفور بين روسيا وألمانيا، مما شطر أوروبا إلى معسكرين: الروسى الفرنسى، والأحلاف النمساوية الإيطالية الألمانية. ولكن قبل أن نستعرض تكوين هذه الأحلاف العظمى التى انتهت آخر الأمر إلى التصارع فيما بينها، يجدر بنا أن نتجه إلى مجالات أخرى. لقد أوضح هذا الفصل كيف أن بسمارك هيأ لروسيا فرصة فى البلقان: وكيف أنها عجزت عن الإفادة منها كل الفائدة، وكيف أنه فى النهاية كان مضطرا إلى كبح جماح نشاطها. أما الفصل التالى فيبين كيف أن بسمارك مكن لفرنسا وبريطانيا من انتهاز الفرصة فى مجال المشروعات الاستعمارية حتى اقتحم هو نفسه هذا المجال فشرع يحد من أطماعهما، والحقيقة التى تقول بأنه حتى بسمارك وجد نفسه فى النهاية قد حد من نشاط إنجلترا وفرنسا وروسيا على السواء — هذه الحقيقة نفسها تفسر كيف أن خلفاءه الذين هم أضعف منه نجحوا فى النهاية فى إثارة هذه الدول.

ثالثًا: مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ومقرراته[٨].

حين تفاقمت المسألة الشرقية اقترحت النمسا عقد مؤتمر من الدول الكبرى فى العاصمة الألمانية وشجع بسمارك هذه الرغبة ولما وثقت الروسيا من حياد ألمانيا والنمسا أقدمت على الحرب مع الدولة العثمانية معتقدة أن إنجلترا لن تستطيع التدخل هذه المرة لنصرة الدولة العثمانية.

كان سولسبرى بخلاف رئيسه دزرائيلى يود الاتفاق مع روسيا على حل المسألة الشرقية ولو أدى الأمر إلى تقسيم الدولة العثمانية. ودخلت الروسيا الحرب وكانت خطتها الإسراع بعبور الدانوب ومهاجمة القوات العثمانية ثم اختراق البلقان ومهاجمة القسطنطينية نفسها. وبذا تضع حدًا لمسألة الدولة العثمانية. كما تضع الدول أمام أمر واقع. وأخيرًا انهارت أمامها القوات العثمانية فى ميدان البلقان والقوقاز.

ودعا الانتصار الروسى إلى التفكير فى شروط الصلح التى تفرض على الدولة العثمانية وفى هذه الأثناء ازدادت العلاقات سوءًا ورأت الحكومة البريطانية أن الآستانة والمضايق قد وقعت فى خطر مباشر، وأخيرًا فرض الروس معاهدة سان استيفانو على الباب العالى وبها تستقل رومانيا نهائيًا عن الدولة العثمانية وتأخذ جزءًا من دلتا الدانوب وتضم الروسيا بسارابيا كما تضم إقليم الدوبروجا إلى بلغاريا وتضم الجبل الأسود وبعض أجزاء من البوسنة والهرسك، وأما بلغاريا فتصبح ولاية كبيرة مستقلة فعليًا. وأصبح على الدولة العثمانية إرضاء الرعايا الروس فى الدولة وأن تعترف بحرية المضايق وأن تغلق البحر الأسود فى وقت الحرب أمام أعداء الروسيا وأثارت هذه المعاهدة عاصفة فى إنجلترا والإمبراطورية النمساوية ولذا لم تنفذ هذه المعاهدة، وانتقل مركز الأهمية من الآستانة إلى فيينا ولندن وبرلين وكانت من النمسا وإنجلترا لا يرضى عن زيادة النفوذ الروسى فى بلغاريا دون أن يكون للنمسا نفوذ معاد فى غربى البلقان. ولقد طلب أندراسى المستشار النمساوى عرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر برلين وأيدت إنجلترا الطلب النمساوى وكذلك ألمانيا واستطاعت

روسيا أن تعترف بحث النمسا والمجر فى احتلال البوسنة والهرسك وبذا زالت المعارضة النمساوية.

وأما المفاوضات بين إنجلترا وروسيا فقامت بين سولسبرى والسفير الروسى فى لندن شوفالوف وبينت الحكومة الإنجليزية أن معارضتها لمعاهدة سان استيفانو قائمة على أسس منها :-

أولا: أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا.

ثانيًا: أنها وضعت الباب العالى تحت رحمة روسيا. وفعلاً قبلت الروسيا تعديل شرط معاهدة سان استيفانو على أساس هذه المقترحات البريطانية.

وفى هذه الأثناء عملت إنجلترا على عقد معاهدة دفاعية مع الباب العالى تحتل بها إنجلترا قبرص.

وعقد مؤتمر الدول الكبرى فى برلين العاصمة الألمانية برئاسة بسمارك المستشار الألمانى لإعادة النظر فى معاهدة سان استيفانو ولكن فى الواقع لتسجيل الاتفاقات التى تمت بين روسيا وإنجلترا وبين روسيا والنمسا والمجر بخصوص معاهدة سان ستيفانو.

هذه هى المقررات لمؤتمر برلين والتى تضمنتها، معاهدة برلين وهذه المقررات تتكون من أربع وستين مادة وقد بدأت بالديباجة وهى "صاحب الجلالة القيصر الألمانى، وصاحب الجلالة قيصر النمسا والمجر ورئيس الجمهورية الفرنسية، وصاحب الجلالة ملكة المملكة المتحدة وإمبراطورية الهند وصاحب الجلالة ملك إيطاليا، وصاحب الجلالة إمبراطور الروسيات كلها، وصاحب الجلالة إمبراطور الدولة العثمانية رغبة منهم فى تقرير فكرة للنظام الأوروبى تبعًا لنصوص معاهدة باريس (٣٠ مارس ١٨٥٦) ولجميع المسائل التى ظهرت فى الشرق نتيجة لأحداث السنوات الماضية للحرب التى وضعت نهاية لمعاهدة سان استيفانو. على اتفاق تام بأن عقد مؤتمر هو خير وسيلة لتسهيل

التقارب بينهم ولذا عين جلالتهم ورئيس الجمهورية الفرنسية ممثليهم (الأسماء) الذين اجتمعوا وفقًا لاقتراح النمسا والمجر ودعوة ألمانيا وخولوهم كل السلطات.. وفقًا للعرف الدولى".

وقد اتفقوا فيما بينهم على الشروط الآتية:

١- تشمل ولاية بلغاريا كل الأراضى الآتية: (حدودها) ... ويكون تعيين هذه الحدود عن طريق لجنة أوروبية تمثل فيها الدول الممثلة وتهتم هذه اللجنة بمسألة ضرورة دفاع السلطان عن الحدود البلقانية للروملى الشرقية.

٢- أمير الولاية ينتخبه السكان ويثبته الباب العالى بموافقة الدول ولا يمكن لأحد إعفاء الأسرات الحاكمة فى أوروبا أن ينتخب أميرا لبلغاريا.

٣- يضع مجلس أعيان بلغاريا دستورًا للولاية قبل انتخاب الأمير

٤- تأكيد حرية الاعتقاد الدينى والمساواة بين السياسيين والمدنيين من البلغاريين.

٥- الإدارة المؤقتة لبلغاريا بين مندوب روسى قيصرى ويساعده مندوب عثمانى والقناصل الذين تثبتهم الدول الموقعة على هذه المعاهدة ويفصل فى المنازعات التى تقوم بين المندوبين قناصل الدول.

٦- لا يمكن للفترة المؤقتة أن تستمر أكثر من تسعة أشهر من وقت موافقة الدول على هذه المعادة.

٧- يحافظ على كل المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدول الأجنبية والباب العالى والتى لا يزال معمولاً بها فى الوقت الحاضر فى بلغاريا.

٨- خاصة بالجزية التى تدفعها بلغاريا للباب العالى وتحديد الدول ومقدارها ومقدار الدين العثمانى الذى يخص بلغاريا.

٩- خاصة ببعض واجبات بلغاريا.

١٠-لا يقيم الجيش العثمانى فى بلغاريا وتهدم جميع الحصون القديمة على حساب الولاية البلغارية فى مدى عام ولا يمكن بناء حصون جديدة.

١١–خاصة بحقوق المسلمين فى بلغاريا.

١٢–فى جنوب البلقان (جبل) تقوم ولاية الرومللى الشرقية وتكون تحت سلطان الباب العالى السياسى والحربى المباشر وتعطى استقلال إدارى.

١٤–، ١٥–، ١٦: خاصة بحدود الروملى الشرقية وحدود السلطان فيها.

١٧– يعين الباب العالى الحاكم العام للروملى الشرقية بموافقة الدول لمدة خمس سنوات.

١٨، ١٩، ٢٠، ٢١– تختص بالروملى الشرقية وتنظيمها الإدارى والمالى وحقوقها الدولية وحقوق لا تتعدى خمسين ألف جندى.

٢٢– قوات الاحتلال الروسية فى بلغاريا والروملى الشرقية تتكون من ثمان فرق لا تتعدى خمسين آلاف جندى.

٢٣– يتعهد الباب العالى بتطبيق الدستور الذى أعطى لكريت فى سنة ١٨٦٨ مع إدخال التعديلات الضرورية.

٢٤– فى حالة ما إذا لم يتفق الباب العالى مع الدول الإفريقية على مسألة تعديل الحدود الإفريقية تعرض الدول الكبرى وساطتها.

٢٥– مناطق البوسنة والهرسك تحتلها وتديرها النمسا والمجر، وتظل الإدارة العثمانية باقية فى سنجق نوفى بازار.

٢٦– يعترف الباب العالى باستقلال الجبل الأسود، ٢٧.

٢٨– خاصة بحدود الجبل الأسود.

٢٩– يضم الجبل الأسود انتيفارى والساحل والملحق بها.. ولا يجوز أن يكون للجبل الأسود قوة بحرية.

٣٠– تتعلق بحقوق المسلمين فى الجبل الأسود.

٣١– خاصة بممثلى الجبل الأسود فى أملاك الدولة العثمانية فى البلقان.

٣٢، ٣٣– خاصة بما يتحمله الجبل الأسود من الدين العثمانى.

٣٤– تعترف الدول باستقلال الصرب.

٣٥، ٣٦- تختصان بعلاقة الصرب مع الدول الخارجية ومع الدولة العثمانية ومع النمسا والمجر.

٣٩- تختص بالمسلمين في الصرب.

٤٠، ٤١- تختصان بإخلاء كل من الصربيين والعثمانيين الأراضى التى يحتلها كل فريق منهم من ممتلكات الآخر.

٤٢- خاصة بتحمل الصرف جزءًا من الصربيين والعثمانيين والأراضى التى أضافتها إلى ممتلكاتها.

٤٣- تعترف الدول باستقلال رومانيا.

٤٤، ٤٥ : تتخلى رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا وفقًا لمعاهدة باريس سنة ١٨٥٦.

٤٦- تمتلك رومانيا الجزء المكون لدلتا الدانوب وتأخذ جزء من جنوب الدوبرجا.

٤٧- تختص بمسألة وحقوق الصيد فى دلتا الدانوب.

٤٨- لا تفرض رومانيا ضرائب مرور على التجارة المارة بها.

٤٩، ٥٠- خاصة بحقوق رومانيا وواجباتها.

٥١، ٥٢- لصيانة الملاحة فى الدانوب وهى مصلحة دولية تقرر الدول ألا يتبقى حصون على النهر من البوابة الحديدية إلى المصب ولا توضع فى هذا الجزء سفن حربية.

٥٣- تمثل رومانيا فى لجنة الدانوب.

٥٤، ٥٥، ٥٦- خاصة بحقوق هذه اللجنة وشروط بقائها.

٥٧، ٥٨- يتنازل الباب العالى للروسيا فى آسيا عن أراضى أردهان وقارص وباطوم.

٥٩، ٦٠- تسترد تركيا وادى الأكرو ومدينة بايزيد وتتنازل تركيا لفارس عن مدينة وإقليم خترە.

٦١- يتعهد الباب العالى بأن يحقق على وجه السرعة التحصينات والإصلاحات التى تستلزمها حالة أرمينية وحمايتها ضد الشركس والكرد ويقدم للدول فى فترات مختلفة تقريرًا عن الإصلاحات (فى هذه المنطقة).

٦٢- يعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى ولا يجب أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل فى حماية رعاياها.

٦٣- المحافظة على معاهدتى ١٨٥٦، ولندن سنة ١٨٧١ فى كل شروطهما التى لا تتعارض مع هذه المعاهدة.

٦٤- خاصة بموافقة الدول على هذه المعاهدة — التاريخ ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ إمضاءات ممثل الدول.

"لانعقاد المؤتمر والخطة التى سار عليها ومناقشاته وجلساته يحسن قراءة تقارير وزير الخارجية الفرنسية وانجتون المؤرخة ١٤، ١٨، ٢١، ٢٤، ٢٦ يونيو وأول يوليو، ٦، ٨، ١٤ فى الوثائق السياسية الفرنسية الجزء الثانى المجموعة الأولى.

ويلاحظ فى مواد معاهدة برلين أنها تشمل المملكة البلغارية وإعتراف الدول باستقلال الدولة العثمانية وكذلك الصرب ولم تحاول معاهدة برلين إيجاد حل للنزاع الذى أصبح شبه دائم بين الدولة العثمانية واليونان بخصوص الحدود بين الدولتين وأكدت استقلال رومانيا والصرب والجيل الأسود وأنشأت بلغاريا التى كانت منقسمة فى أول الأمر وموزعة، كما حاولت معاهدة برلين قبل كل شئ التوفيق بين مصالح الدول الكبرى فى البلقان ونفذت إلى حد كبير سياسة الاستصلاح والتعويض. فلقد امتد النفوذ الروسى فى آسيا بعد إخضاع القوقاز، وأصبحت حدود الروسيا متاخمة لأرمينية العثمانية، ولكى تعيد إنجلترا التوازن فى شرقى البحر المتوسط لصالحها احتلت جزيرة قبرص،

للدفاع عن تركيا الأسيوية حتى يتم إيقاف النفوذ الروسى من أن يمتد إلى الشرق الأدنى.

ونجح بسمارك فى توطيد دعائم السلام الذى كان يهدف إليه وسجل تفوق ألمانيا فى أوروبا وعاد لفرنسا لعب دورها فى حياد أوروبا السياسية كدولة عظمى. وأما الدولة العثمانية فطرد الأتراك من أوروبا. وسجل نمو نفوذ القناصل ذلك النفوذ الذى سيعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى أو تشريعى فى الدولة العثمانية وسيعمل أخيرًا على تدهورها النهائى ثم سقوطها.

وإذا كان لمعاهدة برلين من أثر على روسيا فهى ستوجه اهتمامها إلى الإمبرياليوم فى شمال آسيا ووسطها وشرقها حيث أخذت تصطدم بالشعوب الأسيوية الشرقية وبالدولة اليابانية التى بدأت فى الظهور على مسرح السياسة الأسيوية والعالمية كما أخذت تصطدم بالمصالح الأوروبية الإنجليزية والفرنسية فى الصين.

حافظت معاهدة برلين على السلام الأوروبى وعمل التفوق الألمانى فى أوروبا على توجيه نصر الدول الكبرى إلى إتباع سياسة الإمبريالزم السياسى والاقتصادى فى إفريقيا وآسيا. على حساب الشعوب الإفريقية والعربية والإسلامية وشعوب الهند والشرق الأقصى. يحسن بنا أن نعرض شيئًا مما كان يدور فى الطرقات للمؤتمر وفى غرفه الخليفة من اتفاقيات سيكون لها أثرها الخطير على مصير الدولة العثمانية ومصير البلاد الإسلامية التابعة لها وقرب نهاية المؤتمر فى إحدى الطرقات الجانبية فى ٧ يوليو ترأى لسولسبرى وزير الخارجية أن يخبر زميله وزير الخارجية الفرنسية بهذه الاتفاقية اتفاقية ٢١ مايو فثارت ثائرة الوزير الفرنسى ولم يحاول إخفاء استيائه وسارع إلى إنذار حكومته، ثم نشرت الصحف هذه الاتفاقية. وهاجم الملكيون والجمهوريين هذه الاتفاقية هجومًا عنيفًا ثم تغير موقف الرأى العام فى فرنسا فجأة وأخذت

الصحافة الفرنسية تناقش سياسة إنجلترا باعتدال وتنتحل لها الأعذار وتجد لها المبررات فى عقد مثل هذه الاتفاقية وسرعان ما علم الرأى العام فى فرنسا باتفاقية قبرص.

وحين أخبر سولسبرى وادنجتون باتفاقية قبرص، بأن فرنسا لن تقبل أبدًا الإخلال بالتوازن الدولى فى شرقى البحر المتوسط والانتقاص من نفوذها فى هذه الناحية ووضع إذلال جديد لفرنسا وهزيمة للنظام الجمهورى، ولذا فوادنجتون لن يستطيع اجبار فرنسا الموافقة على ذلك الموقف الجديد وأنه ليس أمام ممثلى فرنسا سوى الانسحاب من المؤتمر.

وكان كل من بسمارك وسولسبرى مستعدًا لقبول ذلك ولذا أخبر سولسبرى وادنجتون أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بصفة عامة بمصالح فرنسا فى البحر المتوسط فى لبنان وفى الأراضى المقدسة لا سيما فيما يختص بحماية الكاثوليك فى هذه المناطق وهى على استعداد للإعتراف بأن المصالح الفرنسية فى مصر على قدم المساواة مع المصالح الإنجليزية. فالحكومة الإنجليزية موافقة على إعطاء فرنسا حرية التصرف فى تونس وأن إنجلترا لم تقدم على أى تعديل فى الموقف السياسى فى الشرق الأدنى. دون موافقة فرنسا إذا كان للنمسا والمجر أن تقوم بمهمة حضارية فى غربى البلقان وإنجلترا فى آسيا الصغرى، ففرنسا أمامها فرصة لخدمة الحضارة فى شمال إفريقيا.

قبلت الحكومة الفرنسية العرض الإنجليزى الألمانى وكانت الحكومة الفرنسية ترى أن إنجلترا خرجت من الميدان فلم يبق من يهتم بأمر تونس غير إيطاليا والدولة العثمانية فلقد بينت لها فرنسا فى مواقف عديدة أنها لا تعتبر تونس جزء من الإمبراطورية العثمانية. ولما اطمأنت الحكومة الفرنسية إلى موقف إنجلترا عملت على تكشف الموقف فى تونس فكلفت قنصلها الجنرال روسيتان بالاتصال شخصيًا بالباى وعرض مشروع حماية فرنسية عليه بصفته الشخصية لا بصفته الرسمية. وأسرع الباى سيدى محمد الصادق إلى القنصلين الإنجليزى

والإيطالى يستشف رأيهما وموقف حكومتهما بإزاء هذه الموضوع وحاول القنصلان بطبيعة الحال تكذيب روسيتان وأيدا الباى فى رفضه لمشروع القنصل الفرنسى، ولذا وجدت فرنسا ضرورة التخلص من عدوها العنيد القنصل ريتشارد ود، وطلبت من حكومته سحبه من تونس حتى لا يقف عائقًا أمام تقدم النفوذ الفرنسى فى هذه البلاد ووجد وادنجتون كل تعضيد من ناحية بسمارك مما اضطر سولسبرى فى أخر الأمر إلى سحب قنصله من تونس وأنهى عمل القنصلية البريطانية من الناحية السياسية وبذلك وضع حدًا للتنافس الفرنسى البريطانى فى تونس وكانت تعليمات سولسبرى إلى قنصله الجديد بألا يقوم بأى نشاط سياسى فى تونس. وبذلك لم ينقض صيف ١٨٧٩ إلا وقد اطمئن الفرنسيون تمامًا من ناحية إنجلترا بخصوص موضع تونس.

وكانت إيطاليا هى العقبة الكبرى فى سبيل الفرنسيين وكانت فرنسا على علم بأن إيطاليا محاولتين لفرض سيطرتها على تونس. المحاولة الأولى قبل مؤتمر برلين سنة ١٨٧٠ حين سقطت فرنسا أمام الألمان والمحاولة الثانية كانت عقب برلين نتيجة لازدياد النفوذ النمساوى فى الأدرياتى والبلقان بعد احتلال الجيوش النمساوية للبوسنة والهرسك، فحاولت إيطاليا عن طريق مبعوثها مورس فى فرض حماية على تونس ولكنها فشلت فى المرة الأولى. ولم تكن إيطاليا ولا روسيا تدرى ما حدث من وراء الستائر مناقشات مؤتمر برلين — حقيقة أنه وصل إلى علم الحكومة الإيطالية الشائعات ولكن الحكومة الإنجليزية لم تعط إيطاليا ردًا واضحًا.

حاولت إيطاليا بعد فشلها فى فرض الحماية الإيطالية على تونس أن توجه نشاطها إلى مصر. فحاولت أن يكون لها نفوذ فى مصر مماثل لنفوذ إنجلترا وفرنسا ولكن إنجلترا رفضت هذه المرة قبول وجهة النظر الإيطالية فهى لا تسمح بوضح مصر تحت حماية دولية — وحين حاول إسماعيل الاستفادة من نمو الوعى القومى وضمه إلى جانبه ثارت الدولتان تؤيدهما الحكومة الألمانية

على سياسة الخديوى إسماعيل من الباب العالى، وسياسة خلفه فى السنة التالية لمؤتمر برلين ووضع توفيق محل أبيه وسيطرتا عليه فلقد أعادت الدولتان نظام المراقبة الثنائية. وأجاب بسمارك بأنه غير مؤيد مطالب فرنسا وأنه: (خير للإيطاليين أن ينصرفوا إلى معالجة مصائبهم).

وكانت مهمة بسمارك بالنسبة للإيطاليين ساخطة حازمة ولدنه بالرغم من ذلك النزاع القائم بين فرنسا وإيطاليا نتيجة لمعاهدة برلين وبالرغم من ثورة الرأى العام الإيطالى على هذه المعاهدة خرجت إيطاليا من برلين "نظيفة اليدين" كما يقول وزير خارجيتها كورتى.

ولقد صرح خليفة وادنجتون وهو دى فرنسيه بموقف فرنسا حيث ذكر للسفير الإيطالى: "فى كل ما يختص بتونس نرى أن مصلحتنا السياسية والاستراتيجية تقتضى ألا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر أى نفوذ وأنا نرى أن تونس ما هى إلا امتداد لمستعمراتنا الإفريقية. وأن حريتنا فى العمل فى الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما حدث فى تونس وأن سياسة الباى يجب أن تكون مرتبطة بسياستنا".

وأخيرًا رأى الفرنسيون سرعة التدخل الحربى فى تونس وخاصة بعد أن جاءت وزارة الأحرار على الحكم فى إنجلترا ولم تكن راضية عن تصرفات وزارة المحافظين التى سبقتها وكان من أكبر العاملين على سرعة الإقدام على غزو تونس السفير الفرنسي فى برلين سان فاليير فلقد بذل بإقناع ولاة الأمور فى فرنسا بالتدخل قبل أن تقفز دولة أخرى فتحل محل الفرنسيين فى هذه البلاد وأمام هذه القدر رأت فرنسا ألا مفر لها من استخدام القوة ضد تونس لتأديب تونس وإيطاليا ومعالجة إخضاع القبائل التى تقيم على الحدود بين تونس ومراكش وعملت إنجلترا على تقرير الفرنسبين من الاستمرار فى عملياتهم الحربية ضد طرابلس وبينت أنه لن تسمح بذلك فطرابلس فى نظرها جزء من الدولة وكانت إنجلترا تخشى أن يصبح البحر المتوسط بحيرة فرنسية وترتو

ببصرها إلى مصر كتعويض لإنجلترا من احتلال الفرنسيين لتونس ولذلك لم يمض أكثر من عام إلا وكانت إنجلترا قد ضربت الإسكندرية واحتلت مصر بعد عام. وبدأت المناقشة بين الدولتين تأخذ دورًا خطيرًا يكاد ينتهى بوقوف الحرب حتى تم الوفاق سنة ١٩٠٤.

وأما إيطاليا فلقد نظرت إلى احتلال الفرنسيين لتونس كإذلال جديد لها وسقطت وزارة كيرولى التى كانت تتولى الحكم آنذاك وعرفت أنها لا تستطيع الدفاع عن كرامتها بمفردها ورأت الانضمام إلى ألمانيا ولكن بسمارك ذكر أن الطريق إلى برلين لابد أن يمر على فيينا وعلى إيطاليا أن تحسن علاقتها بالنمسا وأذعنت إيطاليا للأمر وعقد الحلف الثلاثى فى سنة ١٨٨٢.

ووجهت إيطاليا نظرها على أنه المكان الوحيد فى شمال إفريقيا الذى تستطيع الذهاب إليه وبدأ القرن العشرين وقد صممت إيطاليا على انتهاز فرصة تداعى الدولة العثمانية لغزو هذه البلاد — وبهذا تحققت فى آخر الأمر سياسة بسمارك بحذافيرها من حيث تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية. وكان من آثار مؤتمر برلين زيادة توثيق العلاقات بين ألمانيا والنمسا لاسيما بعد عقد معاهدة التحالف سنة ١٨٧٩ أن اتجه نظر روسيا القيصرية إلى تثبيت دعائم نفوذها فى آسيا الوسطى الإسلامية وإيران والشرق الأقصى، فاصطدمت مع إنجلترا فى أفغانستان ومع اليابان فى الشرق الأقصى.وكان من آثار مؤتمر برلين زيادة اهتمام العثمانيين وخاصة السلطان عبدالحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وبالتقارب مع ألمانيا لتستطيع الوقوف أمام مطامع الفرنسيين فى تونس ومطامع الفرنسيين والإنجليز فى مصر وزاد النفوذ الألمانى فى ممتلكات الدولة العثمانية إلى حد أخذت تستغله المطامع الاستعمارية الألمانية الناشئة فحاولت بعد سقوط بسمارك، فوضعت مشروع سكة حديد بغداد لتربط بين برلين واستامبول وبغداد.

وكـان نجـاح الامبريالـزم الأوروبـى ونمـوه بعـد مؤتمر برلين من عوامل القضاء علـى مـا بقـى مـن الدولـة العثمانـية نفـسها. بسقوط السلطان العثمانى عبدالحمـيد الثانـى سـقطت الخلافـة مـن الناحـية العملـية وأخـذ العثمانـيون يتمـسكون بأهـداب مـبادئ أخـرى كالفكـرة الطورانية التى ترمى إلى إحياء لغة الـترك وتقالـيدهم التركـية الـصميمة فانقـسمت الدولـة إلى عنصريها الأساسيين العنصر التركى والعنصر العربى.

(١) عبدالعزيز نوار، عبدالمجيد نعنعي: التاريخ المعاصر. ص٢٩٣.

(٢) نفسه، ص٢٩٤.

(٣) نفسه، ص٢٩٥.

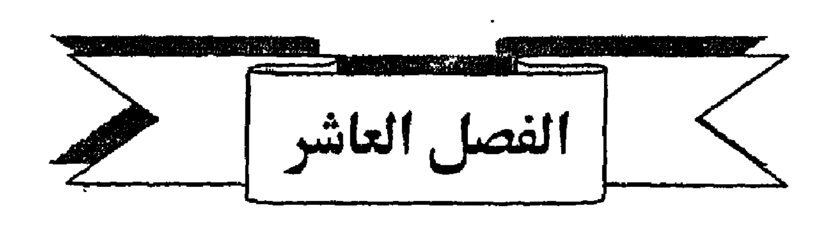
(٤) نفسه، ص٢٩٧.

(٥) جرانت، تمبرلى: تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين،ج٢، ص٢١.

(٦) بقى شمال غرب مقدونيا، أبيروس وألبانيا. وتساليا، فى يد الأتراك ولكن "بلغاريا الكبرى" بطبيعة الحال فصلت هذه الأجزاء عن أى اتصال بالقسطنطينية. أما اليونان التى لم تدخل الحرب فلم تتسع حدودها وقد وضع برنامج للإصلاح فى تساليا وكريت.

(٧) جرانت، تمبرلى: المرجع السابق، ج٢، ص٢٣.

(٨) محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين وأثره على البلاد العربية ، ص .



﴿التحالفات الأوروبية﴾

أولاً : محالفات بسمارك

ثانياً : التحالف الإنجليزي اليابانى

ثالثاً : الوفاق الودى البريطانى الفرنسى

التحالفات الأوربية

أولاً: محالفات بسمارك.

يمثل مؤتمر برلين حدًا فاصلاً في تاريخ أوروبا إذ سبقه ثلاثون عاما من الصراع والتغيير المفاجئ، وأعقبه أربعة وثلاثون عامًا من السلم. ولم تتغير أى حدود أوروبية حتى عام ١٩١٣، ولن يجدى الأمر قليلاً أن يغرى هذا الإنجاز الهائل لحذق الساسة الأوروبيين بمفردهم أو حتى بشكل أساسي ولا ريبة في أن السبب الحاسم لذلك كان اقتصاديًا، فإن السر الذى جعل بريطانيا دولة عظمى لم يعد سرًا لأن الفحم والصلب قد وفروا الرخاء لجميع أنحاء أوروبا وإعادة صياغة الحضارة الأوروبية وشغل الناس كثيرًا في تجميع الثروة ورغم أن التعريفات الحامية ظلت في كل مكان باستثناء بريطانيا العظمى. إلا أن التجارة الدولية كانت حرة. فلم يكن تدخل من جانب الحكومات ولم ينكر وجود خطر للديون. وكان مستوى الذهب. عاليًا واختفت جوازات السفر ماعدا في روسيا وتركيا. وإذا ما عزم أحدهم في لندن – على التوجيه إلى روما أو فيينا في التاسعة صباحًا فكان في مقدوره أن يرحل في العاشرة صباحًا بدون جواز سفر أو دفاتر شيكات ويكتفي بكيس من النقود في جيبه. ولم تكن أوروبا قد عرفت مثل هذا السلم والوحدة من قبل، ولم يكن عصر مترنيخ شيئًا يقارن ذلك. وعليه فقد عاش الناس في هلع متأصل من الحرب والثورة وبدأوا يعتقدون وقتئذ أن السلم والأمن شيئان طبيعيان وما عداهما مخالفًا لذلك.

وقد وجدت كل الدول العظمى باستثناء إمبراطورية النمسا والمجر مجالاً أمنًا لتوسعهم خارج أوروبا. واصطدمت عند هذا الحل بطريق المصادفة بدون بصيرة. ولقد افتتح ليوبولد الثالث ملك البلجيك بشكل كله غرابة (عصر الاستعمار) لا حاكم أى دولة عظمى وقامت الإمبراطوريات بطريق المغامرين أكثر منها بالعمل الرسمي.

وفى عام ١٨٧٩ بدأ بسمارك إقامة تحالفات قدر لها أن تشمل بريطانيا العظمى فى أوروبا ومعظم الدول الصغرى. وأعد رؤساء الأركان خطط الحرب لزيادة المشكلة وتحدثوا بجدية عن الصراع الذى سينشب، وبنيت الأساطيل وأعيد بناء أساطيل أخرى وتم تدريب ملايين الرجال للحرب. وبالنظر إلى الوراء فإنه لمن الصعوبة بمكان أن نصدق أنه كان ثمة جدوى من الحرب فى أوروبا على نطاق واسع فى الأوقات بين عامى ١٨٧٨، ١٩١٣ وربما كانت عقدة الدبلوماسية لهذه الفترة لم ترد عن كونها لعبة هائلة وهو نظام الإعانة الخارجية كما أطلق، عليها لشغل الأرستقراطيين فى أوروبا بما يعود عليهم بالنفع، وكانت الدبلوماسية أمرا حتميًا خلال الثلاثين سنة السابقة فقد شكلت مصائر الناس.

ولو صار كافور أو نابليون الثالث أو بسمارك وفق سياسة مخالفة لما كانت هناك إيطاليا أو ألمانيا متحدة، ولكن هل كان الأمر يختلف فى جيل بعد ١٨٧٨ وإن لم يكن هناك تحالف نمساوى ألمانى أو تحالف فرنسى روسى؟ يتعين على عمل التاريخ الدبلوماسى أخذ الدبلوماسية بشكل جدى وربما يكون الأمر كافيًا أن نقول أن الدبلوماسية ساعدت رجالاً ليصلوا فى سلام طالما إن كانت هذه إرادتهم.

ولم يكن هناك أهمية للعلاقات بين الدول العظمى. وكان بسمارك يصوغها طالما أن لها أهمية بالمرة، ولم يكن هذا هو الوضع فى سنى ما قبل مؤتمر برلين أو حتى إبان المؤتمر. وحاول بسمارك من حين لآخر أن يخفف من التوتر بين الدول العظمى أو أن يقوم بدور "السمسار الشريف" ولم يكن قد ساد المسرح البريطانى. وتجدر الإشارة أن البريطانيين كانوا السبب فى أزمة ١٨٧٨ بعزمهم على مناهضة الروسيا وأنهوها بسلام باستخلاص اتفاقات مرضية من الروسيا وسارت الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا فى أعقاب بريطانيا العظمى كل بطريقتها المختلفة. وبعد المؤتمر كان لا يزال للبريطانيين القيادة، فقد سيطروا

على البعثات التى تقرر أن تطبق شروط المعاهدة وبتأييد من النمسا والمجر وفرنسا فقد شجعت المفاوضات التى أدت إلى سحب القوات الروسية من البلقان فى يوليو ١٨٧٩، وأعلن وزير خارجية بريطانيا سولسبرى بإمكان إعادة الإمبراطورية العثمانية دولة عظمى، ولكنه فكر فى نظام المحميات المقنعة فالنمسا والمجر من خلال احتلالهما للبوسنة والهرسك ينبغى أن تكون مسئولة عن غربى البلقان وعلى بريطانيا العظمى إصلاح أو حراسة آسيا الصغرى كما ورد فى اتفاقية قبرص وربما ألقى لفرنسا بدور مماثل فى شمال إفريقيا لتشجيعها على أن تأخذ تونس، وكان هناك شرخ فى هذا النظام وكانت القسطنطينية عاصمة إمبراطورية لا تزال قائمة ولم يفعل سولسبرى أى شئ للحفاظ عليها، وكان أبسط حل هو تحالف بريطانيا مع النمسا والمجر ولم يكن ذلك ميسورًا حتى عندما كانت الجيوش الروسية عند أبواب القسطنطينية وظل مخادعًا فى الشهور التالية أضف إلى ذلك لم يكن لدى سولسبرى إيمان فى ذلك الحين بالنمسا والمجر بصورة أكبر من إيمانه بالإمبراطورية العثمانية — وآثر أن تتصرف بمفرده ولذا نجد أن تصريحه فى المؤتمر حول الحكم فى المضايق يوضح الطريق وكانت للبريطانيين حرية المرور فى المضايق حينما يحلو لهم ذلك. وفى عام ١٨٧٨ لم يكن فى وسع الأسطول البريطانى إنقاذ القسطنطينية والروس خارجها فعلاً لكن بانسحاب القوات الروسية أمكن للبريطانيين حماية القسطنطينية بالمرور فى المضايق ومهاجمة الروس فى البحر الأسود. وكان هذا هو الافتراض وراء السياسة البريطانية فيما بين مؤتمر برلين وسقوط حكومة المحافظين فى أبريل عام ١٨٨٠. ولا ريب فى أن السياسة كانت دفاعية ولكن إذا ما دعت الحاجة فسوف تدافع عن تركيا بضرب أوكرانيا وهى أغنى وأكبر جزء من الإمبراطورية الروسية عرضة للضرب.

وكان الافتراض البريطانى واضحًا أمام اروس. وفى الواقع كان الخوف من الهجوم فى البحر الأسود هو الدافع الرئيسى لسياسة الروسيا فى الشرق

الأدنى فى السنوات الثمانى عشر التالية. ولم يفعل الروس شيئًا لاستعادة أسطول البحر الأسود الذى تم تدميره خلال حرب القرم. ولهذا السبب احتاجوا إلى ترابط دولى من نوع معين لابدال معاهدة لندن عام ١٨٤١، التى فتتها تصريحات سولسبرى فى برلين، وكان يمكن لتحالف البحر المتوسط أن يفعل شيئًا لإعاقة الأسطول البريطانى. وحاول الروس اكتساب إيطاليا إلى صفهم وعلى الرغم من أن الإيطاليين لم ينالوا شيئًا من المؤتمر وكانوا كارهين وغير راضين إلا أنهم لم يجرأوا على العمل ضد بريطانيا فتحدث البعض فى الخلاف عن التحالف مع فرنسا — وكانت هذه الفكرة حمقاء. وكان التحالف الليبرالى (للقوى الغربية قد أعيد إلى درجة كبيرة وأيدت فرنسا النمسا والمجر البريطانيين فى اللجان البلقانية)، وكان آخر ورقة للروسيا كما كانت دائمًا هى الصداقة التقليدية مع ألمانيا وهى صداقة قوتها روح الكراهية لبولندا.

ولما لم يكن لألمانيا مصالح فى البلقان فالواجب عليها كما قال الروس أن تؤيد الروسيا فى البلقان وفى المضايق. زد على ذلك لم يتخل الروس عن الحلم القديم بأنه يجب استغلال ألمانيا بطريق ما لدفع النمسا والمجر نحو نهج يميل للروسيا. وكان الروس لا يزالون يفكرون فى ألمانيا على أنها تابعة معترفة بالجميل وافترضوا إمكان دفعها إلى تحالف وذلك بإظهار حدة المزاج وكان ذلك فى الواقع الطريقة الوحيدة التى عرفوها.

كان هذا هو الموقف الذى حدا بسمارك للعمل. فقد كان تحالف الروسيا ضد تحالف القرم قد رفضه مرارًا الساسة البروسيون وكان التحالف ضد الروسيا مكروهًا بالمثل. وفى خلال حرب القرم تهربت بروسيا من الالتزام بموقف معين مع أى طرف ودفعت ثمن كونها مجهولة كدولة عظمى. وكان نشاط بسمارك آخر محاولة للحفاظ على هذا الموقف. وفى ذلك الحين انخرط فى المحالفات الأوروبية؛ وحتى فى المسألة الشرقية. ومما لا ريب أن هدفه كان شخصيًا.

وكـان بسمارك قد شكل أوروبا الجديدة وتعين عليه أن يحافظ عليها. وكف عن القيام بدور كافور وصار مثل مترنيخ، ومن ثم فقد كان أيضًا "صخرة النظام".

وكان نفس الأمر ساريًا في سياسته الداخلية التي تغيرت كذلك وبشكل حاسـم في عام ١٨٧٩ واختلف بسمارك مع الليبراليين الوطنيين وبدا يعتمد إلى حد بعيد على الأحزاب المحافظة ولقد امتدت الثورة بشكل كبير وتعين إنهائها فـي ذلـك الحـين ومع ذلك فإن التحالف الذى كان قد أقامه مع النمسا والمجر كـان تهدئـه لليبراليين الذين نبذهم في الشئون الداخلية وعلى الرغم من أنه لم يعطهـم ألمانـيا العظمـى إلا أنـه أعطـاهم اتحاد دولتى ألمانيا القائم على الشعور الوطنـى، غـير أن موضوعه هذا فاق السياسات الألمانية إذ أنه أراد الحفاظ على تـوازن القـوى فـى أوروبـا والأكثـر من ذلك النظام الملكى، وضم نظامه المحافظ المتأصـل فـى اهـتمامه بطبقـته كـلاً مـن أسـرة الهابـسبرج والنظام القيصرى في الروسيا. وفـى الحقيقة أراد أن يعيد التحالف المقدس على عصر مترنيخ، وكان الـشرط الوحـيد لـذلك هو كبح جماح الروسيا فى الشرق الأدنى، ولقد ظهر هذا علـى وجـه الـيقين بعـد عـام ١٨٧٨ كانـت العقـبة الجديدة، هى طموح النمسا والمجـر، أو بالأحـرى شـكلها الراسـخ حـول مخططات الروسيا فى البلقان ولم يتخلص بسمارك مطلقًا من هذه العقبة وفى نهاية الأمر قضت على نظامه.

أمـا خارجـيًا فقـد كـان الأمـر دائمًـا لعـبه سـحرية لمنع صراع نمساوى روسى. ولقد قام مرتنيخ برفع الخوف من الثورة أمام عين القيصر وكانت طريقة بـسمارك أكثـر اتقانًا. فقد بدأ بنزع النمسا والمجر من اتحاد القرم وذلك بتقديم ضمان الـتحالف مـع ألمانيا، فإذا ما منعت من الحركة فقد جعل هذا التحالف شـرطًا لتـسوية أمـورها مع الروسيا وكان خوفه الحقيقى من عدم استقرار النمسا والمجـر لا مـن العـدوان الروسـى، ولكـنه لم يـستطع أن يصرح بذلك إلى أن تم الـتحالف النمـساوى الألمانـى وكانت مثل هذه الأمور المعقدة، تفوق قدرات وليم الأول، وعـندما كـان قيـصر الروسـيا مـؤيدًا للتحالف الليبرالى وكان فى الإمكان

شغله بتحالف مع النمسا والمجر وذلك بحجة أن ألمانيا كانت فى خطر محدق من أن تهاجمها الروسيا. ولكن بسمارك لم يكن لديه رأى طيب عن مقدرة سيده واستعمل حججًا وأسانيد — نتيجة للتأثير عليه رغم كل شئ كان الأمر يسيرا لإقناعه فى عام ١٨٦٦ لأن النمسا تهدده. ولم يكن الحكام المطلقين فقط هم الذين يجب إرغامهم ودفعهم لسياسة الأمن عن طريق أخطار وهمية تخطط على الجدران بالرأى العام فى البلدان الديمقراطية، وكان لدى بسمارك غرض ثان، فقد تمنى إقناع الفرنسيين أن التحالف النمساوى الألمانى سيوجه أساسًا ضد الروسيا وفى عام ١٨٧٩ كان الفرنسيون لا يزالون على استعداد لتقبل هذا النمط من المناقشة.

ويوضح شعور بسمارك نحو فرنسا سياسته الخارجية برمتها فقد أبصر ذلك السياسى الكبير لفرنسا عدو بلاده العنيد، الذى يأكل الغل قلبه، والذى يجب عدم الركون إليه قط، وينبغى إضعافه وإقصاؤه على الدوام من حظيرة جيرانه الأوروبيين. وقد خدمت منطقة ساحل إفريقية الشمالى، أغراضه كأداة لدبلوماسيته المعادية للأمور الفرنسية. فقد شجع فرنسا على امتلاك تونس، كى تتشاجر مع إيطاليا، وشجع إنجلترا على امتلاك مصر، كى تتشاجر مع فرنسا. وكذلك كانت الاتفاقات البحرية الإنجليزية الإيطالية التى أبرمها اللورد سولسبرى سنة ١٨٨٧ ثمارًا لنفس السياسة السيئة المقصد البعيدة النظر، التى كانت ترمى إلى عزل فرنسا، وحرمانها من أن يكون لها صديق فى أوروبا. كما أن بسمارك لم يغفل مراقبة مجرى القوى السياسية المختلفة فى باريس نفسها. فمع أنه كان ملكيًا فى ألمانيا، فقد كان محبذًا للنظام الجمهورى فى باريس نفسها. وإذ كانت الجمهورية فى نظره أضعف جميع أشكال الحكم وأسوأها.

أما فى شرق أوروبا، قد كانت أهم وسيلة من وسائل الدفاع الدبلوماسى التى لجأ إليها بسمارك لمنع تأليف تحالف دولى قد تنظمه فرنسا الحاقدة على بلاده، هى تكوينه ذلك التحالف الإمبراطورى الثلاثى السالف الذكر، الذى

تألف في يونيو سنة ١٨٧٢، وكان لا يزال حيًا سنة ١٨٧٨، حين عرضه مؤتمر برلين لأزمة شديدة، وهو المؤتمر الذى وصفه قيصر روسيا بأنه "تحالف أوروبى تحت زعامة الأمير بسمارك ضد روسيا". ولكن تحالف الأباطرة الثلاثة خرج من هذه الأزمة دون أن يقضى عليه فجبرت صدوع الصداقة، وجدد التحالف مرة أخرى، وأعلنت أوروبا كل أعوام ثلاثة بأن عواهل الإمبراطوريات الحربية الكبرى، فى شرقها ارتبطت معًا بعرى متجددة من الصداقة والتضافر(٩).

بيد أنه برغم المزايا التى ترتبت على حسن تفاهم ألمانيا مع روسيا، فإن بسمارك لم يطمئن قلبه قط إلى جانب روسيا. بل كان يرى صداقتهم متقلبة لا يركن إليها ودبلوماسيتهم ماكرة خادعة، وكان يفصله عن جورتشاكوف كبير وزراء روسيا بغضاء تقوم على عدم التقدير وقلة الاحترام، وكان يرى أنه إذا اضطر إلى الاختيار بين روسيا والنمسا، فإنه سيؤثر على الدوام اختيار النمسا، من جهة لدواعي القرابة، ومن جهة أخرى لأنه إذا استأنفت النمسا لأية علة من العلل شجارها القديم مع بروسيا، فإنها تستطيع أن تتقدم بمطالب ضدها تقوم على أسس تاريخية، كحقوقها فى سيليزيا، وفى الإلزاس وفى الدوقيتين الدانماركيتين بل فى نظام الرايخ الألمانى نفسه.

ولهذا السبب وطن بسمارك النية، عندما سويت الخلافات البلقانية سنة ١٨٧٨، على إبرام معاهدة سرية مع النمسا، ومن وراء ظهر حليفته الروسيا. ولقد كان هذا العمل حاسمًا فى تاريخ أوروبا، فإن بسمارك وضع بلاده بهذه المعاهدة السرية فى صف النمسا فى نضالها القادم المرتقب ضد جامعة الأمم السلافية(١٠).

ولقد أبرم هذا التحالف الثنائى بين النمسا وألمانيا سنة ١٨٧٩. ثم صار بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ "التحالف الثلاثى": وهو التحالف الذى دام حتى نشوب الحرب العظمى سنة ١٩١٤. وإن دارسى العوامل الدبلوماسية السابقة لهذا الحدث عندما يرجع ببصره إلى القهقرى فى مجرى التاريخ، يبين

له هذا التحالف الذى عقده بسمارك وأندراسى Andrassy (وزير خارجية النمسا وقتئذ) بأنه كان حجر الزاوية لقيام الحرب العظمى. فقد قسمت الأقدار من لحظة إبرامه، بأنه إذا حدث أن تشاجرت النمسا وروسيا فى البلقان، فإن الجيش الألمانى سيقف جنبًا إلى جنب مع حليفه النمساوى. فقد نصت أهم مادة من مواد تلك المعاهدة الخطيرة الشأن على أنه "إذا هاجمت روسيا أحد الطرفين الموقرين المبرمين للمعاهدة، وهو عكس ما يرجوان، وضد رغبتهما الخالصة، فإن الطرفين ملزمًا بأن يتقدم لمساعدة أحدهما الآخر بكل ما لديه من قوة حربية، ويتعهدان بألا يبرما الصلح إلا معا، وبمقتضى اتفاق متبادل". ولذا كان تناقض هذا المعاهدة مع تعهدات ألمانيا العامة لروسيا عذرًا يبرر العناية الخاصة التى اتخذت لإخفاء أمرها.

ذلك أن بسمارك لم يكن يروم حربًا بين روسيا والنمسا. بل كان مطمحه الأعظم هو تجنب مثل هذه الحروب. إذا تجلت لذهنه الحاد القوى هذه الحقيقة، وهى أنه ليس ثمة ما هو أخطر من هذه الحرب على ألمانيا، وعلى أوروبا. غير أنه لم يكن هناك ما هو أسهل من قذف شرارة بين هشيم الدول البلقانية السريع الالتهاب، فتقوم حرب تتأجج فى ربوع أوروبا، وتمتد من نهر النيفا شمالاً إلى بحر إيجه جنوبًا. وكادت تقذف هذه الشرارة، حينما أعلنت ولاية الروملى الشرقية انضمامها إلى بلغاريا عام ١٨٨٥. فقد أكل الحسد قلوب جيرانها الصربيين، لاتساع أملاك عدوهم اللدود فجأة. واستلوا سيوفهم، وخرجوا للقتال. ولكن إسكندر أمير بلغاريا هزمهم فى معركة سليفتزنا Slivitzana.

وكانت أوروبا على قاب قوسين أو أدنى من نشوب الحرب بين دولها أثناء هذا القتال البلقانى. فقد عرف الجميع أن الصرب كانوا يعملون بإيعاز من النمساويين، وكان الجميع على دراية بأنه مهما كان شخص إسكندر (وهو بالمولد أمير من أمراء بيت باتنبرج الألمانى) مقيتًا فى عين قيصر روسيا، فإن

البلغار كانوا خاصة أتباع الإمبراطورية الروسية. فإذا سمح لهذا الشجار بين بلغاريا والصرب بأن يطول أكثر مما يجب، فمن اليسير أن يرى، أنه لا محالة من تولد الاحتكاك بين النمسا وروسيا، وأنه قد يعقب احتكاك كهذا نشوب القتال بينهما. وأن الطلقات الأولى المتبادلة بين النمساويين والروسيين ستجر ألمانيا إلى حومة الوغى[11].

ولهذا بذل بسمارك قصارى جهده ليتجنب حربًا كهذه. وإذ رأى أنها لا تساوى حياة فارس ألمانى واحد، أفلح فى تجنبها. فقد بعث إلى نينا يخبرها بضرورة تفادى القتال، ولم يسمح للنمساويين بالاندفاع والتهور. وفى الوقت نفسه عمل على تهدئة ثورة الروس، فمرت الأزمة البلغارية بفضل براعته ودهائه دون أن تحدث انفجارًا عامًا، وأنهيت على جناح السرعة تلك الحرب الصغيرة بين بلغاريا وصربيا، وعقد بين الدولتين البلقانيتين صلح بوخارست (فى ٣ مارس سنة ١٨٨٦) الذى قضى بإبقاء الحال على ما كانت عليه قبل الحرب.

غير أن الأمير إسكندر، الذى كان شخصه موضع حقد الحكومة الروسية، أكره على التنازل عن عرشه فى سبتمبر ١٨٨٦. فاختارت الدول من البيوت المالكة الألمانية، التى لا ينضب لأمرائها معين، أميرًا تقبله النمسا، وكان هذا الأمير هو الملك فرديناند، الملقب "بثعلب البلقان"، الذى رغم حذقه أفانين السياسة وأساليب الدهاء، ضم الشعب البلغارى فى الحرب العظمى إلى الجانب الخاسر.

ووقفت إنجلترا إزاء المحالفات المضادة للأمة الفرنسية حرة طليقة، وفى "عزلة مجيدة". فلم تجرؤ حكومة إنجليزية، حرة كانت أو محافظة، على أن تربط الشعب الإنجليزى بحبائل السياسات الأوروبية الماكرة. وبقيت تلك الجزيرة بمنأى عن المؤامرات، لا يحسب لها حساب. أما فى نظر أهل القارة، فقد وقفت هذه البلاد وقفة غامضة، تكتنفها الألغاز، وتحوطها الأسرار.

ولكن إنجلترا كانت دءوبة فى تلك البرهة على تحقيق أطماعها فى جهات نائية عن المراكز الرئيسية للحياة الأوروبية، فقد كانت زمرة من رجالها تحكم فى الهند، وانتصرت حفنات من المستعمرين من أبنائها فى أراضى القارة الأسترالية ومستعمرة رأس الرجاء الصالح، ولم يكن فى مقدور ألمانى أن يبرر على وجه الضبط مدى تماسك أجزاء ذلك البنيان(١٢). غير أنه كان يضطر إلى التسليم بتفوق الإنجليز فى التجارة، وفى قوة الأسطول، واتساع الإمبراطورية.

ولكن شيئًا واحدًا بدا يومئذ للألمان مؤكدًا لا ريب فيه، وهو أن صداقة الإنجليز معناها عداوة الروس. فلاح لبعض ساستهم أن إبرام معاهدة سرية مع إنجلترا تبعدها عن فرنسا فكرة جذابة، وقد حاول بسمارك تحقيقها، أولاً مع دزرائيلى، ثم مع سالسبرى. ولكن الساسة الإنجليز أعلنوا أنهم يكرهون الدخول فى معاهدات سرية، وقالوا إنه لابد من إطلاع البرلمان والملكة فيكتوريا على كل شئ. كما تساءل أيضًا الألمان بدورهم، أى ضمان هذا الذى يمكن لهم أن يعتمدوا عليه فى مواثيق الحكومات الإنجليزية التى تجلس اليوم فى دست الحكم، ثم تذهب غدا، والتى هى على الدوام ألعوبة فى مهب أهواء الناخبين؟ فهل تستطيع وزارة محافظة مثلاً أن تضمن لهم عدم تغيير سياستها إذا ما خلفتها وزارة حرة؟ إن سالسبرى أظهر فى عبارة دبلوماسية شكوكه فى ذلك. كذلك كان بسمارك يميل إلى الاعتقاد بأن الديمقراطيات عاجزة عن "تسليم البضاعة".

ولهذا لم تبرم معاهدة بين ألمانيا وإنجلترا خلال حياة بسمارك. ومع أن المستشار الإمبراطورى العظيم كان يقدر صداقة إنجلترا، ويرغب — دون أن يعلن جليًا هذه الرغبة — فى أن يجر إنجلترا إلى داخل حلقة شركائه، إلا أنه لم يستطع قط أن يظفر حتى من حكومة محافظة بالتعهدات الصريحة أو السرية، التى كانت وحدها تستطيع أن تشبع مطالبه، وتهدئ من روعه(١٣).

أضف إلى ذلك أن ألمانيا بدخولها حلبة الاستعمار، ضاعفت كثيرًا من فرص الاحتكاك بينها وبين إنجلترا. فقد كان هناك احتكاك بين الدولتين

وبصدد إفريقية الجنوبية الغربية وإفريقية الوسطى، وبصدد جميكا وزنجبار. وكانت العلاقات الألمانية حينما تغدو طيبة مع روسيا، كان فى وسع بسمارك أن يتشاجر مع إنجلترا، ويحاول إرهابها – الأمر الذى كان يثير طرب الحكومة الروسية، وسرور الشعب الألمانى. غير أن لعبة إثارة إنجلترا وتحديها لم تكن بمأمونة المغبة، إلا حينما تكون علاقاته مع روسيا ودية. ولكن عند ظهور أول بادرة لتكدر العلاقات الروسية الألمانية، كانت إنجلترا ترجع إلى حظوته ورضاه.

ومع هذا ظل بسمارك لا يشعر بإطمئنان. فإنه برغم تحالف العواهل الثلاثة، وبرغم التحالف الثلاثى، والتفاهم بين إيطاليا وإنجلترا، وبرغم محالفات النمسا والمجر الأخرى مع الصربيين والرومانيين، وبرغم معاهدة سرية تأكيدية أبرمها مع روسيا سنة ١٨٨٧، برغم هذا كله بقى بسمارك خائفًا من نشوب حرب تجبر فيها ألمانيا على القتال فى جبهتين. والحق إنه لتعقيب محزن على سياسة القوة التى اتبعها بسمارك أن يجد نفسه مكرهًا فى سنة ١٨٨٧، بعد أن مارس الحكم الأوتقراطى خمسًا وعشرين سنة على التقدم إلى الرايشتاخ بطلب الموافقة على زيادة الجيش الألمانى إلى زهاء سبعمائة ألف جندى.

ثانيًا: التحالف الإنجليزى اليابانى

لقد شهد عام ١٨٩٥ قرارًا حاسمًا، إذ شنت اليابان الحرب على الصين، وما كان أعظم دهشة الغرب حين رأى المصارع الصغير قد هزم خصمه الجبار هزيمة منكرة. وقد نشرت مجلة **Bunch** رسمًا كاريكاتوريا تحت عنوان "اليابان قاتلة الشيطان" يمثل قزمًا صغيرًا يطأ بقدميه ماردًا جبارًا، ويوجه إليه ضربة قاضية بحد السيف، وبمقتضى معاهدة شيمونوسيكى **Shimonoseki** فى ١٧ أبريل ١٨٩٥ حصلت اليابان من الصين على الاستقلال لكوريا، على حين استولت هى على جزيرة فورموزا وشبه جزيرة لياوتونج بما فيها بورت آرثر. وهى ميناء فى المياه الدافئة، قريبة من بكين. وكانت روسيا تتحرق طمعًا فيها. وقد اعتزمت الدول الكبرى أن تلقن هذه الدولة الطفيلية الناشئة فى الشرق

درسًا، ففى ٢٣ من أبريل أرسلت روسيا وفرنسا وألمانيا إلى اليابان طلبًا جماعيًا للجلاء عن شبه جزيرة لياوتونج وبورت آرثر[١٤] وانصاعت اليابان لهذا الطلب فى هدوء؛ ولكنها لم تنس هذا الدرس، بل وعته فى ذاكرتها، ولم تشعر بأى حقد نحو فرنسا لأنها وقفت مع حليفتها، ولكنها استنكرت عمل ألمانيا أشد الاستنكار. وكانت الحكومة الألمانية قد حصلت من روسيا بالفعل على وعد بتأييد طلبها فى المستقبل فى الحصول على ثغر فى الصين، فوجهت إلى اليابان كلامًا غاية فى الغلظة تعبر فيه عزمها القضاء على أية تهديدات للسلم فى الشرق الأقصى، وبعد ٢٠ سنة من ذلك طلبت اليابان الجلاء عن هذا الثغر الذى كانت قد حصلت عليه، بنفس ألفاظ الإنذار النهائى الذى كانت قد تلقته، أما الانتقام من روسيا فكان أسرع، فقد اعتقد ذى الصلة الوثيقة بالساسة اليابانيين أن أحداث ١٨٩٥ لابد أن تحمل حكومة اليابان على إذلال روسيا واستعادة بورت آرثر، وقد تحقق الهدفان فى عشر سنين. وقد تورعت دولة كبرى واحدة عن الاشتراك فى الطلب الذى تقدمت به روسيا وفرنسا وألمانيا إلى اليابان، تلك هى إنجلترا، وربما كان تورعها وليد الحرص والحذر أو وليد الصدفة، ولكن تأثيره كان طيبًا على اليابان. ومنذ تلك اللحظة رأت اليابان فى الجزائر البريطانية فى الغرب حلفًا ممكنًا ضد الحكومة العسكرية فى أوروبا[١٥].

وبدأت تظهر فى العام الجديد ١٨٩٦ أولى علامات التصدع بين إنجلترا وألمانيا، ففى أواخر ١٨٩٥ قام جيمسون **Jameson** بحملته المشهورة على جمهورية الترنسفال. وفى ٣ من يناير ١٨٩٦ أرسل عاهل ألمانيا برقيته الشهيرة إلى الرئيس كروجر **Kruger** يهنئه فيها بهزيمة العصابات المسلحة التى اجتاحت أراضيه وقد فسر هذا فى إنجلترا بأنه محاولة من ألمانيا للتدخل معها فى الترنسفال، وأثار استياءً كبيرًا خاصة بين الشعب البريطانى. وقد تقهقرت الحكومة الألمانية عن موقفها تقهقرًا سريعًا، ولكنها خلفت وراءها ذيولاً من الريب والشكوك[١٦].

وحدث فى خريف ١٨٩٧ عدة تطورات فى السياسة الخارجية الألمانية، ففى يونيه عين أمير البحر تريبتز Tirpitz وزير للبحرية وفى أكتوبر عين الكونت (الأمير فيما بعد) بيلوف Bulov وزيرًا للخارجية (ثم مستشارًا فى أكتوبر ١٩٠٠)، وأعلن فى نهاية اسنة الأولى برنامج توسعى بحرى لألمانيا. وفى ١٤ من نوفمبر استولت ألمانيا على كياوشار "وبذلك حصلت على قاعدة بحرية عظيمة فى الشرق القصى، تكون حافزًا على طلب المزيد فى المستقبل.

أما روسيا، التى قبلت مكرهة حصول ألمانيا على تلك الغنائم، فهى تتلفت الآن حولها بحثًا عما يعوض خسارتها علمًا منها بأن فرنسا وألمانيا كليهما لن تعارضاها. واتصلت إنجلترا بروسيا فى يناير ١٨٩٨ حاملة بعض المقترحات للتفاهم مع إشارة خاصة إلى الصين وتركيا، ولكن روسيا بعد شئ من التأمل رفضت هذا العرض، وتقدمت وحدها فاستولت على بروث آرثر، وكشفت إنجلترا عن موقف عدائى مرير، وأرسلت احتجاجًا شديدًا، "واحتفظت بحريتها كاملة فى العمل" وتعويضًا عن ذلك استولت إنجلترا على ميناء واى هاى واى Wei – Hai – Wei ، وفرنسا على ميناء كوانج تشوان Kuangtchouan ، وكانت ألمانيا وروسيا أول من دخل الميدان، وحصلت روسيا أخيرا على ميناء فى المياه الدافئة[١٧].

ورغبة إنجلترا فى الاحتفاظ بوادى يانج تسى كيانج Yang – Taze – Kiang كمجال اقتصادى لها، ولكنها أحست أن الضرورة تقتضى حتمًا وقبل كل شئ بوقف الضغط الروسى على الصين. وكانت روسيا مع تقدمها السياسى المستمر، ترهق الحكومة الصينية التعسة بكل ألوان الإلحاح فى طلب الامتيازات الاقتصادية والمالية، مما لا قبل لها بردة إلا بمساندة دولة أوروبية كبرى. ولم تكن اليابان تبدو بعد شيئًا مهمًا، وبدا أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى تقوى على المساعدة. وبدأ لأسباب أخرى كذلك أن إنجلترا بدأت تحس أن "عزلتها"، لم تعد مثل روعتها. وعلى ذلك رضى لورد سولسبرى آخر الأمر

بإجراء اتصالات غير رسمية بألمانيا. وقد قام بها جوزيف تشمبرلن خلال ١٨٩٨ ، وقد أخفقت، من جهة، لأن ألمانيا اشتطت فى مطالبها، ومن جهة أخرى، لأنها لم ترد أن تذهب مذهب إنجلترا فى قمع روسيا. والواقع أن هذه أول مرة تقدم مثل هذه العروض لألمانيا. وربما كان عليها أن تقبل التحالف مع بريطانيا بثمن ما ولكنها أبت، وعقب إخفاق المفاوضات مباشرة وقع حادث سيئ الطالع، ذلك أن الإمبراطور، وهو فى طريقه إلى بيت المقدس للحج، ألقى فى دمشق خطابًا أكد فيه لثلاثمائة مليون مسلم، أن سيكون على الدوام صديقًا لهم، وقد أثار هذا الخطاب اهتمامًا بالغًا، لأن كثيرًا من ملايين المسلمين كانوا تحت الحكم البريطانى والفرنسى والروسى(١٨).

وكانت إنجلترا تفاوض ألمانيا، على حين أنها كانت فى نزاع مع فرنسا، ذلك أن سير (لورد فيما بعد) هربرت كتشنر كان قد شرع جديًا ١٨٩٨ فى إعادة فتح السودان، وفى الثانى من سبتمبر هزم جيش الخليفة فى أم درمان، ودخل الخرطوم بعدها مباشرة، ثم سمع بأن حملة فرنسية قوامها ١٢٠ شخصًا تحت إمرة كابتن مارشان **Marchan** وصلت فاشودة ورفعت عليها العلم الفرنسى المثلث الألوان، وفى ١٩ من سبتمبر شخص كتشنر بنفسه إلى فاشودة، ولكنه لم يستطع أن يحمل مارشان على إنزال العلم أو التخلى عن مزاعمه، وانتقل النزاع من الخرطوم وفاشودة إلى لندن وباريس، وهنا وقعت الأزمة، وكان هانوتو وزير الخارجية الفرنسية (الذى استقال فى آخر يونية) قد بعث بحملة مارشان لتثبيت حق فرنسا فى الأراضى الداخلية الاستوائية فى السودان وفى أعالى النيل، وفى الأصل فى مديرية بحر الغزال، ومن العسير أن نتوقع من إنجلترا التى ضحت بالدم والمال لإعادة فتح السودان بقوة الجيش أن تتنازل عن واحدة من أغنى المديريات لمرتاد فرنسا وفصيلة صغيرة، ومن ناحية أخرى كان من العسير على الفرنسيين أن يطووا العلم المثلث الألوان. ولم يكن يحسم القضية الآن إلا القوة أو التهديد بالقوة. فألقى لورد روزبرى **Rosebery** خطابًا أوضح

فيه أنه أثناء رياسته للوزارة، أعلنت إنجلترا أن أية دعوى من هذا القبيل تعتبر عملا غير دوى من جانب فرنسا، وقد كان هذا – بالإضافة إلى الموقف الصلب الذى اتخذه لورد سولسبرى، أمرا قاطعًا. وفى ٤ من نوفمبر أعلن السفير الفرنسى رسميًا الجلاء عن فاشودة.

ومرت الأزمة، ومن الأهمية بمكان أن الخلاف قد أدى إلى وفاق. كانت روسيا وألمانيا قد رفضتا العرض الذى تقدمت به إنجلترا للتحالف ولكن فرنسا تجنبت الحرب معها. لقد كان هانوتو **Hanotaux** يكره إنجلترا، أما دلكاسيه **Declcasse** الذى كان مع ذلك يختال وسط الذل والمهانة، فقد كان لديه الشجاعة ليتحدث عن الحاجة إلى اتفاق ودى مع إنجلترا، واعترفت فرنسا – فى منطق لا يلين – أنها لن تتدخل فى أعالى النيل، وأنه من الأفضل تسوية خلافاتها مع إنجلترا. وأعرب دلكاسيه عن رغبته بالقول والفعل معًا، فرقى اثنين من الدبلوماسيين الموالين وممن يكرهون ألمانيا بارير **Barrere** الذى أرسله إلى روما، وكامبون **Cambon** الذى أرسله إلى لندن وكان على كامبون فى ست سنوات، أن يكون المهندس الفرنسى فى وضع تصميم الوفاق[١٩].

وفى أواسط ١٨٩٨ كان القيصر قد أصدر نداءه المشهور للسلام، الذى انتهى إلى مؤتمر لاهاى الأول للسلام (مايو – يوليه ١٨٩٩). وقد كان إخلاص القيصر نفسه أمرًا مسلمًا به عادة، ولو أن الساخرين ذهبوا إلى أن سوء حالة المدفعية الروسية جعلت من الأسلم التريث فى التسليح، ولم تكن هناك على أية حال محاولة جدية للحد من التسليح، ذلك أن ألمانيا عارضته معارضة جبارة عندما اقترح هذا الحل، وبذلك أبطلت أى احتمال للنجاح، ولكن إنجلترا بذلت فى النهاية مسعى جبار لإنشاء هيئة للتحكيم. وقد عارضت ألمانيا ذلك حتى آخر لحظة. ولكن الإمبراطور بعد أن سلم فى النهاية، أشار إلى أنه لابد أن يعتمد – لا على التحكيم – ولكن على سيفه الحاد، فى توفير الأمن لنفسه.

وما كاد مؤتمر لاهاى يلتئم، حتى بدأت الحرب (أكتوبر) بين إنجلترا وبين جمهوريات البوير فى الترنسفال وولاية الأورنج الحرة، وكانت الحرب بين متصارعين غير متكافئين فى الموارد بحال من الأحوال، وقد بدأ أن خسائر إنجلترا الفادحة فى ديسمبر ١٨٩٩ جعلت النجاح أمرًا مشكوكًا فيه. وكم ظهر من الكراهية لإنجلترا فى القارة، وبخاصة فى صحف هولنده وبلجيكا وفرنسا وألمانيا، ولكن المشكلة الأشد خطرًا هى، هل تتدخل الآن ضد إنجلترا فى ١٨٩٩، ١٩٠٠ الدول الثلاث التى كانت تدخلت ضد اليابان ١٨٩٥؟ وكانت روسيا أشد عداوة، على العموم، وربما كان فى وزارة خارجيتها أفراد أمعنوا النظر فى التدخل. أما فرنسا فلا تستطيع التصرف بمفردها. وألمانيا، لم تفكر فى أى عمل عدائى، وكانت تثنى من عزم الدول الأخرى على أية محاولة من هذا النوع[٢٠].

وقام العاهل الألمانى بزيارة شخصية لإنجلترا فى نوفمبر ١٨٩٩، فألح عليه تشمبرلين مرة أخرى فى مشروع للتحالف، مقترحًا الولايات المتحدة طرفًا ثالثًا، ورفض الإمبراطور، وبالتالى أثار غضب الأمير ولى العهد (الملك إدوارد السابع فيما بعد). وكان الإمبراطور متقلبًا لا يثبت على حال، فهو تارة يمد الحكومة البريطانية بخطة عسكرية لإخضاع البوير، وتارة يقول إن الوقت قد حان لعقد صلح معهم. ولا يكاد يكون من العدل القول بأنه كان يمثل السياسة الألمانية التى لم تكن عدائية ولا ودية حتى يتبين أن النصر حليف إنجلترا، وكان الجمهور فى ألمانيا فى صف البوير بشكل عام، ومنذ أواخر ١٩٠٠ إلى ما بعدها كان شعور الإمبراطور نفسه وديًا، وعقد الصلح مع البوير فى مايو ١٩٠٢، وبذلك زال خطر التدخل.

وكانت الحوادث فى الصين فى ١٩٠٠ سببًا فى عرض جديد تقدمت به إنجلترا لألمانيا. فقد قتل القنصل الألمانى فى الصين فى شهر يونيه، وكان ذلك مقدمة لحصار المفاوضات الأجنبية فى بكين، ثم حركة عداء سافرة ضد

الأجانب (تشجعها الحكومة سرًا) تعرف بثورة "المصارعين Boxer " وبعد طول عـناء تقـدمت قوة دولية وخلصت المفوضيات الأجنبية فى بكين. وقد عين قائدًا عاما لهذه القوة الكونت والدرسى Waldersee الألمانى، وفرض على الصينيين تعويضات وإهانات كثيرة، وكان إمبراطور ألمانيا أشبه برجل يدبر عملية انتقام حين كان يحرض الفرقة الألمانية على الانقضاض، انقضاض الوحوش على الصينيين[٢١].

أما إنجلترا، التى تبدو أن نظرتها إلى الموقف كانت هادئة، فقد سعت إلى توجيه مصلحتها بعقد اتفاقية مع ألمانيا، وقد مهدت هذه الاتفاقية (التى وقعت فى ١٦ من أكتوبر ١٩٠٠) للعمل المشترك للدولتين للإبقاء على :أوضاع الأرض" فى الصين، وعلى سياسة "الباب المفتوح" فى التجارة، حيثما يمكن استخدام نفوذهما. ولم تكن بنود الاتفاق واضحة. ولكن يبدو أن إنجلترا قد وقع تفكيرها أنها بذلك قد أمسكت آخر الأمر بألمانيا لتساندها ضد العدوان الروسى فى شمال الصين. وإذا كان هذا مبلغ تفكيرها، فقد أفاقت على الحقيقة التى تكشفت لها حين أعلن بيلوف بصراحة فى ١٥ من مارس ١٩٠١ أن الاتفاق الإنجليزى الألمانى يطبق على وادى نهر يانج تسى كيانج لا على منشوريا.

ولم يكن هذا التصريح ليساعد على تقدم المفاوضات التى كانت قد جرت مرة أخرى بين إنجلترا وألمانيا. وكان يتولى لورد لانسدون Lansdowne (الذى خلف سالسبرى فى الخارجية) وجوزيف تشمبرلين الذى لا يكل ولا يمل، ويبدو أن ألمانيا كانت ترغب فى ضم إنجلترا إلى التحالف الثلاثى القائم فعلاً (ألمانيا، النمسا، إيطاليا)، ولكن لا نسدون من جهة أخرى كان يفضل اتفاقية أضيق حدودًا، وكانت إنجلترا عند ذلك قد ضاقت ذرعًا فأوضحت لألمانيا تمام الإيضاح أنها فى حالة فشل هذه المفاوضات لابد أن تولى وجهها شطر فرنسا وروسيا، ولكن هذا الإنذار اعتبر "خدعة" ورفضت ألمانيا مرة أخرى

العرض السحرى. وما جاء شهر ديسمبر ١٩٠١ إلا وقد تبددت كل فرصة حقيقية لنجاح المفاوضات[٢٢].

ولما كان قد ثبت لإنجلترا أن ألمانيا كالقصبة المرضوضة لا يمكن الاعتماد عليها، بات على إنجلترا أن تفتش من جديد عمن يستطيع موازنة النفوذ الروسى شمال الصين. وفى تلك الآونة جددت اليابان رغباتها وتوسلاتها إلى إنجلترا، وقد سخرت ألمانيا من المفاوضات. وفى سبعة شهور انتهى الدبلوماسيون الشرقيون إلى الفوز، ودون علم البرلمان أو الشعب وقع لورد لانسدون فى ٣٠ من يناير ١٩٠٢ معاهدة التحالف مع اليابان. وقد نشرت على الفور، وبشروطها يعترف كل من الطرفين بالأمر الواقع فى شرق آسيا وخاصة فى كوريا والصين، وتتعهد بريطانيا بالتزام الحياد إذا وقعت الحرب بين روسيا واليابان، ولكن إذا تدخلت دولة أخرى (يقصد فرنسا) لمساعدة روسيا (أو أية دولة أخرى فى حالة حرب مع اليابان) فقد تعهدت إنجلترا بالتدخل لمساعدة حليفتها بقوة السلاح. على أن يظل هذا الترتيب سارى المفعول لمدة خمس سنوات.

وقد بدأت بهذه المعاهدة فترة تاريخية بالغة الأهمية فى مختلف النواحى، أما فيما قصدته اليابان من ورائها فلابد أن يظل سرًا غامضًا إلى حد ما، ولكن يبدو أن الدبلوماسيين الإنجليز ظنوا أنهم قادرون على وقف اليابان عند حد ومنعها من الاعتداء على روسيا، وما أيسر أن نرى الآن أن هذا كان خطأ فاحشًا. ولسوف تستكمل اليابان تنظيم جيوشها وبحريتها فى أواخر ١٩٠٤، وكان على التحالف مع إنجلترا أن يكون — وقد كان — سبيلاً لتمكينها من مهاجمة روسيا حين تسنح الفرصة الملاءمة لها. ولم يكن هذا خطأ بريطانيا الوحيد، ويبدو أن مفاوضيها اعتقدوا أن أثر هذه المعاهدة محصور لن يتخطى الحدود المحلية للصين. ولكن دبلوماسية الدول الكبرى تنتظم العالم كله فى عملها ومداها، وقد ظهر أن تحالفًا بشأن بحر اليابان كفيل بأن يثير

المتاعب فى البحر المتوسط وبحر الشمال. ومهما يكن من أمر فإن موقف إنجلترا لم يكن محفوفًا بالخطر، كما كان يبدو. حقًا أنها لم تكن على علاقات طيبة مع روسيا ومع فرنسا، ولكنها لم تكن كذلك مع ألمانيا حينذاك، وحتى بعد التحالف مع اليابان كانت إنجلترا تستطيع الانضمام إلى أى من الحلفين الثلاثى أو الثنائى. ويبدو أن ألمانيا كانت لا تزال تتوقع أو تأمل فى انضمامها إلى الحلف الثلاثى، ولكن الذى حدث فعلا أن إنجلترا انضمت إلى كل من روسيا وفرنسا فى وفاق، لا حلف.

وتبين للساسة الإنجليز، عند توقيع التحالف الإنجليزى اليابانى، شيئًا واحدًا على الأقل أنهم خرجوا على أسلوب "العزلة المجيدة"، أدركوا أنهم حطموا تقليد كاننج القديم الذى قال بالابتعاد عن الأحلاف وتجنب الضمانات. وقد تجاسروا على الإقدام على هذا العمل.ولذلك استحقوا تقدير بلادهم، ومن الحمق أن نؤاخذهم على قصر نظرهم، فهذا نقص يعانى منه كل الساسة. ويجب أن يحمدوا على اتخاذهم خطوة عرفوا أنها خطوة جريئة وأنها انسلاخ عن الماضى[٢٣].

ثالثًا: الوفاق الودى البريطانى الفرنسى

كان من نتائج الحلف الإنجليزى اليابانى اقتراب بريطانيا من الحلف الثنائى. وذلك يرجع إلى عدة أسباب وتطورات[٢٤].

١- كان واضحًا أن ألمانيا تثير الكثير من المتاعب والمخاوف والارتباك فى الدوائر السياسية البريطانية بسبب الجهود الضخمة التى كان يبذلها القيصر ولهلم الثانى لإنشاء أسطول ألمانى حربى قوى يضارع - إن أمكن - الأسطول البريطانى، الأمر الذى يهدد بتحطيم نظرية التفوق البريطانى البحرى الساحق.

٢- كانت الدبلوماسية الألمانية - رغم المعاهدة البريطانية الكويتية لسنة ١٨٩٩ - نشطة للغاية من أجل تنفيذ خط حديد برلين - بغداد ذلك

الخط الذى كان فى نظر الإنجليز رأس حربة مصوبة إلى الهند البريطانية.

٣- تصاعدت المضايقات الألمانية لحكومة الاحتلال البريطانى فى مصر للدرجة التى جعلت الإنجليز مضطرين إلى الحصول على تأييد فرنسا لمشروعات بريطانيا الاستعمارية فى مصر والسودان.

٤- كانت بريطانيا تريد أن تتجنب صدامًا مع فرنسا فى المناطق التى كانت تعتبرها الأخيرة مجالاً حيويًا لها، مثل (المغرب)، فمع أن النفوذ البريطانى كان ينمو بسرعة هناك — أى فى المغرب — كانت الدوائر السياسية البريطانية تتحفظ فى الاندفاع فى هذا التيار توقعًا لمطالبات شديدة فرنسية فى (المغرب).

٥- انعكست مشاعر التقارب بين الطرفين على طبيعة العلاقات الودية بينهما، فقد ساعدت الزيارة التى قام بها ملك إنجلترا (إدوارد السابع) لفرنسا فى خلق جو من الألفة والتعاطف بين الشعبين.

٦- كان هانوتو **Hannotaux** — وزير فرنسا — معارضًا للتقارب الفرنسى البريطانى، ولم يلبث التعديل الوزارى أن أبعده وتولى الوزارة ديلكاسيه) **Delcasse** الداعية الأول للتقارب مع بريطانيا. وما كان ليتمكن من تحقيق هذا التقارب وقطف ثماره إذ كانت فى الوزارة البريطانية معارضة لمثل هذا التقارب ولكن وزارة بلفور **Balfour** كانت مقتنعة جدًا بقيمة هذا التقارب فى هذه الظروف.

اتجه الطرفان الفرنسى والبريطانى إلى الدخول فى مفاوضات تمهيدية حددت المشكلات الرئيسية المعلقة، وانتهت هذه المفاوضات بعقد الوفاق الودى فى ٨ إبريل (نيسان) ١٩٠٤[٢٥].

تضمن هذا الوفاق مواد علنية، وأخرى سرية. وكان هناك اعتقاد عام بأن الدول الأوروبية الكبرى الديمقراطية مثل بريطانيا لا تجيز برلماناتها مثل

هذا الاتفاقات السرية، ولكن الحكومة البريطانية والبرلمان البريطانى كانا من المرونة واتساع الأفق وبعد النظر السياسى للدرجة التى تمكنهم من الإفتيات على القانون الدولى من أحل الدفاع عن مصالح بريطانيا الذاتية.

نصت المادة الثانية من هذا الاتفاق على اعتراف الحكومة البريطانية بأن "لفرنسا — بصفة خاصة ولكونها جولة متاخمة للمغرب... أن تسهر على الاستقرار فى هذا البلد، وأن تقدم له مساعدتها بالنسبة لكل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تحتاجها". وتعلن أنها لن تعرقل عمل فرنسا فى هذا الصدد ووافقت الدولتان على احترام حقوق أسبانيا فيما عرف فيما بعد باسم (الريف) الأسبانى، وعلى عدم تسليح الساحل المغربى المواجه لجبل طارق، وبالنسبة لمصر. أعلنت بريطانيا أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسى وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل إنجلترا فى مصر ولن تطلب تحديد أجل الاحتلال الإنجليزى. وسويت كذلك المشكلات بين الدولتين فى كل من سيام ومدغشقر وغمبيا والنيجر ونيوفوندلاند، واتفق على أن يكون وادى نهر ميكونج وجبال رانج حدًا فاصلا بين الهند الصينية الفرنسية وبورما والملايو البريطانيتين.

كانت الحكومة الألمانية قد أدركت خلال ١٩٠٤ — ١٩٠٥ أن شيئًا خطيرًا ضدها يدبر بين فرنسا وبريطانيا وعمل القيصر فى اتجاهين:—

أ— محاولة كسر الحلف الثنائى الفرنسى الروسى ومنتهزًا فرصة الهزيمة التى منيت بها روسيا أمام اليابان.

ب— إحراج فرنسا فى أزمة دولية حتى يكتشف مدى قوة العلاقة الجديدة بينها وبين بريطانيا، ولقد أعطته المشكلة المغربية فرصة لذلك.

فبالنسبة لروسيا عمل القيصر ولهلم الثانى على إقناع القيصر (نقولا الثانى) بقيمة عقد معاهدة دفاعية بين روسيا وألمانيا. وحيث أن ولهلم الثانى

يـدرك أن الـوقت ضد خطته أسرع بزيارة القيصر الروسى فى (بيوركو Bijrko) فـى يولـيو تمـوز ١٩٠٥[٢٦]، وحصل على توقيعه على المعاهدة، إلا أن سياسى روسيا رفضوا هذه المعادة التى عقدت من وراء ظهورهم، للأسباب التالية:

١- أن هـذه المعاهـدة تقضى على الحلف الثنائى مع فرنسا وتفقد روسيا بالتالى قوة الضغط على الحلف النمساوى - الألمانى.

٢- ستصبح كلمة روسيا فى البلقان أضعف من كلمة النمسا.

٣- سـتنطلق ألمانـيا بقـوة أكـبر فى مشروعها شبه الاستعماري فى الدولة العثمانية تلك الدولة التى تعتبرها روسيا مجالها الحيوى.

كانـت الحكـومة الألمانية خلال عام ١٩٠٤/ ١٩٠٥ قد أدركت أن شيئًا يدبـر فـى اتجـاه المغرب إذ كانت مخططات فرنسا تؤكد أنها تعمل على إبعاد ألمانـيا عـن المغـرب، رغـم تأكـيدات فرنـسا الملـتوية لألمانيا بأن سياسة "الباب المفـتوح" سـتظل سارية المفعول فى المغرب. والحقيقة هى أن فرنسا كانت تسير حثيـثًا فـى سياسـة احـتكار الـنفوذ والتـسلط على المغرب والتفوق على التجارة الألمانية هناك. وأرادت الحكومة الألمانية أن تضع فرنسا فى موقف حرج تضطر فـيه إلى كـشف نـواياها بالنسبة للمغـرب وطبيعة علاقاتها الأكثر من ودية مع بـريطانيا. لعلـها تكـسب مـن وراء ذلك استمرار سياسة الباب المفتوح أو موضع قـدم ألمانـى فى المغرب الواقع على الطريق إلى المستعمرات الألمانية فى إفريقية. وذهـب القيـصر ولهلـم الثانـى فـى هـذا الـصدد إلى القيام بزيارة لطنجة (مارس ١٩٠٥)، وهناك أعلن رغبته فى أن يظل السلطان مستقلاً فى نفس الوقت الذى يظـل فـيه بـاب المغـرب مفتوحًا أمام جميع الدول. ثم طالبت الحكومة الألمانية بعقـد مؤتمـر دولى لـبحث المغـرب (أبريل - ١٩٠٥) وأدت معارضة (دلكاسيه) لفكـرة عقـد المؤتمـر - التـى لقيت ترحيبًا فى معظم الدوائر السياسية الأوروبية وفى واشنطن أيضا - إلى استقالته ولكن بعد أن أنجز الوفاق البريطانى الفرنسى الذى استمر الذى بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا[٢٧].

دارت مفاوضات متعددة الأطراف قبل عقد المؤتمر بين فرنسا وكل من ألمانيا وأسبانيا وإنجلترا. وواضح من هذا أن الدبلوماسية الفرنسية نشطت إلى أقصى قدراتها لمواجهة الضغوط الدولية والألمانية على فرنسا. لقد كان هذا أول اختبار لمدى صلابة الوفاق الودى الفرنسى البريطانى فوقفت بريطانيا بقوة إلى جانب فرنسا، فى وقت كانت فيه التهديدات الألمانية وصلت إلى الحد الذى قال فيه مسئولون ألمان أنه لو عبرت الجيوش الفرنسية الحدود الجزائرية - المغربية فستعبر الجيوش الألمانية الحدود الفرنسية.

استطاعت الدبلوماسية الفرنسية - قبل عقد مؤتمر الجزيرة - أن تحصل من ألمانيا على إعتراف بمصالح خاصة فرنسية فى المغرب فى مقابل إعتراف فرنسا باستقلال المغرب، واتخاذ التدابير اللازمة لإدخال الإصلاحات إلى الحكومة المغربية، وخاصة فيما يتعلق بالشرطة والمالية،وأخيرًا اتفق على عقد المؤتمر فى أوائل ١٩٠٥ وتحدد يوم الافتتاح فى ١٦ يناير.

وتضمنت الكلمة التى ألقاها رئيس المؤتمر الدوق دالمودوفار - عند افتتاح المؤتمر الأهداف الثلاثة التالية[٢٨] :-

١- سيادة السلطان.

٢- عدم الافتيات على أرض الدولة المغربية.

٣- سياسة الباب المفتوح فى المغرب أمام كافة الدول الأوروبية ومع هذا انتهى المؤتمر إلى نتائج معاكسة وضد مصالح ألمانيا وأهدافها بالذات وهى:

أ. دفع السلطان عرشه ثمنًا لهذا التدخل الدولى فى أمور بلاده.

ب. احتكرت فرنسا التسلط العسكرى والاقتصادى فى المغرب تاركة الريف (لأسبانيا)، ومهد كل هذا لفرض الحماية الفرنسية على المغرب فى ١٩١٢.

والسبب فى خروج ألمانيا مهزومة من هذا المؤتمر يرجع إلى أن حلفاء ألمانيا لم يقفوا إلى جانبها بالصلابة اللازمة فقد كانت حكومة النمسا مترددة، وكانت إيطاليا تحث على السلام والتفاهم، وبالتالى خرجت دولتى الوفاق الودى – أقوى مما كانتا عليه قبل المؤتمر.

كما كان الاتجاه العام فى أوروبا الغربية ضد ألمانيا حتى بدت هذه شبه معزولة سواء قبل المؤتمر أو خلاله أو بعده. وكان انضمام بريطانيا – على أساس الوفاق الودى – إلى دولتى التحالف الثنائى (روسيا وفرنسا) قد جعل حكومة بريطانيا تدرك ذلك وتشتطان فى العمل ضد ألمانيا.

ولم تتورع بريطانيا عن تقديم المغرب إلى فرنسا بعد أن رفضت ألمانيا هذا العرض من قبل. فى وقت كانت فيه أوروبا تقبل – وبكل بساطة – تسوية مشكلاتها الدولية على حساب البلاد العربية حتى لا تتورط فى حرب لا تعرف عواقبها، وأدى ذلك كله إلى نتائج ستكون خطيرة على مستقبل أوروبا ومسئولة عن الإسراع فى وقوع الحرب العالمية الأولى، فقد سبق أن عقدت مؤتمرات دولية – وبالأخص مؤتمر برلين ١٨٧٨ لعلاج الصدمات الأوروبية الناتجة عن التنافس فى اقتناص أجزاء من الدولة العثمانية، ولكن ظهور التكتلات الأوروبية جعل قرارات وتوصيات هذا المؤتمر لا يعتد بها إلا إذا سارت وفق الأهداف الخاصة لدول هذه التكتلات وحيث أن مصالح الكتلتين كانت متضاربة سارت الأمور نحو فكرة استخدام التهديد باللجوء إلى القوة عند العمل على تغيير الوضع الراهن فى أية بقعة من العالم لمصلحة إحدى التكتلات[٢٩].

وفى مثل هذه الظروف يصبح تغيير الوضع الراهن انتصارًا لظرف وهمية لطرف آخر، وقد تتكرر مثل هذه الأحداث، وقد يتحمل هذا الطرف أو ذاك نموًا استعماريًا أو اقتصاديًا فى هذه المنطقة من العالم ، ويمكن أن يتقبل هزيمة سياسية مرة؛ إلا أن التطورات تسير فى اتجاه تصعيد الأزمات وبالتالى فى اتجاه الحرب. ولقد كانت فرنسا تعمل لهذا الهدف النهائى الذى كان فى

نظرها الوسيلة الوحيدة لاسترداد الإلزاس واللورين، وكانت بريطانيا عندما عقدت وفاقها مع فرنسا فى ١٩٠٤ تدرك أن ميزان القوى قد اختل بشكل صارخ ضد ألمانيا. وأن التطورات ستؤدى إلى حرب إذا استمرت ألمانيا فى سياسة الحصول على مكانة استعمارية وعسكرية موازية على الأقل لبريطانيا، وكسر احتكار التفوق البحرى والاستعمارى البريطانى. وكانت الحكومة والشعب البريطانى يعتقدان – عن إيمان حقيقى بمصلحته – ألا حق لأية دولة فى الوصول إلى قوة بحرية مماثلة لها، وكان القيصر الألمانى وحكومته يدركون أن الشعب الألمانى صاحب رسالة فى هذا العالم ويجب أن يصبح ذروة القوة لا دفاعًا عن نفسه وكسرًا للاحتكار البحرى والاستعمارى البريطانى فقط بل كذلك لإعطاء الشعب الألمانى حقه فى توجيه تاريخ العالم.

كما حصلت ألمانيا على مشاركة فى توجيه أمور المغرب الاقتصادية إلا أن الأمور كانت تسير نحو انفراد فرنسا بالمغرب، دون أن تتمكن ألمانيا من منعها من ذلك إلا بالحرب ولكن كانت كفه فرنسا هى الراجحة إذ كان وقوف بريطانيا إلى جانبها قد قلب موازين القوى ضد ألمانيا وجعل الأخيرة هى المعزولة لا فرنسا[٣٠]. وكانت محاولة ولهلم الثانى كسر الحصار الذى ضرب على ألمانيا عندما زار القيصر الروسى فى (بيوركو) هى الأخيرة، فى هذه الصدد، وانتهت بفشل ذريع وبتماسك أشد بين روسيا وفرنسا خاصة وأن الأخيرة استخدمت قدراتها المالية فى سد حاجات روسيا إلى رءوس الأموال الملحة، كما استخدمت قدراتها الدبلوماسية فى التقريب بين روسيا وإنجلترا. الأمر الذى مهد للوفاق الروسى – البريطانى فى ١٩٠٧[٣١].

(١) فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) نفسه، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٣) نفسه، ص٣٩٠، ٣٩١.

(٤) نفسه، ص٣٩١، ٣٩٢.

(٥) نفسه، ص٣٩٣.

(٦) جرانت، تمبرلى: تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ج٢، ص٦٩

(٧) نفسه، ج٢، ص٦٨، ٦٩.

(٨) نفسه، ص٦٩، ٧٠.

(٩) نفسه، ج٢، ص٧١.

(١٠) نفسه، ج٢، ص٧١، ٧٢.

(١١) نفسه، ج٢، ص٧٢، ٧٣.

(١٢) نفسه، ج٢، ص٧٣، ٧٤.

(١٣) نفسه، ج٢، ص٧٤، ٧٥.

(١٤) نفسه، ج٢، ص٧٥، ٦٧٦.

(١٥) نفسه، ج٢، ص٧٧، ٧٨.

(١٦) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعى: التاريخ المعاصر، ص٣٤٩.

(١٧) نفسه، ص٣٥٠.

(١٨) نفسه، ص٣٥٢.

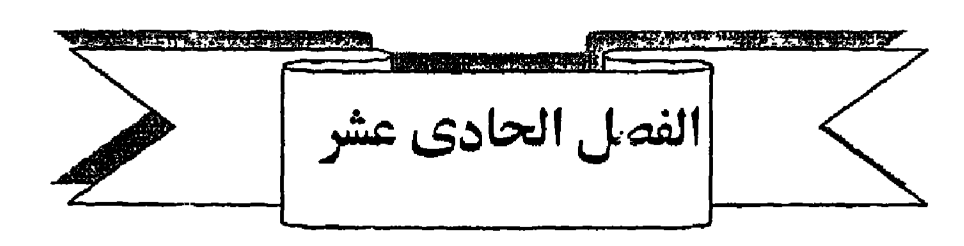
(١٩) نفسه، ص٣٥٢.

(٢٠) نفسه، ص٣٥٢.

(٢١) نفسه، ص٣٥٥.

(٢٢) نفسه، ص٣٥٦.

(٢٣) نفسه، ص٣٥٧.



﴿أسباب ونتائج الحرب العالمية الأولى﴾

أولاً: أسباب الحرب العالمية الأولى

١- أزمة مراكش

٢- فشل معاهدة بجركو

٣- مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦

٤- أزمة البوسنة

٥- السباق البحرى

٦- حادث أغادير

٧- الحروب البلقانية

٨- سياسة ألمانيا الحربية

ثانيًا: الشرارة التى أشعلت الحرب

ثالثًا: مراحل الحرب

رابعًا: نتائج الحرب العالمية الأولى

أسباب ونتائج الحرب العالمية الأولى

أولاً أسباب الحرب العالمية الأولى

تميزت السنوات العشر التى مضت بين عقد الوفاق الودى سنة ١٩٠٤ وقيام الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ بقيام سلسلة من الأزمات الخطيرة، كادت كل واحد منها تجر الدول الكبرى جميعًا إلى الاشتباك فى الحرب، وقد قامت هذه الأزمات على التوالى فى سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و١٩١١ و١٩١٤ بين كل أزمة وأخرى ثلاث سنوات تقريبًا.

١ - أزمة مراكش

كانت فرنسا قد اطمأنت إلى أن الوفاق الودى بينها وبين إنجلترا سوف يطلق يدها لإتمام مشروعاتها بضم مراكش إلى إمبراطوريتها الإفريقية، وكان دلكاسيه، وزير الخارجية الفرنسى، قد سبق له أن فاوض أسبانيا بشأن تقسيم مراكش، وقنعت أسبانيا بالاستيلاء على الشريط الساحلى من مراكش الذى يواجه الساحل الأسبانى عند جبل طارق وهو إقليم الريف، كذلك اتفقت فرنسا مع إيطاليا على ألا تعارضها، نظير ألا تقف فرنسا فى سبيلها إن دخلت إيطاليا فى حرب مع تركيا لتنتزع طرابلس. ولم يبق أمام فرنسا سوى معارضة ألمانيا التى كانت تهتم بمراكش، وتعمل على منع فرنسا من بسط سيطرتها عليها، وبينما كان الإمبراطور ولهلم الثانى، فى رحلته البحرية فى مياه البحر المتوسط، إذا به يقطع رحلته، وينزل فى ميناء طنجه ويخطب هناك خطبة خطيرة تناقلتها صحف العالم فى الحال، خاطب فيها سلطان مراكش مؤكدًا له أن ألمانيا تعتبره سلطانًا مستقلا ثم أضاف قوله "إنى أمل أن تحافظ مراكش فى ظل هذا الاستقلال على سياسة الباب المفتوح لجميع الأمم على السواء، فلا يكون لدولة فيها امتياز على أخرى، فلا احتكار ولا استعمار، ولتكن السياسة التى تتبعها مراكش مع الدول أساسها المساواة المطلقة".

وهكذا كانت كلمة الإمبراطور الألمانى نذيرًا بأن ألمانيا لا تعترف بما جاء فى اتفاقية سنة ١٩٠٤، وعلى الأخص فيما يختص بإطلاق يد فرنسا فى مراكش، ثم اقترح الإمبراطور بعد ذلك رسميًا، عقد مؤتمر دولى لبحث مسألة مراكش، إلا أن "دلكاسية" وزير الخارجية الفرنسى عارض ذلك الاقتراح، مطمئنًا إلى تأييد إنجلترا، ومع ذلك فلم تبد إنجلترا أى اعتراض على عقد المؤتمر ورأى دلكاسيه أن رئيس الوزارة الفرنسى — المسيو روفيير **Rouvier** — وبقية الوزارة الفرنسيين قد رضخوا للاقتراح الألمانى، فاضطر إلى الاستقالة. وكانت قبول الدول عقد ذلك المؤتمر انتصارًا سياسيًا لألمانيا، ومرد ذلك إلى ضعف دول الوفاق فى ذلك العام بالذات، إذ كانت روسيا قد منيت بالهزيمة فى حربها ضد اليابان، وخرجت من حربها عاجزة كل العجز على أن تقوم بتقديم أى معونة لحليفتها فرنسا وكانت إنجلترا فى الوقت نفسه لا ترغب فى قيام الحرب من أجل مراكش، أما فرنسا ذاتها فلم تكن من القوة الاستعداد بحيث تعتمد على نفسها.

٢- فشل معاهدة بجركو يوليو ١٩٠٥

فشلت ألمانيا فى محاولة الاتفاق مع روسيا لتبعدها عن حلف الوفاق، وقد قامت بتلك المحاولة عندما تقابل إمبراطور ألمانيا ولهلم الثانى، وقيصر روسيا نيقولا الثانى على يخته الذى كان يرسو أمام بلدة (بجركو) الواقعة على خليج فنلنده واعتقد ولهلم الثانى أن تحطيم الأسطول الروسى فى مياه الشرق الأقصى وخروج روسيا منهزمة أمام اليابان سيضطرها إلى التقرب من ألمانيا، وبالتالى تستطيع الأخيرة أن تحل التحالف الثنائى بين روسيا وفرنسا، وفعلاً أمكن لإمبراطور ألمانيا أن يقنع القيصر بتوقيع اتفاق تتعهد فيه روسيا وألمانيا أن تضع كل منهما جيشها وأسلحتها تحت تصرف الأخرى إن تعرضت إحداهما لهجوم إحدى الدول الأوروبية، وألا تعقد إحداهما صلحا منفردًا.

وظنت ألمانيا أنها كسبت روسيا، وأبعدتها عن دولتى الوفاق، إلا أن أملها سرعان ما خاب، إذ ما لبث وزراء قيصر روسيا أن أقنعوه بأن يعلن إلغاء معاهدة، ثم طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها فى برلين أن يبلغ الحكومة الألمانية استحالة تنفيذ تلك المعاهدة لمناقضتها للمعاهدة الروسية الفرنسية.

وقد اعترفت فرنسا لروسيا بجميلها هذا، فأقرضتها ما كانت تحتاج إليه من المال، لتستعين به على إصلاح شئونها الاقتصادية وانتهزت الفرصة للتقريب بين روسيا وإنجلترا، فتم بينهما – الاتفاق المعروف فى سنة ١٩٠٧ بشأن إيران على أن يكون لروسيا منطقة نفوذ فى الشمال، ولإنجلترا منطقة نفوذ فى الجوب.

٣- مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦.

تقرر عقد المؤتمر فى الجزيرة وهى بلدة فى أسبانيا بالقرب من جبل طارق. ولم يكن غرض ألمانيا من عقد هذا المؤتمر، إبعاد فرنسا عن مراكش فحسب، بل كان غرضها أيضًا جس نبض الوفاق الودى الذى عقد بين إنجلترا وفرنسا. ولكن تبين لها أن إنجلترا قد وقفت إلى جانب حليفتها فرنسا، كذلك أيدتها حليفتها روسيا، وجارتها وشريكتها أسبانيا، كذلك أيدتها إيطاليا لأنها كانت قد عقدت مع فرنسا معاهدة الحياد، ولم يقف فى صف ألمانيا فى المؤتمر سوى حليفتها النمسا.

وقد انتصرت فرنسا سياسيًا فى هذا المؤتمر، إذ تقرر إنشاء قوة بوليسية فى مراكش، يعهد بأمر تنظيمها إلى فرنسا وأسبانيا، كل فى نفوذها وأن تعمل كل منهما على تنفيذ ما تراه من الإصلاحات. وتأسيس بنك تشرف عليه الدول الأربع: فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وألمانيا، وأن تدير فرنسا وحدها شئون الجمارك فى الجزء المجاور لبلاد الجزائر. وتدير أسبانيا ما يقع منها فى منطقة الريف.

وهكذا خرجت ألمانيا من ذلك المؤتمر فاشلة حانقة، ولم تنجح السياسة التي رسمها المستشار الألماني (بيلوف) الذى حاول حل الوفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا، بما أشار به على الإمبراطور ولهلم الثانى من النزول فى طنجه وتصريحه بأن ألمانيا لا تستطيع أن تحتمل اتفاق الدولتين على إطلاق يد فرنسا فى مراكش. ثم فشلت ألمانيا فى مؤتمر الجزيرة الذى دعت إلى عقدة ظنًا منها أن تلك الدول لم تصل إلى اتفاق يؤيد بسط النفوذ الفرنسى على مراكش.

٤- أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨.

أشرنا من قبل إلى إقدام النمسا على ضم البوسنة والهرسك نهائيًا إلى الإمبراطورية النمساوية فى سنة ١٩٠٨، وهما الولايتان اللتان كانت تديرهما بناء على ما قرره مؤتمر برلين ١٨٧٨. وقد أثار الحادث غضب الصربيين الذين رأوا نحو مليون من بنى جنسهم تضمهم النمسا بجرة قلم، فى الوقت الذى كانوا يؤملون فيه ضم البوسنة والهرسك إلى صربيا لإقامة الوحدة اليوغسلافية المنشودة، على أن صربيا لم تكن فى ذلك الوقت تستطيع أن تمنع الكارثة، فهى لا تستطيع الاستنجاد بروسيا التى تدعى زعامة السلاف، لأن روسيا كانت لا تزال فى أعقاب هزيمتها فى الحرب اليابانية، كذلك أعلنت إنجلترا أنها لا تفكر فى احتمال نشوب حرب عامة من أجل المسالة البلقانية. وكانت ألمانيا — فى الوقت نفسه — قد أعلنت أنها تؤيد حليفتها النمسا وأنها لا تتأخر عن معاونتها عسكريًا فى حالة الحرب. ولم يستطيع الصربيون أن يواصلوا معارضتهم أمام ما سمعوه من عزم النمسا على تنفيذ قرارها بكل ما فى وسعها من قوة، حتى اشتهر عن الأرشيدوق فرانز فرديناند **Franz Ferdinand** ولى عهد النمسا وكونراد فون هوتزندورف **Hotzendorf** قائد القوات النمساوية، بأنهما يفضلان الإسراع فى مهاجمة صربيا "ومحوها من الخريطة الأوروبية"، وقد سكتت صربيا على مضض ولكن روح القومية ازدادت اشتعالاً، نشأت الجمعيات السرية للعمل على تحقيق مشروع صربيا الكبرى،

واستحكم العداء بين الصربيين والنمساويين. وعزمت النمسا على التخلص من صربيا عندما تسنح الفرصة، ونشط سفيرها فى بلغراد – عاصمة صربيا – لجمع الوثائق التى تبرر القيام بالهجوم ولكن لم يتم العدوان فى ذلك العام، ولعل ذلك مرده إلى ما تبين من أن ألمانيا – على الرغم من تصريحها بتأييد حليفتها – أظهرت أنها لا تتحمس لدخول الحرب من أجل مسألة صربيا.

٥- السباق البحرى.

وفى أثناء تلك الحوادث التى كانت تجرى فى البلقان كان السباق البحرى والتنافس العسكرى قد بلغ أشده بين بريطانيا وألمانيا، بعد أن فشلت الأولى فى الوصول إلى اتفاق مع الثانية للحد من التسلح، لأن ألمانيا كانت تعمل على إتمام برنامجها البحرى فى سرعة وعزم، وبلغ انزعاج الإنجليز مبلغه فى سنة ١٩٠٩ عندما نادى كثير من الكتاب بضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة قبل أن يصبح الأسطول الألمانى أقوى من الأسطول الإنجليزى. ولم تجد الحكومة بدا من الاستجابة لهذا النداء على الرغم من معارضة رجال الاقتصاد والزعماء الاشتراكيين الذين كانوا يريدون توفير المال للإصلاح الداخلى المطلوب، ولكن الحكومة رأت أن تتخذ خطوة حاسمة لتقوية الأسطول الإنجليزى، واستطاعت أن تصل إلى تقويته أيضًا من الناحية الفنية فصنعت عددًا من المدرعات التى يطلق عليها الدردنوت، ذلك النوع من السفن الحربية الكبيرة التى كان من الصعب على ألمانيا أن تستفيد منه فى مياها، إذ كان لابد من مرورها فى قناة كييل، والواقع أن قوة الأسطول الألمانى كانت تتوقف على سهولة انتقال سفنه بسهولة من البحر البلطيقى إلى بحر الشمال، فكان على ألمانيا أن تقوم بعملية توسيع تلك القناة مما يستغرق عدة سنوات، ولعل ذلك كان سببا فى أن ألمانيا لم تشجع النمسا على مهاجمة صربيا قبل الاستعداد الكامل ولم يتم توسيع قناة كييل إلا فى يونيه سنة ١٩١٤، وفى الشهر الثانى مباشرة أرسلت النمسا إنذارها إلى صربيا، وكان ذلك بداية قيام الحرب، ولم تكن إنجلترا بغافلة عما

يحدث فى البحرية الألمانية، ولذلك قررت سنة ١٩٠٩ بناء أربع مدرعات كبيرة، وأخذت الصحافة والرأى العام فى حث الحكومة على مضاعفة العدد. فاستجابت لطلب الشعب.

٦- حادث أغادير سنة ١٩١١.

ظهرت فى جو السياسة الأوروبية أزمة أخرى بسبب ازدياد التدخل الفرنسى فى مراكش، وذلك على إثر قيام حروب داخلية بسبب ثورة أحد الأمراء على مولاى عبدالحفيظ سلطان مراكش، فقد استنجد السلطان بفرنسا لترسل إليه نجده فرنسية، فانتهزت فرنسا الفرصة وأرسلت حملة حربية فرنسية إلى "فاس" وكان ذلك فى ربيع عام ١٩١١م. ولما سمعت ألمانيا بإيفاد تلك الحملة هاجت وأرسلت فى يوليه ١٩١١ طرادًا ألمانيا إلى أغادير على ساحل مراكش المواجه للمحيط الأطلنطى بحجة حماية المصالح الألمانية التجارية من عدوان العصابات المراكشية المسلحة ولكنها كانت فى الواقع تقصد من إرسال الطراد الحربى إلى القيام بمظاهرة بحرية ردًا على أطماع فرنسا فى مراكش.

وكان لتلك المظاهرة الألمانية البحرية رد فعل عاجل فى باريس، ولندن وروما. وظل شبح الحرب ماثلاً عدة أسابيع، وقفت خلالها إنجلترا تؤيد فرنسا، وألقى لويد جورج خطبة خرج منها عن حدود وظيفته كوزير للمالية لا الخارجية. وأنذر فيها الحكومة الألمانية، بأن إنجلترا لن تقف ساكنة إن وقعت الحرب، وإنها لن تتخلى عن حليفتها فرنسا. وبعد المساومة اكتفت ألمانيا بأن ترضى بضم جزء صغير من الكونغو الفرنسى إلى أملاكها فى أفريقيا فى مقابل وضع مراكش تحت نفوذ فرنسا وحدها دون سائر الدول وبعد مضى عام واحد اتفقت فرنسا مع السلطان مولاى عبدالحفيظ على أن يقبل حماية فرنسا لمراكش، ماعدا طنجه والمنطقة الأسبانية فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢. بهذا انتهت مشكلة مراكش وخرجت ألمانيا منهزمة سياسيًا، معتقدة أن الحرب هى

الميدان الوحيد الذى تستطيع أن تنتصر فيه وأصبحت مراكش تحت الحماية الفرنسية يحكمها الجنرال ليوتى Lyautey الذى عين مقيمًا عامًا.

وكانت مشكلة أغادير فرصة ملائمة لإيطاليا لتحقيق أمنية قديمة وهى الاستيلاء على طرابلس، ورأى جيوتى Gioitti رئيس وزراء إيطاليا أن يعلن الحرب على تركيا، وأرسل أسطولاً استولى على سواحل طرابلس كما أرسل جيشًا كبيرًا إلى هناك للاستيلاء على برقه وطرابلس، وقد قررت حكومة تركيا الفتاة إرسال جيش تركى تحت قيادة أنور باشا للدفاع، ولكن الحرب انتهت بهزيمة الأتراك، وتنازلت تركيا عن طرابلس بموجب معاهدة لوزان أكتوبر سنة ١٩١٢ وكذلك عن جزر الدوديكانييز فى بحر إيجه، وقبل أن تنتهى تلك الحرب الإيطالية التركية بدأت حروب البلقان (١٩١٢ – ١٩١٣)، حيث كانت الإمبراطورية العثمانية على وشك الانهيار.

٧- الحروب البلقانية (١٩١٢ – ١٩١٣).

أثار ضم النمسا للبوسنة الشعور القومى فى بلاد البلقان، وتبين للبلقانيين مبلغ ضعف تركيا حرب طرابلس، ورأوا أن ساعة الخلاص من الحكم التركى قد حانت، وعلى الأخص أنهم كانوا يطمعون فى تعاونهم مع روسيا؛ بعد أن توترت العلاقات بينها وبين النمسا وتضارب مصالحهما فى البلقان، وفى الوقت ذاته قد تتخير روسيا تلك الفترة التى ضعفت فيها تركيا لكى تسوى مسألة المضايق لمصلحتها فيقع النزاع بين الدولتين.

وفى مارس ١٩١٢ شجع الروس كل من صربيا وبلغاريا على توقيع معاهدة تضمن تعاونهما المشترك فى حالة اعتداء أية دولة أوروبية كبرى على حدودها وجاء فى إحدى مواد تلك المعاهدة "يتعهد الطرفان الموقعان على المعاهدة أن يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته فى حالة محاولة إحدى الدول الكبرى ضم أو احتلال أية حدود من بلاد البلقان الواقعة حاليًا تحت الحكم التركى، وفى مادة سرية أخرى ملحقة بتلك المعاهدة أعلن الطرفان أنه "فى

حالـة حـدوث أيـة اضطرابات داخلية فى تركيا مما يعرض المصالح القومية أو الوطنـية للدولـتين المـتعاقدتين أو إحـداهما للخطـر، أو فـى حالة قيام مصاعب داخلـية أو خـارجية فى تركيا مما يعرض الحـالة الراهنة فى شبه جزيرة البلقان للخطـر وجـب علـى الدولـتين المـتعاقدتين أن تـسارعا فـى تبادل الآراء لاتخاذ الخطوات العاجلة لمنع الخطر".

وأول مـا يلاحظ على تلك المعاهدة السرية التى اشترك ممثلو روسيا فى العاصـمتين البلقانيـتين – صربيا وبلغاريا – في مفاوضاتها أنها كانت موجـهة ضـد دولـة النمـسا والمجر حتى لا تتكرر مأساة ضم البوسنه، وثانيًا كانت تلك المعاهـدة مـوجـهة ضـد تـركيا حيث يفهم من ذلك الاتفاق أن كلتا الدولتين تريد نـصيبًا فـى مـيراث الإمـبراطورية العثمانية المنحلة. وقد عقدت معاهدة مشابهة بين بلغاريا واليونان، وكانت تلك المعاهدة موجهة ضد تركيا.

وبعد إتمام تلك المعاهدة البلقانية أصبح الموقف ينذر بقيام الحرب حتى أن روسـيا نفسها التى عاونت على إتمام تلك الاتفاقيات البلقانية بدأت تنزعج مـن توتـر الموقف في البلقان، ولم يطل انتظار الحرب بعد ذلك، إذ أعلنت كل من بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود الحرب على تركيا (٨ أكتوبر ١٩١٢)، لطـردها من أملاكها الأوروبية فى البلقان، واستطاع المتحالفون البلقانيون أن يحـرزوا انتـصارات خاطفـة سـريعة. وأنـزلوا الهـزائم المتعاقبة بالجيش التركى ووصـلت بعض الفرق البلغارية قرب القسطنطينية، واحتل اليونانيون سالونيك، واكتـسح الـصربيون أعـالى وادى نهـر الوردار واستولوا على (اسكوب **Uskub**) العاصـمة القديمـة لـصربيا (ومونـاسـتير **Monastair**) مفـتاح مقدونـيا الوسطى والجـزء الـشمالى مـن ألبانـيا حتـى سـاحل الأدرياتـيك وهكـذا اسـتطاعت دول (الجامعـة البلقانية **Balkan League**) التى أرسلت إلى ميادين القتال أكثر من ستمائة ألف مقاتل أن تنتزع معظم أراضى تركية أوروبا.

ولم ترحب الدول الأوروبية الكبرى بتلك الانتصارات البلقانية على تركيا، بل أن روسيا من جانبها كانت وجلة من نتائج ذلك الاتحاد البلقاني، ولكن النمسا كانت أشد الدول إنزعاجًا من إطراد نمو صربيا التي تضخمت مساحتها وتضاعف عدد سكانها حتى زادوا من مليونين إلى ما يقرب من أربعة ملايين ونصف، وأصبح من الواضح أن صربيا سوف توجه اهتمامها بعد ذلك نحو تصحيح وضعها مع النمسا.

أمام ذلك الخطر الذى يهدد السلام فى البلقان رأت الدول الكبرى، أن تتكاتف للوصول إلى حل يطمئن له الجميع، فعقد فى لندن مؤتمر السفراء فى ديسمبر سنة ١٩١٢ تحت رئاسة سير أدوارد جراى، لإقرار الحدود الجديدة على ضوء الانتصارات البلقانية على تركيا.

وكانت النقطة الشائكة فى الموضوع هى مستقبل الساحل الشمالى لبحر الأدرياتيك بما فى ذلك ميناء دوارزو **Durazzo** ، إذ ليس من السهل على الصربيين أن ينتزع منهم ذلك الميناء بعد أن استولوا عليه بالقوة، ولاسيما أنه يعطيهم بابًا ينفذون منه إلى البحر، وكانت النمسا تعارض كل المعارضة فى أن يظل ذلك الميناء فى حوزة الصرب. سياستها كانت تتجه إلى إنشاء دولة البانيا وتقويتها حتى تتوازن قواها مع قوى الصرب.

أما ألمانيا فلم تكن على استعداد لأن تقحم نفسها فى حرب من أجل تلك المشكلة، وقد قال قيصر ألمانيا "لست اعتقد أن هناك خطرًا على كيان النمسا أو على مركزها من وجود ميناء لصربيا على البحر الأدرياتيك" ولذلك قرر القيصر ألا يؤيد النمسا فى القيام بأية حركة عسكرية ضد صربيا ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة "لن أحمل على باريس أو موسكو من أجل خاطر ألبانيا ودرازو" وهكذا احتفظت ألمانيا لنفسها مؤقتا بالاستقلال فى سياستها الخارجية وأخرت قيام الحرب فترة من الوقت.

وعلى الرغم من أن روسيا كانت مسرورة بانتصار حلفائها السلاف في الحرب البلقانية الأولى، لكنها كانت تخشى أن تقع القسطنطينية في قبضة إحدى دول البلقان المنتصرة، فيتبدد بذلك حلمها القديم في استيلائها عليها وقد عرف عن فردناند ملك بلغاريا أنه كان يطمع في أن يتوج يومًا ما في كنيسة سانت صوفيا (مسجد أيا صوفيا الحالي). وفي الوقت نفسه كانت سياسة سازونوف Sazonov وزير خارجية روسيا تتجه إلى تقوية ولايات البلقان ضد النمسا، ولكنه كان يفضل أن تظل القسطنطينية والمضايق تحت الحكم التركي، حتى تسنح الفرصة لروسيا للاستيلاء عليها.

وقد قدم سازونوف في ديسمبر سنة ١٩١٣ مذكرة إلى القيصر ذكر له فيها "أن روسيا لا ترغب في الحرب ولا ضم أية حدود جديدة، ولكنها لا تستطيع أن تسمح بسقوط المضايق أو القسطنطينية في أيدي دولة أخرى ولو كانت إحدى دول البلقان الصغرى أمثال بلغاريا" وأضاف إلى ذلك قوله "إن تأمين المضايق لمصلحة روسيا هو في الحكم الواقع الآن فتركيا ليست بالدولة القوية غاية القوة، ولا بالضعيفة غاية الضعف. وهي لا تستطيع إذن أن تكون خطرًا علينا ولكنها في الوقت نفسه مضطرة إلى أن تقف من النمسا موقف الحذر لأنها أقوى منها. إن ضعف الإمبراطورية التركية وعدم قدرتها على التطور مع الحضارة هو في مصلحتنا إذ أنه خلق بين الشعوب المسيحية الخاضعة لها شعورًا بالولاء نحو روسيا الأرثوذكسية مما يقوى مركزنا الدولي في أوروبا الشرقية.

وقد غضبت صربيا أشد الغضب لإنشاء دولة ألبانيا التي ألحت في تأسيسها كل من النمسا وإيطاليا، فقد كانت النمسا تخشى من امتداد نفوذ صربيا ووصولها إلى تلك الجهات وتحرص على عدم إعطائها الفرصة لتصبح دولة بلقانية كبرى على ساحل البحر الأدرياتيك في يد دولة منافسة قوية. والحقيقة أن إيطاليا كانت تأمل أن تضم ألبانيا عندما تسنح لها الفرصة إلى

الحدود الإيطالية وظل الأمل يراودها حتى أقدم على غزوها موسولينى سنة ١٩٣٩م

وكان تأسيس ألبانيا ضمن الدائرة التى فكرت صربيا فى ضمها إلى صربيا الكبرى، وعندما ضاع هذا الأمل وجهت أنظارها نحو الحدود البلغارية الشرقية واحتلت رقعة واسعة منها. فأثار ذلك بلغاريا، فأقدم جيشها على مهاجمة القوات الصربية دون إنذار، فكان ذلك إيذانًا بقيام حرب بلقانية ثانية اشترك فيها الصربيون واليونانيون ضد البلغار، وانتهزت رومانيا الفرصة فهاجمت بلغاريا من الخلف، وانتزعت لنفسها منطقة دبروجا جنوب مصب الدانوب، ودخلت تركيا تلك الحرب واستعادت أدرنة بالحرب من بلغاريا والواضح أن بلغاريا هزمت هزائم منكرة فى كل مكان وانتهت الحرب بمعاهدة بوخارست سنة ١٩١٣، واستطاعت صربيا واليونان أن تضم كل منهما جانبا من أراضى تركيا الأوروبية ورضيت بلغاريا بصلح حرمها نصف أملاكها.

وقد كانت الحروب البلقانية نذيرًا للنمسا بفشل سياستها فى البلقان فقد كان من نتائج تلك الحروب إزدياد قوة صربيا، حتى أصبحت الدولة الأولى فى البلقان، وإضعاف تركيا التى كان حلفاؤهم الألمان يعلقون أملاً كبيرًا على صداقتها. ولم يعد أمام النمسا إلا أن تأخذ برأى العسكريين الذين كانوا ينادون فى ذلك الوقت بضرورة البطش بصربيا قبل أن يستفحل أمرها. إلا أن ساسة النمسا كانوا لا يرتبطون برأى قوادهم العسكريين بقدر ارتباطهم بسياسة حليفتهم الكبرى ألمانيا.

٨- سياسة ألمانيا الحربية.

كانت النمسا أضعف من أن تتخذ أية خطوة عسكرية بدون أن تسندها ألمانيا، ولكن ألمانيا كانت إذ ذاك تخشى على حليفتها أن تفحم نفسها فى حرب تمزقها كل ممزق، ولا سيما أنها عانت كثيرًا من جراء انهزام تركيا التى كانت تعتبرها ألمانيا حليفة طبيعية لها، حتى أنها اضطرت بعد الهزيمة

التركية في البلقان أن ترسل في الحال أحد قوادها — ليمان فون ساندرز Liman Von Sanders — لكي يعيد تنظيم الجيش التركي على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي وجهتها روسيا إلى ألمانيا.

ومنذ بداية عام ١٩١٣ أصبح الألمان يعتقدون أن الحرب لا مناص منها، وأن من مصلحة ألمانيا أن تبدأ سريعًا قبل أن يكمل استعداد أعدائها، وكان نفوذ هؤلاء القواد قد ازداد حتى خضع لهم الإمبراطور نفسه ولم يكن للمستشار الألماني بتمان هولوج Bethman Hollweg الكلمة العليا التي كانت لسلفه بسمارك، وكانت أول خطوة للاستعداد في سنة ١٩١٣ أن فرضت الحكومة الألمانية ضريبة جديدة للأغراض العسكرية، وما أتى صيف ١٩١٤ حتى شعرت ألمانيا أنها قد استكملت قواتها، وخاصة أنها قد أتمت توسيع قناة كييل لتسهيل انتقال الأسطول الألماني من بحر البطليق إلى بحر الشمال، بينما لم تكن فرنسا تقدر لنفسها استكمال استعدادها إلا في عام ١٩١٥، وأما روسيا فلم يكن مقدرًا لها أن تكون على أهبة الاستعداد قبل عام ١٩١٧.

ومن الغريب أن ألمانيا لم تفكر في ذلك الوقت في استثارت بريطانيا بل على العكس نجد أنها تحاول أن تضمن حياد البريطانيين، ولو في المرحلة الأولى من مراحل الحرب ضد فرنسا أو ضد غيرها، وكانت بريطانيا في الوقت نفسه على استعداد للمفاوضات لتسوية أية مشكلة تهدد السلام بينهما. ولعل أهم منطقة للصراع بين ألمانيا وإنجلترا في ذلك الوقت كانت في منطقة الخليج العربي، وهو الصراع الذي نجم عن ازدياد نفوذ ألمانيا في تركيا، وقيام المهندسين الألمان في ذلك الوقت بإقامة سكة حديد برلين — بغداد. وهو الخط الذي كان مقدرًا له أن يصل إلى البصرة على الخليج العربي، والبصرة هي الميناء الذي يعتبر مركزًا للبترول الإيراني الذي تتحكم فيه شركة البترول الإنجليزية الإيرانية، وكان غريبًا أيضًا أن تسلم ألمانيا في ذلك الوقت بوجهة النظر

البريطانية حتى وضع صيغة لمعاهدة ألمانية إنجليزية بخصوص تلك المشكلة ولم يبق سوى توقيعها. وإذا الحرب الكبرى تعلن وتبقى المعاهدة بغير توقيع.

ثانياً: الشرارة التى أشعلت الحرب

كانت العلاقات بين النمسا وصربيا تسير من سيئ إلى أسوأ، والولايات اليوغسلافية المتوقة لقتل كبار الموظفين النمساويين، وقد نفذ صبر النمساويين على ما كان يوجهه إليهم من إهانات واعتداءات، وأخذ "برشتولد **Bershtold** " وزير خارجية النمسا في يونية ١٩١٤ يدبر الوسائل السريعة التى تستطيع بها النمسا القضاء على صربيا. وفى ٢٨ من ذلك الشهر قتل أحد الطلبة الصربيين الأرشيدوق فرانز فردناند ولى عهد العرش الإمبراطورى النمساوى أثناء زيارة رسمية فى "سيراجيفو" عاصمة البوسنة، وكانت الحادثة فرصة ملائمة للنمسا وألمانيا لكى تتخذاها ذريعة لإعلان الحرب.

ومر شهر حدثت خلاله اتصالات سرية بين النمسا وألمانيا أكدت الأخيرة لحليفتها أنها تؤيدها فى كل خطوة تخطوها، ولم تكن الحكومة الفرنسية تقدر عواقب تلك الحادثة، حتى أن بوانكاريه **Poincare** رئيس جمهوريتها وفيفيانى **Viviani** رئيس وزرائها ذهبا إلى بطرسبرج فى زيارة رسمية لروسيا وانتظرت حكومة النمسا حتى بدا الرئيس الفرنسي ورئيس وزرائه يعودان من الرحلة الروسية، ثم ألقت قنبلتها السياسية بإرسال الإنذار المشهور إلى صربيا فى ٢٣ يوليو. ومع أن صربيا خضعت وقبلت المطالب النمساوية التى تكاد تنتزع منها استقلالها، إلا أن النمسا اعتبرت ردها رفضًا للإنذار وأعلنت عليها الحرب فى ٢٨ يوليه.

وقد حاول القيصر الألمانى التخفيف من حدة النمساويين قبيل إعلان الحرب إلا أنه لم ينجح فى محاولته. أما روسيا فقد استعدت لتقف فى جانب صربيا ضد النمسا وأعلن القيصر التعبئة العامة فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس سنة ١٩١٤، وانضمت فرنسا إلى حليفتها روسيا،

فأعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا في ٣ أغسطس، وأخذت ألمانيا تستعد لتنفيذ مشروعها الذى وضعه العسكريون، وهو غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبرج لاكتساح فرنسا قبل أن تستعد روسيا للقتال كذلك أخذت الحكومة الألمانية تتصل بالحكومة البريطانية وتطالبها بأن تقف على الحياد فى نظير أن تتعهد ألمانيا بضمان استقلال بلجيكا وهولندا بعد الحرب، ولكن بريطانيا رفضت ذلك التعهد الألماني، واعتبرت أن خرق حياد بلجيكا مبرر لإعلان الحرب على ألمانيا وأرسلت إنذار إليها في ٤ أغسطس تطالبها فيه بسحب قوتها من بلجيكا في الحال ولما لم يصلها الرد أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا وفى ٦ أغسطس أعلنت النمسا والمجر الحرب على روسيا، فى حين وقفت صربيا ضد النمسا، وفى ٩ أغسطس قطعت صربيا علاقاتها بألمانيا وفى اليومين التاليين أعلنت فرنسا وإنجلترا الحرب على النمسا.

وسرعان ما أصبحت الحرب عالمية بانضمام معظم الدول إليها، ودخلت اليابان الحرب فى صف الحلفاء لأنها كانت ترمى من وراء ذلك إلى بسط نفوذها على الصين. وانتهزت الفرصة لاحتلال المنطقة التى كانت تحتلها ألمانيا فى شبه جزيرة شانتونج والصين.

ثالثًا: مراحل الحرب.

بدأت التحركات العسكرية بحركة التفاف ألمانية واسعة النطاق عبر بلجيكا فى اتجاه فرنسا بقصد توجيه ضربة حاسمة لها تخرجها من الحرب، ولكى تعرقل الزحف الألماني حوالى أسبوعين بسبب مقاومة الجيش البلجيكى وحصون ليبج ونامور الشهيرة وهناك اكتشف القائد الفرنسى خطأه فى تركيز قواته على جبهة اللورين، الأمر الذى أتاح للألمان زحفًا سريعًا إلى قلب فرنسا. واضطرت فرنسا إلى حرب التراجع فى مختلف الميادين حتى خطوط نهر المارن. ولم يخفف من العبء الشديد الملقى على الجيش الفرنسى فى هذه الجبهة سوى اضطرار فون مولتكه إلى نقل بعض من فرقه من الجبهة الفرنسية إلى

بروسيا لانقاذها من الاجتياح الروسى. إلا أن روسيا كانت قد منيت بهزيمة ساحقة فى موقعة تاننبرج قبل اشتراك الفرق المنقولة إلى بروسيا أضعف نقل تلك الفرق من قوة الجيش الألمانى؛ فكان فرصة انتهزها (بوفر) فشن هجومًا مضادًا أرغم الجيش الألمانى على ان يتخذ موقف الدفاع، وكان هذا فى حد ذاته نصرًا لدول الوفاق، حيث أن خطة الحرب الخاطفة قد فشلت فعلاً، وكلما طالت الحرب سارت الأمور ضد مصالح دولتى الوسط. ومنذ سبتمبر ١٩١٤ ساهمت الخطة الدفاعية لدى الطرفين فى فرنسا إلى أن تتحصن فرق المشاة فى الخنادق وأن تتراشق المدفعية بالقنابل على جبهة طويلة للغاية تمتد من جبال فوج فى الشرق إلى بحر الشمال فى الغرب. وفى محاولة لزحزحة العدو من مكانه تبادل الطرفين الهجمات، وكانت نتائجهما متعادلة ففى فردون **Verdun** تحمل الفرنسيون عبء هجوم ألمانى شديد الوطأة كان هدفه إبادة فرق فرنسية عديدة. ونجحوا فى منع الألمان من الاستيلاء عليها، وكبدوهم خسائر تعادل تقريبًا خسائرهم الفادحة (فبراير — يونيه ١٩١٦) وفى معركة السوم (يوليو ١٩١٦) كان الفرنسيون هم المهاجمون وكبدوا الألمان خسائر أخرى فادحة.

أما وقد فشلت خطة كسب الحرب بحرب خاطفة فى الجبهة الفرنسية فى ١٩١٥ بسبب صلابة الجيش الفرنسى والمعاونة العسكرية الإنجليزية له، اتجه القادة الألمان إلى العمل على إخراج روسيا من الحرب عن طريق حرب خاطفة، وكانت المظاهر العامة توحى بأن مثل هذه الخطة ستلاقى نجاحًا كبيرًا فى روسيا لما كان يعوزها من ذخائر ووسائل نقل حديثة. ولقد أحرزت الحملة الألمانية على روسيا انتصارات كبيرة جعلت بولندا وليتوانيا، وأجزاء عزيزة وغنية وواسعة من روسيا تقع تحت يد جيوش دولتى الوسط فضلاً عن حوالى مليونين من الروس ذهبوا بين قتيل وأسير وجريح.

وزاد من حرج الموقف العسكرى العام لدول الوفاق، وخاصة روسيا، أن الحملة الإنجليزية إلى الدردنيل سبتمبر ١٩١٥ باءت بالفشل. سواء فى معارك

البر أو البحر واضطرت إلى الانسحاب وضاع أمل روسيا فى فتح المضايق لتوصيل المواد العسكرية اللازمة لها. بينما اجتاحت فى أكتوبر ١٩١٥ القوات الألمانية — النمساوية — البلغارية الصربية، ووصلت حتى تيرانا عاصمة ألبانيا، دون أن تسهم إيطاليا — التى دخلت الحرب منذ وقت قصير — بشئ يذكر فى حملة الدردنيل أو فى القتال فى البلقان. حتى تعرضت إيطاليا إلى حملة مظفرة نمساوية ألمانية أنزلت الهزيمة القاسية بالجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٧.

وفى الجبهة الشرقية الألمانية توقف الزحف البريطانى من البصرة فى اتجاه الشمال عند كوت العمارة، وهناك أرغم الأتراك جيشًا إنجليزيًا أجبروه فيها على الاستسلام فى أوائل ١٩١٦، أما فى الجبهة المصرية فكانت مبادرة الهجوم والتقدم من جانب جمال باشا حتى وصل إلى قناة السويس، إلا أن الجيش الإنجليزى والثورة العربية (١٩١٦) أرغمت الأتراك على التراجع إلى ما وراء يافا والقدس.

وكما كانت قوى المتحاربين فى ١٩١٥/ ١٩١٦ فى الجبهات البرية متعادلة تقريبًا، كان ذلك نتيجة المعركة الحربية البحرية الكبرى فى جوتلاند (٢١ مايو ١٩١٦) بين الأسطولين متعادلة، وإن سارت موازين القوة البحرية بعد ذلك لصالح التفوق البريطانى، حيث أن الخسائر فى الأسطول الألمانى كان من المتعذر تعويضها، وحيث أن التفوق العددى لأسطولى بريطانيا وفرنسا قطع الأسطول الألمانى من الخروج من موانيها فقبعت فيها.

وحاولت ألمانيا أن "تجوع" بريطانيا وتمنع عنها إمداداتها من الدول المحايدة وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق إغراق سفن بريطانيا وسفن البدول المحايدة المتعاملة معها بواسطة أعداد كبيرة من الغواصات بنتها على عجل ولكن فشلت الخطة فى النهاية بسبب استخدام الإنجليز نظام قوافل

السفن التى تسير فى حراسة الأسطول، ولأن عددًا كبيرًا من هذه الغواصات دمرت قطع الأسطول الإنجليزى.

لقد كانت قوى الطرفين المتصارعين قد استنفذت طاقاتها التى عبأت لخوض حرب قصيرة، وبدأت تعانى من متطلبات حرب طويلة المدى. ووقعت عدة حوادث فى داخل الدول المتحاربة دلت على مدى توتر الأعصاب بسبب هذا التطور غير المنتظر.

ففى بريطانيا كانت وزارة اسكويت تواجه أزمة تموين قاسية. إذ كانت الذخائر تعوز الجيش الإنجليزى العامل فى فرنسا، وكان من أسباب اشتداد هذه الأزمة وجود كتشنر وزيرًا للحرب فى وزارة اسكويت، وكان كتشنر محبوبًا جدًا من الشعب الإنجليزى، ولكن الرجل لم يكن صاحب خبرات فى مثل هذه المشكلات التموينية وأنه صاحب خبرة لا تبارى فى وضع المخططات السياسية الإنجليزية نحو المستعمرات. وتضاعفت المشكلة التموينية عندما أصبحت متطلبات حرب الخنادق فى فرنسا تحتاج إلى كميات أكبر من الذخائر.

وعندما أقدم اسكويت على تعديل وزراته أدخل لويد جوج وزيرًا للتموين (مايو — ١٩١٥) وأبدى مهارة كبيرة فى سد النقص فى حاجات الجيش من الذخائر، واستطاع أن يخطط لسياسة حرب طويلة الأمد مرهقة فأعد لها جيشًا جديدًا مؤلفا من ٧٠ فرقة واستخدم لويد جورج سلطات واسعة — أقرب إلى الديكتاتورية — من أجل توجيه قدرات بريطانيا البشرية والانتاجية نحو الحرب. وفى ديسمبر ١٩١٦ تولى لويد جورج رئاسة وزارة حرب مؤلفة منه ومن ثلاثة آخرين هم: لورد كيرزون ولورد ملنز (وكلاهما من المحافظين) وآرثر هندرسون من (العمال).

أما فى فرنسا فقد استقالت وزارة أرسطو برياند وخلفتها عدة وزارات ضعيفة قصيرة العمر حتى تولى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٧ رئاسة الوزارة جورج كلمنصو الذى أعاد إلى البلاد وحدتها الوطنية وانتهت حركة التمرد التى برزت

فى مطلع ١٩١٧، ووقف الراى العام الفرنسى خلف كلمنصو، واستعادت فرنسا معنوياتها وقدراتها على التضحية الكبرى من أجل النصر النهائى. ولخص سياسته فى العمل على الإفادة من كافة طاقات فرنسا وشعبها، أما بشأن الحرب فقد أبدى صلابة شديدة إزاء العدو وإصرارا على كسب الحرب وقال: "إن سياستى الخارجية وسياستى الداخلية واحدة. سياستى الداخلية أن أحارب وسياستى الخارجية أن أحارب وأن أحارب دوما".

بالنسبة لإيطاليا كانت تضم عددًا كبيرًا من الزعامات والأحزاب والهيئات المعارضة للحرب بشكل لا مثيل له فى أى من الدول المتحاربة الأخرى. ونظرًا لعجزها عن إحراز نصر ما حتى ١٩١٦ أوجد قلقًا مريرًا بين الشعب، وضاعف من ذلك أن المحاصيل الزراعية ١٩١٦ كانت أقل مما سبق، وأدى نقص الفحم إلى تعطيل كثير من المصالح وتركت كثير من الحقول دون إنتاج وترتب عن هذا اضطرابات فى تورين، وفرار الجند من الجبهة، ثم أدت هزيمة الجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو إلى سقوط وزارة بوزيللى، وتولى أورلاندو رئاسة وزارة ائتلافية.

ويمكن أن نعتبر أورلاندو كلمنصو إيطاليا حيث أنه استهدف الوحدة الوطنية على اعتبار أنها مفتاح النصر النهائى. فدعا الأحزاب السياسية المختلفة للتعاون فى الجهد المشترك من اجل توجيه طاقات إيطاليا نحو الحرب ومسح عار كابوريتو. ومع أنه لقى معارضة من الغزو النمساوى — الألمانى، وتأييدًا لدولتى الوفاق وإصرارًا على النصر. أما بالنسبة لألمانيا فقد زادت معارضة الاشتراكيين لقروض الحرب الأمر الذى سيؤدى إلى أزمة داخلية فى يوليو ١٩١٧، وبالنسبة لإمبراطورية النمسا والمجر، كانت أكثر البلاد معاناة من طول الحرب ونفقاتها ومشاكلها. حتى لقد ظهرت أزمات اقتصادية بين النمسا من جهة والمجر من جهة أخرى. وفى نوفمبر — ١٩١٦ توفى الإمبراطور فرانسيس جوزيف وخلفه ابنه شارل الأول الذى أخذ يغير فى الوزراء، ودعا المجلس،

ولم يكن قد دعى منذ ١٩١٤، وجاءت هذه الخطوة الديمقراطية بالوبال على الإمبراطورية حيث جاء ممثلوا القوميات إلى هذا المجلس ليطالبوا فقط بحرية قومياتهم، وبوجه خاص التشيك والبولنديين والسلاف، وزاد من قدرات هؤلاء على العمل تخلى المقاتلين من هذه القوميات عن وحداتهم وعادوا إلى أقاليمهم، فضلاً عن أن حكومات فى المنفى بولندية ويوغسلافية كانت قد تكونت برعاية دولتى الوفاق فرنسا وبريطانيا، أما روسيا فقد بدأت مقدمات الثورة الشيوعية تظهر منذ ديسمبر ١٩١٦.

وبالرغم من مثبطات الهمم هذه، أصرت الدول المتحاربة، ومنها روسيا المهيضة الجناح – على متابعة الحرب رغم نداءات ودرووويلسون – رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لقبول صلح مرض لكافة الأطراف، ومثل هذا الصلح كان يتطلب تنازلات جوهرية من الطرفين ولقد رفضا الإقدام على مثل هذه التنازلات. بل لقد اتهمت الحكومة الألمانية ويلسون بأنه يريد صلحا لصالح دول الوفاق فقط. فاستمرت الحرب دون أن يكون هناك فى ١٩١٦ من يستطيع أن يدرك من سيكسبها إلا أن تطورات عميقة حدثت جعلت من عام ١٩١٧ عامًا حاسمًا فى هذه الحرب.

يعتبر عام ١٩١٧ من أهم أعوام الحرب، حيث وقعت فيه عدة أحداث وتطورات كانت عميقة الأثر إلى حد بعيد على الشكل الذى انتهى إليه هذا الصراع المرير.

وكانت هذه التطورات الكبرى:

١- الثورة الروسية ابتداء من مارس ١٩١٧.

٢- دخول الولايات المتحدة الحرب فى أبريل ١٩١٧.

٣- تدهور الجبهة الداخلية فى ألمانيا (١٩١٧) ثم فشل الهجوم الكبير فى ١٩١٨.

٤- استسلام بلغاريا سبتمبر ١٩١٨.

٥- تصدع المملكة الثنائية.

٦- فقدان تركيا للبلاد العربية (١٩١٧ — ١٩١٨).

كانت روسيا أول الدول خروجًا من الحرب وذلك بسبب تدهور جيوشها معنويًا وفنيًا وأصابتها النكبات والمذابح المتتالية بسبب جهل القيادة ونقص الذخيرة المريع والمتاجرة في تزويد الجيش بالأسلحة، وانتشار المجاعة في الريف ونقص قاتل في تموينات الجند، وعجز من جانب الحكومة القيصرية ودولتي الوسط عن إنقاذ الموقف المتهور بسرعة. وقامت الثورة في بترجراد ضد القيصر، ورفض الجيش التحرك ضد الثوار وأرغم القيصر على التنازل عن عرشه، وانتهت بذلك أسرة رومانوف من الحكم، وتولى الحكم، حكومة مؤقته برئاسة كيرنسكي، وأرادت متابعة الحرب، ولكن الانقلاب الذي قاده لينين — زعيم البلشفيك — وضع الحكم في يد هؤلاء وسرعان ما سعوا إلى الوصول إلى صلح مع ألمانيا وتم ذلك في معاهدة برست ليتوفسك في ٣ مارس ١٩١٨، ونصت على ما يلي:

١- التخلي عن دويلات البلطيق وفنلندا وبولنده.

٢- الجلاء عن أوكرانيا والاعتراف بمعاهدتها مع ألمانيا.

٣- التنازل لتركيا عن أردهان وقارس وباطوم.

٤- الامتناع عن نشر الدعاية.

وهكذا خرجت روسيا من الحرب بعد أن فقدت مساحات شاسعة من أراضيها ومن الأراضي التي تسيطر عليها، وكانت الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب في ٦ أبريل ١٩١٧ على ألمانيا، وكانت في حاجة إلى عام تقريبًا للمشاركة الفعلية في ميادين القتال أوروبا، سؤال خطير هل في استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب خلال الفترة الواقعة بين توقف القتال على الجبهة الروسية ووصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال بكثافة كبيرة؟ لقد كان أمام الألمان حوالي أربعة أشهر كي يفرضوا على فرنسا الاستسلام قبل وصول القوات

الأمريكية وقبل أن تتمكن القوات الإيطالية من العودة إلى الهجوم بعد نكتبها فى معركة كابوريتو (أكتوبر ١٩١٧).

وكان من المفهوم أن القيادة الألمانية – بعد أن وقعت الهدنة مع روسيا – ستنقل كافة الفرق العاملة على الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام. وكان الذى حدث هو أن القيادة لم تنقل إلا جزءًا قليلاً من قواتها تلك إلى فرنسا حيث أن الهدنة يمكن نقضها فى أى وقت وبسهولة، ثم أن الحكومة الألمانية والقواد الألمان كانوا لا يثقفون فى الحكومة البلشيفية الجديدة ويعتقدون أن الروس لن يتورعوا عن الانقلاب ضد ألمانيا إذا سنحت لهم الفرصة، خاصة وأن عملاء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كانوا يعملون على إبقاء روسيا فى المعركة.

وإلى جانب هذا وذاك من العوامل التى جعلت القيادة الألمانية تبقى على الجزء الأعظم من قواتها على الجبهة الروسية، اشتداد النقص فى المواد الغذائية الذى كانت تعانى منه ألمانيا تصاعديًا بسبب الحصار البحرى المضروب على سواحلها. فقد وجدت الحكومة الألمانية فى أوكرانيا مصدرًا كبيرًا لتموين الشعب الألمانى وجيشه بما يلزمه من هذه المواد. ولكن كان لابد من وجود عشرين فرقة عسكرية على الأقل لضمان جميع المحاصيل والمؤن اللازمة فى أوكرانيا، حيث كان احتلال العسكرى لها هو ضمان استغلالها.

ومن هذا كله يتبين لنا أن الألمان لم ينقلوا إلا القليل جدًا من فرقهم من الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية، وبالتالى لم يحدث تغيير جوهرى فى ميزان القوة فى الجبهة الفرنسية عقب انهيار الجبهة الروسية. خاصة وأن حلفاء ألمانيا كانوا فى حاجة إلى قواتهم لمواجهة الجبهات المسئولين عنها.

وفى هذه الظروف كانت القيادة العليا الألمانية قد أدركت أن قوى ألمانيا قد استنزفتها المعارك خلال السنوات الأربع السابقة. وأنه إذا قدر لها أن تكسب الحرب فذلك لن يتم إلا بتوجيه ضربات شديدة الوطأة على الجيوش

الفرنسية والبريطانية الصامدة فى شمال فرنسا وتمزيقها والاستيلاء على باريس وعلى الساحل الشمالى الفرنسى.

ولقد صور لوندورف القائد الألمانى الموقف من وجهة نظره فى ذلك الوقت فقال أن ألمانيا "نزفت دماء .... إلى حد الموت طيلة سنوات أربع، ولا يمكن أن يستمر الجهد لسنة خامسة، وكاد ينضب عندنا معين الرجال، بل معين كل شئ. الخيول والبضائع والكيماويات والمعادن والمطاط. ولا تزال النمسا والمجر فى حالة أسوأ من العوز والحاجة، وهى تسير فى طريق الهلاك بشكل واضح، وأخفقت حملة الغواصات العاتية، وفى أمريكا كميات لا تنفذ من المؤن والذخيرة، ورجال يغمرون وجه الأرض، وغواصاتنا لا تملك سبيلاً للحيلولة بينهم وبين أوروبا فى أعداد ومقادير متزايدة. ولكن باب النصر لا يزال مفتوحًا أمامنا، فإن روسيا قد خرجت أخيرًا من الميدان، ويمكن توجيه قوات ألمانيا بأسرها نحو فرنسا، ويمكن تعزيز الجبهة الغربية نحو أربعين كتيبة وأربعمائة ألف جندى، وبهذه القوة يكون لنا التفوق فى النهاية لقرابة أربعة أشهر. وسنحاول انتزاع النصر فى نقطة التقاء القوات الفرنسية بالإنجليز، ونفرق بين جيوشها، ونكسب الحرب. فإذا وفقنا فى هذا كله فلن تستطيع أية إمدادات من أمريكا أن تؤثر فى الموقف". وفعلا شنت القيادة الألمانية هجماتها خلال الفترة الواقعة بين مارس — يوليو ١٩١٨ فى أربع اتجاهات فى الجبهة الفرنسية:

١- فى منطقة سان كانتين قام لوندورف — القائد الألمانى الكبير بشق وفصل الجيشين الفرنسى والإنجليزى عن بعضهما، وكانا بقيادة بيتان وهيج وكان التنسيق بينهما ضعيفًا جدا الأمر الذى أعطى للوندورف فرصة طيبة لتوجيه الضربات إلى الجيشين. إلا أن القيادة العليا للحلفاء أدركت الخطورة الكامنة وراء تعدد القيادات الفرنسية والبريطانية فى الجبهة

الواحدة، خاصة في حالة تعرض الجبهة لهجوم عام يستهدف الجيوش الموجودة فيها بغض النظر عن تبعيتها. وفعلاً توحدت القيادات وتولاها الجنرال فوش. (مارس ١٩١٨) وأتت هذه الخطوة أكلها بعد وقت قصير فقد أعد فوش جيوشه في تخطيط عسكري موحد، وتمكنت من مقاومة ثم صد الهجوم الألماني الذي توقف فعلا في أوائل إبريل ١٩١٨. حقيقة أحرز الألمان تقدمًا كبيرًا نسبيًا، ولكن الحقيقة هي أن الجيش الألماني في هذه الجبهة فقد منذ ذلك الوقت القدر على شن هجوم حاسم على جيوش الحلفاء.

٢- في أوائل أبريل ١٩١٨ شن الألمان هجومًا كبيرًا في جبهة أرمنتنير، ومع أن الهجوم الألماني أرغم الجيش الإنجليزي هناك على التراجع إلا أن قدرات الألمان على متابعة الهجوم وهنت بسبب النقص في التموين وعدم كفاءة الجندي الألماني في هذه الجبهة. ثم أن هذا الهجوم وقع بعد أن كانت القيادة الموحدة في يد فوش قد أصبحت قادرة على مواجهة الهجمات بالنظرة الشاملة للقدرات المتوفرة المتجمعة للفرنسيين والإنجليز ولم تلبث القيادة الألمانية أن أوقفت هجومًا في هذه الجبهة.

٣- شن الألمان هجومهم في مايو وزحفت جيوشهم حتى وصلت إلى (المادن)، ولكن استنفذ الهجوم جزءًا كبيرًا من طاقة الألمان، وتمكن (بيتان) من وقف التقدم الألماني، ومع أن الألمان كسبوا مساحة واسعة من الأراضي الفرنسية إلا أن ذلك كان أقصى ما تستطيعه، ومن بعد ذلك لم تكن الجيوش الألمانية قادرة حتى على الدفاع عما كانت تحت يدها.

٤- وجه لوندورف هجومه الرابع في منتصف يوليو ١٩١٨ في منطقة شمباني، وشنت القوات الألمانية على المادن هجومًا كذلك. إلا أن فوش قاد بهجوم مضاد أوقف الزحف الألماني فأرغم أعداءه على التراجع، كما أن

الإنجليز شنوا هجومًا مفاجئًا أجهز على قدرة الألمان على الثبات فى مواقعهم فشرعوا فى التراجع، وفقدوا عشرات الألوف بين أسير وقتيل.

وكانت النتيجة العامة والجوهرية لهذه الهجمات الألمانية والمقاومة الناجحة لجيوش الحلفاء وقدرتها على امتصاص الهجمات المتعددة ما يلى:

١- استنفذت الجيوش الألمانية طاقتها على معاودة الهجوم، بينما كانت قدرات الحلفاء العسكرية تتصاعد.

٢- أصبح عنصر الزمن ضد الألمان، حيث أخذت القوات الفرنسية والإنجليزية تستعد لشن الهجوم فى مختلف الجبهات.

٣- كان الصمود الفرنسى - الإنجليزى وعجز الألمان عن كسب الحرب كان قد حدث قبل وصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال ومن ثم ستقوم هذه الجيوش الأمريكية لا بإنقاذ جيوش فرنسا وبريطانيا من الجيوش الألمانية وإنما لاستكمال هزيمة هذه الجيوش الألمانية.

أعدت قيادة الحلفاء خططًا لسلسلة من الهجمات - فى أكثر من جبهة - على الجيوش الألمانية المتعبة. ولم يعد فوش يفكر فى خطط دفاعية بعد وصول العديد من الفرق العسكرية الأمريكية، وبعد أن تفوقت جيوش الحلفاء بما أصبح لديها من عدد كبير من الدبابات التى لم تكن لدى الألمان منها إلا قدرًا يسيرًا.

وبعد نجاح المقاومة الألمانية فى عدة هجمات محدودة النتائج شن (فوش) هجومه العام فى سبتمبر ١٩١٨ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش المتحالفة على طول الجبهات الأخرى فى اليونان وبلغاريا والشام والعراق، وتهاوت المقاومة فى الجبهات البلغارية والتركية والنمساوية والألمانية، واتجهت دول الوسط إلى طلب الهدنة الواحدة تلو الأخرى.

فلقد أصبح من الأفضل لهذه الدول أن تتصل بأعدائها للوصول إلى هدنة وتسوية إن أمكن وكان إصدار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لنقاطه الأربعة

عشر للتسوية المنتظرة من أكبر العوامل التى شجعت دول الوسط على إلقاء السلاح حيث أن هذه النقاط الأربعة عشر كفيلة كما تصور زعماء الدول المهزومة بأن تحافظ على كيان الدول على الأقل.

ولأهمية هذه النقاط الأربعة عشر التى أعلنها ويلسون فى رسالته المشهورة إلى الكونجرس الأمريكى فى الثامن من أكتوبر ١٩١٨ نشـ ر إلى أهم مضمونها:

١- نبذ المعاهدات السرية الدولية. وهذا يجعل حكومة الولايات المتحدة حرة فى مناقشة كافة الموضوعات التى تتعلق بخريطة أوروبا والعالم فى المستقبل بعيدًا عن تطورات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا فيما عقدوه من اتفاقيات سرية على حساب الخصوم والحلفاء — مثل الصرب — فى آن واحد.

٢- ضمان حرية الملاحة، وكان هذا يتلاءم مع مصالح الولايات المتحدة التى أصبحت من أكبر الدول الكبرى حجمًا فى التجارة الدولية، وأصبحت قادرة على التفوق عند المنافسة الحرة الدولية، ولهذا نجدها كذلك تطالب بإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول، والمساواة فى الفرص التجارية على اعتبار أنها هى الرابحة فى مثل هذه المجالات.

٣- دعا إلى عصبة أمم تتولى الإشراف على المصالح الدولية والعلاقات الدولية بما يكفل عدم وقوع حرب دموية كهذه مرة أخرى.

٤- طالب بخفض السلاح، وكان هذا المطلب مقدمًا دون أية تفاصيل تشير إلى مدى التخفيض الذى يمكن أن يجريه ويلسون على قوات الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وحتى لو أجرى تخفيض متساو فستكون الكلمة العليا كذلك للدول الكبرى على اعتبار أن نسبة تسليحها ستظل مرتفعة ومتفوقة.

٥- طالب بأن تنظر الدول الاستعمارية إلى مستعمراتها بعين العدل وأن تراعى مصالح أهل المستعمرات. وعلى ما كان عليه هذا المبدأ من لفتة إنسانية رائعة فهو أقرب إلى الفكر المثالى الذى تعوزه قوة الحق. وكان كالسراب

جرى نحوه زعماء البلاد المستعمرة لعلهم يحققون عدلاً لبلادهم، ولكن دون جدوى لأن قعقعة السلاح بعد الحرب كانت أشد تهديدًا عنها بالنسبة للمستعمرات. ولكن ويلسون كان لا يستطيع أن يفرض رأيه على شركائه الاستعماريين: فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

٦- بالنسبة للدول المهزومة فقد وضع مبادئ تقضى بالجلاء عن بلجيكا وفرنسا واستعادتها الألزاس واللورين، وعن رومانيا والصرب والجبل الأسود ومراعاة حقوق القوميات عن تسوية مشكلات البلقان، وضم المناطق الإيطالية الواقعة تحت يد النمسا إلى إيطاليا، وفتح حق تقرير المصير للقوميات التى تتكون منها المملكة الثنائية والدولة العثمانية، وحرية المرور فى المضايق وأوصى بإنشاء دولة بولندا.

وكانت مبادئ "حق تقرير المصير" وتسوية مشكلات أوروبا على أساس احترام "القوميات" من أكبر الدوافع التى أقنعت حكومات دول الوسط أن الهدنة والتسوية ستكونا شريفتين، وأن الخصوم سيكونون معتدلين غير متعنتين. خاصة وأنه كانت انتشرت شائعات قوية جدًا فى الدوائر الدبلوماسية الأوروبية أن الهدنة لن تكون أساس معاهدة الصلح، وإنما ستوضع هذه بعد مجادلات ومفاوضات جديدة على أساس مبادئ ويلسون الأربعة عشر.

على أن التدهور العسكرى النهائى لدول الوسط هو الذى دفعها إلى طلب الهدنة، فكيف تم ذلك؟. بالنسبة لبلغاريا كانت المشكلة الرئيسية التى واجهتها أنها كانت مكروهة فى البلقان، وكانت القوات الإنجليزية والفرنسية قد اتخذت من سالونيك قاعدة لها ولتجميع القوى البلقانية المناهضة لبلغاريا. ومع أن رومانيا – التى كانت تهدد بلغاريا من الخلف سحقت فى ١٩١٧/ ١٩١٨ إلا أن كفاءة الجيش البلغارى حالت دون بقاء الجيش الإنجليزى فى البلقان. وكان عامى ١٩١٧/ ١٩١٨ لا يستطيع فيهما حلفاء بلغاريا أن يقدموا معونة مجدية لها عندما يتحرج موقفها مثلما حدث من قبل. ثم أن كفاءة القيادة فى جانب الحلفاء وقدرتها على تنفيذ خطط جريئة ولكن سليمة كان له

أكبر الأثر فى القيام بهجوم مفاجئ — وضع خطته فرانشيه ديسبيريه — على الجيش البلغارى أفقده القدرة على الصمود. وكانت فى صفوف القيادة العامة البلغارية دعوة قوية نحو التوصل إلى صلح منفرد مع دول الحلفاء بعد أن ثبت أن النصر أصبح بعيدًا، على أن يكون الحلفاء كرماء فى معاملة بلغاريا مكافأة لها على الخروج عن حليفاتها ومما شجع المسئولين فى بلغاريا تلك الاتصالات التى أجراها القنصل الأمريكى فى صوفيا، وبعد اتصالات قصيرة وقعت الهدنة مع بلغاريا فى ٢٩ سبتمبر ١٩١٨، ولكن شروطها كانت قاسية لا كرم فيها من جانب الحلفاء حيث اشترطت على البلغار:

أ- تسريح الجيش البلغارى وتخليه عن عتاده ومعداته.

ب- طرد الألمان من بلغاريا.

جـ- احتلال قوات الحلفاء للمواقع الاستراتيجية المهمة باستثناء العاصمة.

أدى استسلام بلغاريا على هذا النحو إلى تعرض كلا من تركيا والمملكة الثنائية إلى أخطار داهمة جديدة ساعدت على تقويضهما بسرعة أكبر. كما أن خروج بلغاريا من الحرب قضى على البقية الباقية من الآمال التى كانت لدى القيادة الألمانية فى الحصول على صمود أشد فى مختلف جبهات القتال، الأمر الذى ساعد على تحطيم معنويات القيادة الألمانية.

أما تركيا فكانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية فى جبهتى (العراق الجنوبى) و(فلسطين) محدودة، وكان نشوب الثورة بقيادة الشريف حسين بن على فى ١٩١٦ وتعاونها مع الإنجليز قد أدى إلى أن تصبح الأرض التى يعمل عليها الأتراك معادية، وفصلت بين القوات التركية فى اليمن والقوات الرئيسية فى الحجاز والشام، وإذا كان عام ١٩١٧ عام استعدادات من جانب الإنجليز لشن هجوم شامل فى جبهتى العراق والشام. وكانت محاولات الأتراك لإخراج العرب من الحرب إلى جانب الإنجليز غير مجدية على الإطلاق

رغم نشر نصوص معاهدة سايكس — بيكو التى تقسم الولايات العثمانية العربية بين فرنسا وبريطانيا رغم صدور وعد بلفور.

على حين نجحت الحملات الإنجليزية فى الشام وفى العراق سقطت العقبة فى ٦/ ٧/ ١٩١٧ والقدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧، نجد دمشق تسقط فى أول أكتوبر ١٩١٨ وتليها بيروت وتتراجع القوات التركية فى اضطراب كبير حتى الأراضى التركية، وسقطت بغداد فى مارس ١٩١٧ وزحفت القوات حتى اقتربت من الموصل، وكانت بلغاريا قد استسلمت وأصبحت الأستانة نفسها مهددة فطلبت حكومتها الهدنة ووقعتها فى نوفمبر ١٩١٨، وبعد توقيعها فى نوفمبر ١٩١٨، استولت القوات الإنجليزية على الموصل الأمر الذى أدى إلى إثارة مشاكل عديدة حولها.

أما إمبراطورية النمسا والمجر منذ هزيمة جيوشها فى موقعة فيتينو فقد اعتراها الكثير من الوهن ولجأت إلى الحرب الدفاعية فى الوقت الذى تحول فيه الحلفاء إلى الهجوم، وفت استسلام بلغاريا فى عضد المملكة الثنائية، حيث أنها أصبحت مضطرة لأن تحارب فى أكثر من جهة، وكان ذلك الفرصة الذهبية التى كانت تنتظرها القوميات المهضومة فشرعت مراكز الثورة فيها فى التجمع وشجعها على التحرك إعلان الحكومة الأمريكية عن رغبتها فى رؤية هذه القوميات وقد استقلت فتناثرت المملكة إلى أشلاء، وخارت قوى جيوشها التى كان السلاف يكونون جزءًا مهمًا فيها، واضطر الإمبراطور إلى طلب الهدنة التى وقعت فى ٣ نوفمبر ١٩١٨.

أما القوى الهجومية الألمانية فقد أصبحت عاجزة عن القيام بضربة شاملة، ولم يعد أمام الجيوش الألمانية سوى الدفاع والتراجع أمام القوى الهجومية المتزايدة لدى الحلفاء. وزاد من اضطراب القيادة الألمانية أن الجبهة الداخلية بدأت تتداعى، فالتذمر كان يشمل رجال البحرية الذين أمضوا الوقت منذ معركة جتلاند (١٩١٦) دون عمل، وانتشر التذمر فى المدن الكبرى بسبب

النقص الشديد فى المواد الغذائية. واتجهت القيادة العسكرية إلى طلب الهدنة بوساطة الرئيس الأمريكى ويلسون تعلقًا بمبادئه الأربعة عشر، وخاصة مبدأ "حق تقرير المصير".

كانت القيادة العسكرية الألمانية تعتقد أن الهدنة ستوقع مع احتفاظ ألمانيا على الأقل بقواتها المسلحة وحكومتها، ولكن ويلسون وضع شروطًا قاسية على الألمان كان عليهم أن يقبلوها إن أرادوا عقد الهدنة. وكانت هذه الشروط تفرض على الإمبراطور والقيادات التى تولت أمر ألمانيا خلال الحرب أن تعتزل مناصبها وأن تفسح الطريق أمام حكومة ديمقراطية تتولى التفاهم على الصلح مع الديمقراطيات الغربية المنتصرة. وتم لويلسون ما أراد وتنازل الإمبراطور وفر من البلاد، واستقالت القيادات العسكرية والسياسية وعقدت الهدنة فعلا فى نوفمبر ١٩٨١. أما ما ستكون عليه خريطة أوروبا بعد توقف القتال واتجاه زعماء الدول المنتصرة إلى عقد مؤتمر، فهذا ما سنتناوله بعد ذلك.

رابعًا: نتائج الحرب العالمية الأولى

اختيرت باريس لتكون مقرًا لمؤتمر الصلح، سنة ١٩١٩ وكانت هناك دلالات سياسية معينة لهذا الاختيار:

١- كانت هناك دعوات إلى اتخاذ جنيف مقرًا لمؤتمر الصلح على اعتبار أن سويسرا دولة محايدة، ولكن الرئيس ويلسون كان يفضل باريس التى كانت حينذاك تعج بالقوات الأمريكية.

٢- كانت فرنسا هى أكثر الدول المتحالفة خسائر فى الأرواح والمساكن فحجم التخريب المروع الذى تعرضت له مناجم ومصانع ومدن شمال فرنسا التى كانت تصاب بالتدمير خلال العمليات العسكرية وليس فقط بل كذلك بسبب التدمير الذى كان يتم على يد القوات الألمانية وهى تنسحب من موقع لآخر. فهى بذلك أحق بأن يعقد المؤتمر فيها على اعتبار أنها أكبر المضحين فى سبيل (العدالة).

٣- كان اختيار باريس مقرًا للمؤتمر يمكن كلمنصو (العجوز) من تولى رئاسة المؤتمر دون إثارة مشكلات معقدة حول موضوعات الرئاسة.

٤- إن وجود المؤتمر فى باريس يجعل كلمة الشعب الفرنسى مسموعة بقوة أكثر داخل أروقة المؤتمر.

وقد تأخر انعقاد المؤتمر لبعض الوقت بسبب إصرار الرئيس ويلسون على إلقاء خطابه فى الكونجرس فى ديسمبر ١٩١٨، وكانت ظروف بريطانيا السياسية قد ساهمت — هى الأخرى — فى تعطيل انعقاد المؤتمر بعض الوقت.

كان (لويد جورج) يصر على أن تجرى انتخابات جديدة فى بريطانيا حتى إذا ما نجحت برامجه ذهب إلى مؤتمر الصلح مسلحًا بتأييد شعبى وبرلمانى كاملين. وخاصة أنه كانت قد مرت حوالى ثمانى سنوات على بريطانيا دون إجراء انتخابات وفعلاً أجريت هذه الانتخابات فى منتصف ديسمبر.

وخلال هذه الانتخابات ترددت الدعوة إلى "شنق القيصر" الألمانى، وعلى إرغام ألمانيا على دفع تعويضات مناسبة، وكان من سوء حظ ألمانيا أن الفترة الأخيرة من الحرب شهدت أحداثًا إنسانية محزنة، وبوجه خاص إغراق الغواصات الألمانية لباخرة البريد الأيرلندية (لنستر) بمن فيها من رجال ونساء وأطفال بلغ عددهم ٤٥٠ نفسًا، وكان وقع هذه الكارثة شديدًا على نفوس الإنجليز الأمر الذى عمق من كراهيتهم للألمان، وزاد من حدة مطالباتهم لحكومتهم بالقصاص من ألمانيا.

وكان أول انعقاد للمؤتمر فى ١٨ يناير ١٩١٩، ووقعت معاهدة فرساى مع ألمانيا فى ٢٨ يونيو ١٩١٩ وهى الذكرى الخامسة لحادثة سراييفو، وكان آخر انعقاد للمؤتمر فى ٢١ يناير ١٩٢٠، وبعد ذلك وقعت معاهدات الصلح مع كل من المجر وتركيا، ولم تستكمل الولايات المتحدة معاهدتها المنفردة مع ألمانيا إلا فى ٢٥ أغسطس ١٩٢١، ومع تركيا لم توضع معاهدة لوزان — المعقودة فى يوليو ١٩٢٣ — موضع التنفيذ إلا فى أغسطس ١٩٢٤.

حقيقة طالت مدة انعقاد المؤتمر، وذلك لتعدد وتشعب الموضوعات التى عرضت على مائدة المؤتمر. وكانت الغالبية العظمى لهذه الموضوعات شائكة وذات حساسيات متعددة الجوانب الأمر الذى كان يتطلب إجراء مشاورات مطولة للوصول إلى حل بشأنها. أضف إلى هذا أن عدد مندوبى الدول فى المؤتمر كان حوالى السبعين مما كان يزيد من وقت المباحثات وتعقيدها أيضًا.

وكان المؤتمر مكونًا أساسًا من دول الحلفاء والدول المشاركة وقبلت عضوية دول جديدة وهى تشيكوسلوفاكيا وبولنده، كما حضر مندوبون عن هيئات وقوى ذات أثر فى الحرب مثل العرب واللبنانيين والمصريين والأكراد والأرمن والصهيونيين والكوريين والروس البيض والأيرلنديين، أما الدول التى فرض عليها عدم المشاركة فى مؤتمر الصلح فكانت الدول المهزومة، والمحايدة، وروسيا.

ولا شك أن غياب الدولة المحايدة عن المؤتمر عن المؤتمر يشكل نقصًا خطيرًا فى بنائه، حيث أن هذه الدول عانت كذلك من ويلات الحرب، وكان يجدر أن يكون لها رأى مسموع فيما ستكون عليه خريطة أوروبا الجديدة، أما استبعاد روسيا فكان لخروجها من الحرب من تلقاء نفسها، وهذا أفاد الحلفاء فى رسم خريطة أوروبا الشرقية بحيث يضرب حول روسيا حزام يمنع من انتشار الشيوعية منها إلى بقية أجزاء أوروبا. أما غياب ألمانيا. وفرض معاهدة فرساى فرضًا على حكومة الجمهورية الألمانية الجديدة، فقد أعطى للزعامات الألمانية فيما بعد الفرصة للتنصل من معاهدة لم يكن لهم رأى فى إعدادها.

ووضعت طريقة معقدة لتوزيع عدد المندوبين فى المؤتمر على كل دولة. وكان من المفروض أن تحتفظ الدول الكبرى المنتصرة بعدد كبير نسبيًا من الأعضاء، ولهذا خصص لكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ولليابان وإيطاليا خمسة مندوبين، وأعطيت لبلجيكا وصربيا مندوبين أما بقية الدول الأخرى فلكل واحدة مندوب فقط.

وحيث أن كل هؤلاء المندوبين كانوا يمثلون حوالى ٣/ ٤ سكان العالم، فيمكن أن نقول أن مؤتمر الصلح بباريس كان أول مؤتمر صلح عالمى، مع مراعاة أن مقدرات هذه المؤتمر كانت مركزة فى مندوبى الدول الخمس الكبرى وعندما دارت عجلة العمل فى المؤتمر كان التحكم فى مستقبل الدول المهزومة وفى أوضاع الدول المحايدة، وفى تحقيق مكاسب الدول المنتصرة ثلاثة فقط: كلمنصو، ولويد جورج، وودرو ويلسون. وحقيقة كانت إيطاليا واليابان تكملان عقد "الخمسة الكبار" ولكن دور اليابان فى مؤتمر الصلح كان قصيرًا وصغيرًا جدًا. ونظرًا لقيمة الأدوار الشخصية والدولية التى لعبها هؤلاء الكبار يجدر بنا أن نقدم تحليلاً لكل واحد منهم يكشف عن كوامن قدرته واتجاهاته ولنبدأ بأضعف هذه الشخصيات وهو أورلاندو.

كان أورلاندو قد تولى رئاسة الوزارة الإيطالية. وفى أصعب الظروف وأدقها فى أعقاب نكبة كابوريتو. واستطاع أن يدبر دفة الأمور حتى النصر النهائى، ولكن الأمور فى داخل إيطاليا كانت لا تمكنه من أن يكون طليق اليد فى مناورات مؤتمر الصلح بسبب الخلافات الجوهرية التى كانت بين الأحزاب الإيطالية. وكانت إيطاليا أكثر البلاد الأوروبية تأثرًا بنكبات الحرب بسبب ضعفها فى مجالات الصناعة ونقص المواد الأولية بها. وكان برلمانها غير اتخاذ مواقف حاسمة إزاء القضايا الكبرى، وتعرضت الحكومة الإيطالية لهجمات اليمين واليسار على السواء، وانتشرت الإضرابات فى معظم البلاد. وكانت تطلعات الشعب الإيطالى إلى مكاسب بلاده من الحرب بعيدة جدًا وكانت ذكريات الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أقوى من أن يكتشف الإيطاليون حينذاك حقيقة قدراتهم إزاء الدول الكبرى المنتصرة، وكان أورلاندو يشعر بضعف موقفه داخل مؤتمر الصلح، ويعانى جدًا من ثقل الضغوط الشعبية والسياسية عليه من أجل الحصول على مكاسب عظمى فى مؤتمر الصلح.

ثم أن علاقته برفقائه (ويلسون وكلمنصو ولويد جورج) غير طيبة، خاصة من الجانب الأمريكي والفرنسي. فقد كان كلمنصو يحتقر إيطاليا والدور الهزيل الذى لعبته فى الحرب، وكان ويلسون لا يعطيها قدرها المناسب وكان جورج يعطف عليها عطفًا إنجليزيًا خاليًا من الوعود والسبب فى هذه المواقف ليس وليد العاطفة والهوى وإنما وليد متطلبات الأمن للدولتين الفرنسية والإنجليزية، فإيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى أصبحت إمبراطورية تجاور مستعمراتها مستعمرات كل من فرنسا وبريطانيا في شمال إفريقية وفى شرق إفريقية، وهى إلى جانب هذا أصبحت بعد هزيمة ألمانيا والمملكة الثنائية — الدولة الأوروبية التالية لفرنسا فى داخل القارة الأوروبية. ولها الكثير من المميزات الاستراتيجية فهى تستطيع أن تمد إحدى يديها إلى قلب القارة وأن تمد الأخرى إلى شمال إفريقية وفوق هذا وذاك فالريفييرا الفرنسية امتدادًا للإيطالية، وصقلية على الطريق بين فرنسا والشام الذى كان من نصيب فرنسا بمقتضى اتفاقية سايكس — بيكو ١٩١٦. ومن هذا كله نستيطع أن نفسر موقف كلمنصو العنيد إزاء (أورلاندو) ونائبه فى المؤتمر (سونينو)، وزادت من حدة الأزمات بين ممثل إيطاليا والثلاثة الكبار أن الاتفاقات السرية المعقودة بين دول الوفاق وإيطاليا خلال الحرب لاقت معارضة شديدة من جانب الرئيس الأمريكى ودورو ويلسون في مؤتمر الصلح وأن بعض هذه الاتفاقيات السرية كان لا يحترم الحقوق القومية. ومن ذلك أن اتفاقياتها مع دول الوفاق كانت تهدف إلى التوسع فى الأرض البلقانية بغض النظر عن جنسية السكان. ولهذا لقيت معارضة شديد من جانب ويلسون وكلمنصو حتى اضطر أورلاندو إلى مغادرة المؤتمر تاركًا (سونينو) ممثلاً لبلاده فيه.

أما كلمنصو فكان أقوى الأربعة الكبار، وأشدهم ذكاءً كان يقترب من الثمانين، دون أن تكل قواه عن المعارضة التى عاش حياته فى خضمها، قوى

الأسلوب، لاذع الكلام، شديد الوطأة على معارضيه، لا تفتر همته حتى ولو كان خصمه قوى الشكيمه رائع البيان مثل ويلسون أو داهية فى السياسية الأوروبية مثل لويد جورج. كانت تجاربه فى الحياة الخاصة والحياة العاملة والسياسة الأوروبية والدولية كثيرة ومتزاحمة بل ومتناقضة قاسية. شهد مذلة فرنسا فى ١٨٧٠ — ١٨٧١، والضياع الذى خيم على الشعب الفرنسى فى السبعينات والجهود المضنية الحثيثة الخطرة التى سارت فيها فرنسا حتى وقفت على قدميها أمام العملاق الألمانى، وروعة الصمود الفرنسى أمام الهجوم الخاطف الألمانى فى مطلع الحرب، وصبر الشعب، وتضحياته وتفوقه على آلامه والمصائب التى نزلت بمدنه وأرضه الزراعية وأبنائه من عسكريين ومدنيين.

وكان ينظر بألم دفين إلى كون الإمبراطورية البريطانية أوسع وأكبر وأضخم ثروة من الإمبراطورية الفرنسية فضلاً عن أن الحرب تدر رحاها على الأرض البريطانية، وأن خسائر بريطانيا وإمبراطوريتها لا تكاد تعادل نصف ما خسرته فرنسا أرواحًا وعتادًا وثروات، ومع هذا كله كان يرى فى أفق السياسة الدولية خطرين عظيمين على فرنسا، وهذه المرة من جانب أخوة لفرنسا فى السلاح، بريطانيا، والولايات المتحدة، فى الوقت الذى لا يزال فيه الخطر الألمانى على فرنسا غير بعيد، خاصة — من وجهة نظره إذا أهملت فرنسا فرض القيود الشديدة عليها. ولقد كان كلمنصو يدرك إلى حد بعيد كم كان ويلسون مثاليًا لا يقدر مخاوف فرنسا وآلامها حق قدرها، ويدرك أن لويد جورج يريد أن يلعب اللعبة البريطانية التقليدية، وهى أن تظل فرنسا خائفة من ألمانيا حتى تنفرد بريطانيا بالاستيلاء على أكبر قسم من مستعمرات ألمانيا وولايات الدولة العثمانية. وتستطيع أن تتلاعب بكافة الأطراف بما يضمن لها أكثر المكاسب بأرخص التكاليف.

كـان (كلمنـصو) ضـليعًا فى المشكلات الأوروبية وخفاياها، وكان يدرك بـسرعة كـل معانـى المناورات السياسة التى مر فيها سياسيو بريطانيا. وساعده علـى ذلـك إتقانه للغة الإنجليزية، ،ل كان الوحيد من بين الثلاثة الكبار الذى يـتقن اللغـات الـثلاث الفرنـسية والإنجليـزية والألمانـية. وكانـت واقعيته توقع مثالـية ويلسون فى تخبطات مربكة قللت من هيبة الرئيس الأمريكى، وساهمت فـى أن يـصبح كلمنـصو ولـويد جورج واضعى خريطة أوروبا والشرق الأدنى بعد الحـرب العالـمية الأولى، لهـذا كـان كلمنـصو شـديد اللهجـة فـى مجادلاته مع ويلسون ولوبد جورج.

وهـناك ناحـية شخـصية أثـرت فى توجيه المؤتمر إلى سياسات معينة، فقـد كـان (كلمنـصو) يـرغب فـى أن أن يختـتم حياته ببطولة قومية عظمى فى مؤتمـر الـصلح، وكـان يعتقد — وكان اعتقاده صحيحًا — أن الرأى العالمى يقف إلى جانبه ضد ألمانيا، وأن الفرصة قد حانت لتصبح فرنسا صاحبة حدود آمنة، وليس هناك من دولة أوروبية فى داخل القارة تهددها بالغزو. وكان يرى أنه قد مـر علـى فرنـسا زمـن طويل وهى تحت خوف الغزو من أكثر من جهة وأنه آن الـوقت الـذى تـضع فـيه فرنـسا أسس سلام دائم يبعد عن فرنسا هذه المخاوف نهائيًا إن أمكن.

كانت فرنسا تطالب بالكثير، وكلن دون إسراف، وتركزت أهدافها فى إقلـيم الـسار بحيث تعود حدوده إلى عام ١٨١٤/ ١٨١٥، وكان ذلك مثار جدل عنيف بين كلمنصو ولويد جورج الذى حذر زميله من خلق مشكلة الزاس ولورين جديدة ومن وجهة النظر الأمريكية كان هذا يعتبر تجاوزًا لمبادئ ويلسون الأربعة عـشر حـيث أن الـسار كـان ألمانيًا بلا شك، ويجب وفقًا لمبدأ تسوية المشكلات على أساس قومى — أن يظل ضمن الدولة الألمانية، وكذلك الإشراف على الضفة اليـسرى لنهـر الراين، وكانت فرنسا تهدف من وراء ذلك إلى خلق حاجز بينها

وبـين ألمانـيا يكـون علـى الأقل مجردًا من السلاح إن لم يكن تحت إشرافها أو يكون دولة منفصلة عن ألمانيا. ويمثل هذه الخطبة تفقد ألمانيا الكثير من المصادر الـصناعية اللازمة لاستعادة قوتها العسكرية، أما بالنسبة للمستعمرات، فكانت تـريد مـساحات واسـعة جـدًا مـن مـستعمرات الدولـة الألمانـية وولايـات الدولة العثمانـية. وكانـت هـناك اتفاقـات نظمت إلى حد ما لتوزيع العراق والشام بين فرنـسا وبـريطانيا (اتفاقـية سايكس – بيكو) ولكن بريطانيا بعد الحرب أخذت فـي المماطلـة مـستندة إلى أنهـا هـي التـي تسيطر بجندها على كل تلك المناطق وأخـذت تـساوم فرنـسا على تنازلات جديدة، ومن هذا كله يتبين لنا كم كانت المناقـشات معقـدة بـين كلمنصو وزميله الاستعماري لويد جروج والمثالي الأمريكي ويلسون.

أمـا لـويد جـورج فكان سياسيًا بارعًا، تكونت لديه ملكة الجدل لسابق خـبرته فـي مجال المحاماة وتفوق في المناقشات السياسية لخبراته خلال عمله فـي البرلمان والوزارة وإطلاعه الواسع على الشئون العالمية. ولم يعش، كسياسي فـي خـط واحـد تقـريبًا مـثل كلمنصو الذي كان في الغالبية العظمى من حياته معارضًـا شـديد اللـسان علـى خـصومه، أمـا لـويد جـورج فقـد مـارس الطرفين النقيـضين المعارضة والموالاة. كانت حكومته ملكية ومستقرة، بينما كانت فرنسا جمهـورية متأججة كانت بريطانيا هادئة الأعصاب بعد هذا النصر الكبير، لأنه لم يكـن أول نـصر كـبير نهائـي فهـناك أوتـرخت (١٧١٣) وصـلح بـاريس (١٧٦٣) ومؤتمـر فيـينا (١٨١٥) وصـلح بـاريس (١٨٥٦). أمـا فرنسا فكان هذا النـصر بمثابة تحطيم الأغلال التي ضربت حول المارد الفرنسي منذ قرون وليس منذ ١٨٧٠/ ١٨٧١ فقط.

كانـت سلطاته إلى تشجيع الملك وتأييد الشعب وكان يدرك أن الشعوب قـد تطالـب بأكثـر مما يجب، بينما كانت هناك ضرورات سياسية تفرض على

لويد ذلك منها الشعب الذى أولاه ثقته. ويدت هذه الأزمة بوضوح عند التعرض لمشكلة التعويضات وتقليم أظافر ألمانيا إذ كان لويد جورج يرى أنه يجب الإبقاء علـى ألمانيا كقوة رادعة للتفوق الفرنسى. ويجب وضع تقديرات غير مبالغ فيها للتعويـضات التـى تفرض على ألمانيا، وهنا واجه لويد جورج ضغوطًا شديدة من جانـب زعمـاء بـريطانيا بـل وكـذلك تعرض لنقد شديد من جانب كلمنصو هذه المسألة، وكـذلك بسبب مطالبة لويد جورج بألا يطبق التجريد من السلاح على ألمانيا وحدها، وإنما طالب بأن يطبق على الجميع إذا أريد للسلام أن يستتب.

وكانـت المطالـب البريطانية مركـزة فـى خـارج أوروبـا، أمـا بالنـسبة لخـريطة أوروبـا الجديـدة فكان لويد جورج فى حقيقة الأمر هو المخطط لها وهو المسئول مـع كلمنـصو، وإلى حـد مـا مع ويلسون، عن رسمها على النحو الذى ظهـرت عليه فى ١٩١٩ – ١٩٢٠. وذلك الشكل الذى ساعد على وقوع الحرب العالمية الثانية.

أمـا ويلـسون فكانـت الغالبـية العظمـى من المؤرخين يطلقون عليه لقب الرجل المثالى فى المؤتمر فمبادئه الأربعة عشر هى التى جعلته يأخذ هذا الطابع ولكن مثاليته كانت موجهة نحو أوروبا أما سياسته فى أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية فكانت تتهم بأنها "سياسة الدولار" وهى سياسة واقعية جدًا تستهدف واشـنطنجن فـى اقتـصاديات – وبالـتالى فـى سياسـات – دول أمريكا اللاتينية وتنقل ويلسون بين هذه الواقعية المثالية هو الذى جعله يفقد اتزانه أمام كلمنصو – الشديد الواقعية – ولويد جورج المرن.

كـان ويلـسون قـد اشـتهر بقدراتـه الخطابـية، إلا أنـه لم يتمتع بدقة القانونـى عـند وضـع الكلمات فى نصوص المعاهدات، ولعل هذا كان راجعًا إلى تركيـزه على المبادئ لا على المشكلات الواقعية نفسها. إلا أن نظره فى الشئون العالمـية أعطـاه مركـزًا عالمـيًا كـسياسى قديـر، وبوجه خاص دعوته إلى "عصبة

للأمم" التي جاءت نتيجة لتخصصه في العلوم السياسية، وذلك أيضًا لأن السياسي الأمريكي ينظر إلى المشكلات الدولية بصفة عامة. والمشكلات الأوروبية بصفة خاصة. من بعيد بشكل يجعله يرى النظريات أكثر وضوحًا من المشكلات الملحة، ومن هنا اهتزت مبادئه الأربعة عشر أمام مشكلات أوروبا المعقدة. وكان هو مسئولاً عن تعلق الشعوب المهضومة بمبدأ تقرير المصير، وعن خيانته لهذه الشعوب وتركها في مواجهة عملاقين استعماريين كبيرين منتصرين لا رادع لهما لما بينهما من خلافات.

وحيث أن ويلسون كان يمثل بلدًا يتبع الديمقراطية البرلمانية، فإنه كان عرضة لفقد منصبه عقب فوز الحزب المنافس له، وفعلاً عندما أجريت انتخابات الكونجرس في نوفمبر ١٩١٨ ربحها الحزب الجمهوري، فأصبح مركز ويلسون دقيقًا حيث أن زميليه (لويد جورج وكلمنصو) كل منهما كانت تستنده أغلبية برلمانية وأغلبية في الرأى العام.

ويفسر بعض المؤرخين مبالغة ويلسون في إبراز أهمية نظريته الخاصة بعصبة الأمم، وبذله الجهود الكبيرة جدًا من أجل الحصول على موافقة زميليه عليها، فإنها نتيجة لذلك الخزلان الذى منى به في الانتخابات، ويذهب بعض هؤلاء المؤرخين إلى أن ويلسون بلغت به اللهفة على ظهور "عصبة الأمم" إلى عالم الحقيقة أن ضحى ببعض من مبادئه السامية حتى يحصل على موافقة كل من بريطانيا وفرنسا على تكوين هذه العصبة.

كانت المشكلات التي تقرر أن ينظر فيها مؤتمر الصلح عديدة للغاية، وكانت أشد هذه المشكلات دقة تلك المتعلقة بخريطة أوروبا الجديدة والمطالب المضادة التي كانت تدور حول هذه القطعة من الأرض أو تلك. ولهذا تشكلت عدة لجان لدراسة المشكلات المعروضة. ولكن الحقيقة التي رسخت بمرور الوقت — خلال انعقاد المؤتمر — أن الثلاثة الكبار هم الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة

فـى رسم خريطة أوروبا الجديدة، متوخين فى ذلك مصالح بلادهم أولاً وتم لهم ذلـك فـى سلسلة مـن المعاهدات فرضوها على الدول المهزومة، وهذه المعاهدات هى:

١-معاهدة فرساى مع ألمانيا (٢٨ يونيو ١٩١٩).

٢-معاهدة سان جرمان مع النمسا.

٣-معاهدة تريانون مع المجر.

٤-معاهدة نايى مع بلغاريا.

٥-معاهدة سيفر مع تركيا ولكن عدلت بمعاهدة لوزان.

كانـت تـسوية المسائل المتعلقة بألمانيا هى الأكثر أهمية، رغم أن العديد مـنها لم يـتطلب سـوى القلـيل مـن الوقت للوصول إلى قرار نهائى بشأنها. فقد استعادت فرنـسا الإلـزاس واللـورين، وحـصلت علـى استغلال فحم السار لمدة خمـسة عـشر عامًـا تدير عصبة الأمم خلالها هذه الإقليم على أن يتحدد مصيره باستفتاء عام يجرى فى ١٩٣٥.

أمـا فـيما يـتعلق بـرغبة فرنسا فى السيطرة المباشرة على أراضـى الضفة اليـسرى لنهـر الراين، فكانت دواعى الأمن العسكرى تدعو كلمنصو إلى الإلحاح علـى تحقـيق هـذا المطلب، إلا أن ويلسون ولويد جورج رفضا الموافقة على ذلك واكـتفوا بتجـريد منطقة الراين إلى عمق خمسين كيلو مترًا من السلاح، ولم يقبل كلمنـصو بهـذا إلا بعـد أن وعـده ويلسون ولويد جورج بتقديم مساعدة إنجليزية أمريكية مشتركة لفرنسا فى حالة وقوع هجوم ألمانى عليها واكتفى كلمنصو بهذا الـوعد الدبلوماسـى إلا أن الـتطورات أفقـدت هـذا الـوعد قيمـته وبـسرعة غـير منتظـرة، فقـد رفـض الـسناتور الأميركـى إبـرام معاهدة الصلح، وبالتالى لم تعد حكـومة الـولايات المـتحدة مـسئولة عـن ذلـك الـوعد، وانتهـزت بـريطانيا هذا الحـادث وأعلـنت أن عـدم تمـسك حكـومة الـولايات المـتحدة بـوعد ويلـسون

لكليمنصو يجعلها هى الأخرى – فى حل من تعاهدها سالف الذكر. وبدا وكأن فرنسا خدعت خديعة مروعة ستؤثر فى توجيه سياستها الخارجية بعد ذلك.

أما الحدود الدانمركية – الألمانية فقد تقرر تعديلها عن طريق استفتاء فى شلزويج يحدد مصيرها وقد أجرى الاستفتاء وأدى إلى انضمام الجزء الشمالى منها فقط إلى الدانمرك وظل الباقى جزءا من ألمانيا.

وقد فقدت ألمانيا لصالح بلجيكا، أوين ومالميدى وحصلت بولندا على مساحات من الأراضى الألمانية ذات قيمة اقتصادية كبيرة على الممر البولندى المنتحى على البلطيق بمدينة دانزيج الألمانية تمامًا، والتى أصبحت ميناء حرًا تديره عصبة الأمم. وبذلك تكون بولنده قد أوجدت لنفسها منفذًا على البلطيق، ولكنها فى سبيل ذلك أضرت بألمانيا ضررًا بالغًا للغاية، حيث أن الممر البولندى قسم ألمانيا إلى قسمين هما بروسيا الشرقية وألمانيا. ومن الناحية الثانية كانت مدينة دانزيج ألمانية شعبًا واقتصادًا وتاريخًا، ويتعارض فصلها عن ألمانيا مع مبدأ وحدة القوميات. كذلك تقرر إجراء استفتاء فى سلزيا لتحديد تبعيتها، وبعد إجراءات انضمت سلزيا العليا (جنوب سلزيا) إلى بولنده بما فيها من مناجم فحم عالية الإنتاج، بينما احتفظت ألمانيا بثلثى سلزيا. وبصفة عامة كانت مكاسب بولندا على حساب ألمانيا تضر بالأخيرة ضررًا بالغًا فلا غرو أن كانت المنازعات بين ألمانيا وبولنده هى السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الثانية، وحصلت تشيكوسلوفاكيا – الدولة الجديدة – من ألمانيا على منطقة صغيرة قرب تروبو. وكان ميناء مميل – الألمانى السكان – عرضة لمطالبات ليتوانيه شديدة حتى لقد نفذ الليتوانيون – الذين يعتبرون مميل منفذًا لدولتهم الجديدة – خطة للاستيلاء عليه عنوة فى ١٩٢٣، وحتى لا تتسع المشكلة قرر الحلفاء وضع نظام دولى (المميل). كان واحدًا من النظم المعقدة التى ظهرت فى بعض المدن المهمة بعد الحرب العالمية الأولى.

أما فيما يتعلق بالمستعمرات، فقد جردت ألمانيا منها. واقتسمتها فرنسا وبريطانيا بصفة أساسية وشاركت فى الأسلاب – ولكن بدرجات أقل – كل من بلجيكا واتحاد جنوب أفريقية واستراليا ونيوزيلنده واليابان على النحو التالى:

١–اقتسمت فرنسا وبريطانيا الكاميرون.

٢–حصلت بريطانيا على الانتداب على تنجانيقا وتوجولاند.

٣–تولى اتحاد جنوب أفريقية الانتداب على جنوب أفريقية.

٤–حصلت اليابان على جزر المحيط الهادى الواقعة تحت السيطرة الألمانية وهى جزر مارشال وكارولينا وماريان، وورثت المناطق الألمانية فى الصين (كياو – تشاو فى شبه جزيرة شانتونج).

٥–وورثت استراليا منطقة غينيه الجديدة بجزرها. وأنتدبت نيوزيلنده على جزر ساموا.

٦–سحبت من ألمانيا كافة الامتيازات التى كانت لها فى المغرب والصين وسيام وأفريقية الإستوائية.

٧–نزع سلاح قناة كييل وتقرر حيادها.

وحيث أن الضمان الحقيقى – بالنسبة لدول الحلفاء لاستمرار تنفيذ هذه الشروط هو منع ألمانيا من معاودة الانتقام – والإبقاء عليها ضعيفة من الناحية العسكرية فرضت على ألمانيا ما يلى:

١– ألا يزيد تعداد جيشها عن مائة ألف مقاتل يجمعون بالتطوع حيث أن التجنيد الإجبارى أصبح محرمًا على ألمانيا.

٢– ألا تستخدم القوات المسلحة الألمانية الدبابات أو الطائرات الحربية.

٣- تسليم أسطولها الحربى وألا يزيد فى المستقبل عن ست قطع لا تزيد حمولتها عن عشرة آلاف طن، وإلى جانبها عدد محدود من القطع الصغيرة الحربية.

٤- تدمير القاعدة البحرية الألمانية فى هليجولاند وبذلك تكون بريطانيا قد ضمنت عدم قدرة البحرية الألمانية على استعادة قوتها.

وفرضت على ألمانيا تعويضات غير محدودة تدفع لدول الحلفاء عما أصابها من تخريب وخسائر تبعة كل هذا على ألمانيا، وحتى ترغم ألمانيا على دفع هذه التعويضات تقرر احتلال أراضى الراين لحين تسديدها.

وكانت مشكلة التعويضات واحدة من أعقد ما جادل فيه الكبار الثلاث كانت فرنسا مسرفة فى مطالبها وكانت بريطانيا — رغم اعتدال لويد جورج — تطالب بالحصول على قدر كبير من التعويضات، وكان ويلسون يرى عدم شرعية هذا الإسراف فى المطالبة بالتعويضات عن الخسائر المدنية والعسكرية على السواء.

وبلغ التهور فى المطالبة عندما وضع بعض خبراء المال تقريرًا طالبوا فيه ألمانيا بدفع ٢٤ ألف مليون جنيه استرلينى مؤكدين قدرتها على ذلك، ورد الاقتصادى المالى الكبير البريطانى (كينز) بأن قدرات ألمانيا لا تتعدى ألفى مليون فقط. وأدرك كل من لويد جورج وويلسون أنه لابد من إبعاد قضية التعويضات عن تأثير الرأى العام المتطرف فى كل من فرنسا وبريطانيا. ونجح فى إحالة الموضوع إلى لجنه، وفهم الرأى العام أن وراء هذه اللجنة جهودًا لزيادة قيمة التعويضات بينما كان ويلسون ولويد جورج يهدفان إلى إنقاصها. وعلى أى حال فقدت ألمانيا الكثير من قدرتها العسكرية ومنعت من تطويرها، وفقدت عشر سكانها وجانبًا كبيرًا من مناجم الفحم والحديد، وأصبحت مدينة للحلفاء بتعويضات ضخمة.

كانت الدعوة إلى استقلال القوميات تعني تفكك إمبراطورية النمسا والمجر تفككًا كبيرًا. وكأن أول مظهر له هو انفصال النمسا عن المجر. ثم ثورة كل قومية وعملها على الاستقلال بنفسها. فكان أن ظهرت يوغسلافيا التى أصبحت مؤلفة جغرافيًا من الصرب والبوسنه والهرسك ودالماشيا والجبل الأسود وكرواتيا حتى أعالى نهرى الساف والدواف، وعنصريًا كانت تتكون من ثلاث عناصر: الصرب والكروات والسلاف. والأخيران كاثوليكيان بينما الصرب أرثوذكسية.

وظهرت تشكوسلوفاكيا وتعدادها ١٣ مليون بسلخ بوهيميا ومورافيا وسليزيا النمساوية وأجزاء من النمسا السفلى، ولكنها لم تكن دولة متجانسة العنصر وإنما كانت تضم أقليات عديدة وهى ٣ مليون نسمة يتكلمون الألمانية، خاصة فى السوديت الألمانى و ٧٠٠ ألف نسمة من المجريين. وإلى جانب ذلك مئات الألوف من البولنديين.

واتسعت رومانيا على حساب جيرانها المجر وروسيا والنمسا. فاستولت من الأولى على ترانسلفانيا ومن الثانية على بسارابيا ومن الأخيرة على بوكوفينا.

وتنازلت النمسا لإيطاليا عن تريستا وإيستريا والتيرول وممر برنر الاستراتيجيى بما فيه من ألمان فى الأديج الأعلى تطالب إيطاليا بميناء (فيومى) الذى احتله الشاعر الإيطالى دانونزيو عنوة حتى سويت المشكلة مع يوغسلافيا. وهكذا فقدت النمسا تلك المناطق الشاسعة جدًا من إمبراطوريتها فى معاهدة سان جرمان، وكانت خسائر المجر بمقتضى معاهدة تريانون أقل فداحة وإن اشتركت مع النمسا فى أنهما أصبحتا دولتين لا منافذ لهما على البحار، أما الدولة الوحيدة المهزومة التى لم تفقد الكثير من أراضيها فهى بلغاريا، حيث أعيدت إلى حدودها التى كانت عليها فى ١٩١٤، على اعتبار أنها خسرت الكثير من الأراضى فى حرب البلقان الثانية (١٩١٣). وكانت الخسارة الرئيسية

التي منيت بها مركزة في تنازلها عن تراقيا الغربية لليونان. وأكدت معاهدة نايي هذه التسويات مع بلغاريا (٢٧ نوفمبر ١٩١٩).

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد أصبحت قاصرة على تركيا بعد أن احتلت الجيوش البريطانية العراق حتى الموصل والشام حتى حلب. وسيطرت قوات الحلفاء على المضايق وأعادت إغلاقها في وجه السفن الحربية على نسق ما طبق منذ ١٨٤١، وفرضت على تركيا معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) وبمقتضاها تنازلت لليونان على ما لديها في أوروبا فيما عدا القسطنطينية ومنطقة صغيرة على طول المضايق وبحر مرمرة بعمق يحول دون إطلالة يونانية على المضايق، واستقلت أرمينية، وتولت اليونان — التي حصلت من تركيا على جزر بحر ايجه — أمر الإشراف على منطقة أزمير وما حولها ووضعت منطقة أضاليا تحت الإشراف الإيطالي كما وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزي.

على أن الذي وقع معاهدة سيفر هو السلطان العثماني، بينما كانت الوطنية التركية بزعامة مصطفى كمال (أتاتورك) ترفضها وترفض التفريط عن أي شبر من الأراضي التركية، وأعاد تكوين القوات التركية، وقاتل اليونانيين حتى دحرهم، وظل وراء الفرنسيين والإيطاليين حتى تخلوا عما كان تحت يدهم من أرض تركية، وأخيرًا توصلا إلى معاهدة لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٣) التي أنهت حالة الحرب مع تركيا وحددت الحدود مع بلغاريا واليونان، ودعت إلى تحديد للحدود التركية — العراقية، والتركية ، السورية — وأعلنت تركيا تنازلها عن سيادتها على البلاد العربية ، ووافق الحلفاء من جانبهم على إلغاء الامتيازات الأجنبية. وفي نفس اليوم وقع (ميثاق المضايق) الذي يضمن حرية المرور فيها زمن السلم والحرب ونظم مرور القوات والبحرية المسلحة زمن السلم والحرب،

وتألفت لجنة دولية للإشراف على سير العمل فى المضايق طبقًا للميثاق الخاص بها.

وبمقتضى هذه المعاهدة أيضًا جلت القوات الفرنسية والبريطانية والإيطالية عن الأراضى التى كانت تحتلها من الجمهوريات التركية الجديدة.

إلى أى مدى كانت هذه التوصيات عادلة؟ لقد دار جدل طويل حول هذه المسألة، وتضاربت الأحكام، وسيطرت هذه المناقشات فى كثير من الأحيان الأهداف القومية الخاصة. وبصفة عامة يمكن أن نضع الملاحظات التالية عن هذه التسويات:

١- اعتبر الألمان أن الحلفاء غرروا بهم، فما أن ألقوا السلاح حتى ظهر لهم أن الحلفاء سيعاملونها معاملة المغلوب، وهذا ما حدث فعلاً بل أشد منه حيث كان من المتعارف عليه أن يتفاوض المنتصر مع المهزوم ويعرض عليه شروطه ويناقشه فيها أما الحلفاء فقد تدارسوا ما يجب أن يفرض على ألمانيا ثم طلبوا منهم توقيع معاهدة فرساى ومن هنا وصف الألمان هذا العمل بأن المعاهدة عليهم إملاء من جانب الحلفاء واتخذوا من ذلك ذريعة للتخلص من قيودها كلما أمكنهم ذلك. وبذلك يكون هذا العمل مسئولاً إلى حد كبير عن تعميق الرغبة فى الانتقام لدى الألمان. فقد قلمت معاهدة فرساى من أظافر ألمانيا، ووضعت بذور الحرب العالمية الثانية مثلما وضعت معاهدة فرانكفورت (١٨٧١) بذور الحرب العالمية الأولى. فحق تقرير المصير الذى كان أمل الألمان فى استمرار وحدة بلادهم لم يطبق عليهم وتوزع كثير من الألمان تحت حكم تشكوسلوفاكيا وبولنده وفرنسا، وشطرت ألمانيا شطرين (بروسيا الشرقية - ألمانيا) وكانت محاولات استعادة هؤلاء تعنى وقوع حرب عالمية جديدة.

٢- لم تتبع الدول المنتصرة أية خطة لنزع السلاح الدولى، وبالتالى كان ذلك المشروع - فى نظر الألمان - مجرد خدعة لتجريد ألمانيا من السلاح دون نزع سلاح بقية الدول الكبرى.

٣- كانت روسيا غائبة عن هذه المعاهدات ومن ثم لم تراع مصالحها عند وضعها بل كانت هذه المعاهدات تميل إلى ما يضر روسيا أكثر مما يفيدها. وكان من أسباب ذلك انتشار الحكم الاشتراكى فى روسيا بسرعة، ومخاوف الدول الرأسمالية من النظرية الشيوعية ولتعاونها عسكريًا ضد الحكم الاشتراكى اللينينى هناك.

٤- بدت الولايات المتحدة وكأنها تدافع عن الدول التى وضع لها نظام الانتداب وبعثت بلجنة كنج كراين إلى الشرق العربى، وعادت هذه اللجنة لتضع توصيات رائعة، ولكن ضربت فرنسا وبريطانيا بها عرض الحائط، وعندما حصلت الولايات المتحدة على نصيب من بترول (الموصل) فى شمال العراق، أوصدت بابها دون الحركات الوطنية التحررية فى المنطقة.

وعلى أى حال وضعت هذه المعاهدات باسم استقرار العالم، وكان ويلسون يرى أنه لابد من منظمة دولية تعمل على استمرار هذا السلام وكانت هذه هى المهمة الأولى لعصبة الأمم.

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر